تيسير التفسير

لقطب الأئمّة

الشيخ الحاج محمد بن يوسف أطفيّش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء الخامس)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد وبازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى طلاي ومحمد بياعمي



﴿ قل نزّلَه روح القدسِ من ربّك بالحقّ ليثبتَ الذينَ ءامنُوا وهدًى وبشرَى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل ءاية ١٠٢)



تفسير سورة الأعراف وآياتها ٢٠٦

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

نزول القرآن من الله والأمر باتباعه

﴿بسْمِ ا للهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمّصَ﴾ من الحروف المقطّعة أوائل السور، استأثر ا لله ﷻ بعلمها، أو اسم السورة، أو حروف من أسماء ا لله، وعن ابن عبَّاس: «أنا ا لله أفضل»، وعنه: «أنا ا لله أعلم»، ﴿كِتَابٌ﴾ هذا كتاب، ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من ا لله يامحمَّد، والماضي لتحقُّقِ الوقوع، والبناء للمفعول للعلم بالفاعل وللبناء على تحقُّق أنّه من ا لله ولو كذّبوه، والمراد: ما نزل كلّه أو القرآن كلُّه؛ لأنَّ نزول بعضه شروع في نزوله، فهو كالشيء المدلّى وصل بعضه ويصل باقيه بعد، كما أنّه إذا جعلناه اسما للسورة فقد وصفها بالنزول وما نزل إلاّ أوّلها، وجملة «أُنزِلَ» نعت «كِتَابٌ»، وإذا جُعل اسما للسورة أو للقرآن فهو مبتدأ خبره «كِتَابٌ»، أو هو حروف مراد بها التنبيه على تلقّي ما يوحى إليه من جنس الحروف، أو هذا المتحدَّى به مؤلّف من جنس هذه الحروف، أو المؤلّف من جنس هذه الحروف كذا، و«كِتَابٌ» على هذا خبر لمحذوف أي وهذا المؤلّف كتاب أنزل إليك.

﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ شكٌّ ﴿مِّنْهُ﴾ أي بسببه نعت «حَرَجٌ»، أو متعلّق به، والحرج: الضيق وعبَّر به هنا عن ملزومه وسببه، فإنَّ الضيق يلزم الشكَّ فالشكُّ ملزومه، ويتسبَّب عن الشكِّ فالشكُّ سببه، وذلك أنَّ قلبه ﷺ لا يضيق بإنزال الكتاب أو بنفس الكتاب، أو بكونه من ا لله لأنَّه مصدِّق بذلك مذعن له منشرح له، وإنَّما ضاق بخوف أن لا يقبله الناس وخوف أن لا يقوم بحقِّه، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعضَ مَا يُوحىٰٓ إِلَيكَ وضَآئِقٌۢ به صَدْرُكَ أَن يَّقولوا لولآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ اَو جَآءَ معهُ مَلَكٌ﴾(سورة هود: ١٢). أو جرت الآية مجرى قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ من المُمترينَ﴾(سورة الأنعام: ٣٥و١٤٤) والمنهي [عنه] الحرج لأنَّه فاعل «يَكُن» أو اسمه، و«يَكُن» دخل عليه النهي فهو من نهي الغائب، ولو قيل لا تحرج لكان نهيا للمخاطَب، والمراد: ذمٌّ على عدم الحرج، أو ازدَدْ من منافاة الحرج، أو اللفظ له والمراد أمَّته، وفي نهي الحرج مبالغة بالتعبير عن عدم كونه في حرج بعدم الحرج في قلبه، فذلك نهي عمَّا يورث الاتِّصاف بأنَّه ﷺ حَرِجٌ نهيًا عن المسبب بالنهي عن السبب بطريق البرهان، وإيضاح ذلك أنَّ عدم كون الحرج في صدره من لوازم عدم كونه متعرِّضا للحرج، فذُكِرَ اللازمُ وأريد به الملزوم وهو معنى الكناية، وهي أبلغ من الحقيقة، لأنَّ فيها إثبات الشيء ببيِّنة، وفي ذلك كناية أخرى وهي أنَّه توسَّل بالنهي عن الحرج إلى النهي عن الشكِّ، لأنَّ الشاكَّ ضيِّق الصدر، فالحرج من لوازم الشكِّ، فذكر اللازم وأريد الملزوم.

وكذا الأمَّة، إلاَّ أنَّ حرجهم الشكُّ في أنَّه من ا لله ﷻ وعطف «لاَ يَكن...» وهو طلب على قوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيكَ﴾ وهو إخبار لأنَّ معنى ﴿أُنزِلَ إِلَيكَ﴾ تيقَّن بإنزاله فهو أمر معنًى، أو معنى ﴿لاَ يَكن...﴾: لا ينبغي أن يكون حرج، فهو إخبار معنىً، أو يقدَّر: إذا رسخ في قلبك فضل رسوخ نزوله إليك

فلا يكن في صدرك حرج منه، ويجوز تقدير: «بَلِّغْه فلا يكن...».

و قدَّم ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ على قوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى﴾ أي تذكيرا ﴿لِلْمُومِنِينَ﴾ مع أنَّ «لِتُنذِرَ بِهِ...» عِلَّة لـ«أُنزِلَ» متعلّق به تنبيها على أنَّ الأَلْيَقَ تقديم إزالة الحرج عن الإنذار والإعراض عن تكذيبهم إيَّاه، لأَنَّهُ من الله، فالله ناصره فكيف يخاف؟ وَقِيلَ: متعلّقُ الخبر هكذا: «لا يكن الحرج مستقرًّا في صدرك لأجل النذار»، وكأنّه قيل: لا يكن لأجل الإنذار في صدرك حرج، ومعناه صحيح لا فاسد كما قيل، وَقِيلَ: متعلّقة بـ«حَرَجٌ» كأنّه قيل: حرج صدرك للإنذار لا يجوز وَ«ذِكْرَى» معطوف على مصدر «تنذر» أي لإنذارك وتذكيرا، أو معطوف على «كِتَابٌ» والأوَّل أولى، ولا حاجة إلى تقدير «هو ذكرى»، والمعنى: لتنذر به مَن يتأهل للإنذار وهم المكلّفون، وللتذكير لمن تقدَّم إيمانه، أو ولتذكّر تذكيرا، أو المراد: «أَلَمَّصَ كِتَابٌ اُنزِلَ إِلَيْكَ وذكرى».

ولَمَّا أمر الله تعالى رسول ﷺ بالتبليغ أمر أُمَّته بالإذعان والقبول فقال: ﴿اتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن وسائر الوحي، وسنَّته القَولِيَّة والفعلية والتقريريَّة واجتهاده إن قلنا به، لأنَّ الله يصدِّقه فيه ويجعله حجَّة، وما لم يرضه بيَّنه له فيتركه، والإنزال إلى الرَّسول، وأسنده الى المكلَّفين مطلقا لأنَّهم كلّفوا به، وفي إسناده إليهم توكيد للاتّباع ووجوبه، وأسند سابقا إليه ﷺ على الأصل، إذ تلقّى النزول، ولتأكيد الإنذار وترك الضيق؛ وإن أوقعنا «مَا» على الكتاب فقط فذلك وضع للظاهر موضع المضمر.

﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ﴾ حال من أولياء، أو متعلّق بـ«تَتَّبِعُوا» أي من دون ربّكم، وهذا أنسب بقوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ من الجنّ والإنس باتّباعهم في

المعصية، ويجوز عود الهاء إلى «ما أنزل»، أي ولا تتّبعوا من دون دين الله دين أولياء، ويضعف عوده إلى الاتّباع، أي ولا تتّبعوا أولياء اتباعا كائنا من دون اتّباع ما أنزل.

﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ «ما» صلة لتأكيد القلّة، أي تذكّرون زمانا قليلا فقط، أو تذكّرًا قليلا فقط، فذلك حصر بالتقديم، أو مَصدَريَّة والمصدر مبتدأ، و«قليلا» ظرف زمان خبر، قدّم للحصر أي في زمان قليلا تَذَكُّرُكُمْ، ويضعف كون ما نافية، أي ما تذكّرون زمانا قليلا، أو تذكرا قليلا فكيف التذكّر الكثير؟ والزمان الكثير؟

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا اَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

عاقبة تكذيب الرسل في الدنيا والآخرة

&وأوعدهم على ترك الاتّباع بقوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ اَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي كثير هم أهل قرية أهلكناهم فجاءهم بأسنا، حذف المضاف فعاد الضمير للقرية، أو القرية مجاز عن أهلها للحلول أو موضوع لهم أيضا كما وضع لها، والمراد أردنا إهلاكها والإرادة التنجيزية هنا القصد، وإلاّ فمجيء البأس مقارن لها لا متعقّب لها ولا بعدها، وليس المراد الإرادة الأزلية، وإلاّ لزم قدم شيء غيره تعالى وهو البأس المتعقّب لها، وإن تأخّر كان العطف بثمَّ لا

بالفاء والمجيء بعد الإرادة التنجيزية وبعد الخذلان، والعطف في قوله ﴿وَكَم...﴾ عطف اسمية على فعلية إن جعلنا (أَهْلَكْنَا) خبرا لِـ(كَم)، وإن نصبنا (كَم) على الاشتغال على أنَّ ضمير النصب عائد إلى كم لأنّها بمعنى القرى ففعلية على فعلية، والفاء لترتيب الذكر أو بمعنى الواو، أو لتفصيل المجمل أو أريد بإهلاك القرية إخرابها فلا حذف.

والبأس العذاب وعبارة بعض الفاء تفسيرية نحو توضأ فغسل وجهه، إن لم يؤوَّل بنحو الإرادة، وقيل حكمنا بإهلاكها فجاءها بأسنا، وقيل أهلكناها بدون استئصال فجاءها بأسنا باستئصال، وقيل مجيء البأس ظهوره، وقيل خذلناها فجاءها بأسنا، والمراد بالخذلان خلق الفسق فيها، أو يقدَّر خلق الفسق فيها فجاءها، والإهلاك بمعنى الخذلان استعارة أو من مجاز التسبب أو اللزوم.

﴿بَيَاتًا﴾ مصدر بمعنى بائتين أو ذوي بيات، وهو حال أو مفعول مطلق لحال محذوف أي بائتين بياتا، ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ عطف الحال التي هي جملة على حال مفردة بأو والمعطوف على الحال حال بلا واوِ حالٍ، كما تقول: جاء زيد فرحا ومنصورا، فكأنّه قد ربطت بواو الحال، كما هو الغالب في الجملة أن تكون بواو الحال، أو مع الضمير لا الضمير، فلا حاجة إلى دعوى أنَّ الأصل أو وهم قائلون، حذفت واو الحال لئلا يجتمع واوان، أو صورتا عاطفين، أو وَواو الحال إذ أصل العطف وكأنه قيل جاءها بأسنا بائتين ليلا كقوم لوط، أو قائلين كقوم شعيب، نائمين أو مستريحين فيه بلا نوم، وخصَّ الوقتين لأنّهما وقت أمن وراحة، فالعذاب فيهما أفظع لغفلتهم فيهما.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ أي دعاءهم الله أو تضرُّعهم إليه، حكى الخليل عن العرب: «اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين»، أي دعائهم قال الله تعالى: ﴿دَعْوَاهُم فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ﴾ (سورة يونس: ١٠) وقال

ا لله تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعوَاهُم حتّى جعلنـاهُم حصيـداً خـامدينَ﴾ (سـورة الأنبياء: ١٥) وتقول العرب: «دعواهم يالكعب» أي استغاثتهم، ففـي الآيـة أنّهـم يستغيثون من ا لله بتوسيط الأصنام بينهـم وبيْـن ا لله ﷻ، أو دعواهـم ادّعـاؤهـم كما هو المشهور، أو هو في ذلك كلّه بالمعنى المصدريِّ، لأنّه خبر لِكـان واسمهـا مصدر من قوله: ﴿إذ جآءَهم بأسُنا﴾، ﴿إلاَّ أن قَالُواْ﴾ طمعا في الخلاص ﴿إنّا كُنّا ظَالِمِينَ﴾ لا كما قيل إنّه في الوجه الأخير بمعنى مفعول، والمعنى ما كـان ادّعاؤهم إلاّ اعترافهم بـأنّهم ظـالمون في ديـانتهم، وهـو اعـتراف تحسُّرٍ حـين لا ينفع.

(بلاغة) وفي تفسيره بالدعاء ما يشبه تـأكيد الذمّ بما يشبه المـدح مـن عكس قوله:

ولاعيب فيهم غير أنَّ سيوفهم [بهنَّ فلول من قراع الكتائب]

إذ جعل اعترافهم بالظلم دعاء.

(نحو) وإنّما قلت: «دعواهم» خبر مقدَّم لأنَّ المصـدر الـذي ينسـبك من الفعل وحرف المصدر أعرف، إذا كان بعد التأويل بـه مضـاف لمعرفـة وهـو بمنزلة العلم وبمنزلة الضمـير، والضمـير لا يوصـف، فكونـه اسمـا أولى مـن كونـه خبرا، ويدلُّ لذلك قوله ﴿فَمَا كَانَ﴾ ولو كـان دعـوى اسمـا، لَكَـانَ الأصـلُ أن يقال كانت بالتاء ولو حيث جاز التذكير كعدم تحقُّق التأنيث وكـالفصل، وقـد ورد في غير موضع من القرآن نصب المتقدّم وهو أليـق بمقـام الحصـر كمـا هنـا، وأجاز بعضٌ كون ﴿دَعْوَى﴾ اسما و﴿أَن قَالُواْ﴾ خبرا.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الْذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ عطف على قولـه ﴿كِتَـابٌ أُنـزِلَ إِلَيْـكَ﴾ عطف إنشاء على إخبار، وإنّما كان ﴿لَنَسْأَلَنَّ﴾ إنشاء باعتبار القسَم لأنَّ المعنـى

فوا الله لنسألنَّ، أو على قوله ﴿لاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ...﴾ عطف إنشاء على إنشاء وهذا أولى، وكأنّه قيل لاتضق لأنّا سنسألهم.

(نحو) والوجهان على أنَّ الأصل أرسلت بالبناء للمفعول وفتح التاء، وحذف التاء وناب الجار والمجرور، ويجوز أن يكون النائب ضميرا مستترا عائدا إلى رسول ا للهﷺ، ولم يبرز الضمير مع جريان الصلة على غير من هي له لظهور المعنى، ويجوز العطف على ﴿جَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أو ﴿قَالُواْ﴾ وكان العطف بالفاء لترتيب الأمور الأُخروية على الدُنيوية، أو رابطة لجواب شرط مقدَّر، أي إذا كان ذلك فلنسألنَّ، وقدَّر بعضهم لنحشرنّهم فلنسألنَّ الذين، والأصل فلنسألنّهم، وَوضع الظاهر موضع المضمر، وهذا في عذاب الآخرة وما قبله في الدنيا، و﴿الذينَ﴾ واقع على هذه الأمَّة أي ولنسألنَّ الأمَّة الذين أرسلناك إليهم هل اتّبعوك؟ أو على الأمم، أي ولنسألنَّ الأمم الذين أرسلنا إليهم المرسلين هل اتّبعوهم؟ وهذا أعمُّ فائدة وأنسب بقوله:

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ هل بلّغوا إلى أممهم؟ أمَّا سؤال الأمم فسؤال توبيخ وتقريع لهم على كفرهم، وأمَّا قوله تعالى ﴿وَلاَ يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾(سورة القصص: ٧٨) ﴿وَيَومَئِذٍ لاَّ يُسئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ ولاَ جَانٌّ﴾(سورة الرحمن: ١٨) فسؤال استعلام نفاه ا لله لعلمه بهم وبذنوبهم، أو [كان] إثبات السؤال التوبيخي في وقت ونفيه في وقت آخر، ونفيه في وقت العقاب وإثباته في وقت قبل ذلك، وقيل: لا يُسألون عن الأعمال بل يُسئلون عمَّا دعاهم إليها، وقيل معناه لا يعاقب بالذنب غير فاعله، وقيل ﴿الْذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الأنبياء و﴿الْمُرسَلِينَ﴾ الملائكة، يُسألون هل بلّغتم الأنبياء؟ وقيل: السؤال المنفي السؤال عن الذنب والمثبت مطلق السؤال عن التبليغ، ويعارض بأنَّ عدم

قبول الرسالة ذنب، ويجاب بأنَّ سؤال هل بلَّغوكم أو ما الصارف لكم عن القبول غير نفس السؤال، هل أذنبتم وما ذنبكم وكم هو؟ ولمَّا اعترفوا بالظلم سئِلوا عن سبب هذا الظلم.

وسؤال الرسل تقريع لأممهم وزيادة خزي لهم بكونهم يفتضحون بالشهادة للرسل بالتبليغ، وإظهار لشرفهم بالجدِّ في التبليغ، وإكرامٌ، ويناسب ما مرَّ في الآية من سؤال الأمم هل قبلوا؟ قوله تعالى: ﴿يَومَ يَجْمَعُ ا للهُ الرُّسُلَ﴾(سورة المائدة: ١١١) الآية.

وقيل المراد في الآية ما شمل ذلك، وما في الحديث والأثر من سؤال المرأة عن مال زوجها وحقّه، والعبد عن مال سيِّده وحقّه، وعكس ذلك، والإنسان فيمَ أبلى قوَّته؟ وفيم أنفق ماله؟ وهل عمل بما علم؟ وفيمَ أفنى عمره؟

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ جميع أحوالهم بكتابهم ﴿عَلَيْهِم﴾ على الأمم المرسل إليهم والرسل من اتّباع وإنكار وتبليغ، أو على الرسل من تبليغ حين دهشوا من القول حتّى قالوا: لا علم لنا، ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي ثابتين مع علم بما في قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، من تبليغ وقبول وردّ، أو لنقصَّنَّ عليهم بمعلومنا أي لنخبرنّهم به، وعلى هذا ﴿بعِلْمٍ﴾ مصدر بمعنى مفعول، ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم، فلا يخفى عنّا شيء من أحوالهم أحوال الرسل وأممهم.

(أصول الدين) ﴿وَالْوَزْنُ﴾ القضاء والعدل عند مجاهد والضحَّاك والأعمش، وذلك تصوير للمعقول بصورة المحسوس للبيان، وعلى هذا كثير من متأخري قومنا، وكذلك نحمل ما ورد في أحاديث من ميزان العمود والكفَّات وطيش الكفّة وثقلها على رجحان الحسنات على السيِّئات وبالعكس، دون

الوزن للمعقول[1] وتحتمل تلك الأحاديث الوضع، **وذلك مذهبنا ومذهب المعتزلة**، وأجاز بعض المعتزلة كالعلاّف وبشر بن المعتمر ما ذكره قومنا من وزن كتب الأعمال، أو تجسيم الأعراض، لكن لم يقل بأنّه يقع، بل من الجائز لكن لا يقع،وهو أيضا باطل لأنَّ الأعراض لا توصف بالثقل والخفّة ولا تبقى أكثر من حال، ولا دليل على أنَّ ا لله يعيدها والظاهر أنّه لا تمكن إعادتها، **والمقصود التمييز وا لله يميِّزها بعلمه.**

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ نسأل المرسلين والأمم، ونقصُّ عليهم، وإذ للاستقبال مجازا، أو إذ سألناهم وقصصنا عليهم، فإذ للماضي تنزيلا للمستقبل منزلته لتحقُّق وقوعه، والظرف متعلّق بالوزن وعمل المصدر المقرون بالـ في الظرف أو في المجرور صحيح، لا ضعف فيه ولا مانع له، والوزن مبتدأٌ خبره قوله تعالى ﴿الْحَقُّ﴾ وهذا أولى من أن تقول الخبر ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿الحَقُّ﴾ نعتُ الوزن مفصول بالخبر، وهو أجنبيٌّ لأنَّ عامل الخبر المبتدأ وعامل النعت ليس المبتدأ بل عامله الابتداء العامل في المبتدأ.

والمعنى على أنَّ الحقَّ نعت والخبر يومئذ أنَّ الوزن الحقُّ يكون يومئذ، واختاره بعض ويدلُّ له: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطِ لِيَوْمِ القِيَّامَةِ﴾ أو الخبر يوم والحقُّ خبر لمحذوف كأنّه قيل: ما ذلك الوزن؟ فقيل: هو الحقُّ.

وإذا وقع الوزن ﴿فَمَن ثَقُلَتْ﴾ لكثرتها أو لعظمها وتجويدها جدًّا ولو قلّتْ، وذلك لعدم إصراره على سيِّئاته، لأنَّ سيِّئاته ولو كانت أكثر من حسناته فهنَّ شبيهات بالشيء الخفيف، ومن أصرَّ على سيِّئاته فإنّها الثقيلة، وتجعل حسناته كالعدم، وكالشيء الخفيف، ﴿مَوَازِينُهُ,﴾ جمع موزون أي أعماله

١ - في نسخة (أ) لعلّه المحسوس.

الموزونات، ولا يطلق الثقل في القرآن عند الأعمال الاّ على الصالحات، لأنّها المقصودة بالذات في الوزن، وذلك عند عدم ذكر السيِّئات، وعند ذكرها كما هنا، وكذا الخفَّة لا تطلق إلاّ في الصَّالحات.

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الناجون الفائزون وأل لعهد المفلح عنده ﷻ هكذا وعهد حقيقته، وكذلك الموصول في قوله ﴿فَأُوْلَئِكَ الذِينَ خَسِرُوا﴾، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي موزوناته أي أعماله الصالحات لقلّتها، وقد ترك بعض الواجبات أو للإصرار على سيِّئة ولو كثرت صالحاته وجوَّدت.

ويجوز جعل موازين في الموضعين جمع ميزان الكفَّات والعمد تمثيلا لا حقيقة، مثل لكلِّ واحد ميزان أو جمعها باعتبار الموزونات أو باعتبار عمل الجسد، وعمل اللسان، وعمل القلب، كلُّ ذلك مجاز لا حقيقة.

﴿فَأُوْلَئِكَ الذِّينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم﴾ لم ينتفعوا بأنفسهم وأسلموها إلى النار، بتضييع الإسلام الذي قرن بهم في خلقتهم، وإبداله بالكفر.

وقال قومنا وأهل عُمان من أصحابنا رحمهم الله: الثقل والخفَّة بكثرة الحسنات وقلّتها، وإن تساوت الحسنات والسيِّئات فمن أصحاب الأعراف، ثمَّ إن كثرت وعليه تبعات للخلق أخذوا منها بقدر حقوقهم، فإن فنيت ولا سيِّئة له في حقِّ الله أو بقي ما يقابل سيِّئاته في حقِّ الله جلَّ وعلا فمن أصحاب الأعراف، وإن زادت تبعات الخلق فقيل يَأخذ من ذنوبهم فيُعذَّب على قدرها وعلى سيِّئاته، روي ذلك في حديث وضعَّفه جمهورنا ﴿لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ (سورة الأنعام: ١٦٤) وأساغه الشيخ يوسف بن إبراهيم رحمه الله.

ويبعث الناس ثلاث فرق: أغنياء بالصالحات، وفقراء منها، وأغنياء بها؛ ثمَّ يصيرون مفاليس بسبب التبعات، قال سفيان الثوري: «لأن تلقى الله بسبعين

ذنبا فيما بينك وبين الله أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد» أي لأنَّ الله غني كريم وابن آدم محتاج في ذلك اليوم إلى حسنة يدفع بها سيِّئة لينجو من النار.

قال بعض: توزن أعمال المشرك التي لا توقُّف لها على الإسلام، وذكر القرطبي أنَّ الصحيح لا يخفّف بها عذابهم كما ورد في حقِّ أبي طالب، وكما ورد في حقِّ أبي لهب إذ أعتق مبشِّرته بولادة رسول الله ﷺ فكان يُسقى في مثل نقرة الإبهم، إلاَّ أنَّ ذلك من رواية قومنا، ولا يصحُّ عندنا، فإنَّ الكفّار تحبط أعمالهم وقد جُوزوُا بها في الدنيا، مثل إحياء بعض العرب كلَّ موءودة قدر عليها، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (سورة الكهف: ١٠٠) فلو صحَّت قصَّة أبي طالب وقصَّة أبي لهب لكان ذلك مخصوصا بهما.

﴿بِمَا كَانُواْ﴾ أي بكونهم متعلّق بخسروا ﴿بِئَايَاتِنَا﴾ متعلّق بقوله ﴿يَظْلِمُونَ﴾ قُدِّم للفاصلة وعدِّي بالياء لتضمُّنه معنى التكذيب كقوله تعالى ﴿وَكَذَّبُوا بِئَايَاتِنَا﴾ (سورة الأعراف: ٣٩) قيل أو معنى الجحد كقوله تعالى: ﴿فَجَحَدُوا بِهَا﴾ (سورةالنمل: ١٤).

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝١٠ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝١٢ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝١٣ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝١٥

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨﴾

كثرة نعم الله على عباده وتكريم البشرية بالسجود لآدم

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ يابني آدم أقدرناكم أو جعلنا لكم مكانا وقرارا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ بالسكنى، والحرث، والغرس، والحفر، والبناء، وسائر التصرُّفات ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أنشأنا لكم، وخلقنا، والمعنى واحد، وصيَّرنا وما قبله أولى.

(لغة) والمعيشة اسم لِما يعاش به أي يحيى به من المطاعم والمشارب، بغير كسب أو بكسب، أو اسم لما يتوصَّل به إلى العيش، ووزنه مفعِلة بكسر العين، نقلت كسرة الياء إلى العين، والياء أصل فصحَّت في الجمع، ولم تقلب همزة، وذلك الرواية الراجحة عن نافع، وروي عنه قلبها همزة شذوذا، لأنَّ العرب قد تشبِّه الأصل بالزائد إذا كان على صورته، كما سمع شذوذا مصائب بالهمزة نصَّ عليه ابن عقيل، وقياسه مصاوب بالواو لأنَّ عين المصيبة وأصاب وصاب واو أصلية، قلبت ياء في مصيبة، وألفًا في أصاب وصاب، وابن عقيل تلميذ أبي حيَّان حجَّة، وقد نصَّ على همزة مصائب شذوذا، فقول بعض المتأخِّرين همز المصائب من المصائب خطأ، ليت شعري كيف يقول المصاوب بالواو مع أنَّه لم يسمع؟ أم يقوله بالياء من عنده بلا قاعدة.

والصحيح أن قراءة معائش بالهمزة شاذة خارجة عن السبعة، وليست عن نافع بل قرأ بها أبو جعفر المدني والأعرج، فإمَّا على الشذوذ وإمَّا على أنَّ الميم أصل والياء زائد، فصحَّ قلبها همزة، ووزنه فعيلة ومعناه التحرُّك الرفيق في

المصالح، و﴿لَكُم﴾ متعلّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾ و﴿فِيهَا﴾ متعلّق به أيضا أو بمحذوف حال من معايش أو ﴿مَعَايِشَ﴾ مفعول أوّل و﴿لَكُم﴾ مفعول ثان، وفيها متعلّق بلكم لنيابته عمَّا يتعلّق به، أو متعلّق بما تعلّق به لكم، وقدِّم لكم بطريق الاعتناء بالمنفعة، والتشويق إلى المتأخر المنفوع به ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون شكرا قليلا، أو زمانا قليلا، وما تأكيد للقلّة، أو في زمان قليل شكركم، وما مصدرية.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ خلقنا أباكم طينا غير مصوّر ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ صوَّرنا أباكم ولـمَّا حذف أبا عاد تعلُّق الخلق والتصوير إلى الكاف في الموضعين، أو نُزِّلَ خلقه وتصويره خلقا لنا وتصويرا لنا، لأنّهَ مبدأ لنا نتفرَّع عليه، وسبب لنا، حتّى إنّه يجوز أن يراد ابتداءنا خلقناكم ثمَّ تصويركم مترتّبين بخلق آدم وتصويره.

أو المراد خلقنا في آدم، وتصويرنا بإخراجنا كالدرِّ يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾(سورة الأعراف: ١٧٢) أو خلقنا لأرواحكم، وتصويرنا لكم كالدرِّ، وقدِّم ذكر التمكين في الأرض مع تأخُّره عن الخلق والتصوير لأنّه نعمة بالذات فائضة، وخلقهم وتصويرهم نعمة بالواسطة، وللإيذان بأنَّ كلاًّ نعمة مستقلّة.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لأَدَمَ﴾ اخضعوا له بالسجود لي إلى جهته، كالسجود إلى الكعبة لله لا لها، وثمَّ لترتيب الزمان، وتراخيه، على ظاهرها لأنَّ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ و﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بمعنى خلقنا أباكم وصوَّرنا أباكم أو أرواحكم، أو بمعنى تصويرنا كالدرِّ، وبعد رجوعنا فيه أمر الملائكة بالسجود.

ويجوز أن يكون المراد خلقناكم في أزمنتكم نُطَفًا وصوَّرناكم في البطون على ظاهره، فتكون ثمَّ لترتيب الإخبار، لأنَّ أمر السجود قبل أزمنتنا، وحكمته تعظيم شأن السجود، وإيذان أنّه أتمُّ نعمة لنا وأكمل إحسانا من خلقنا وتصويرنا.

أو ثمَّ بمعنى الـواو، وأمَّـا ثـمَّ في ﴿صَوَّرْنَـاكُمْ﴾ فعلى ظاهرهـا مـن ترتيـب الزمان وتراخيه، وناسبه أيضا أنَّ التصوير أكمل نعمة من مجرَّد الخلق، ولا حاجة إلى جعلها بمعنى الواو، وإن قلنا: المعنـى خلقنـا أرواحكـم أو نطفكـم في صلـب الآباء أو في بطون الأمَّهات ثمَّ صوَّرناكم في البطون.

ولا يصحُّ مـا قيـل إنَّ الخطـاب لآدم ﷺ تعظيمـا لـه، أو لأنَّـه يتولَّـد منـه الكثير، لأنَّ القرآن لم ينزل على آدم ولم يقل الله ﷻ: قلنـا لآدم لقـد خلقنـاكم ثمَّ صوَّرناكم، والملائكة المأمورون بالسجود لآدم، الملائكة كلُّهم لعمـوم اللفـظ بلا وجود دليل تخصيص، وقيل ملائكة الأرض.

وقيل: إبليس ومن معه، وهم قيل: نوع من الملائكة يتوالدون سمُّـوا ملائكـة وجنًّـا لاستثنائه مـن الجـنِّ، والأصـل فيـه الاتصـال وقولـه تعـالى ﴿كَـانَ مِـنَ الجِنِّ﴾(سورة الكهف: ٤٩) ومن نفى ذلـك جعلـه منقطعـا أو كـالمتَّصل لنشـأته في الملائكة، وعبادة الله معهم وأكثر منهم، وقال: إنَّـه مـن الجـنِّ تحقيقـا ليـس مـن الملائكة المعروفة، ولا نوع منهم يتوالد.

﴿فَسَجَدُواْ﴾ من الظهر الى العصر، أو مائة سنة أو خمسمائة سنة، أوَّل مـن سجد له جبريل ﷺ، ثمَّ ميكائل ثمَّ إسرافيل ثمَّ عزرائيل ثمَّ المقرَّبون ثـمَّ سـائر الملائكة عليهم السلام ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّـاجِدِينَ﴾ لـه؛ هـذه الجملـة مستأنفة لتأكُّد استثنائه من الساجدين، أو حال مؤكِّدة أو جواب سؤال، كأنَّـه قيل: فما حاله؟ فأخبرنا الله أنَّه ﴿لَمْ يَكُـن مِّـنَ السَّـاجِدِينَ﴾ وأنَّ الله ﷻ قـال له: ما منعك من السجود لآدم؟ وأنَّه أجاب بأنِّي خير منه، ومحطُّ السؤال ما بعد قوله ﴿مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ لأنَّ نفي سجوده معلوم من الاستثناء، كمـا تقـول مـن زيد؟ فتجاب بأنَّه رجل صفته كذا، بذكر رجل تمهيدًا لأنَّـك عـالم بأنَّـه رجـل، ومسؤولك عالم بأنَّك عالم بأنَّه رجل.

(لغة) و الاستثناء يفيد نفي الحكم نصًّا **عندي** وهو مذهب الشافعي، قال أبو حنيفة: إشارة أو ضرورة، وعلى كلٍّ حال هو مُؤكّد بقوله ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ والصحيح أنَّ الاستثناء بعد النفي صريح إثبات، وبعد الإثبات صريح نفي، وقيل ذلك كلُّه بطريق الإشارة، وقيل بطريق المفهوم.

﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ**﴾ وفي آية أخرى ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾(سورة ص: ٧٤) وفي أخرى ﴿يا إِبْلِيسُ مَالَكَ أن لا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾(سورة الحجر:٣٢) و لم يذكر التوبيخ في سورة البقرة والإسراء والكهف وطه، **وا لله أعلم بحكمة ذلك كلّه، ولا ندْري**، ولعلّه لَمَّا جمع لعنه ا لله معاصي في معصية واحدة ذكر في آية ما لم يذكر في الأخرى، إيذانا بأنَّ كلَّ واحدة كافية في التوبيخ والضلال.

ولا صلة لتأكيد النفي الذي أفاده لفظ المنع، أي ما منعك هذا المنع القوي الذي جسُرت به من أن تسجد؟ أو ما منعك السجودَ؟ بالنصب، ويدلُّ لزيادتها إسقاطها في سورة ص ﴿وَمَا مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي﴾ ولا يتمُّ ما قيل إنّها لتأكيد ما دخلت عليه على معنى ما منعك أن تحقَّق السجود؟ لأنّها وضعت للنفي فكيف تزاد لتحقيق ثبوت فعل متّصل بها، وكذا البحث في ﴿لِئلاَ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾(سورة الحديد: ٢٨) بل تأَوَّلَهَا تأويلا آخر، وفيها دلالة على أنَّ الموبَّخ عليه ترك السجود لإيراد السجود في صورة ترك السجود، ويجوز إبقاؤها على ظاهرها على تضمين منعك معنى اضطرَّك، وتقدير إلى، أي ما اضطرَّك إلى أن لا تسجد؟ أو ما أوقعك في أن لا تسجد؟ والقول بواسطة مَلَكٍ أو خلق كلاما حيث شاء، وخطاب الكافر غير ممنوع.

(فقه) ﴿**إذ**﴾ يتعلّق بمنع أو بتسجد، ﴿**اَمَرْتُكَ**﴾ ليس هذا دليلا على أنَّ الأمر المجرَّد للوجوب، لأنّه يجوز أن تقول لمن أمرته أمر ندب و لم يفعله ما

منعك من فعله؟ وإنّما الدليل على أنَّ الأمر المجرَّد للوجوب ترتيب العقاب على عدم السجود بعد أمره به، إذ لو لم يكن للوجوب لم يعاقبه، إلاّ إن قال: إن لم تسجد أعاقبك، أو فرضت عليك السجود أو نحو ذلك، وفي الآية أنَّ الأمر للفور إذ لعنه في الحال وقيل الفور من قوله تعالى ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(سورة الحجر: ٢٩) وفيه أنّه قد لا يسلّم أنَّ فاء الجواب تفيد الترتيب والاتّصال مطلقا، ويجاب إنّه تفيده بتوسُّط اسم الشرط الصرفيّ، وقيل الاستدلال إنّما هو بترتُّب اللوم على مخالفة الأمر المطلق، لأنّه قال ﴿إِذَ اَمَرْتُكَ﴾ ولم يقل إذ قلت فقعوا، والبسط في شرحي على شرح مختصر العدل من أصول الفقه[1].

﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جواب معنويٌّ، واللفظي أن يقول لعنه الله منعني كوني خيرا منه، أو نحو ذلك، وكونه خيرا منه ملزوم والامتناع لازم، ويتصوَّر العكس، بمعنى أنّه إذا امتنع لزم أنّه خير على زعمه، إذ لولا أنّه خير في زعمه لم يمتنع، فاستغنى باللازم أو الملزوم عن الجواب اللفظي، وذلك أنَّ قوله ﴿اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ يصلح جوابا لو قال الله ﷻ: أيُّكما خير؟ لكنّه لعنه الله أجاب بالأسلوب الأحمق ضدَّ ما يجيب إنسان آخر بالأسلوب الحكيم، ولا أحكَم كالله سبحانه، وفي جوابه إشارة إلى أنَّ من شأنه الخلق من النار لا يحسن أن يسجد لمن ليس منها فكيف يؤمر؟ والمعتزلة يجاورونه في التحسين والتقبيح العقلين في التكليف.

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ, مِن طِينٍ﴾ تعليل للخيرية معنويٌّ، واللفظي أن يقول لعنه الله: إنّك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار خير من الطين لأنّها

---

١ - كتاب له مخطوط لشرح شرح كتاب مختصر كتاب **العدل والإنصاف** لأبي العباس أحمد الشماخي (ت٩٢٨هـ).

مضيئة، ولقد أخطأ والعياذ با لله منه، فإنَّ فيها طيشا وإفسادا وإحراقا وتفريقا وإهلاكا وترفُّعا واضطرابا، وفي الطين رزانة وثباتا وإنباتا لمنافع الحيوان، ولا شيء ينتفع به لتوسُّط إحراق النار إلاَّ وأصله من الأرض، فبعدم خفَّة آدم وطيشه وبثبوته ورزانته وتواضعه توصَّل للتوبة الموصلة للسعادة، وبطيش إبليس لعنه ا لله وخفَّته توصَّل إلى الشقاوة.

فلا يصحُّ له مدح النار بالخفَّة والترفُّع، وقد مدح ا لله ﷻ الأرض إذا امتنَّ بكونها مهادا وفراشا وبساطا وقرارا وكفاتا للأحياء والأموات، ومعادن وأنهارا، وذكر النار متاعا للمقوين إلاَّ أنَّها تتَّقد بنبات الأرض وحجارتها، وذكرها تذكرة لنار الآخرة وما ذكرها في غير هذا إلاَّ للعقاب، والشرف من ا لله لا بالأصل، ألا ترى النور من ظلمة الزناد؟ والجاهل من العالم؟ والكافر من المؤمن؟ والحي من الميِّت؟ وعكس ذلك.

وليس في الآية ما يدلُّ على أنَّ في آدم جزءا من النار أو في إبليس جزءا من الطين فلا تَهِمْ، وفي جوابه اعتراض على أحكم الحاكمين ﷻ، وقد علم لعنه ا لله تعالى أنَّه مأمور في جملة الملائكة وصرَّح بذلك عن نفسه، وقيل لم يُسَلِّم أنَّه مأمور أخرج نفسه من العموم بالقياس، قال ﷺ: «**أوَّل من قاس برأيه أمر الدين إبليس لعنه ا لله، قال ا لله تعالى له اسجد لآدم فقال أنا خير منه خلقته من طين**»[1] .

(فقه) ولا يخفى أنَّ القياس المحرَّم القياس مع وجود النصِّ المخالف له كفعل إبليس اللعين، والقياس الذي لم يستكمل الشروط، **وإلاَّ فهو واجب**

١ - رواه **أبو نعيم** في الحلية ج٣ ص١٩٧، من حديث النعمان عن أبيه عن جدِّه.

حيث احتيج إليه، ومستحبٌّ حيث لم يحتج استعدادا للعلم لحين يحتاج إليه.

ولا نسلّم أنَّ الأجسام كلَّها من العناصر الأربعة كما شهر أنَّها منها وعلى تسليمه فإنّما ذكر في آدم عليه السلام الجزء الغالب فيه وهو الطين، وفي إبليس الجزء الغالب فيه وهو النار.

﴿قَالَ﴾ الله عز وجل: ﴿فَاهْبِطْ﴾ لمخالفتك، والهبوط النزول من علوٍّ إلى سُفل مطلقا، وقيل مع الهوان كما هو المناسب للآية، وقيل من شرف إلى هوان ﴿مِنْهَا﴾ أي من الجنّة أو من السموات أو السماء، لامتناعك من السجود، معلّلا بالخيرية الباطلية فالفاء سببيّة، وابن عبّاس رضي الله عنه ردَّ الضمير للجنّة، وكانوا فيها، ومن ردَّه للسموات أو السماء اعتبر ما روي أنّه وسوس له في السماء، ولمّا أهبط كان عرشه في البحر المحيط، ويدخل جزائر البحور لا يدخل الأرض إلاّ مستخفيا كهيئة السارق، وقيل: الضمير لصورته المضيئة الحسنة، فصار إلى أقبح صورة والجنّة جنة الآخرة. وسوس إلى آدم من خارجها، وقيل دخل في فم الحيَّة، وقيل جنّة في الأرض على نشز في عدن، وقيل الضمير لزمرة الملائكة، وقيل للأرض فهو في جزائر البحر المحيط لا يجاوزه إلاّ خفية من الملائكة، ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ لأنّه لا ينبغي، أو لا يصحُّ، عبَّر عن نفي اللياقة بنفي الكون مبالغة، فكان التكبُّر في صورة عدم الوقوع، وكأنّه لم يقع لبعد لياقته، ﴿لَكَ﴾ ولا لغيرك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ ولا في غيرها، ولك أن لا تقدِّر محذوفا اقتصارا في النفي على الواقع، كأنّه قيل ذلك التكبُّر لا يليق ولاسيما في الجنّة، والسموات اللاتي هنَّ محلُّ الطاعة والخشوع، ولا في زمرة الملائكة ولا في صورته.

والآية دلّت أنَّ المعتمد في الهبوط التكبُّر لا خصوص العصيان، بخلاف آدم عليه السلام وحواء عليها السلام فلمجرَّد العصيان، وأكّد الهبوط بقوله:

﴿فَاخْرُجْ﴾ من الجنّة والسموات لتكبُّرك، وعلّل الخروج تعليلا جمليا بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الحقيرين لتكبُّرك، وقيل الصاغر الراضي بالذلّ والهوان، قال ﷺ: «**من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبَّر وضعه الله**»[1] وفي الحديث «**يحشر المتكبِّرون في أمثال الذرّ في صورة الرجال، يطأهم الناس بأرجلهم ويساقون إلى سجن في جهنّم يقال له بَوْلَسْ، ويسقون فيها من عصارة أهل النار، طينة الخبال**»[2].

﴿قَالَ أَنظِرْنِي﴾ أمهلني ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي يوم يبعث الناس، علم بالفهم أو بوحي من الله ﷻ إلى الملائكة أنَّ آدم وحواء ينسلان، وطلب الإنظار إلى يوم البعث ليصرف جهده إلى إغواء بني آدم ليفسدوا بي كما فسدت بأبيهم وبهم، في ضمنه [قوله تعالى]: ﴿وَدُّواْ لَو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ وأيضا خصَّ يوم البعث لئلاّ يبقى منهم أحد إلاّ طلبه بالإغواء، ولئلاّ يذوق مرارة الموت فلا يموت، لأنه لا يموت بعد البعث، فيكون حيًّا أبدا فأجابه الله بالإنظار لكن إلى ما قبل وقت البعث.

كما قال الله ﷻ: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ إلى يوم الوقت المعلوم كما في آيتين أخريين وهو وقت نفخة الموت، ويجوز أن يكون قد طلب إنظار

---

١ - أورده **الهندي** في الكنز ج٢ ص١٣٣ رقم ٥٧٣٥. وأورده **أبو نعيم** في الحلية ج٧ ص١٢٩ مع زيادة في آخره، وبلفظ (خفضه) مكان (وضعه) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢ - رواه **الترمذي** في كتاب صفة القيامةباب ٤٧ رقم ٢٤٩٢. ورواه **التبريزي** في كتاب الآداب (٢٠) باب في الغضّ والكبر، الفصل الثاني رقم ٥١١٢(٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه.

العقوبة، أي لا تعاقبني قبل البعث بل في يوم البعث، فيكون قد أجاب ا لله دعاءه كلّه لا بعضه فقط، كمـا في التأويل الأوّل، وفي إنظاره ابتلاء للناس، فيشقى الشقي بمتابعته، ويسعد السعيد بمخالفته، ويبعد أن يكون الإنظار في قوله ﴿إنّـك مِنَ المُنظَرِينَ﴾ الإنظار إلى وقت البعث لكن يموت يوم البعث، فيبعث ا لله الخلق عقب موته، ويبعد دخوله في قوله ﷻ: ﴿إلاَّ مَن شَآءَ ا للهُ﴾(سورة الزمر: ٦٨).

ويروى أنّه إذا طلعت الشمس من مغربها سجد لله، وقـال: ربِّ مرنـي أن أسجد لآدم فيدوم في سجوده، وقوله ذلك حتّى تخرج الدّابة فتقتله، **وا لله أعلـم بصحّة ذلك.**

وفي آية أخرى ﴿مَـالَكَ أَن لاَّ تَكُونَ...﴾ وفي أخـرى ﴿مَـا مَنَعَـكَ أن تَسْجُدَ﴾ فقد جمع مخالفة الأمر ومفارقة الجماعة والتكبُّر وتحقير آدم، ووبِّخ في الآي الثلاث، لا في البقرة والإسراء والكهف وطه، وطلب الإنظار هنا وأجيـب إليه زيادة في عذابه، إذ قد يجاب الكافر إلى دعائه.

فقال ما ذكر ا لله ﷻ عنه بقوله: ﴿**قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي**﴾ الفاء لعطف أقسم على إنّك من المنظرين، ومحطُّ التفريع هو قوله تعالى: ﴿**لأَقْعُـدَنَّ لَهُـمْ صِرَاطَـكَ المُسْتَقِيمَ ثُمَّ لأَتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنَ اَيْمَانِهِمْ وَعَن شَـمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ ومعنى التفريع أنّه بنى علـى إنظـاره قعوده وإتيانـه المذكورين، وانتفاء شكر الأكثر.

والبـاء للقسـم كمـا في قولـه تعـالى (نحو) ﴿فَبِعِزَّتِـكَ لأُغْوِيَنَّهُـمْ﴾، والقـرآن يفسِّـر بعضـه بعضـا، ولـو جعلناهـا سببيَّة لم نجـد لهـا متعلّقـا، إذ لامُ ﴿لأَقْعُدَنَّ﴾ مانعة من تقديم المعمول، فتحتاج الى تقدير متعلّق مثل فبما أغويتـني أجتهد في إغوائهم، وهو دون تقديـر فعل القسَم، وأيضـا ﴿لأَقْعُـدَنَّ﴾ جـواب

قسَم ولا بدَّ، فالقسَم بهذه الباء أولى مـن تقدير قسَـم آخـر، ومـا مصدريـة أي بإغوائك إياي، أقسَم مرَّة بفعل ا لله وهو إغـواؤه ﷻ إيـاه لعنـه ا لله وهـو خلـق الغواية فيه، وأصل اللفظ الفساد، يقال: غوى الفصيل بمعنـى فسـد بطنـه بـاللبن، وهي بمعنى الضلال، ومرَّة بصفة ا لله وهي عزَّته تعالى.

(أصـول الديـن) والمعتزلة يؤوِّلون الإغواء بـإحداث سـبب الغـيِّ أو بالنسـب إلى الغوايـة، وهـو من معـاني أفعـل كمـا ذكرتـه في شـرح لاميـة ابـن مالك[1]، أي نسبتني إلى الغيِّ، ويردُّه ضعف هذا المعنى وكونه خـلاف الأصـل، كما أنَّ تفسيره إحداث سبب الغيِّ خلاف الأصل، وبأنَّ ذلك كلام إبليس غير حجَّة، ودعاهم إلى ذلك الفرارُ من أن يكون ا لله خالقا للأفعال ولاسـيَّما أفعـال المعصيَّة، وقد أقرَّ إبليس لعنه ا لله بأنَّ ا لله ﷻ خلق المعصية ثـمَّ دعـاهم إلى نفـي ذلك، وهذا كما قال قائل:

وكان فتى من جند إبليس فارتقى   به الحال حتَّى صار إبليس من جنده

ونصب الصراط على الظرفية المكانية، ووجهه أنَّه مبهم باعتبـار أجـزاء ديـن ا لله، فإنَّه عدو ا لله يقعد في كلِّ جزءٍ أمكنه، ولو لم نعتبر هذا إبهامـا لم ينصـب على الظرفية، بل نقول نصب شذوذا على نزع الخافض وهو في أو على.

(نحو) وذكـر بعـض شرَّاح كتـاب سـيبويه في قولـه: «كمـا عسـل الطريق الثعلب»[2]، أنَّه يكفـي في الإبهـام النظـر إلى أصـل الوضـع، والطريـق في

---

١ - شرح له مطبوع في عمان **للامية الأفعال** لابن مالك الأندلسي.

٢ - شطر البيت لساعدة بن جؤية وهو هكذا:

لَدْنٌ بهزِّ الكف يَعْسِلُ مَتْنُه   فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطريق الثعلب.

أصل وضعه كلُّ أرض تطرق أي يُمشى عليها، ثمَّ خصَّ بممرِّ السابلة دون الجبال والأوهاد، فالآية من ذلك باعتبار ما ذكره، فإنَّ المراد بالصراط دين الله ﷻ مستعار من طريق الأرض، أو مفعول به لتضمُّن أقعد معنى لازم. والآية استعارة تمثيلية ودونها أن تكون كناية.

وفي الآية تلويح بأنَّه لعنه الله يقعد للقطع عن دين الله ﷻ قعود قطَّاع الطريق للسابلة، وفي تقدير على تلويح بالاستيلاء على الطريق والمواظبة على الإفساد، حتَّى لا يلحقه فتور عن الإغواء، وذكر الجهات الأربع مبالغة بأنَّه يغويهم بكلِّ ما أمكن، و لم يقل ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم لأنَّ الجهتين لم توجدا في المشبَّه به، وهو مثلا الإنسان يهلك الآخر من الأربع لا منهما، وكذا في الكناية؛ ولأنَّ الإتيان من تحت يوحش فلا يطاع، والإتيان من فوق يمنع منه نزول الرحمة.

ولمَّا قال لعنه الله ذلك رقَّت الملائكة عليهم، فقالوا يا إلَهنا كيف يتخلَّص الإنسان منه؟ فأوحى الله إليهم أنَّه بقي للإنسان جهتان: فإذا رفع يديه بالدعاء إلى الفوق على سبيل الخضوع أو وضع جبهته على الأرض على سبيل الخشوع غفرت له ذنب سبعين عاما.

وبدأ بقدام وخلف لأنَّ الشجاع القويَّ يأتي مواجها وإذا أراد الاغتيال بالمكر فجأة فمن خلفه، فـ﴿مِن بَيْنِ أَيدِيهِمْ﴾ من حيث يعلمون ويقدرون على التحرُّز ضدَّ من خلفهم، ﴿وعَن أَيْمَانِهِم وَعَن شَمَائِلِهِم﴾ من حيث يمكن التحرُّز و لم يتحرَّزوا، وكان الجهتان بمن الابتدائية لأنَّهما الغالب، والأخريان بعن لأنَّ الأصل في المجيء غيرهما، وإنَّما يأتي العدو منهما لداع يعرض، فهو كالمنحرف المجاوز، وأيضا ينفر عنهما للملكين فيهما.

وقدّمت الأيمان لقوتها، فالشجاع الأقوى يباشر الجهة القويَّة من عدوه ولا يبالي، و﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من إنكار البعث والحساب والجنّة والنار والتثبيط عن العمل الصالح وعن التوبة فإنَّ الآخرة مستقبلة، ﴿ومِن خَلْفِهِم﴾ الدنيا لأنّهم في الارتحال عنها، يغريهم بلذّتها أو بالعكس، لأنَّ الدنيا حاضرة كالشيء بين يديك والآخرة غير مشاهدة كالشيء خلفك، أو عن أيمانهم حسناتهم، لأنَّ اليمين لمناولة الشيء الحسن؛ وشمائلهم سيِّئاتهم لأنَّ الشمال لمناولة الخبيث، يقال هو عندنا باليمين أي بمنزلة حسنة عكس هو عندنا شمال.

﴿وَلاَ تَجدُ أَكْثَرَهُم شَاكِرِينَ﴾ جواب ثالث للقسم قاله ظنًّا ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ (سورة سبأ: ٢٠) أو رآه في اللوح المحفوظ أو أخبره به الملائكة الذين أخبرهم الله أو رأوْه في اللوح، ووجه ظنّه أنّه رأى كثرة دواعي الشغل عن الطاعة كالحواس الخمس الظاهرة، قيل والخمس الباطنة، وقوة الشهوة وهي في الكبد، وقوة الغضب وهي في البطن الأيسر من القلب، والقوة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغادية والنامية والمولدة وهنَّ جسميَّات، تدعو إلى اللذّات مع شياطين الإنس والجنّ، ورأى قلّة داعي الطاعة وهو واحد وهو العقل.

ويقال القوى أربع خالية تجتمع فيها المحسوسات بما يناسب المحسوسات، في البطن المقدَّم من الدماغ ، وأشار إليها بقوله ﷻ ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ ووهمية تحكم في غير المحسوسات وهي في البطن المؤخر كما قال ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وَشَهْوَانية محلُّها الكبد عن يمين الإنسان كما قال ﴿وَعَن أَيْمَانِهِمْ﴾ وغضبية

وهـي في القلـب عـن يسـار الإنسـان كمـا قـال ﷻ ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ مذموما من ذامه بمعنى ذمّه أو عابه أو احتقره، ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودا من كلّ خير، ﴿وَيَقْذِفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا﴾(سورة الصافات: ٨)، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ هذه اللام توطئة للقسم مثل ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾(سورة يس: ١٧) وجوابه هو قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مغنٍ عن جواب مَن الشرطية، وكاف ﴿مِنكُمْ﴾ لمن وإبليس وذريّته مغلبا للخطاب، أي منك ومنهم ولو قلّ المخاطب وكثر الغائب أو من موصولة، واللام للابتداء، ويقدَّر قسم هو وجوابه خبر مَن والعائد إلى مَن حصّتها من كاف منكم العائدة إلى الناس المتّبعين لإبليس وإلى إبليس وذريّته.

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قصة آدم في الجنّة وخروجه منها

﴿وَيَآ ءَادَمُ﴾ أي وقال يا آدم، لأنّه في الآية قبل هـذه أو ﴿وَقُلْنَا يَـآ ءَادَمُ﴾ كمـا في البقـرة (الآية: ٣٤) لإفادتـه التعظيـم ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ حـواء ﴿الجَنَّةَ﴾ أي دُوَما على سكناها أو اجعلاها وطنا لا كَقَرارٍ ومَعْبَرٍ، وذلـك أنّه قال لهما ﴿اسكُن...﴾ بعد كونهما فيها لأنّه توحَّش فيها فـألقى ا لله ﷻ عليه النوم، فخلقها منه، وقيل خلقها ا لله منه قبل دخول الجنّة فأمرهمـا ا لله بدخولها وسكناها، وقيل خاطبه ا لله بالسكنى قبل خلقهـا وعمَّهـا بالخطـاب لعلمـه بأنّـه يخلقها، وعلى كلِّ حال كانا في الجنّة بعد إخـراج إبليس و لم يقـل اسـكنا أنـت وزوجك الجنّة، لأنَّ سكنى حواء تبع له، بخلاف الأكل من الجنّة وترك الشـجرة فإنّهما فيه سواء، وكذا قـال ﴿يـآ ءَادَمُ﴾ و لم يذكـر حـواء لأنّـه أليـق بالخطـاب والوحي.

﴿فَكُلاَ﴾ رغدا ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ على الفور وعلى التفريـع، فهـو بيـان لإطـلاق الجمـع في قولـه ﴿وَكُـلاَ مِنْهَـا﴾ بـالواو، وحيـث لمكـان، وهـو نفـس الشجرة، أي مـن أيِّ شـجرة شئتما أو حيـث أرض الجنـة، أي فكـلا مـن ثمـار موضعٍ ما من مواضع الجنّة، ومَن للابتداء لا كما قيل إنَّ المعنى فكلا من ثمارهـا في أي مكان شئتما الأكل فيه.

﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أكّد النهي عن الأكل منهـا بـالنهي عـن قـرب نفس الشجرة، شجرة الحنطة أو العنب أو غيرهما، ﴿فَتَكُونَا﴾ عطف على تقربا أي فلا تكونا، أو منصوب في جواب النهي ﴿مِنَ الظَّـالِمِينَ﴾ لأنفسـكما كمـا قال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا﴾

﴿فَوَسْوَسَ﴾ تكلّم كلاما خفيًّا، وأصله صوت الحلي، وفيه تكرُّر ﴿لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أوقع الوسوسة لأجلهما، وهذا باللام، ويقال وسوس إليه بإلى بمعنى أنهى إليه الوسوسة، ويجوز كون اللام في الآية بمعنى إلى ﴿لِيُبْدِيَ﴾ يظهر ﴿لَهُمَا مَا وُرِيَ﴾ أخفي ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ عوراتهما، وكانت مستورة بلباس الجنّة، أو بشيء من جسدهما كظفر ألين كجلدهما، ولم يبق منه إلاّ الأظفار للتذكرة والانتفاع والزينة، أو بنور، والأوَّل أولى لتبادره، واللام في ليبدي للعاقبة على أنّه لعنه الله لا يدري أنّه إذا أكلا منها يعريان، أو كان عارفا بذلك لفهمه أو سماعه من الملائكة، أو برؤيته في اللوح المحفوظ، فتكون للتعليل فيكون قد وسوس ليوقعهما في المعصيَّة، فيخرجا من الكرامة. وإبداء عورتهما لهما أشدُّ عليهما من أن يعريا بدون أن يراها.

(فقه) وفي الآية تقبيح كشف العورة عند الزوج أو في الخلوة بلا حاجة، وكانا قبل ذلك لا يريَانها من أنفسهما ولا من أحدهما، والسوءات فرجا كلٍّ واحد فهنَّ أربعة، أو أراد القبلين فجمع لكراهة إضافة تثنية لتثنية.

وفسَّر الوسوسة بقوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي كملكين ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾ في الجنَّة، شهر أنَّه دخل في فم الحيَّة إذ قربت من باب الجنّة وهي فيها فَسُمُّهَا مِنْهُ، فوسوس لهما فعوقبت بسلب قوائمها وليس بصحيح، أو قرب من باب الجنّة فوسوس إليهما من خارج، وقد أراد دخولها خفية للوسوسة فمنعه الخزنة، وقعد للوسوسة على بابها ثلاث ساعات وهي ثلاث مائة سنة من سني الدنيا فوسوس.

(قصص) ولمَّا رفع إدريس إلى السماء السابعة منع منها، ولمَّا رفع عيسى

إلى الرابعة كان يدخل الثالثة، ولمّا أسري برسول الله ﷺ منع منهنّ كلّهنّ، أو جعل الله له قوة الوسوسة من الأرض إلى الجنّة وكان آدم عليه السلام يتعاطى أن يكون كملائكة القرب من العرش لشرفهم، ولعدم حاجتهم للأكل والشرب، ولقوّتهم ولعلمه أنّهم لا يموتون، رغب في هذه الخصال ولو كان أفضل منهم من جهة أخرى، وكان عالما بأنّ الله عز وجل فضّله عليهم وأسجدهم له، وقيل أَسْجَدَ له ملائكة الأرض فقط، فليس في الآية دلالة على أفضلية الملائكة عليه.

وأوهمهما إبليس والعياذ با لله تعالى منه أنّ الله نهاهما عن أكل ثمار الشجرة لئلاّ يكونا منهم، ولئلاّ يكونا خالدين فيها، أي كراهة أن يكونا ملكين أو يكونا خالدين، فاختارا الأكل منها على الكون منهم وعلى الخلود، وهذا ظاهر الآية **وهو بعيد.**

بل المراد أنّه تعالى نهاكما عن الأكل منها لأنّكما إن أكلتما منها كنتما بمنزلة الملائكة أو خلدتما، رغّبهما في أكلها طمعا لحصول أحد الأمرين قيل أو كليهما ترغيبا على أنّ أو بمعنى الواو، فيناسب هذا أن يقدّر: إلاّ كراهة أن تكونا ملكين، أو كراهة أن لا تكونا ملكين كما قال ﴿هَلَ ادُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾(سورة طه: ١١٧) وتصديق آدم عليه السلام لإبليس لعنه الله في الخلود بمعنى المكث الطويل غير كفر، بل تصديقه في المكث الدائم لم يكن كفرا لأنّ ذلك قبل إخبار الله له بالموت والبعث، وقيل لم يصدّقاه بل غلبهما اشتهاء الأكل وآية طه تدلُّ على أنّ رغبتهما في الأكل أكثر منها في التملُّك.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أقسم لهما قسما عظيما، كما يعظم الفعل إذا تجاذب عليه إثنان، أو الألف للتعدية كجالس، أو المفاعلة على بابها بأن جعل قبولهما قسمه قسما ويقال أقسما له بالقبول، وقيل قالا له: أقسم لنا با لله أنّك ناصح لنا، فهذا

قسمهما.

فأقسم لهما كما قال الله تعالى ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فيما قلت، واللام متعلّق بناصحين، و لم يمنع بأل الموصولة للتوسع في الظروف لكثرتها، ولا إشكال على مذهب المازني من أنَّ أل حرف تعريف. ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل، وهو قد أهبطهما من درجة عالية وهي الطاعة إلى أمر سافل هو المعصية بالأكل من الشجرة، فإنَّ المقصود من النهي عن القرب إلى هذه الشجرة النهي عن الأكل منها، ولكن عبَّر بالقرب مبالغة، والغرور الخداع بوسوسته، أو الباء معية أي حال كونه أو كونهما في غرور، ظنًّا أن لا يحلف أحد با لله ﷻ كاذبا لعظمة ا لله في قلوبهما، وهو أوَّل من حلف كاذبا.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ أي أكلا قليلا من ثمارها ليعلما طعمها ﴿بَدَتْ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ قبل كلٍّ واحد لنفسه وللآخر ودبره للآخر لسقوط لباسهما بالمعصية، وتحرَّك الطعام أيضا في بطنهما وذلك في تلك الشجرة خاصَّة، فدارا في الجنَّة فقال له ملك: بأمر ا لله ما تريد؟ فقال: أريد أن أضع ما في بطني، فقال بأمر ا لله أتحت العرش أفي الكرسيِّ أو الأنهار، أم تحت الأشجار، لا مكان يصلح لذلك، أُخرج إلى الدنيا، وسمِّيت العورة سوءة لأنَّ انكشافها يَسُوء صاحبَها فيجب سترها كما قال ا لله ﷻ.

﴿وَطَفِقَا﴾ شرعا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يلزقان إلزاقا شبيها بخياطة النعل بالترقيع ﴿عَلَيْهِمَا﴾ على أنفسهما ليسترا أنفسهما كما كانا من قبل، لكن اعتناءهما بستر العورة أشدُّ.

(نحو) وليس الضمير للسوءات لأنَّهنَّ أربع إلاَّ بتأويل فريقين أحدهما

سوءتاه والآخر سوءتاها، ولا حاجة إلى تقدير مضاف، أي على سوءاتهما خروجا عن عمل عامل في ضميرين لمسمًّى واحد، في غير باب ظن وفقد وعدم ورأى الحلمية، لأنَّ ذلك ممنوع إذا لم يكن الثاني بحرف جرٍّ، أمَّا إذا كان به فجائز وارد في القرآن كثير.

﴿مِنْ وَّرَقِ الجَنَّةِ﴾ أي يخصفان بعض ورق الجنَّة أو يخصفان ورقا من ورق الجنَّة، وهو ورق التين، إمَّا كَوَرق الدنيا خلقه الله في الجنَّة، أو من نحو ذهب وفضَّة ألين، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ وفسَّر النداء بقوله: ﴿أَلَمَ اَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة أو ذلك مفعول للنداء لتضمُّنه معنى القول، أو يقدَّر: وناداهما ربُّهما يا آدم ويا حواء قائلا ألم أنهكما عن أكل ثمار هذه الشجرة، ﴿فَقُلْنَا يَـآ ءَادَمُ إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ (سورة طه: ١٤٤).

(قصص) ويقال ناداه ربُّه يا آدم لـمَ أكلت منها وقد نهيتك؟ قال: أطعمَتْني حواءُ، وقال لحواء: لِـم أطعمتِه؟ قالت: أمرَتـي الحيَّة، وقال للحيَّة لم أمرتها؟ قالت أمرني إبليس، فقال: أمَّا أنتِ يا حواء فلأُدْمِيَنَّك كلَّ شهر كما أدميت الشجرة، وأمَّا أنت يا حيَّة فأقطع أرجلك فتمشين على وجهك، وليشدخنَّ رأسك كلُّ من لقيك، وأمَّا أنت يا إبليس فملعون.

(فقه) ولا دليل في الآية على أنَّ النهي المجرَّد عن قرائن غير التحريم هو للتحريم، لأنَّ هنا قرينة التحريم وهو قوله ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وأمَّا قوله: ﴿أَلَمَ اَنْهَكُمَا﴾ بترتيب العقاب على النهي فلا دليل فيه، لأنَّ المراد فيه النهي المعهود المقرون بقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ومعنى ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لأنَّه لم يسجد لك، و﴿قَالَ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ...﴾ وقال الله ﷻ لهما ﴿إِنَّ

هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ...﴾.

﴿قَالاَ رَبَّنَا﴾ ياربَّنا حذف حرف النداء تحنُّنا إلى ذكر اسم الله ﷻ بسرعة، وتحرُّزًا لشدَّة خضوعهما عن صورة الأمر، لأنَّ معنى يا زيد أقبل بجسدك أو بقلبك، ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ نقَصنا حقَّها وأضرَرْنَاهَا بمخالفتك والخروج من الجنَّة، ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ أي والله إن لم تغفر، بدليل إجابة القسم بقوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ قالا ذلك تعظيما لحقِّ الله، لأنَّهما لم يتعمَّدا المعصيَّة، بل اغترَّا بالحلف بالله العظيم ظنًّا منهما أنَّه لا يحلف به حالف كاذبا.

(أصول الدين) فليس ذلك معصية من جنس المعاصي غير الأنبياء، بل ذلك كالخطأ والسهو، فذلك هضم لأنفسهما، ومن باب حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين، فلا دليل في الآية على جواز العقاب على الصغائر لمن اجتنب الكبائر، كما قال الشافعيَّة وغيرهم، فإنَّ الحديث صريح في أنَّها مغفورة لمن اجتنب الكبائر، إلاَّ أنَّه يجوز عتاب على ترك التحفُّظ المودي إلى نسيان أو اغترار بشيء.

﴿قَالَ اهْبِطُواْ﴾ إلى الأرض يا آدم وحواء وإبليس قيل والحيَّة، وفيه أنَّه لا ذكر لها في الآية.

(قصص) فهبط آدم بسرنديب جبل بالهند، وحواء بجدَّة أو بعرفة أو بالمزدلفة أقوال، وإبليس بأُبُلَّة بضمِّ الهمزة والباء وشدِّ اللام جبل قرب البصرة، أو بجدَّة قولان، والحيَّة بأصبهان، أو يا آدم وحواء، وذريتهما في ضمنهما لكن أمر الذرية في ضمنهما مجاز وأمرهما حقيقة، أو يا آدم وحواء خطابا لهما بخطاب الجمع لذلك، كما قال في سورة طه ﴿اهْبِطَا﴾(سورة طه: ١٢٠).

وقوله ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال تفيد أنَّ عداوة بعض لبعض غير متراخية عن الهبوط، فهذا أولى من جعله جواب قائل ما حالهم بعد الهبوط؟ والعداوة ظاهرة بين آدم وحواء وبين إبليس، وأمَّا بين آدم وحواء وذرِّيتهما فببَغْيِ قابيل عليهما وعلى هابيل، والذريَّة بعض على بعض في البدن والمال والأعراض وغير ذلك، كنكاح قابيل زوج هابيل، وصحَّ دخول إبليس في ﴿اهْبِطُواْ﴾ لأنّه كان يدخلها مسارقة للوسوسة بعد قوله ﷻ ﴿اخرُجْ مِنْهَا﴾ فلم يتكرَّر أمره بالهبوط مع قوله اخرج منها.

﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار أو موضعه أو زمانه، والأوَّل أولى لأنَّ القرار نفسه رحمة، بخلاف موضعه فإنّه نعمة باعتبار القرار، وموضع الاستقرار شامل لِما يحيى فيه من الأرض وموضعه بعد الموت وقبره، أي مستقرٌّ إلى أجل هو البعث، ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتُّع، ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أجل الموت، لا البعث لأنّه لا تمتُّع في القبر إلاّ للمؤمنين.

﴿قَالَ﴾ كرَّر القول قيل لبُعد اتصال الحياة في الأرض والموت فيها والإخراج منها بالأمر بالإهباط، وبعداوة بعض لبعض والاستقرار في الأرض والتمتُّع فيها، ويبحث بأنه لا بُعْدَ في ذلك بل مناسبة لأنَّ ذلك كلّه في الأرض والإهباط إليها والإخراج منها بل كرِّر لإظهار الاعتناء بما بعده وهو قوله:

﴿فِيهَا﴾ قدِّمَ للحصر ﴿تَحْيَوْنَ وَفِيهَا﴾ قدِّمَ للحصر ﴿تَمُوتُونَ﴾ ودخل البحر في الأرض لأنَّ المراد بها ما قابل السماء مطلقا ﴿وَمِنْهَا﴾ قدِّمَ للحصر والفاصلة ﴿تُخْرَجُونَ﴾ للجزاء.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

توفير حوائج الدنيا لبني آدم وتحذيرهم من فتنة الشيطان

وكذا في قوله: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ﴾ ناداهم ليذكّرهم بعض النعم، جلبا لامتثال ما هو المقصود بقوله: ﴿لاَ يَفْتِنَنَّكُم﴾.

﴿قَدْ اَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ خلقناه، وسمّى الخلق إنزالا لأنّه بأسباب وتدبيرات سماويّة كنزول المطر للقطن والكتّان وغيرهما، ولمعيشة الحيوانات ذوات الصوف وغيره، وبقضاء في اللوح المحفوظ كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ﴾ (سورة الزمر: ٧)، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ (سورة الحديد: ٢٤).

﴿يُوَارِي﴾ يستر ﴿سَوْءَاتِكُمْ﴾ أي التي قصد إبليس كشفها من أبيكم آدم، حتّى اضطرَّ إلى إلزاق الأوراق، فاذكروا نعمة الله عليكم في إغنائه إيّاكم عن خصف الأوراق، وفي عدم نزع اللباس عنكم كما نُزِع عنه، فهذه الآية متّصلة بقوله: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا...﴾.

وروى مسلم عن ابن عبّاس أنَّ العرب كانوا يطوفون عراة لأنّهم عصوا الله في ثيابهم، فنزلت الآية.

﴿وَرِيشًا﴾ لباسا فاخرا، تتجمّلون به، فهو أخصُّ من اللباس، أو مالا

وخصبا وحسن الحال، أو جمالا في أبدانكم. وأصل الريش في الجمال وفي المال وشُهر في ريش الطائر، وهو زينة له كاللباس للآدميّ، فلا حاجة إلى دعوى أنَّ المراد المال أو الجمال استعارة من ريش الطائر، ولا إلى دعوى أنّه مصدر من قولك: راشه ريشا، أي جعل فيه مالا أو زينة.

﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ﴾ بالنصب عطف على لباسا، من إضافة المشبَّه به للمشبَّه، أي وتقوى كاللباس فإنّها تقي من العذاب والخسَّة، كما يقي الثوب من الحرّ والبرد وانكشاف العورة، وهي على العموم، أو خشية الله ﷻ، أو الحياء، أو الإيمان، أو السمت الحسن، أو لباس الحرب كالدرع والمغفر، فالتقوى على هذا اتّقاء ضرر العدوّ، وإضافته إضافة الآلة للعمل، ويقال: إضافة السبب، وكذا إن فسَّرنا اللباس بما يستر العورة.

وأضيف للتقوى ردًّا عليهم إذ زعموا أنَّ التعرّي في الطواف تقوى، أو هو اللباس الخشن للتواضع، أو اللباس المزيَّن لحضور مواضع العبادة تعظيما لها، أو تمتُّعا بلا رياء ولا سمعة، لأنَّ للزينة غرضا صحيحا، كما قال الله ﷻ: ﴿وَزِينَةً﴾، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ (سورة النحل: ٦)، والأوَّل أولى لأنَّ المتبادر أنَّ المقام مدح للتقوى نفسها لا لسببها.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من لباس الستر ولباس الزينة ومن كلّ لباس، والإشارة إلى لباس التقوى، أو إنزال اللباس، وهو أولى لأنّه أظهر في أنّه آية، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إنزال اللباس كلّه ﴿مِنَ ـ ايَاتِ اِ۬للَّهِ﴾ الدالّة على فضله ورحمته، كما يدلُّ له المقام، أو من دلائل قدرته. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يُقبلون إلى تدبُّر ما أعرضوا عنه فيؤمنون بوحدانيَّته، ويعرفون نعمته، ويتورَّعون عن القبائح، إعتابٌ؛ والمقام للخطاب إشارة إلى أنّهم كمن يُئس منه فيترك خطَابهُ، وإلى أنّه يكفي في خطئهم ما مرَّ.

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ لا يصرفنَّكم بوسوسته عن العمل الصالح والتقوى، أو عن الجنَّة؛ واللفظ نهي للشيطان الذي هو السبب، والمراد النهي عن المسبَّب وهو اتِّباعه، ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ بفتنته، أي فَتنا ثابتا كإخراجه إيَّاهُما، أو فتنا مثل إخراجه، وقوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ﴾ حال من «أَبَوَيْكُمْ»، أو من ضمير «أَخْرَجَ». والنازع الله ﷻ، فأسند النزع للشيطان لعنه الله لأنَّه سبب.

واللام للتعليل على أنَّه ـ لعنه الله ـ عارف بفهمه، أو من الملائكة أنَّ الأكل من الشجرة سبب للنزع، وإلاَّ فللعاقبة، والمضارع في الموضعين لتكون الحال كالمشاهدة وإلاَّ فالنزع والإراءة ماضيان؛ وأكَّد التحذيرَ، وعلَّله بقوله: ﴿إِنَّهُ, يَرَاكُمْ هُوَ﴾ أكَّد بـ«هو» الضمير المستتر لزيادة التنبيه على [أنَّ] الرائي لكم هو ذلك العظيم المكر والسوء ليأخذوا حذرهم جدًّا، و«كُم» كافٍ في العطف على المستتر إذ عطف عليه بقوله: ﴿وَقَبِيلُهُ,﴾ جماعته المختلفة، أو أصحابه وجنده، ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ «مِن» للابتداء، وكلُّ موضع رأَوْنا منه فالرؤية مبتدئة منه منتهية إلينا، أي لا ترونهم كلَّما شئتم بل قد ترونهم قليلا موافقة، ولو على تحقُّق بلا تخيُّل، كما يراهم سليمان عليه السلام وهو من البشر، وكما قال رسول الله ﷺ إذ قبض شيطانا وقال: **«كنت أردت أن أربطه في سارية لتروه، فتذكَّرت قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِي﴾** (سورة ص: ٣٤) **فأطلقته»**[1].

وألَّفت في ذلك رسالة، ثمَّ رأيت الكرخيَّ صرَّح بأنَّه تكون رؤيتهم على أصل خلقتهم لبعض الناس، وليس عدم رؤيتنا إيَّاهُم للَطافة أجسامهم وعدم

١- رواه البخاري في كتاب المساجد (٤٢) باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، رقم ٤٤٩، من حديث أبي هريرة، وأوَّله قوله ﷺ: «إنَّ عفريتا من الجنِّ تفلَّت عَلَيَّ البارحة...».

ألوانهم، بل لأنَّ الله ﷻ حجبهم عنّا ولم يخلق فينا قوَّة إبصارهم، وخلق فيهم قُوَّة إبصارهم إيَّانا، وقوَّة إبصار بعض بعضا، وإلاَّ فإنَّهم أجسام ولهم ألوان، ولو لطفوا؛ أو خصُّوا بأنهم يخرجون من تحت الثرى، ويرونا ولا نراهم ويعود شيخهم شابًّا. قال ذو النون: «يراك الشيطان من حيث لا تراه ولكنَّ الله يراه من حيث لا يرى، فاستعن بالله عليه، فإنَّ كيد الشيطان ضعيف، ولم نكلَّف محاربة أعيانهم حتَّى يكون عدم رؤيتنا إيَّاهُم مانعا من محاربتهم، بل كلَّفنا الله دفع وسوستهم بالاستعاذة بالله وذكره». وقال مالك بن دينار: «إنَّ عدوًّا يراك ولا تراه لشديد المؤونة إلاَّ من عصمه الله ﷻ».

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أعوانا ﴿لِلَّذِينَ لاَ يُومِنُونَ﴾ يغلبونهم في الفساد فهم أصدقاؤهم، لمناسبة بينهم، أو مكانهم من إغواء الذين لا يؤمنون، فهم يتولُّون أمرهم بالإغواء.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾

شريعة الله وحي لرسوله لا تقليد للآباء

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً﴾ في الشرع ولو كانت طاعة عندهم، كعبادة الأصنام والطواف في عُريٍ، وغير ذلك ممَّا يستقبح، إذا قدموا حجَّاجا أو معتمرين طاف الرجال نهارا عراة، والنساء ليلا عاريات، وكانوا يطلبون إزارا عارية وإن لم

يجدوه طافوا في عري، وعلى كلِّ حال يلقون ثيابهم ويحرِّمونها لأنَّهم عصوا ا لله فيها. والفاحشة اسم لِمَا اشتدَّ قبحه، وأصله وصف أيِّ فعلة فاحشة ثـمَّ تغلَّبت عليه الإسميَّة.

﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَا للهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فاقتدينا بهم وامتثلنا أمر ا لله، وأمرنا بأمر آبائنا، وجملة «إِذَا فَعَلُواْ» إلى قوله: ﴿بِهَا﴾ عطف على «لاَ يُومِنُونَ»، أي إنَّا جعلنا الشياطين أولياء لمن اتَّصفوا بانتفاء الإيمان وتقليد الآباء في الفاحشة، ودعوى أنَّ ا لله أمرهم بها، فذلك احتجاج بأمرين: الأوَّل وجود آبائهم، والثاني دعوى أنَّ ا لله أمرهم بها.

﴿قُلِ اِنَّ ا للهَ لاَ يَامُرُ بِالفَحْشَآءِ﴾ ردٌّ لقولهم: «ا لله أمرنا بها»، لأنَّه ربَّما اشتبه على جاهل أَمْرٍ يَتَوَهَّم أنَّه من ا لله. وتسميته فاحشة حدث من ا لله، و لم يذكر الردَّ على قولهم: «وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا» لظهور أنَّ التقليد غير حجَّة، ولو كان حجَّة لصحَّت الأديان التقليديَّة المتناقضة كلُّها، والموجود أنَّ كلاًّ يضلِّل الآخر، وصدقُ المتناقضين محالٌ، وهذا مدلول قوله: ﴿إِنَّ ا للهَ لاَ يَامُرُ بِالفَحْشَآءِ﴾ ضمْنًا، لأنَّه سبحانه إذا أمر بمحاسن الأعمال فكيف يترك أمره هذا بمجرَّد اتِّبَاع الآباء فيما هو قبيح عقلا ؟ .

(أصول الدين) والمراد بالقبح العقليِّ هنا: نفرة الطبع السليم، واستنقاص العقل المستقيم، لا كون الشيء متعلَّق الذمِّ قبل ورود النهي عنه، وبلا ورود، وهو المتنازع فيه عندنا معشر الإبَاضيـَّة وقومنا وعند المعتزلة دون الأوَّل، فلا دليل للمعتزلة في الآية على ما زعموا من التقبيح والتحسين العقليَّين. ويجوز أن يراد: لِم فعلتموه؟ فقالوا: وجدنا عليه آباءنا، فقيل: من أين أخذ آباؤكم؟ فقالوا: ا لله أمرنا بها لتوسُّط أمره آباءنا. وا لله يأمر بمحاسن الأفعال دائما إجماعا، ومن يأمر بها على الدوام لا يأمر بالفحشاء، فا لله لا يأمر بها.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اَ للهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من جملة ما حكي بـ«قُلْ»، والاستفهام توبيخ وإنكار للياقة أن يقولوا على ا لله ما لم يعلموا بحقيقته، لعدم سماعه من ملك أو نبيء، وهو الفواحش. والخطاب لقريش وهم ينكرون نبوءة الأنبياء، ولو كانوا ربَّما سألوا أهل التوراة. والقبح إمَّا بحكم ا لله وعليه العقاب، وهو يثبت بالشرع لا بالعقل خلافا للمعتزلة، وإمَّا بكراهيَّة الطبع المستقيم، ولا خلاف فيه أنَّه بالعقل.

(أصول الدين) ولا دلالة في الآية للمعتزلة على أنَّ مرجع التقبيح للعقل وَرَدَ الشرع به أو لم يَرِد، ولا دليل في قوله: ﴿أَتَقُولُونَ...﴾ على نفي القياس، لأنَّه ولو كان مظنونا لا معلوما، لكن لَمَّا انعقد الإجماع على عمل ما يثبت به كان معلوما من هذه الحيثيَّة.

أو المراد بالعلم في الآية: ما يعمُّ الظنَّ المطابق، أو هذا عامٌّ خصَّ منه البعض، وهو ما ثبت بالقياس، فإنَّه بمنزلة الاستثناء من هذا الحكم، والمخصَّص هو الإجماع، والأوَّل أولى وإنَّما يمنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه.

﴿قُلَ اَمَرَ رَبِّي بِالْقِسَطِ﴾ بالعدل؛ وكلُّ ما أمر ا لله ﷻ به عدل ولو صعب، أو لم تستحسنه النفس، ولا تفريط ولا إفراط فيه. ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ عطف على «أَمَرَ رَبِّي» وليس فيه عطف الأمر على الإخبار، لأنَّ المعنى قل لهم لفظَ «أمر ربِّي بالقسط» ولفظَ «أقيموا»، والجمل بعد القول أسماء مراد بها ألفاظها، ولا حاجة إلى دعوى عطفه على معنى القسط مع ضميمه معنى «أَمَرَ رَبِّي» قال: أقسطوا وأقيموا، ولا إلى دعوى أنَّ التقدير: «أقبلوا وأقيموا»، ولا إلى دعوى تقدير القول، ولا إلى دعوى العطف على فعل ينحلُّ إليه المصدر الذي هو القسط، أي أمر ربِّي بأن أقسطوا وأقيموا.

﴿وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ومعنى إقامة الوجوه عند كلِّ مسجد:

إقامتها نحو القبلة عند كلِّ سجود، أي صلاة، فهو مصدر؛ أو عند كلِّ وقت صلاة، فهو اسم زمان؛ أو في كلِّ موضع سجود يمكن، ولا تؤخِّروها إلى أن ترجعوا إلى مساجدكم، كما أنَّ من قبلكم أُمروا بتأخيرها إلى أن يرجعوا إلى مساجدهم، فهو اسم مكان والمسجد على هذا بمعنى المصطلح عليه من البناء وفي هذا بعدٌ، كما في قول من قال: اقصدوا المسجد في وقت كلِّ صلاة على أنَّه أمر بالجماعة ندبا عند بعض، ووجوبا عند آخرين؛ أو توجَّهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، وذلك بالصلاة كما تقول: أطع الله في الصلاة، وأنت تريد: أطع الله فيها بإقامتها، لا بعبادة أخرى تُوقِعُهَا فيها.

﴿**وَادْعُوهُ**﴾ اعبدوه واسألوه حوائجكم، ﴿**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ أي العبادة أو الإيمان بالله، أخلصوا ذلك عن الشرك. وإن فسَّرنا إقامة الوجوه عند كلِّ مسجد بإخلاص الصلاة كان هذا عطف عامٍّ على خاصٍّ إن فسَّرنا الدين بالعبادة، وعطف مغاير إن فُسِّر بالإيمان بالله، ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ تعودون عودا ثابتا كبدئه إيَّاكم، أو عود مثل بدئه إيَّاكم في أنَّ كلاًّ منهما إيجاد بعد عدم، ولو كان الأوَّل من نطفة وأطوار مترتِّبة، والثاني غير ذلك. والجملة مستأنفة لإبطال إنكارهم البعث بأنَّ القادر على البدء قادر على الإعادة، **وليست أشدَّ على الله، ولا شدَّة على الله**، وتعليل لقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ...﴾ أي امتثلوا ما أمرتكم به من القسط وإقامة الوجه والدعاء والصلاة فإنَّكم بعد موتكم ستبعثون للجزاء بأعمالكم، وكما بدأكم من التراب تعودون إليه، وكما بدأكم حفاة عراة غرلا تعودون، وكما بدأكم مؤمنا وكافرا تعودون إليه في الآخرة مؤمنا وكافرا، على أصل السعادة والشقاوة، ﴿هُوَ الذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ ومِنكُم مُّومِنٌ﴾ (سورة التغابن: ٢) .

وروى الترمذيُّ بخطٍّ عتيق محشًّى عليه مقروء على شيخ اشتريته من مكَّة،

عن عمرو بن العاص خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: «**أتدرون ماهذان الكتابان؟**» قلنا: لا يا رسول الله، فقال للذي في يده اليمنى: «**هذا كتاب من ربِّ العالمين فيه أسماء أهل الجنَّة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا**» ثمَّ قال للذي في شماله: «**هذا كتاب من ربِّ العالمين فيه أسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم ثمَّ أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبدا**» فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال ﷺ: «**سدِّدُوا وقاربوا فإنَّ صاحب الجنَّة يختم له بعمل أهل الجنَّة، وإن عمل أيَّ عمل، وإنَّ صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أيَّ عمل**» ثمَّ قال بيديه فنبذهما، ثمَّ قال: «**فرغ ربُّكم من العباد ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾** (سورة الشورى: ٧) »[1] ومعنى قال للذي في يمينه... في شأن الذي، ومعنى «قال بيديه»: أشار بهما، ومعنى قوله: ثمَّ أجمل أنَّه أجمل الحساب في آخر الورقة كالفذلكة، وذلك كلُّه تحقيق، وَقِيلَ: تمثيل.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ﴾ «فَرِيقًا» حال من الواو، هدى بنعمته أي هداه، والأولى هداهم لأنَّه جمع في المعنى، ولمناسبة «عَلَيْهِمْ»، و«فَرِيقًا» معطوف، و«حَقَّ عَلَيْهِمْ...» نعته، أي: تعودون إلى الله ﷻ فريقين متخالفين بالهدى والضلال، أو «فَرِيقًا» الأوَّل مفعول لـ«هَدَى»، أو حال من ضمير «هَدَى»، والثاني منصوب على الاشتغال بالمعنى، أي وأضلَّ أو خذل

١- رواه **الترمذي** في كتاب القدر (٨) باب ما جاء أنَّ الله كتب كتابا... رقم ٢١٤١، من حديث عبد الله بن عمرو. ورواه **الربيع** في باب الحُجَّة على القَدَرِيَّة، رقم ٧٩٩، من حديث ابن عَبَّاس.

فريقا عليهم الضلالة، ولا يضرُّنا تقدير «خذل» مع اعتقاد أنَّ ا لله أراد كفر الكافرين وضلالهم، وتقدير «أضلَّ» أنسبُ بقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ﴾ وقدَّم «فَرِيقًا» لطريق الاهتمام وللحصر، أي: ما هدى إلاَّ فريقا مخصوصا بأن حبَّب إليهم الإيمان لطفا وكرما.

﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُواْ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ا للهِ﴾ إمَّا تعليل لمنشإ خذلانهم، وإمَّا سببه في الخارج وفي نفس الأمر، فاتِّخاذهم المذكور ومنشأ ذلك الاتِّخاذ أصل الخذلان، وسبب استمرار الخذلان الاتِّخاذ المذكور، فلا دَوْرَ؛ وإمَّا تحقيق لضلالهم واستدلال عليه، ويدلُّ للأوَّل قراءة فتح همزة إنَّ، و﴿مِن دُونِ ا للهِ﴾: غير ا لله، ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في اتِّباع ما توسوس به الشياطين لهم، أو تصرِّح لهم به، فإنَّ المراد شياطين الإنس والجنِّ، واتِّخاذهم أولياء اتِّباعهم، ودلَّت الآية أنَّ الكافر المخطئ والمعاند سواء في استحقاق الذمِّ والعذاب، إلاَّ أنَّ المخطئ دونه.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ۝٣٢ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾

إباحة الزينة والطيِّبات من الرزق وأصول المحرَّمات على الناس

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾...إلخ أدلَّة على أنَّ الكافر مخاطب بفروع الدين، وكلُّ ما أمر ا لله المشركين به ممَّا دون التوحيد أو

نهاهم عنه ممَّا دون الشرك، فهو دليل على أنَّه مخاطب بها. والزينة: اللباس الساتر للعورة الذي لا يصف ولا يشفُّ، وهو من صوف أو وبر.

(فقه) وجاءت السنَّة أيضا بتجويد الثوب للصلاة، وجاء أنَّ عمر رضي الله عنه يلبس قميصا فيه كذا وكذا رقعة، وجاء عن الحسن بن علي بن أبي طالب سبط النبيء ﷺ أنَّه إذا قام للصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له: يا ابن رسول الله، لِمَ ذلك؟ فقال: «إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال فأتجمَّل لربِّي، وهو قول: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فأحبُّ أن ألبس أجمل ثيابي»، فهذا ندب مسنون لا واجب، قالوا ومن التزيُّن للصلاة المشط لها، وكانوا يطوفون بالبيت عراة، ويصلُّون في المسجد عراة، وذلك تفاؤل للتعرِّي عن الذنوب واحترام على أن يطوفوا بثياب عصوا فيها. والمسجد: ما يبنى للصلاة والعبادة؛ أو بمعنى السجود أي الصلاة، وكانت المرأة تطوف عارية وتضع يدها على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلُّه وما بدا منه فلا أحلُّه

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ ما شئتم من الحلال من اللحم والدسم ونحوهما من اللذائذ وفوق القوت. نزلت حين اهتمَّ بعض المسلمين أن لا يفعلوا مطلقا، أو في الحجِّ كما كانت بنو عامر لا يفعلون ذلك في أيَّام الحجِّ، ويقتصرون على القوت تعظيما لحجِّهم **﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾** بتحريم ما حلَّ من اللذائذ والبحيرة ونحوها، وتحريم أكل ما فوق القوت، أو بمداومة الشبع والاستغراق في اللذَّات، والأكل فوق الشبع، والشرب فوقه، وأكل الحرام.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «**كلْ ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك سرف ومخيلة**». والسرف في الآية شامل للِّباس قال ﷺ: « **ياعائشة**

الأَزْمُ دواء، والمعدة بيت الأدواء، وعوِّدوا البدن ما اعتاده»[1]. قال نصرانيٌّ لعليِّ بن الحسين بن واقد: لا طبَّ في كتابكم ولا في كلام نبيئكم، فقال: جمع الله ﷻ في كتابه الطبَّ بكلمة هي: ﴿وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾ ونبيئنا ﷺ قال: «**المعدة بيت الأدواء، والحمية رأس كلِّ دواء، وأعط كلَّ بدن ما عوَّدته»**[2]، فقال: ما ترك كتابكم ولا نبيئكم لجالينوس طبًّا. وعنه ﷺ: «**المعدة حوض البدن، والعروق واردة إليها، فإذا صحَّت المعدة صدرت العروق بالصحَّة، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم»**[3] و لم يصحَّ أن قوله: «المعدة بيت...» من كلام النبيء ﷺ بل هو من كلام الحرث بن كلدة طبيب العرب، ولا قوله: «المعدة حوض...» وإنّما هو كلام عبد الملك بن سعيد بن أبجر، وذكر الغزالي مرفوعا: «**البطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء، وعوِّدوا كلَّ جسد ما اعتاده**» ولا أصل له.

﴿**إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ لا يفعل بهم خيرا، فإنَّ فعل الخير من لوازم الحبِّ في الخلق، والمعنى: لا يرتضي إسرافهم.

﴿**قُلْ**﴾ إنكارا وتوبيخا لهؤلاء الطائفين عراة، المحرِّمين للّذائذ، ﴿**مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**﴾ أثبت لعباده، كالقطن والكتّان من النبات، والدروع من المعادن، والصوف والحرير من الحيوان؛ ثمَّ حرَّم الحرير على

---

١ -في **اللسان**: الأزم ترك الأكل، وعدم إدخال الطعام على الطعام، وفسَّره الناس أنَّه الحِمْيَة والإمساك عن الاستكثار. أورده **السيوطي** في الدرر: ج٣، ص٨٨، من حديث عائشة.

٢-أورده **السيوطي** في كتاب الدرر المنتثرة، ص١٤٤. وأورده الألوسي في تفسيره، ج٣، ص١١٠، بدون ذكر السند.

٣-رواه **البيهقي** في الشعب (٣٩) باب في المطاعم والمشارب، فصل في طيب المطعم والملبس، رقم ٥٧٩٦. من حديث أبي هريرة. ولعلَّ الرسول حكى كلام غيره إن صحَّ الحديث عنه.

الرجال، ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾ المستلذّات، ﴿مِنَ الرِّزْقِ﴾ أكلا وشربا، واللباس، وشملت الآية تنظيف البدن وتزيينه بلفظها، ولو كان من غير سبب النزول، وهي دليل على أنَّ الأصل في الزينة وما يطعم أو يشرب الحِلُّ.

﴿قُلْ هِيَ﴾ أي الزينة وَالطَّيِّبَات ﴿لِلذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بلاغا وفوقه بلا بطرٍ، وذلك بالأصالة وشاركهم الكفرة لا بأصالة، لأنّها خلقت لمن يتوصَّل بها إلى إقامة دين الله ويشكر الله، وهم ينتفعون بها لغير ذلك، ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ, قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ, إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾(سورة البقرة: ١٢٥)، ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لهم لا يشاركهم فيها الكفرة. وزينة الآخرة وطيِّباتها غير زينة الدنيا وطيِّباتها، فالضمير في قوله: ﴿هِيَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لحقيقتهما الشاملة لِمَا في الدنيا وما في الآخرة، و«خَالِصَةٌ» خبر ثان و« فِي الْحَيَاةِ » متعلِّق بمتعلَّق اللام، أو بها مع مدخولها للنيابة عنه.

﴿كَذَالِكَ نُفَصِّلُ الاَيَاتِ﴾ أي فصَّلنا الآيات هذا التفصيل الذي سمعتموه، أو نفصِّل سائر الآيات مثل تفصيلنا ما سمعتموه، وفي الوجه الأوَّل استحضار ماض ليشاهد تأكيدا، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله واحد فيأتمروا بأمره، وينتهوا بنهيه، فلا يحلُّون ولا يحرِّمون إلاَّ ما أحلَّ أو ما حرَّم، والمراد لقوم يعلمون أو غيرهم، لكن خصَّهم بالذكر لأنّهم المنتفعون.

﴿قُلِ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ما تزايد قبحه مطلقا، أو أنواع الزنى من ظاهر وباطن في الرجال والنساء، واللواط والسحاق والاستمناء بنحو اليد، والتعميم أولى ولو ناسب الزنى قوله تعالى: ﴿أَتَاتُونَ الفَاحِشَةَ﴾ (سورة الأعراف: ٧٩) وناسب أنَّ من النساء أو الرجال من يُسرُّ الزنى ومنهنَّ ومنهم من يظهره، بجعلها لنفسها علامة الزنى ولخلوِّه بها بمرأى الناس، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ كلاهما يكون في الزنى وسائر المعاصي. ومن الباطن زنى القلب. وعن

ابن عَبَّاس: ﴿مَا ظَهَرَ﴾: الزنى جهرا ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: الزنى سرًّا، وكانوا يكرهون الأوَّل ويفعلون الثاني. وعن مجاهد: ﴿مَا ظَهَرَ﴾: الطواف في عراء ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: الزنى. وَقِيلَ: الأوَّل طواف الرجال بالنساء، والثاني طواف النساء عاريات ليلا.

﴿وَالاِثْمَ﴾ الذنب الصغير والكبير تعميم بعد تخصيص، وفسَّره ابن عَبَّاس والحسن البصري بالخمر لكونها سببا للإثم الكبير في قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾(سورة البقرة: ٢١٧) واعترض بأنَّ السورة مكيَّة وتحريم الخمر بعد أُحد، وقد قتل فيه شهداء وهي في بطونهم. وقد قيل: هذا إخبار عَمَّا سيكون من تحريمها، وهو خلاف الظاهر. وليس الإثم من أسماء الخمر بالوضع العربيِّ بل بالعموم، ولا أظنُّ قول الشاعر:

نهانا رسول الله أن نقرب الزنى وأن نشرب الإثم الذي يوجب الوزرا

وقول الآخر:

شربت الخمر حتَّى ضلَّ عقلي كذلك الإثم يذهب بالعقول

إلاَّ مصنوعين إيهاما أنَّه من أسماء الخمر، وإلاَّ فمراد البيتين التسمية مجازا لأنَّه سبب الإثم.

﴿وَالبَغْيَ﴾ الظلم أو الكِبْر، وخصَّ للمبالغة، لأنَّ الكبر مشاركة لله في ردائه، ونحو القتل والشرك، ولا ظلم ولا بغي إلاَّ غير حقٍّ فقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تأكيد لقبحه، كالصفة الكاشفة، وأيضا قد يسمَّى الجزاء ظلما لكونه في صورته، فقال بالظلم الذي هو غير حقٍّ، فإنَّ الظلم الذي هو الجزاء حقٌّ.

﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ أي شيئا تعبدونه ﴿سُلْطَانًا﴾ حجَّة، تَهَكُّمٌ بالمشركين، كأنَّه من الجائز أن يوحي إجازة الإشراك، وليس من الجائز

الإشراك فضلا عن أن يوحى، أي لا ينزله فضلا عن أن يكون حجَّة. وذكر الإشراك تخصيص بعد تعميم كما أنَّ ذكر البغي بعد الإثم تخصيص، إلاَّ إن أريد بالفواحش: ما يتعلّق بالفروج، وبالإثم: شرب الخمر. وغيَّر الأسلوب إذ لم يقل: وإشراككم با لله ما لم ينزِّل به سلطانا، بل قال: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ...﴾ لمزيد التوبيخ والعقاب بالخطاب وصيغة الاستمرار، وكذا في قوله:

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ا للهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ إذ لم يقل: وقولكم على ا لله ما لا تعلمون، والمراد إلحادُهم في صفاته، والافتراء عليه بقولهم: «وَا للهُ أَمَرَنَا بِهَا».

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مكذِّبة من الأمم السابقة المعذَّبة استئصالا، كقوم هود وقوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط، فالأمَّة مقيَّدة بالعذاب، فلا يقال: إنَّهُ ليس كلُّ أمَّة معذَّبة إذ كان من الأمم السابقة من لم يعذِّبه بالاستئصال، وكذا هذه الأمَّة، ﴿أَجَلٌ﴾ مدَّة إذا انتهت نزل تعذيبهم، أو الأجل آخر المدَّة، ويدلُّ له قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ اجَلُهُمْ﴾ أجل كلِّ أمَّة فإنّهم لا يعذَّبون لمجيء المدَّة بل لانتهائها، ولكن جاز حمل الأجل على المدَّة كلّها باعتبار مجيء المدَّة كلّها، وإذا لم تتمَّ فما جاء إلاَّ بعضها. وذكر الأجل ثانيا بلفظ المعرفة يؤذن على الغالب بأنّه الأوَّل ويجوز على غير الغالب أن يراد بالأوَّل المدَّة وبالثاني آخرها.

والآية تخويف لكفّار مَكَّة، ولو كان المراد بالأجل عمر كلِّ أحد لقال: ولكلِّ أحد، ولو جاز أن يكون المعنى ولكلِّ فرد من كلِّ أمة أجل لموته، كما في الجمع نحو جاء الزيديون أو الزيود من إرادة الأفراد، لَكِنَّ تخويف الكفّار بالعذاب أنسب من تخويفهم بموت كلِّ أحد لأجله.

﴿لاَ يَسْتَاخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾ لحظة أو أقلَّ، والساعة في فنِّ المنجِّمين إمَّا مستوية وتسمَّى فلكيَّة خمس عشرة درجة، ومعوجَّة وتسمَّى زمانيَّة وهي

نصف سدس النَّهَار أو اللَّـيل، ويستعمل الأولى أهل الحساب غالبا، والثانية الفقهاء وأهـل الطلاسـم ونحوهـم، وجملة الليـل والنهـار أربـع وعشـرون سـاعة معوجَّة أو مستوية، وكلٌّ من الليل والنهـار لا يزيـد ولا ينقـص عـن اثـني عشـر ساعة معوجَّة أبدا، ولهذا تطول وتقصر وتساوي الساعة المستوية عند استواء الليل والنهار.

وقوله: ﴿وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عنه ساعة، عطف على «إِذَا» ومدخولها لا على مدخولها، لأنَّه لو عطف على مدخولها لكانت «إِذَا» قيدًا فيه، ولا معنى له، إِذْ لا يتوهَّم أحد أنَّه إذا جاء الأجل أمكـن تقديمه. وزعم بعض أنَّه يجوز عطفه على «يَسْتَاخِرُونَ» لا لبيان انتفاء التَّقَدُّم مع إمكانه كالتأخُّر، بل للمبالغة في انتفاء التأخُّر، بنظمه في سلك المستحيل الذي هو إمكان التقدُّم مع حضور الأجل، ويجوز أن يفسَّر مجيء الأجل بقرب حضوره، فيمكن حينئذ التقدُّم لأنَّـه لم يحضر الأجـل بـل قـرب حضـوره فيجـوز العطـف على «يَسْتَاخِرُونَ».

ومعنى الاستفعال هنا: التفعُّل، أي لا يتأخَّرون ولا يتقدَّمون، أو الطلب أي: لا يطلبون التأخُّر ولا التقدُّم لشدَّة الهول. ثمَّ إنَّ الآية كناية عن عدم استطاعتهم تغيير الأجل؛ أريد لازم معناها فقط لا ما وضع له اللفظ، ألا ترى أنَّهم لا يليق بهم أن يطلبوا تقديم العذاب، اللهمَّ إلاَّ أن يقال: أشارت الآية إلى استعجالهم العذاب في مثل قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ اَوِ اِيتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ (سورة الأنفال: ٣٢) أي لا يقولون ذلك إذا جاء بل قالوه حال الرخاء.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ اِتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾

جزاء المؤمنين المتقين وإنذار المكذبين بآيات الله

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ إمَّا: [مركَّبة مِن] «إن» الشرطيَّة، و«ما» التي هي صلة، لتأكيد عموم الإتيان، أي إن اتَّفَقَ الإتيان بوجه من الوجوه، والمشهور أنَّها لتأكيد ربط الجواب بالشرط لا للعموم وله، والخطاب عامٌّ، والمراد: رسل من جنسكم، لأنَّ إرسالها من جنسهم أقطع لعذرهم، لأنَّه إذا جاء رسول منهم بما يعجزهم وقد علموا أنَّه ليس في قدرته كما عرفوه أيقنوا أنَّه من الله ﷻ. وفي الآية خطاب السابقين لاستحضار أحوالهم السابقة كأنَّها مشاهدة، وفيها تغليب الحاضرين وهم الأمَّة هذه ونبيئها، أو أهل مكَّة والنبيء، أو يلتحق غيرهم بهم، ويجوز أن يراد بالرسل سيدنا محمَّد ﷺ تعظيما له، وأيضا الرسل السابقون نوابه وكأنَّهم كلُّهم هو، و«إن» الشرطية الموضوعة للشكِّ تعالى الله عنه تشعر بأنَّ إرسال الرسل من الجائز لا واجب، وكلٌّ ما سوى الله وصفاته جائز.

﴿يَقُصُّونَ﴾ نعت رسل ﴿عَلَيْكُمُ, ءَايَاتِي﴾ دلائل وحدانيتي، وأحكامي مِمَّا يتلى وغيره ﴿فَمَنِ اتَّقَى﴾ منكم الشرك والتكذيب والكبائر والكبر ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله، أي أَدَّى الواجبات، ولا تتوهَّم أنَّه لا بدَّ من تقدير «منكم» للربط، لأنَّ أداة الشرط هنا حرف لا اسم. ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جواب «مَن» الشرطيَّة أو الموصولة المزيد في خبرها الفاء، ومجموع ذلك كلِّه جواب «إنْ»، كذلك قالوا، **والذي عندي** أنَّه لا يجوز حمل «مَن» على أنَّها موصولة في القرآن إذا صحَّت الشرطيَّة بلا تكلُّف.

﴿وَالذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾ منكم ﴿وَاسْتَكْبَرُواْ﴾ ترفَّعوا ﴿عَنْهَآ﴾ أي عن تصديقها تعظيما لأنفسهم عن أن يذعنوا لها ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ﴾ أي ملاصقو وحاضرو ﴿النَّارِ﴾.

(أصول الدين) ولا دلالة في الآية بإسقاط الفاء من قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ على جواز إخلاف الوعيد ولو عند قومنا كما توهَّم بعضهم، فإنَّ المشرك لا يعفى عنه إجماعا، والمكذِّب مشرك، إلاَّ أن يدَّعى أنَّ الإسقاط تلويح إلى جواز إخلافه في غير المشرك، وذلك مع أنَّه غير حجَّة هو ضعيف أيضا، ومقابل ذلك أنَّها تثبت في ﴿فَلاَ خَوْفٌ...﴾ مبالغة في الوعد كذا قيل، وإنَّما يثبت على أنَّ «مَن» موصولة، ولا يلزم هذا بل الأصل أنَّها شرطيَّة. وقرن خبر الموصولة بالفاء تشبيه لها في العموم بالشرطيَّة لا تلويح لِلمبالغة. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أبدا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

عاقبة الكذب ومشهد دخول الكفَّار إلى النار

وعظَّم الله ﷻ جريمة المتكبِّرين عن الإيمان الموجبة للعقوبة بقوله: ﴿فَمَنَ اَظْلَمُ﴾ لا أعظم ظلما ولا مساوي ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ بالإشراك وإثبات الصاحبة والولد، وتحليل ما لم يحلَّ وتحريم ما لم يحرِّم ﴿أَوْ كَذَّبَ بِئَايَاتِهِ﴾ أي المتلوَّة والمعجزات ﴿أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿نَصِيبُهُمْ﴾

من رزق ولباس وصحَّة بدن وعمر وسائر ما يتمتّع به، وهذا أنسب بلفظ النصيب لأنّه في النفع أظهر، أو ﴿نَصِيبُهُمْ﴾: سواد الوجوه وزرقة العيون، ونار تلظّى، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾(سورة الليل: ١٤) والأغلال ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ (سورة غافر:٧١)، أو الجزاء على الأعمال، وهذه الشرور أنسب بقوله: ﴿يَنَالُهُمْ﴾ إذ لم يقل: ينالون، أو كلُّ ما يكون لهم في الدنيا من محبوب ومكروه وغيرهما وهذا والوجه الأوّل أنسب بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُم...﴾ إلخ لأنَّ حتَّى ولو كانت للابتداء لا تخلو من الغاية والتفريع بخلاف ما هو من الشرِّ الذي يقع في الآخرة، فإنَّه لا يسبق الوفاة فلا تتفرَّع عليه، اللهمَّ إلاَّ على طريق الترتيب الذكريِّ، والنصيب: هو المكتوب في «مِن» في قوله: ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ للبيان، والكتاب بمعنى المكتوب، أي ينالهم نصيبهم حال كونه هو المكتوب لهم، أو مكتوبهم، ويجوز أن تكون للتبعيض فيشمل الكتاب كلَّ ما كتب لهم ولغيرهم، كما قيل: إنَّ الكتاب اللوح المحفوظ فإنّه كتب فيه نصيب كلِّ أحد، وعليه فـ«مِن» للابتداء.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يستكملون عدد أرواحهم في الموت عند آجالهم، أو ﴿رُسُلُنَا﴾: ملائكة موكّلون باستكمال عددهم في إدخال النار. والجملة حال مقدَّرة، أي ناوين توفّيهم، أو مريدين له. ﴿قَالُوا﴾ أي الرسل ﴿أَيْنَ مَا﴾ «ما» موصول اسميٌّ، أي: أين الذين ﴿كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي تدعونهم أي تعبدونهم، وإنّما قدرت «الذين» وضمير جماعة الذكور العقلاء وهو هم لأنَّ المشركين يعظّمون أصنامهم، ويتكلّمون فيهم بصيغة ذلك كما في آيات أخر، وكما عبَّروا عنهم بواو «ضلّوا» في قوله: ﴿قَالُوا﴾ أي المشركون ﴿ضَلُّوا﴾ أي الأصنام ﴿عَنَّا﴾ أي غابوا، إذ لم يحضروا، أو حضروا وغابوا، أو لم ينفعونا فكأنّهم غابوا

ولــو حضروا.

ومقتضى جواب «أَيْنَ» أن يقولوا: لا ندري أين هــم، أو في موضـع كـذا، ولكن أجـابوا بـ«ضَلـُّوا» لأنَّ معنـى السؤال: مـا شـأن آلهتكـم الـتي تعبدونهـا وترجون نفعها؟ فأجابوا بأنّها ضلّـت حـين اشـتدَّت الحاجـة إلى النفـع، وأنـت خبـير بأنَّ مجيء الرسل والتوفّي في الدنيـا وقولهـم: «ضلـُّوا» في الآخـرة، فليـس «قالوا» جواب «إِذَا» بل جوابها محذوف، أي اشتدَّ الأمر عليهم، أو كان ما لا يوصـــف، و«قَـــالُوا» مـستـأنف لِمَـا بعـد القيامـة والبعـث، بصيغـة المـاضي لـتـحقـُّـق الوقوع.

ويجوز أن يكون جواب «إِذَا» إمَّا على أنّه عند المـوت كأنّـه قيـل: أيـن مـا كنـتم تدعون فيدفعون عنكم الموت وشدَّته؟ قالوا: ضلــُّوا عنـَّا، كمـا يقولونـه بعد البعث أيضا، وإمَّا على أنَّ ما بـين الموت والحشر كالزمان الواحد، كما هــو ظاهر قوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾(سورة نوح: ٢٦) إن لم نــقل: نار في الماء، وإمَّا على أنَّ الزمان الممتدَّ من ابتداء المجيء والتوفّـي إلى انــتهائه هـو يوم الجـــزاء، والمـــوت من مبادئ قيام القيامة، وإمَّا على قصد بيان غاية سرعة البعـث والجـزاء كأنّهمـا عنـد ابتـداء التوفّـي، وقـد قـال ﷺ: «**مـن مـات فــقد قـامت قيامته**»[1].

﴿**وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ**﴾ عطف قصَّة على أخرى، أو على «قَالُواْ»، فيكون من جوابهم وليس مـن مقولهـم، وإنّمـا يكـون منـه لـو عطف على مدخوله فصحَّ كلام أبي حيَّان، ولا تعارض بين الآية وقوله تعـالى: ﴿وَاللهِ رَبِّنَـا مَا كُنَّـا مُشْرِكِينَ﴾(سورة الأنعام: ٢٤) لأنّهم طوائف، تقــول طائفـة

١- أورده **الشوكاني** في كتاب الفوائد المجموعة ص٢٦٧.

ما لم تقل أخرى، أو يقولون في وقت ما لم يقولوا في الآخر.

﴿قَالَ﴾ الله أو أحد الملائكة يوم البعث للذين افتروا على الله الكذب، وجعلوا له شركاء ﴿ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ﴾ أي حال كونكم في جملة أمم، أو مع أمم متعلّق بثابتين، والأمم: الجماعات أو الملل، والحال مقارنة في استحقاق الدخول، وإن اعتبرت نفس الدخول فمقدَّرة، لأنّهم لا يكونون فيهم أو معهم حتّى يتِمَّ الدخول.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ متعلّق بـ«ادْخُلُواْ»، أو بدل اشتمال من «أُمَمٍ»، والرابط «الـ»، أي في نارها، أو محذوف أي في النار لها.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ في النار أي كلَّ دخول أمَّة، أي كلَّ وقت دخول أمَّة، متعلّق بقوله: ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ لأنّها أضلّتها، والمراد أُخُوَّتُهَا في الملّة الباطلة، أو في مطلق الضلال ولو اختلفت الملل ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ﴾ تداركوا، أبدلت التاء دالا وأدغمت في الدال فجيء بهمزة الوصل للسكون، أي تلاحقوا. «حَتَّى» ابتدائيَّة، ولا تخلو عن غاية، و«إِذَا» بعدها غير مجرورة، وَقِيلَ: مجرورة، وقال بعض: لا تدلُّ على الغاية، وهو باطل. ﴿فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ أي الأتباع المتأخّرون دخولا، أو منزلة أو زمانا، لأنَّ الأوّل يُشَرِّعُ الضلال ولو لمن لم يلحق زمانه بعده ﴿لِأُولاَهُمْ﴾ أي المتقدّمون دخولا، أو منزلة أو زمانا، والرؤساء المتّبَعون يدخلونها قبل، واللفظان صيغة تفضيل خارجة عن معناه، واللام بمعنى في، أي في شأن أولاهم، وليست للتبليغ لأنَّ كلامهم مع الله كما قال: ﴿رَبَّنَا﴾ ياربَّنا ﴿هَـؤُلاَءِ﴾ المتقدّمون ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن دينك بتزيين الضلال لنا ﴿فَئَاتِهِمْ﴾ لأنّهم السبب ﴿عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أمثالا كثيرة منه زائدة على ما لنا من العذاب، كقوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ﴾(سورة

سبأ: ٣٧) فإنَّ المراد أمثالا، الحسنة الواحدة عشرة فصاعداً إلى سبع مائة وأكثر.

(لغة) ولا يختصُّ في العَرَبيَّة الضعف بالواحد كما هم المتعارف فيه، فالضعف في العرف مِثْلُ الشيءِ مرَّةً واحدة، وفي العَرَبيَّة المثل إلى ما زاد بلا حصر، فضِعْفَا الواحدِ واحدٌ ومثلاه، وَقِيلَ: كالزوج كلٌّ يزاوج الآخر فيقتضي اثنين، لأنَّ كلَّ واحد منهما يضاعف الآخر فلا يخرجان منهما.

﴿قَالَ﴾ الله ﷻ ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم ومنهم ﴿ضِعْفٌ﴾ يعلمه الله؛ المتبوعون لكفرهم وتضليلهم، والتابعون لكفرهم وتقليدهم، ولو كان كثرة الضعف لهم زيادة على كثرة التضعيف لمقلّديهم، وأيضا الضالُّون يزيدون المضلّين غواية لامتناعهم إيَّاهُم، ولأنَّ فاعل المعصية يجترئ به غيره عليها، وهذا مطّرد دون الذي قبله، ولهم الضِّعف للكفر والتقليد ﴿وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ ما أعدَّ لكم ولهم، أو الخطاب للطائفتين، والأوَّل أولى لأنَّ الكلام منهم إلى الله لا بحضور الآخرين معهم.

﴿وَقَالَتُ اولاَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ﴾ هذه اللام للتبليغ، لأنَّ الأولى خاطبت الأخرى، ولا مانع من أن يقال بمعنى: في، أي قالت أولاهم في شأن الأخرى ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ بنقص العذاب وما لنا زيادة عذاب، لأنكم كفرتم باختياركم لا بإجبار منَّا، أو لا نعمة منكم علينا في الدنيا باتّباعكم إيَّانا، لا تحسبوا أنَّ اتّبَاعكم إيَّانا شيء تفضَّلتم به علينا بل اخترتموه لأنفسكم، فإنَّا وإيَّاكم متساوون في العذاب، أو لا فضل لكم باجتناب الضلال تطمعون به في تخفيف العذاب. والعطف على محذوف، أي كفرتم باختياركم، ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أو ثبت لنا ولكم ضِعفٌ فما كان لكم علينا من فضل، ويضعف أن يقال: دعوتم الله فسوَّى بيننا وبينكم فما كان... ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ باختياركم، هذا من قول أُولاَهُمْ

لأُخراهُم، أو من قول الله تعالى، أي يقول الله ﷻ للأولى والأخرى: قد كفرتم كلُّكم، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

جزاء الكافرين

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا**﴾ متلواتها ومعجزاتها ﴿**وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا**﴾ عن الإيمان بها والعمل بمقتضاها ﴿**لاَ تُفَتَّحُ**﴾ شدَّد للمبالغة العائدة إلى النفي، أي ينْتفي الفتح لهم انتفاء بليغا، أو إلى كثرة الأبواب، أو إلى أنَّ لكلِّ سماء أبوابا ﴿**لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ**﴾ لأدعيتهم وأعمالهم، ولا لنزول البركة، ولا لأرواحهم عند النوم والموت، لأنَّها خبيثة كما تفتَّح للمؤمنين لأجل ذلك لطيبهم وطيب أرواحهم، فتتَّصل بالملائكة ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(سورة فاطر: ١٠). قال ﷺ: «**إنَّ روح المؤمن يعرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: مرحبا مرحبا بالنفس الطيِّبة التي كانت في الجسد الطيِّب، إلى أن ينتهى بها إلى السماء السابعة. ويستفتح لروح الكافر فيقال لها: ارجعي ذميمة، فيهوى بها إلى سجِّين**»[1] ومعها في صعودها ريح منتنة كأنتن جيفة على الأرض، لا تمرُّ على ملإ من الملائكة إلاَّ قالوا: ما هذه الرائحة

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ. وإنَّما رواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد، رقم ٤٢٦٢، بنفس المعنى، وأوَّله: «الميِّت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل صالحا...» من حديث أبي هريرة.

الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه في الدنيا. والنفي لعموم السلب.

﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ يدخل وَقِيلَ: الولوج خاصٌّ بالمضيق ﴿الْجَمَلُ﴾ البعير الذكر إذا بزل، وَقِيلَ: إذا بلغ أربع سنين، والبعير أكبر ما ترى العرب من الحيوان، والفيل أكبر لكن ليس في أيديهم ولا في برِّهم، وَقِيلَ: الحبل الغليظ من القُنَّب، وَقِيلَ: حبل السفينة، **والأوَّل هو الصحيح**، وقد عنَّف ابن مسعود السائل عن الجمل بقوله: إنَّه زوج الناقة، وكذا الحسن عنَّف السائل بقوله: إنَّه ابن الناقة الذي يقوم في المربد على أربع قوائم، وذلك كراهة منهما لتفسيره بغير البعير، ﴿فِي سَمِّ﴾ ثقب ﴿الْخِيَاطِ﴾ الإبرة.

استحال دخولهم الجنَّة كما استحال دخول الجسم الغليظ في الثقب الضيِّق، وذلك حقيقة غيَّاها بالمحال، وهذا أولى من الاستعارة التمثيليَّة إلاَّ أنَّها أَشَدُّ مبالغة، حيث يمكن أن يراد ما هو أعظم من الجمل وأضيق من ثقب الإبرة، ودخول الجمل في سمِّ الخياط مستحيل وهو قاعد ولا سيما إن كان قائما أو ممتدًّا على جنب.

﴿وَكَذَالِكَ﴾ أي على الوصف من استحالة دخول الجنَّة، ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي نجزيهم، وذكرهم باسم المجرمين ليصرِّح بأنَّهم مجرمون، وأنَّ الإجرام سبب الجزاء، أو المراد عموم المجرمين، ويدخل هؤلاء دُخُولاً أَوَّلِيًّا في هذا العموم.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية من نار، كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾(سورة الزمر: ١٦) قالت عائشة رضي الله عنها: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فقال: **«هي طبقات من فوقه وطبقات من تحته، لا يدري ما فوقه أكثر أو ما تحته، غير أنَّه ترفعه الطبقات السفلى وتضعه العليا، ويضيق فيما بينهما حتَّى**

يكون كالزجِّ في القدح»[1]. واحدُ غاشيةٍ، فإنَّ الغطاء يقال لـه: غاشـية، بمعنـى أنَّ جهنَّم محيطة بهم من الجهات الستِّ، فإنَّ الغطاء يعمُّ الرأس والرجلين، وذلك تهكُّـم بهم على طريق الاستعارة التصريحيـَّة، أو الكناية عـن أنَّهـم أحبـاء علـى الاستهزاء حتّى استحقُّوا الفراش، وجـرِّدت بذكـر النّـار. و«مِـن» تبعيضيـَّة، أو ظرفيَّة، أو تجريديَّة كقولك: لي من فلان صديق.

﴿وَكَذَالِكَ﴾ بالمهاد والغواشي من جهنّم ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي نجزيهم، أو الظالمين عموما مثل ما قبله، سمَّاهم ظالمين ومجرمين لظلمهم وإجرامهم، إلاَّ أنَّه ذكر الإجرام في حرمان الجنَّة والظلم في دخول النار، لأَنَّ الظلم أعظـم الأجـرام والإجرام أعمُّ منه، وحرمان الجنّة بلا عذاب لو كان ذلك هو أهون من العـذاب مع حرمانها، وإنّما قلت: لو كان، لأنّـه لا يكـون؛ وأمَّـا مـا قيـل: إنَّ أصحـاب الأعراف لا يدخولون الجنّة أبدا ولا النار فقول باطل.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا اِلاَّ وُسْعَهَآ أُوْلَٓئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الاَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلهِ الذِي هَدَينَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَينَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾

جزاء المؤمنين المتّقين

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّـفُ نَفْسًـا اِلاَّ وُسْعَهَآ﴾ هـذه

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٣، ص١١٩، من حديث عائشة.

الجملة السلبيَّة معترضة بين المبتدإ وخبره، على طريق الاهتمام بتعجيل ذكر ما يهمُّ ذكره، وهو الترغيب بذكر تسهيل الطريق إلى مضمون خبر المبتدإ، وهو الجنَّة والخلود فيها ببنائه على وسع النفس الذي هو القدرة بلا تكلُّف مشقَّة تعظم، فالدين يسر لا عسر، لا كما قيل: إنَّ الوسع هو أقصى ما يمكن تحمُّله، ثمَّ نسخ إلى ما ذكر، فإنَّ أقصى ما يمكن تحمُّله هو جهد لا وسع، وأيضا لا يخفى أنَّ المقام ترغيب فلا يناسبه هذا.

وفي الآية تحسُّر للكفار إذ حرموا أنفسهم النعيم الذي لا عين أبصرته ولا أذن سمعته، ولا خطر على قلب، مع سهولة نيله، وزاد هذا الاعتراض حسنا بوصله بموجب مضمون الخبر، وموجبه هو الإيمان والعمل الصالح، والخبر هو قوله: ﴿**أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ وليس كما قيل إنَّ هذا مستأنف والخبر: «لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا اِلاَّ وُسْعَهَا».

﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ**﴾ حقد، نزعه الله ﷻ بعد إعطائهم كتبهم بأيمانهم، وقبل دخولهم الجنَّة، الغلَّ الذي كان في الدنيا وأسبابه، وإنَّما ذلك لزوال متعلّقات الدنيا، وعدم شياطين الإنس والجن إذ شغلوا بعذاب النار، وصفاء النفوس بتطهير الله ﷻ لها فلا يحقد أحد على أحد لِمَا في الدنيا ولا لمضرَّة في الجنَّة لعدم الضرر، ويترتَّب على ذلك أنَّه لا يحسد ذو الدرجة المنحطَّة ذا الدرجة العالية عليه، بل لا يخطر في قلبه علوُّها أو يحضره إلاَّ رأى نفسه أفضل درجة مِمَّن فوقه، ومن أسباب الغلِّ الحسد ولا حسد فيها.

وليس المراد: النزع في الدنيا كما قال بعض، بل في الآخرة لمناسبة ما بعده، ومُقَابَلَةِ تَلاَعُنِ أهل النار في الآخرة. وروي عن رسول الله ﷺ أنَّهم يتواخذون الظلامات عند بابها، فلا يحقد أحد على أحد فيدخلونها، وَقِيلَ: المراد إزالة الحقد عند الموت فيموتون بلا حقد.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ﴾ تحت قصورهم ﴿الاَنْهَارُ﴾ زيادة في لذّتهم، ينبع عينان من أصل شجرة على باب الجنّة يشربون من إحداهما فيخرج ا لله ﷻ غلّهم وقذرهم، وهو الشراب الطهور في قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾(سورة الإنسان: ٢١) ويشربون من الأخرى فيطيّب ا لله أجسادهم من كلّ وسخ وجرت عليهم النضرة فلا يشعثون ولا يشحبون ولا يتغيّرون، فيناديهم خزنة الجنّة ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ...﴾ الآية.

﴿وَقَالُواْ﴾ عند استقرارهم في منازلهم من الجنّة: ﴿الْحَمْدُ للهِ الذِي هَدَانَا﴾ وفّقنا ﴿لِهَذَا﴾ العمل الذي جزاؤه ما نحن فيه الآن، وهو الإيمان والعمل الصالح والتقوى، وذكر ﴿قَالُواْ﴾ بدل يقولون لتحقُّق الوقوع بعدُ، وأشاروا بهذا إلى العمل الواقع في الدنيا مع بُعده استحضارا له وفرحًا به، أو لحضور عاقبته ومسبّبه وهي جري الأنهار ودخول الجنّة، فكأنّه حضر ذلك الذي في الدنيا، أو الإشارة إلى دخول الجنّة وجري الأنهار، أي هدانا إلى ذلك وأوصلنا إليه بسبب الإيمان والعمل والتقوى، ويضعف ما قيل من أنَّ الإشارة إلى نزع الغلّ من الصدور.

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ إلى العمل الصالح والإيمان والتقوى أو إلى هذه المنازل والأملاك، ﴿لَوْلآَ أَنْ هَدَانَا ا للهُ﴾ وفّقنا إلى ذلك ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ الصدق عن ا لله في ثواب الإيمان والعمل والتقوى، إذ شاهدوا الثواب طبق ما أخبر ا لله ﷻ به، وهذه الجملة لإنشاء السرور في المعنى إخبارٌ لفظا، كإنشاء التحسُّر في قوله:

هواي مع الركب اليمانين مصعد جنيب وجثماني بمكّة موثق

﴿وَنُودُواْ﴾ أي ناداهم الملائكة، أو ا لله بأن خلق ا لله لهم صوتا سمعوه ﴿أَن﴾ مخفّفة، أو مفسّرة، لتقدُّم معنى القول دون حروفه، وكذا ما بعدُ ﴿تِلْكُمُ﴾ مبتدأ ﴿الْجَنَّةُ﴾ خبر، إشارةً إليها قبل دخولها وبعد ظهورها برؤيتها

من بعيد، ولذلك كانت إشارة البعد، وَقِيلَ: بعد دخولها، وعليه فالإشارة باعتبار الإخبار عنها في الدنيا، أي الجنّة البعيدة منكم في الدنيا حين أخبركم الرسول بها، وَقِيلَ: إشارة البعد لرفع الرتبة ﴿**أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ بكونكم تعملون العمل الصالح، ومنه جبذ النفس عن المعاصي، أو بما كنتم تعملونه، والجملة حال من الخبر، كقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ (سورة النمل: ٥٤) أو خبر و«الْجَنَّة» تابع، ولا تنافي الآية قوله ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنّة بعمله بل بفضل الله ورحمته وشفاعتي**»[1].

(أصول الدين) وانقسام الدرجات بالأعمال لأنَّ المعنى أنَّ العمل لا يوجبها ولكن جعله الله سببا عاديا وعلامة، وما أقبح ما قيل عن المعتزلة أنَّ دخولها ليس بفضل الله بل بمجرَّد العمل، وهذا عجيب جدًّا، وقال ابن حجر: المنفيُّ في الحديث دخولها بالعمل المجرَّد عن القبول، والمثبت في الآية دخولها بالعمل المتقبَّل (والقبول فضل من الله). وذكر القرطبيُّ أنّهم إذا دخلوها بأعمالهم فقد دخلوها برحمته لأنَّ أعمالهم رحمة من الله لهم.

وذكر الله الإيراث لأنَّ الحيَّ يرث الميِّت، والمؤمن حيٌّ والكافر ميِّت، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾(سورة النحل: ٢١) ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٢٤) ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٣) ﴿لِتُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ (سورة يس: ٦٩) قال ﷺ: «**ما من أحد إلاّ وله منزل في الجنّة**

---

١ -رواه **الربيع** في مسنده: (٥٥) باب في الآداب، رقم ٧٣٦. الشطر الأوَّل منه من حديث ابن عبَّاس. ورواه **مسلم** في كتاب صفات المنافقين (١٧) باب: لن يدخل أحد الجنّة بعمله بل برحمة الله، رقم ٧٥، من حديث أبي هريرة.

ومنزل في النار»[١]، فأمَّا الكافر فإنه يورِّث المؤمن منزله من الجنَّة، والمؤمن يورِّث الكافر منزله من النار، فذلك قوله تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فالإيراث استعارة أَصلِيَّة للإعطاء اشتقَّ منها تبعيَّة في لفظ أورث، ثمَّ إنَّه لَمَّا كان دخولها بفضل الله لا بالعمل كان كالإرث يتحصَّل من غير كسب، وذلك فيما لهم وفيما انتقل إليهم من الكفرة.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

محاورة بين أهل الجنَّة وأهل النار وأصحاب الأعراف

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ تبكيتا وإفحاما وتبجُّحا، وتحسيرا وشماتة بعد دخولها، ودخول الكفَّار النار، أمَّا التبجح ففي قوله ﷻ: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا﴾ من الثواب للإيمان على ألسنة الأنبياء ﴿رَبُّنَا

---

١ -أورده السيوطي في الدرر، ج٣، ص٩٣، مع زيادة في آخره.

حَقًّا﴾ وأمَّا التحسير والشماتة ففي قوله ﷻ: ﴿**فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ**﴾ من العقاب على ألسنة الأنبياء ﴿**حَقًّا**﴾ وأما التبكيت والإفحام ففي الموضعين. وقال: ﴿وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ ولم يقل: وعدكم، ليشمل ما وعدهم وما وعد المؤمنين أيضا، ففي ذلك برهان لِمَا وعد المؤمنين بعد برهان، وقالوا «مَا وَعَدَنَا» ولم يقل: ما وعد، فرحا وتبجُّحا بما نالوا من الوعد خصوصا، وهو منازلهم في الجنَّة، ومنازل أعدائهم فيها، وتعذيبهم، فإنَّهم يفرحون بتعذيب أعدائهم، أو عموما كالبعث والحساب فَإِنَّهُمَا منفعة أيضا لأنَّه أفضوا إلى الجنَّة.

والتخاطب بين أهل الجنَّة وأهل النار من هذه الأُمَّة وسائر الأمم، كلُّ فرد لكلِّ فرد، أو المراد الحقيقة لا كلُّ فرد، كمن يقع خصام بينه وبين الكفَّار في أمر الإيمان، والظاهر أنَّهم يطَّلعون على أهل النار من سور الجنَّة، أو من منازلهم فيوصل الله الكلام بينهم وبين أهل النار، قال الله ﷻ: ﴿فاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ﴾ (سورة الصافَّات: ٥٦) بتقوية الله أصواتهم، أو بتقريب الجنَّة، أو النار للأخرى، ويحتمل أنَّ الاطِّلاَع الكشف، فينكشفون من سور الجنَّة لأنَّه شفَّاف ﴿**قَالُواْ نَعَمْ**﴾ لم يمنعهم شدَّة العذاب عن الجواب ولا عن التوبة، إلاَّ أنَّها لم تقبل فقد تابوا ولم تقبل كما هو ظاهر، لا ما قيل إنَّ الله يصرف قلوبهم عن التوبة فلا تصدر منهم إلاَّ أن يقال: صرفها آخرا ﴿**فَأَذَّنَ**﴾ بسبب السؤال والجواب كما تَدُلُّ عليه الفاء ﴿**مُؤَذِّنٌ**﴾ هو إسرافيل كما تولَّى النفخ للموت والبعث، أو جبريل لأنَّه النازل بأمر الدين، أو خازن النار، أو من شاء الله من الملائكة ﴿**بَيْنَهُم**﴾ بين أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار تتميما لمسرَّة فريق الجنَّة، وزيادة في حزن فريق النار ﴿**أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾ يُعرِضون، فشمل من ضلَّ وأضلَّ غيره، ومن ضلَّ ولم يضلَّ غيره، وهو مِن «صَدَّ» اللازم، أو يصدُّون الناس من المتعدِّي ﴿**وَيَبْغُونَهَا**﴾ يطلبون لها ﴿**عِوَجًا**﴾ ميلا، بإلقاء الشبه، أو يقولون إنَّهَا معوجَّة عن الحقِّ، أو يجعلون

مكانها عوجا، كالصلاة لغير الله وتعظيم ما لم يعظمه الله؛ و«هَا» منصوب المحلِّ على نزع الجارِّ، و«عِوَجًا» حال، أي ذات عوج. ﴿**وَهُم بِالاَخِرَةِ كَافِرُونَ**﴾ نافون للبعث والحساب والجنَّة والنار ﴿**وَبَيْنَهُمَا**﴾ بين الفريقين ﴿**حِجَابٌ**﴾ ستر عال بين الجنَّة والنار ﴿**وَعَلَى الاَعْرَافِ**﴾ أي على أعراف الحجاب أي أعاليه، وهو أعلى موضع في الموضع العالي، والمفرد عرف، وهو مأخوذ من عرف الديك، وَقِيلَ: جبل أحد ينقل إلى ذلك الموضع، قال ﷺ: «**أُحُد جبل يحبُّنا ونحبُّه**» و«**أنَّه يوم القيامة يمثل بين الجنَّة والنَّار يحبس عليه أقوام يعرفون كلاًّ بسيماهم وهم إن شاء الله من أهل الجنَّة**»[1]، وَقِيلَ: سور الجنَّة، [قلت] **والأوَّل هو الذي ظهر لي ثمَّ رأيته لغيري**. ﴿**رِجَالٌ**﴾ قوم استوت حسناتهم وسيِّئاتهم، ومعهم نورهم وقفوا بين الجنَّة والنار على الأعراف، لتوسُّطهم بين الحسنات وَالسَّيِّئَات، ومصيرهم إلى الجنَّة إذ لا دار في الآخرة إلاَّ هي، أو النار يلقون في نهر حافَّتاه قضب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه مسك فتصلح ألوانهم، فتكون في نحورهم شامة بيض يعرفون بها يسمَّون مساكين أهل الجنَّة، قاله حذيفة وابن مسعود وابن عبَّاس رضي الله عنهم.

واعتبار استواء الحسنات والسيِّئات أو الزيادة مذهب قومنا والمشارقة، وأمَّا المغاربة فلا يعتبرون ذلك بل إن مات تائبا بطلت سيِّئاته كلُّها، ولو كنَّ أكثر، أو مصرًّا بطلت حسناته ولو كنَّ أكثر، ولا مانع من أنَّهم ماتوا تائبين ولكن حبسوا لاستوائهما، إلاَّ إن صحَّ أنَّهم آخر من يدخل الجنَّة فإنَّه من قلَّت حسناته ومات تائبا أحقُّ بالتأخير.

١- روى **البخاري** الشطر الأوَّل منه في كتاب الزكاة (٥٣) باب خرص التمر رقم ١٤١١. كما أورده **القرطبيُّ** في تفسيره بهذا اللفظ تماما، وقال: قال ابن عطية: وذكر الزهراوي حديثا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحد جبل...».

وَقِيلَ: أهل الفترة، ولا يصحُّ، لأنّهم مشركون مصيرهم إلى النار، ولا بـأس إن آمنوا با لله ووحَّدوه و لم يجدوا من يعلّمهم سائر أمور الشرع، أو قوم خرجوا إلى الجهاد من غير إذن آبائهم فقتلوا، قاله شرحبيل بن سعد، وروي عنه ﷺ «**أنّهم قوم قتلوا عصاة لآبائهم فمنعهم القتل عن النار، ومعصيَّة آبائهم عن الجنّة**»[1]، وهم آخر من يدخل الجنّة، ذكره الطبري، أو قوم رضي عنهم آبائهم دون أمَّهاتهم، أو أُمَّهَاتهم دون آبائهم، قاله إبراهيم النخعي، أو أطفال المشركين رواه أبو صالح عن ابن عبَّاس، أو قوم صالحون علماء فقهاء يكونون هناك نزهة ولبيان شرفهم، قاله مجاهد، أو أنبياء ـ حكاه ابن الأنباري ـ إظهارا لفضلهم، وليطّلعوا على أهل الجنّة والنار، ومقادير الثواب والعقاب، أو ملائكة يعرفون الفريقين بسيماهم.

والتأنيث بتأويل الجماعة في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ (سورة القدر: ٤) وقوله تعالى: ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ (سورة النحل: ٣٢) وقوله: ﴿إِلاَّ أَن تَاتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ (سورة الأنعام: ١٥٩) لا يمنع ذلك، ذكره أبو مجلز[2] واعترض بأنَّ لفظ الرجال يطلق على ذكور الآدميِّين والجنّ، أو الشهداء، أو فضلاء المؤمنين والشهداء فرغوا من شغل أنفسهم وتفرَّغوا لمطالعة أحوال الناس، أو عدول القيامة يشهدون على الناس وهم في كلّ أمّة، واختاره النحَّاس[3]، أو قوم

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٣، ص١٢٤.

٢- أبو مجلز لاحق بن حميد بن سعيد، ويقال: شعبة بن خالد السدوسي البصري، محدّث روى عنه أصحاب الصحاح الستّة، تُوُفِّيَ سنة ١٠١هـ. تهذيب التهذيب لابن حجر، ج١١، ص١٥١.

٣- هو أحمد بن مُحَمَّد بن إسماعيل المرادي المصري، أبو جعفر النحاس، مفسّر، نحويٌّ أديب من أهل مصر، رحل إلى بغداد وأخذ عن أصحاب المبرّد وعن نفطويه والزجَّاج، كان واسع العلم غزير الرواية، تُوُفِّي سنة ٣٧٨هـ غرقا بالنيل. **معجم المفسّرين**، ج١، ص٦٠.

لهم صغائر لم تكفَّر بالمصايب وليس لهم كبائر ولو كفّرت باجتناب الكبائر والوضوء والصلاة والحجّ والعمرة والصوم، وفيه أنّه إذا كفّرت لم تحتج إلى تكفير آخر، أو أولاد الزنى، روي عن ابن عبَّاس وهو ضعيف، إذ الزنى ذنب لآبائهم، رأيت هذه الأقوال في تذكرة القرطبي من نسخة مقابلة على نسخة نسخت من خطّه، أو قوم معجبون لم يوصلهم عجبهم إلى كبر أو أمن، أو قوم دانوا دَيْنا من غير إسراف ونووا قضاءه.

﴿يَعْرِفُونَ﴾ أي يعرفون أهل الجنّة وأهل النار **﴿كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾** علاماتهم من بياض وجوه المؤمنين ونورهم، وسواد وجوه الكفرة وظلمتهم.

(لغة) مِن: سَامَ الفرسَ إذا أرسلها في المرعى، من السيمة بمعنى العلامة، لأنّهم يعلمون الدابة بعلامة ويسرحونها في المرعى، فلا قلب، أو مِن: وَسَمَ أي جعل علامة فقدّمت السين على الواو وقلبت ياء للكسر فيها، ففيها القلب الصرفيُّ والمكانيُّ، وذلك كاف في المعرفة، إذ لا نور للكافر في وجهه ولا ظلمة للمؤمن يومئذ، وَقِيلَ: بالإلهام أو بإخبار الملائكة، وهذه السيما زيادة على علامة كونهم في الجنّة وكونهم في النار، لأنَّ ذلك بعد كونهم فيهما ولا مانع من كونه قبل الكون فيهما، ولا حاجة للعلامة بعد الدخول إلاّ قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ فبعد الدخول وذلك بينهم لا مدخل فيه لأهل الأعراف.

﴿وَنَادَوا﴾ من الأعراف وهي عالية على الجنّة، أو سور الجنّة شفّاف، أو ينادون ولو بلا رؤية **﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾** بعد كونهم فيها **﴿أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾** إخبار لا دعاء، لأنَّ أهل الجنّة آمنون من المكاره، أو دعاء بالزيادة لهم **﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾** أي أصحاب الأعراف حال من الواو، أو مستأنف كأنّه قيل: ما

حال أهل الأعراف؟ فقال: لم يدخلوها ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها، وهذا ينافي أنَّ أهل الأعراف ملائكة، أو أنبياء أو شهداء لأنَّهم موقنون بدخول الجنَّة لا طامعون، إلا أن يتكلَّف أنَّ قوله: ﴿يَطْمَعُونَ﴾ بمعنى يعلمون، كما فسَّر الحسن وأبو عليٍّ الطمع هنا باليقين، وأيضا لا يلائم ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتَ اَبْصَارُهُمْ...﴾ وأيضا هؤلاء يدخلون قبل كلِّ أحد، ولا يعادله ما قيل إنَّهُم يوقفون ليشاهدوا أحوال أهل الجنَّة وأهل النار، ويزيدوا لذَّة وأهل النار حسرة بهم، أو نادى أصحاب الأعراف أهل الجنَّة قبل دخولها، فقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ حال من «أَصْحَاب»، أو مستأنف والواو لأصحاب الجنَّة الموقنين بدخولها، لكنَّ الإنسان ما لم يتَّصل بمقصوده يطمع فيه ولو أيقن فيه، أو واو «يَطْمَعُونَ» لأصحاب الأعراف.

﴿وَإِذَا صُرِفَتَ اَبْصَارُهُمْ﴾ صرفها الله قهرا لهم لا بتشهٍّ منهم، لأنَّ المكروه لا ينظر إليه قصدا بخلاف نظرهم إلى أهل الجنَّة فبالرغبة، ولذلك لم يذكر فيه الصرف ﴿تِلْقَآءَ﴾ جهة ﴿اَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا﴾ في النار ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أوحى الله إليهم بعد تمام خطابهم لأهل النار: قوموا ادخلوا الجنَّة فقد غفرت لكم، قاله الحسن، وهويدلُّ على أنَّهم أصحاب ذنوب، ولو كانوا أطفالا أو ملائكة لم يقل: قد غفرت لكم، لأنَّه لا ذنب لطفل أو ملك.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الاَعْرَافِ رِجَالاً﴾ من الكفرة من الأمم كانوا معذَّبين، وأظهر للتقرير أو لأنَّ المراد البعض وفيما مرَّ الكلُّ، وكانوا يعرفونهم في الدنيا، أو يعرفون كفَّارا هناك بعلامة الكفر، ويعرفون أنَّ لهم جموعا

﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ مثل أن يقولوا من هذه الأمَّة: يا أبا جهل، يا أبا لهب، يا أبا الوليد، يا وليد بن المغيرة، وكأنّه قيل: ماذا قالوا بعد ندائهم؟ فقال: ﴿قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ «مَا» نافية، أو استفهاميَّة توبيخيَّة واقعة على العذاب، أو الإغناء، أي أيُّ عذاب أو أيُّ غناء أغنى عنكم؟ ﴿جَمْعُكُمْ﴾: جماعتكم، أو جمعكم المالَ، أو جمعكم الأصحاب والأعوان. وعطف على «جَمْعُكُمْ» قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي كونكم تستكبرون عن الإيمان أو على الحقِّ، ومِن جملةِ ما قالوا قوله: ﴿أَهَؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى جماعة من ضعفاء المسلمين وفقرائهم، كبلال وصهيب وسلمان؛ وهو مبتدأ خبره قوله: ﴿الذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ وجواب القسم قوله: ﴿لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ كان الكفّار في الدنيا يقولون في مثل بلال وصهيب وسلمان رضي الله عنهم مِمَّن عدُّوه ضعيفا واحتقروه: والله لا يدخلون الجنَّة. وحذف الحال عاملا في قوله: ﴿ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي مقولتهم: «ادْخُلُوا...»إلخ إن كان القول قبل الدخول، ودوموا في كونكم فيها بعد دخولها إن كان القول بعد الدخول، فمقولا حال من «الذِينَ»، أو «الذِينَ» تابع لـ«أَهَؤُلاَءِ»، والخبر تقول بالرفع، والقائل الملائكة عن الله، أو تقول الملائكة عن الله ﷻ في شأن أصحاب الأعراف للكفّار: أهؤلاَءِ الذِينَ هم أصحاب الأعراف، قيل لهم، أو مقول لهم، أو مقولا لهم: ادخلوا يا أصحاب الأعراف الجنّة...

وَلَمَّا عيَّر أصحاب الأعراف أهل النّار أقسموا أنَّ أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنَّة، فقال الله لهم: أَهَؤُلاَءِ الذِينَ أَقسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ـ وهم أهل الأعراف ـ ادخلوا الجنّة يا أهل الأعراف لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُم تَحْزَنُونَ، أو يقول أصحاب الأعراف بعضٌ لبعض: ادْخُلُواْ الجنة...إلخ.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾

استغاثة أهل النار بأهل الجنَّة

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ اَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ﴾ شيئا ثابتا من الماء، أو بعض الماء، أو أفيضوا من الماء شيئا، والإفاضة على الشيء تكون ممَّا فوقه أو ممَّا معه، لكن منحدر إليه، والمراد الأوَّل، ولو كان فيهما استعلاء فالجنَّة فوق النار، ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ا للهُ﴾ «مِن» في الموضعين للبيان، أو للتبعيض، أو للابتداء، ووجه البيان أنَّ المراد الحقيقة لا الاستغراق، فإنَّه لا يطلبون إفاضة الماء كلِّه والمائعات كلِّها.

والمراد بما رزقهم ا لله: اللبن والعسل والخمر ونحو ذلك من المائعات، بدليل الإفاضة، أو نوع الطعام فاقتصروا على الماء من المائعات لأنَّه هو الذي يشتاق عند العطش الاشتياق الشديد، وعلى هذا يقدَّر: أو ألقوا علينا ممَّا رزقكم ا لله، أو أنفقونا أو أطعمونا ممَّا رزقكم ا لله، أو يضمَّن «أَفِيضُوا» معنى ألقوا، فيعمُّ الماء والطعام، والظاهر إبقاء «أَوْ» على حالها، فما طلبوا إلاَّ أحد الشيئين لإيَّاسهم، واستبعاد أن يساعدوا إلى ما طلبوا، ولا مانع من جواز أنَّهم طلبوا قبل إيَّاسهم، واقتصروا على الماء ليتدرَّجوا إلى غيره، ويجوز أن تكون بمعنى الواو. قال ابن عبَّاس ﵁: ينادي الرجل أباه أو أخاه أو قريبه أو صاحبه أو غيره قد احترقت أفض عليَّ من الماء، أو ممَّا رزقكم ا لله، فيقال لهم: أجيبوهم فيقولون ما ذكره ا لله ﷻ في قوله:

﴿قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا﴾ منعهما، وليس التحريم هنا مقابلا للفرض والكراهة، والندب والإباحة، لأنّه لا تكليف يومئذ، وفي ذلك تشبيه حالهم مع شراب الجنّة وطعامها مثلا بحال من كلّف تحريم ما حرّم عليه، وهو أَشَدُّ في المنع، فذلك استعارة تمثيليَّة، أو التحريم لغويٌّ فلا استعارة، وفي تثنية الضمير تقوية لكون «أو» بمعنى الواو، وعلى إبقائها على أصلها يكون المعنى: حرَّم كلاًّ منهما.

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ الذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ تقدَّم الفرق بينهما في أقوال، منها أنَّ اللهو صرف الهمّ بما لا يحسن الصرف به، واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلبه به، وذلك كتحريم البحيرة والتصدية وهي التصفيق، والمكاء وهو الصفير، ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بأن طمعوا في طول العمر ونيل اللذّات. وهنا تمَّ كلام أهل الجنّة، وَقِيلَ: تمَّ بقوله: ﴿حرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ﴾، وعلى الثاني فـ«الذين» مبتدأ خبره: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهَمْ﴾ نتركهم في النار، كما يبعد حضور ما زال عن الحافظة فإنَّ عدم تذكُّرك شيئا أعظم في تركه من حضوره في قلبك مع تركه، تعالى الله عن صفات الخلق، ففي ذلك استعارة تمثيليَّة، وذلك أشدُّ تأكيدا من تفسيره بالترك هكذا، وَقِيلَ: ننساهم نؤخّرهم، وكذا في قوله: ﴿كَمَا نَسُواْ﴾ بترك الإيمان والعمل الصالح والتقوى ﴿لِقَآءَ يَوْمِهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿هَذَا﴾ شبَّه معاملته تعالى مع الكفّار بمعاملة من لم يتذكّر أن يفعل الخير في عبده، ولم يلتفت إليه، وشبَّه عدم إخطارهم لقاء الله ببالهم وعدم مبالاتهم بحال من عرف شيئا وزال عن حافظته على حدٍّ ما مرَّ، وحاصل التشبيه أنَّ المعنى نتركهم في النار تركا دائما كما داموا على إنكار الآيات، ويجوز أن تكون للتعليل. ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ «مَا» مَصدَرِيـَّة، أي وكونهم ﴿بِئَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أنّها من الله ﷻ، وَقِيلَ: الجحود بمعنى النسيان.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾

فضل القرآن على البشر وحال المكذّبين

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ﴾ أي أهل مكّة الكفّار، وَقِيلَ: الكفّار والمؤمنين، والمراد: المعاصرون، وَقِيلَ: الكفّارمطلقا، وَقِيلَ: هم المؤمنون مطلقا، ﴿بِكِتَابٍ﴾ هو القرآن، والباء للتعدية ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ جئنا به ظاهرة معانيه، من عقائد وأعمال جوارح ومناهٍ وثواب وعقاب ومواعظ وأوامر وأخبار ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من «نَا» في «فَصَّلْنَاهُ»، أو من هاء «فَصَّلْنَاهُ»، لأنَّ المعنى: مشتملٌ على عِلمٍ، أو «عَلَى» للتعليل، ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حال من هاء «فَصَّلْنَاهُ»، أو تعليل ﴿لِقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ به.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَاوِيلَهُ﴾ تصييره آئلا أي راجعا إلى معانيه، بوقوع معانيه من بعث وثواب وعقاب ونحو ذلك، والنظر بمعنى الانتظار، أي ما ينتظرون إلاّ تأويله، سمَّاهم منتظرين له كأنَّهم جازمون به متوقّعون وقته، وذلك لظهور الأدلّة وقوَّتها وكثرتها، والآية فيمن جزم وجحد أو فيمن شكَّ أو ظنَّ، أو في الشاكّ والظانّ فذلك كلٌّ لا كُلِّيَّة.

﴿يَوْمَ يَاتِي تَاوِيلُهُ﴾ هو يوم القيامة متعلّق بقوله: ﴿يَقُولُ الذِينَ نَسُوهُ﴾ أي نسوا الكتاب، أي تركوا الإيمان به، كالشيء الذي خرج عن الحافظة ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي قبل يوم القيامة في حياتهم ﴿قَدْ جَآءَتْ﴾ في الدنيا ﴿رُسُلُ رَبِّنَا

﴿بِالْحَقِّ﴾ يقرُّون بحقيقة كلِّ رسول رسولهم ورسل غيرهم، لأنَّه تحقَّقَ الأمر لهم يوم القيامة فآمنوا حين لا ينفعهم الإيمان، وذلك إذعان وإقرار بأنَّ الرسل جاءت بالحقِّ، والمراد أنَّه تَبَيَّنَ مجيئها بالحقِّ من الوعد للمطيع والوعيد للمصرِّ.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ فاعل «لَّنَا» أو فاعل متعلَّقه الفعلي أو الاسمي الرافع لمكتفىً به عن الخبر، و«مِن» صلة، والهمزة لتأنيث الجماعة، أي: هل لنا من يشفع لنا فلا نعذَّب؟ وهذه جملة إنشائيَّة اسميَّة عطفت على جملة خبريَّة فِعليَّة ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ عطف على اسميَّة بعد «هَلْ»، فمعنى «هَلْ» متسلِّط عليه، أي: وهل نردُّ إلى دار التكليف؟ وهي دار الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ﴾ بالنصب في جواب الاستفهام المضمن بالعطف على مدخول «هَلْ» ﴿غَيْرَ الذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ التوحيدَ والعمل الصالح بدل الإشراك والفسق.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أضاعوها بصرفها في الإشراك والفجور في حياتهم الدنيا ﴿وَضَلَّ﴾ ذهب، أو حضر، وكأنَّه غاب لعدم النفع ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من دعوى أنَّ عبادة الأصنام حقٌّ وأنَّ الأصنام تشفع لهم.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٥٤ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾

إثبات الرُّبُوبِيَّة لله بالخلق والأمر والدعاء له

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ستٌّ

لحظات من اللحظات الصغيرة جدًّا التي لا يعلم دقّتها إلاّ الله ﷻ، فإنَّ اليوم يطلق على مطلق الزمان، ولو دقَّ كما يطلق على ما بين الطلوع والغروب، ويجوز أن تفسَّر بهذا على معنى مقداره لا على الحقيقة، لأنَّ الشمس والقمر والنجوم بعد خلق السموات لا قبلُ، ويجوز أن يكون المراد: أوقات الأيَّام المعلومة عند الله قبل أن تكون فيهنَّ الشمس.

وعلى كلِّ حال تشير الآية إلى التأنّي في الأمور، ففي الحديث: «**التأنّي من الله والعجلة من الشيطان**»[١] فيتعلم الخلق التثبُّت في الأمور، وقد قيل: كلُّ يوم ألف سنة وذلك إرشاد إلى التأنّي في الأمور، وإشارة إلى التدريج المؤدِّي إلى اعتبار الموجودين من الملائكة ومن وجد من العقلاء بمشاهدتهم حدوث الأشياء شيئا فشيئا، فيستعظمون قدرة الله وكمال علمه وقدرته، وإلاَّ فقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (سورة القمر: ٥٠) وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُ, إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا اَنْ يَّقُولَ لَهُ, كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يس: ٨٢). ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ الوقت لم يكن قبل خلق السماوات والأرض، فإنَّ معناه مقدار، وقد وجد الخلق قبلهما مثل الماء ونور سيِّدنا محمد ﷺ، فلا بأس بتفسير الأيَّام بالأوقات وأوَّل المخلوقات خروج عن الأزل[٢].

روى مسلم والحاكم عن ابن عَبَّاس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «**خلق الله ﷻ الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال وما فيهنَّ من المنافع يوم الثلاثاء، وخلق يوم الإربعاء الصخر والماء والطين والعمران والخراب، وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والقمر والشمس والملائكة،**

١- أورده الهندي في الكنز: ج٣، ص٩٩، رقم ٥٦٧٥، من حديث أنس.

٢- كذا في النسخ، ولعلَّ مراد الشيخ أوَّل المخلوقات ما خرج من الأزل. تأمَّل.

إلى ثلاث ساعات بقين منه، فخلق ا لله في أوَّل ساعة من هذه الثلاث ساعات الآجال، وفي الثانية الألفة على كلِّ شيء مِمَّا ينتفع به الناس، وخلق آدم عليه السلام في الثالثة وأسكنه الجنَّة وأمر إبليس لعنه ا لله بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة»[1] ونصَّ القرآن خلق الأرض في يومين أي في نوبتين، وَسُمِّيَ يوم الجمعة لاجتماع الخلق فيه ويوم السبت لانقطاع الخلق عنه.

وفي مسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ: «**خلق ا لله التربة أي الأرض يوم السبت، والجبال فيها يوم الأحد، والشجر يوم الإثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الإربعاء، والدوابَّ يوم الخميس، وآدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، فسمِّي على هذا يوم السبت لقطع بعض العمل فيه وإيجاده**»[2] وضَعَّفُوا هذه الرواية.

﴿ثُمَّ اَسْتَوَىٰ عَلَى اَلْعَرْشِ﴾ ظاهره الجلوس على مرتفع، فإنَّ العرش ما ارتفع كالسرير، وكالجسم العظيم المحيط بالكرسيِّ، ولذلك تعدَّى بـ«عَلَى» لا كاستوى بمعنى استقام واعتدل، وذلك كناية أريد بها لازم المعنى **وهو الملك والتصرُّف ولم يرد بها مع ذلك ظاهر اللفظ**، كما تقول: طويل النجاد، تريد طول القامة، ولو كان لا سيف له ولا نجاد أي علاقة السيف، أو أريد به ذلك الجسم العظيم. وأريد بالاستواء عليه ملكه والتصرُّف فيه:

١- رواه **الحاكم** في كتاب تواريخ المتقدِّمين من الأنبياء والمرسلين، باب ذكر آدم عليه السلام، ج٢، ص٥٩٢، رقم ٣٩٩٧ (٣). ورواه **الهندي** في الكنز: ج٦، ص١٢٤، رقم١٥١٢١، من حديث ابن عَبَّاس.

٢- رواه **مسلم** في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، (١) باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، رقم ٢٧ (٢٧٨٩)، مع اختلاف في اللفظ.

قد استوى بشر على العـــراق من غير ســيف ودم مهـــراق

والترتيب على ظاهره وللرتبة، فإنَّ التملُّك والتصرُّف في الملك إنَّما هو بعـد خلق السماء والأرض، وأمَّا قبـل خلقهمـا فـلا يصـدَّق أنَّـه ملكهمـا وتصـرَّف فيهما، وإن فسَّرنا العرش بالجسم العظيم فـ«ثُمَّ» للترتيب الذكـريِّ والرتبيِّ، ولا تراخي في «ثُمَّ» هنا، ويجوز ردُّ ضمير «اسْتَوَى» إلى الخلق ومعنى استوائه علـى العرش: انتهاؤه به، و لم يخلق فوقه شيئا.

(أصـول الديـن) ومـن فسَّـر الاسـتواء بظـاهره كفـر، لأنَّ ذلـك مـن صفات الأجسام، وا لله غير جسم ولا عرض ولا جوهر وزعم قومنـا أنَّـه يجب الإيمان بالعرش والوقوف في معناه.

﴿يغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يجعل اللَّـيل غاشيا النهـار، وفي الآيـة حـذف، أي ويغشي النهار الليل، أي يجعـل النهـار غاشـيا الليـل، وفي الآيـة تجـوُّزٌ في الإسـناد بإسناد ما لمكان الشيء إلى الشيء، ومكانه هو الهواء على معنى أنَّ الهـواء مكـان للضوء لا مكان للنهار، لأنَّ الزمان لا مكان لـه، أو اسـتعارة بـأن يجعـل غشـيانه مكان النهار وإظلامه بمنزله غشيانه لنفس النهار، فكأنَّه لـفَّ عليـه لـفَّ الغشـاء، ويشبه تغييبه له بطَرَيانِه عليه بستر للملابسة، وما ذكر أوَّلا مـن المنصوبـين هـو الفاعل في المعنى، لا الثـاني لعـدم الدليـل، وذكـر المعَنَيَـيْن معـا في قولـه تعـالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّـهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّـهَارَ عَلَى اللَّيْـلِ﴾(سورة الزمر: ٥) ولا يـراد باللفظ الواحد بمجموع المعنيـين.

﴿يطْلُبُهُ﴾ يطلب الليل النهار، وهنا حـذفٌ، أي ويطلبـه النهـار، والجملـة حال من «اللَّـيْـلَ» أو من «النَّـهَارَ»، قيل: أو منهما. شـبَّه تعقيـب الليـل بالنهـار بالطالب. ﴿حَثِيثًا﴾ طلبا حـثيثا، والطلب من النَّـهَار أظهر حتَّى قالوا: ضـوء النَّـهَار هو الهاجم على ظلمة اللَّـيـل. أو حال من ضمير «يَطْلُبُ» لتضمُّنه معنى

اللازم، أي عاجلا، أو من الهاء باقيا على التعدية أي محثوثا.

والمراد: السرعة بلا فصل شيء بين اللّيل وَالنـّهَار، حتّى قيل: إنَّ بين رفع القدم ووضعها في المشي السريع تحرَّكَ الفلك الأعظمُ ثلاثةَ آلاف ميل، وهي ألف فرسخ فهذه غاية السرعة، وحركة الشمس بذاتها تَتِمُّ في سنة، وبسبب حركة الفلك الأعظم تتمُّ في اليوم والليلة، وَلَمَّا كان الليل والنهار يحصلان بحركة الفلك الأعظم على أنّه العرش ذكر ا الله ﷻ قوله: ﴿يُغْشِي...﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى...﴾، والغشي للمكان ونسبه للزمان مجازا للملابسة، فإنَّ الظلمة والنور يتعاقبان على الأمكنة ومنها الجوُّ كما مرَّ، والحقُّ أنَّ العرش لا يتحرَّك ولا نسلّم أنَّه فلك يتحرَّك.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ عطف على «السَّمَاوَاتِ»، وذكر الشمس والقمر مع دخولهما في النجوم لشرفهما، ولأنّه قد لا يفهم دخولهما فيها، وقدَّمها لأنّها أشدُّ ضوءً، أو لأنَّ نور القمر منها، ولأنّها في السماء الرابعة وهو في الأولى، ولأنّه كثر خسفه وقلَّ خسفها، وَقِيلَ: يحتمل كون نوره منه بأن يكون بعضه مضيئا فيستضيء باقيه بحسب حركاته مقابلة، أو الأَضْوَءُ ظهره فيتحرَّك بطنه شيئا فشيئا حتّى يفرغ ثُمَّ يدبر شيئا فشيئا.

والنجوم تشمل الدراري الخمس الباقية، زحل وعطارد والمشتري والمريخ والزهرة، وذكر الشمس والقمر فهنَّ سبع وزاد بعض الآن وسنا وزونوا، وبالاس وسرس وأورانوس، ويسمَّى هرشل، وهو اسم المنجّم الذي ظفر برصده[1].

﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ حال من الثلاثة أي مذلّلات لِمَا خُلِقْن له، من طلوع

١- ماظفر به الراصدون في أيّامنا هذه الدراري السبع المذكورة هي وأورانوس، نبتون وبلوتو.

وأفول وحركات ورجوع، وهي حال مقدَّرة، إذا تمَّ خلقهنَّ طاوعن فيما خلقهنَّ له؛ أو مقارنة، أي يقترن خلقهنَّ بعدم التعاصي عن الخلق، فكلُّ جزء مطاوع لخلقه ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بقضائه وتصريفه، وأصله: الطلب الجازم، واختاره تنبيها على عدم تعاصيهنَّ، كأنَّهنَّ مكلَّفات عواقل، يمتثلن الأوامر، وهو [أي أَمْرُهُ] مفرد الأوامر، فذلك على الاستعارة، وَقِيلَ: أمره قوله لهنَّ: سرن على وجه كذا دائما، وَقِيلَ: إرادته.

﴿أَلاَ لَهُ﴾ لا لغيره ﴿الْخَلْقُ﴾ الإيجاد أو المخلوقات ﴿وَالاَمْرُ﴾ واحد الأمور، أي كون الخلق على وجه أراده من الجائزات، كرقَّة وغلظة ولون حمرة وبياض وطول وعرض وزمان مخصوص وعدد وغير ذلك، وَقِيلَ: الخلق: الأجسام، والأمر: الأعراض، وَقِيلَ: التصرُّف في الكائنات، وَقِيلَ: الخلق: الأجسام والجسمانيَّات، والأمر: الأرواح والمجرَّدات، وكلُّ ما كان جسما أو جسمانيًّا خصَّ بمقدار معيَّن، وما كان بريئا من الحجم والمقدار كان من عالم الأرواح كذا يقال.

وفي الآية ردٌّ على من زعم أنَّ للنجوم والشمس والقمر تأثيرا في هذا العالم، أي **ألا له الخلق كلُّه والأمر كلُّه**، وَقِيلَ: الخلق: ما دون العرش، والأمر: ما فوق ذلك. ﴿تَبَارَكَ اللهُ﴾ تعاظم بالتفرُّد بالوحدانيَّة وسائر صفاته وأفعاله كالخلق، أو ثبت خيره، أو كثر وازداد. ولا يستعمل تبارك في غير الله، ولم يسمع له مضارع ولا اسم فاعل ولا أمر ولا اسم مفعول ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالكهم لا ربَّ لهم سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ اسألوه مصالحكم الدِّينيَّة وَالدُّنيَوِيَّة وَالأُخرَوِيَّة، وهو مخُّ العبادة وما من شيء أكرم على الله من الدعاء، وَرَدَ ذلك في الحديث، لأنَّ فيه تذلُّلا واعترافا بعجزه وعجز غيره، وبقدرة الله ﷻ على الإيصال إلى الخير،

وبعلمه بحوائج العباد ودعائهم ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذلُّلا أو استكانة، أو تملُّقا، وَقِيلَ: معناه جهرا ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي سرًّا، والمعنى: متضرِّعين وخافين أي ذوي خفاء في الدعاء، أو ذوي تضرُّع وخفية، قال الحسن: بين دعوة السرِّ ودعوة العلانيَّة سبعون ضعفا.

وكان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت، فما كان إلاَّ همسا بينهم وبين ربِّهم، والإخفاء أنسب بالإخلاص ودليل عليه، وقد قال ا لله ﷻ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ (سورة مريم: ٣) ويجوز الجهر ليتعلَّم الجاهل وللتأمين، وإزالة وحشة أو نوم، وإدخال سرور وقهر مبتدع، ولترغيب السامع، ولكلِّ عارض من الخير، ويجتنب الرياء والسمعة، وقال لقوم يجهرون: «**أيُّها الناس اربعوا على أنفسكم إنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبا إنَّكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[1] رواه أبو سعيد. وتستثنَى التلبية فإنَّه يجهر بها جدًّا ﴿إِنَّهُۥ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء بالتوسُّع فيه بغير احتياط عمَّا يكره أو لا يجوز، وعن الرغبة في الدنيا وكونها أكبر همِّه، وطلبه ما لا يليق كالصعود إلى السماء، ورتبة الأنبياء والصياح فيه، قال ﷺ: «**سيكون من بعدي قوم يعتدون في الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهمَّ إنِّي أسألك الجنَّة وما قرَّب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل**»[2] ثمَّ قرأ ﴿إِنَّهُۥ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

(فقه) ويحرم الدعاء بالنبوَّة إجماعا، والصحيح تحريم ما خصَّ

١- رواه **الربيع** باب السنَّة في التعظيم لله، رقم ٨٢٥. ورواه **البخاري** في كتاب الجهاد (١٢٩) باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، رقم ٢٨٣٠، من حديث أبي موسى الأشعري.

٢- رواه **أبو داود** في كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم ١٤٨٠، بنفس المعنى مع تغيير في اللفظ. ورواه **الهندي** في الكنز: ج٢، ص٩٣، رقم ٣٢٩٠، الشطر الأوَّل منه من حديث سعد.

بالأنبياء لأنَّ الدعاء به اعتداء ﴿وَا للهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وستر الأيدي في الدعاء بدعة محرَّمة مخالفة للسنَّة، وذلك من الاعتداء في الدعاء، إذ جعل غير الشرع شرعا، إلاَّ إن كان إنسان في جملة ناس لا يدعون معه، فله إخفاء يديه في الدعاء بحيث لا يعرفون أنَّه يدعو. ومن الاعتداء في الدعاءِ الدعاءُ على الفاسق أن يموت مشركا، حتَّى قيل: إنَّ الداعي بذلك مشرك، والصحيح كفره كفر نعمة، وأمَّا أن يدعو على فاسق بالموت على غير توبة فأجازه بعض أصحابنا، **والمختار المنع** لأنَّه غير منصوص عليه فلا يحال بينه وبين باب التوبة.

﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الاَرْضِ﴾ بالإشراك والمعاصي وأخلاق السوء والجهل ﴿بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ بالتوحيد والطاعة ومكارم الأخلاق بواسطة الأنبياء والكتب والعقول والأحكام الشَّرعِيَّة ﴿وَادْعُوهُ﴾ اعبدوه ﴿خَوْفًا﴾ من طره ﴿وَطَمَعًا﴾ في تقريبه أي خائفين وطامعين، أو ذوي خوف وطمع، أو الخوف من النار لقصورهم في الأعمال، والطمع في الجنَّة لفرط رحمته وفضله.

(فقه) والعبادة لهذا صحيحة عندنا إلاَّ أنَّها ناقصة على العبادة إجلالا، وزعم قوم من الأشاعرة أنَّها لا تصحُّ، لأنَّه ما أتى بها تعبُّدا لمولاه وقضاء لحقِّ أُلُوهِيَّته، وَقِيلَ: الدعاء في الموضعين العبادة، وَقِيلَ: السؤال. وكتمان النفل من العبادة أفضل، إلاَّ ما خصَّ كصلاة الضحى والتلبية، وإذا صفا القلب عن الرياء وقصد الاقتداء فإظهار النفل أفضل، وأمَّا الفرض فإظهاره أفضل، وقال بعض قومنا: إخفاء العبادة أفضل ولو فرضا، وبعض إظهارها أفضل ولو نفلا، ليقتدى به بأن يظهرها ويجهد نفسه في مجانبة الرياء.

﴿إِنَّ رَحْمَةَ اَللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ترجيح للطمع، ولا سيَما عند الاحتضار، وتنبيه على ما يتوسَّل به إلى الإجابة والقبول وهو الإحسان.

(صرف) لم تُذكَّر الرحمة [في خبرها] لإضافتها إلى غير مؤنَّث لأنَّها

ذكرت، ولا إضافة إليه في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (سورة الشورى: ١٧) وأيضا هذا مختصٌّ بالشعر، وأجيز العكس، بل ذكر تأويله بالرُّحم بضمِّ الراء، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (سورة الكهف: ٨١) أي رحمة، ولزم عليه جواز تذكير الموعظة بمعنى الوعظ، والذكرى بمعنى التذكير، وقال سعيد بن جبير: لأنّها بمعنى الثواب، ومثله ما قيل: ذكّر لأنّه بمعنى اللطف والإحسان، واعترض بأنَّ مثل هذا مختصٌّ بالشعر، أو لأنّه نعت لمذكّر أي أمر قريب، واعترض بأنَّ مثل هذا شاذٌّ أو ضرورة ولا يخرج عليه القرآن، مثل قولك: هند ضارب، بمعنى إنسان ضارب، ولا فصاحة لقولك: رحمة الله شيء قريب؛ أو لشبهه بفعيل بمعنى مفعول حيث يُذَكَّر كامرأة كحيل، وهو خطأ لأنّه هنا بمعنى فاعل فلا يشبَّه به لمجرَّد الوزن، وأيضا امرأة كحيل غير مقيس، أو لمصدر الصوت والسير، أو للفرق بين قرب النسب والمكان، وما هنا من المكان مجازا فإنّه يجب التأنيث في النسب، ويجوز في غيره، تقول: فلانة قريبة منّي نسبا وقريبة أو قريب مكانا، أو لأنّه للنسب فهو كقولك: امرأة تَامِرٌ وَلاَبِنٌ بلا تاء، ورُدَّ بأنَّ ذلك في فاعل لا في فعيل، وقيل بزيادة المضاف، وكأنّه قيل: إنَّ الله قريب، وفيه أنَّ الأصل عدم زيادة الأسماء، وَقِيلَ: التذكير باعتبار المضاف إليه كقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتَ اَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٤) ويجاب بأنَّ الأعناق بمعنى الأكابر، أو نحو هذا من الأوجه، [قلت:] **وأقرب ما يقال إنَّ فعيلا يذكّر مع المؤنّث سماعا فصيحا لشبهه المصدر،** أو للنسب، أو لشبهه وزن فعيل بمعنى مفعول. وَقِيلَ: ذكّر لأنَّ المراد به المطر ويدلُّ له قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي يُرْسِلُ...﴾ واعترض بأنَّ المطر لا يخصُّ المحسنين، وأجيب بأنَّ المراد: الترغيب، كما أنَّ الرحمة هكذا لا تخصُّهم، ومطر الله قريب لا يحسن لكن يحسن بعنوان أنّه معبر بعنوان الرحمة.

ومعنى قرب الرَّحمة من المحسنين قرب الثواب لمن أحسن بالعبادة والتقوى، لأنَّ الإنسان في كلِّ لحظة يدبر عن الدنيا ويقبل على الآخرة وهو في الثواب من موته إلى أن يدخل الجنَّة. أو رحمة الله: توفيقه فإنَّه مجاور لهم لا بعيد، والرحمة: إيصال الخير، فهي فعل، أو إرادة الخير فهي صفة.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

إنزال المطر وإخراج النبات ودلالتهما على القدرة الإلهيَّة وإثبات البعث

﴿**وَهُوَ الَذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ**﴾ عطف على «الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ» عطف الخبر الجملي على المفرد، أو على «إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذِي...». ﴿**نُشُرًا**﴾ جمع نَشور بفتح النون، قيل: من النُّشُور بضمَّتين بمعنى الإحياء مجازا، لأنَّ الريح توصف بمعنى الحياة، وَقِيلَ: بمعنى منتشرة في النواحي متفرِّقة، قيل: أو بمعنى منشورة، أي مفرَّقة، قال ﷺ: «**ريح الرحمة تأتي من هاهنا ومن هاهنا، وريح العذاب تأتي من جهة واحدة**» وفيه أنَّ فُعُلا جمع لفُعُل بمعنى فاعل لا لفاعل نحو ناشر، ولا لفعول بمعنى مفعول كحلوب، إلاَّ ما شذَّ، نعم صحَّ رَسُول ورُسُل.

أخذت الناسَ ريحٌ بطريق مكَّة وفيهم عمر ﷺ للحجِّ فقال: ما بلغكم في الريح؟ فلم يجيبوه، فبلغ ذلك أبا هريرة في مؤخَّر الركب، فأسرع براحلته، فقال: يا أمير المؤمنين، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الريح من روح الله**

تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فاسألوا ا لله خيرها واستعيذوه من شرِّها»[1].

﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قدَّام رحمته وهي المطر، فقيل: لو كان الرحمة قبلُ بمعنى المطر لأضمر له هنا، ولا يلزم ذلك لجواز الإظهار في موضع الإضمار لنكتة، كالامتنان. والرحمة بمعنى المطر على إرادة من عامٌ حقيقةً، وعلى أنَّه اسم للمطر مجازا، وَقِيلَ: وضع لفظ الرحمة اسما للمطر هكذا بخصوصه، فهو حقيقة كما هو حقيقة في العموم.

والصبا تثير السحاب وهي التي تهبُّ من المشرق، وَقِيلَ: من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، والشمال تجمعه وهي التي تهبُّ من ناحية القطب، والجَنوب ـ بفتح الجيم ـ تنزله، وهي مقابلة الشمال، والدَبور ـ بفتح الدال ـ تفرِّقه وهي الغَربِيَّة بين الجنوب والشمال. وعن كعب الأحبار: لو أمسك ا لله الريح ثلاثة أيَّام لأنتن أهل الأرض. وروي: لأنتن أكثر أهل الأرضين. وقال بعض: لو أمسك ا لله الريح لأنتن ما بين السماء والأرض. وعن ابن عمر: الريح ثمانٌ، أربعٌ عذابٌ: القاصف والعاصف والصرصر والعقيم، وأربعٌ رحمةٌ: الناشرة والمبشِّرة والمرسلة والنَّازعة، كذا قيل.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ تفريع، أو غاية لقوله: ﴿يُرْسِلُ﴾، ﴿إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ حملت بسهولة، وأصله من القلَّة، لأنَّ حامل الشيء عدَّه قليلا، أو وجده قليلا فهو من أفعل بمعنى عدَّ الشيء، كذاك أفْسَقَه بمعنى عدَّه فاسقا، أو وجده فاسقا

١- رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح، رقم ٥٠٩٧، من حديث أبي هريرة. ورواه **الحاكم** في كتاب الأدب، ج٤، ص٣١٨، رقم ٧٧٦٩ (٩١)، من حديث عمر بن الخطَّاب.

﴿سَحَابًا﴾ أي سحابات، والمفرد سحابة، كثمر وثمرة، ويَدُلُّ على أنَّ المراد الجماعةُ قوله: ﴿ثِقَالاً﴾ بصيغة الجمع، أي ثقيلات بالماء، وما واحدة بالتاء يجوز تذكيره وإفراده كما قال: ﴿سُقْنَاهُ﴾ أي السحاب، قيل: الإفراد والتذكير مراعاة للفظ. وسمِّي لانسحابه في الهواء، ومقتضى الظاهر: «سَاقَهُ» بالغيبة كما في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الذِي يُرْسِلُ﴾ ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي أرض لا نبات فيها كالميِّت لا ينمو، والمعنى: لأجل بلد، أي منفعته، أو لإحيائه وإنضاره، وهو أنسب لمقابلة مَيِّت، أو لسقيه، والأوَّل راجع إليهما، لأنَّ البلد لا ينتفع، أو إلى بلد ميِّت.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي في البلد لقربه، فالباء ظرفيَّة. والبلد يذكَّر ويؤنَّث، ويطلق على المعمور وغيره، أو فأنزلنا بالسحاب أو بالريح المعلوم من الرياح، وهو يذكَّر ويؤنَّث، أو بالسَّوْق المعلوم من «سُقْنَا»، وفيه عود الضمير لغير مذكور مع وجود المذكور، وعلى هذه الثلاثة الباء للآلة أو للسببيَّة، أو فأنزلنا منه، أي من السحاب ﴿الْمَآءَ﴾ والباء على هذا الأخير للابتداء.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي بالماء وهو أولى لقربه وظهوره وكونه سببا قريبا من أن يقال: أخرجنا بالسحاب، أو بالسَّوْق، أو في البلد على أنَّ الباء ظرفيَّة، والسحاب سبب قريب والماء أقرب، والسوق بعيد ولو قرب بالنسبة للريح. ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي بعض كلِّ الثمرات، أو أصدرنا من كلِّ الثمرات، و«مِن» عليه للابتداء، و«كُلِّ» هنا لإحاطة الأفراد النوعيَّة لا للأفراد الشَّخصيَّة، إذ لا تصحُّ هنا، ويجوز الحمل على الاستغراق العرفيِّ.

﴿كَذَالِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم ومن مواضعهم للإحياء، ووجه الشبه الإحياء بالماء والإخراج، وَقِيلَ: الإحياء والإخراج، وهذا ردٌّ على منكري البعث.

إذا قامت الساعة ومضت أربعون سنة أو أربعون يوما نزل من تحت العرش ماء كالمنيِّ يحييهم الله به. وروي عن أبي هريرة وابن عبَّاس أنَّ ذلك الماء ينزل عليهم أربعين عاما بعد نفخة الموت، وفي رواية أربعين يوما، ويروى أنَّه يلقي عليهم النوم بعد ذلك وبعد ردِّ أرواحهم إليهم ثمَّ يبعثون، وقد وجدوا لذَّة النوم فيقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا...﴾ (سورة يس: ٥١).

والإشارة إلى إخراج الثمرات، أو إلى إحياء البلد الميِّت، أي كما تخرج الثمرات بإنزال المطر بجري العادة نخرج الموتى من قبورهم، بماء مطلق، أو بماء كالمنيِّ كذا قيل، **والأولى التشبيه في مجرَّد الإخراج، لأنَّ الإحياء والإخراج بلا إنزال ماء على الموتى أدلُّ على قدرة كاملة**. وهذا على إعادة أعيان الأجساد بعد جمعها، وأمَّا على القول بإعادة المعدوم فلا يتصوَّر فيه الإخراج بالماء.

أو الإشارة إلى إحياء البلد، أي كما نحييه بإحداث القُوَّة النامية فيه، وتطرئتها بأنواع النبات والثمرات، نخرج الموتى من القبور، ونحييها بردِّ الأرواح إلى موادِّ أبدانها بعد جمعها، وتطرئتها بالقوى العَقلِيَّة والغضبيَّة والشهويَّة والنامية والتغذية، والحواسِّ الظاهرة من نحو السمع والبصر، والباطنة على القول بوجودها **﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** فتعلموا أنَّ من قدر على إخراج النبات والثمار من الأرض والخشب قادر على إخراج الموتى أحياءً.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الذي طاب ترابه **﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾** متعلِّق بـ«يَخْرُجُ»، أو حال، وهو عبارة عن كون النبات جيِّدا كثيرا نافعا بنفسه وثماره، كما يذكر إن شاء الله للبركة بلا قصد استثناء، أو يُقَدَّرُ: «يخرج نباته وافيا حسنا»، ودلَّ على ذلك المقابلة بقوله: **﴿وَالذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾** أي والبلد الذي خبث لا يخرج إلاَّ نكدا، وضمير «يَخْرُجُ» للبلد الذي خَبُث، فالخارج البلد لكن على حذف المضاف، أي لا يخرج نباته، أو يُقَدَّرُ

المضاف أَوَّلاً: ونبات البلد الذي خبث لا يخرج إلاَّ نكدا، فحُذف «نباتُ»، فعاد الضمير أيضا إلى البلد الذي خبث، والأوَّل أنسب لِمَا قبله، و لم يذكر هنا «بِإِذْنِ رَبِّهِ» لأنَّه لا بركة في الخبث والنكد. وإن فسَّرنا بإذن ربِّه بمجرَّد مشيئته قدَّرنا مثله لقوله: ﴿لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾.

(لغة) والنكِد: الشيء العسر، يطلق على الذات والمعنى، فهو حال أو مفعول مطلق، أي إلاَّ خروجا نكدا، ومعناه: قليلا عديم النفع.

شبَّه المؤمن ونزول القرآن وقبوله وتأثُّره فيه وظهور العمل به على لسانه وجوارحه بالأرض الطيِّبة ونزول المطر عليها وتأثُّرها به وخروج النبات والثمار منها به، فهذه استعارة تمثيليَّة، وهي المركَّبة، وشبَّه الكافر ونزول القرآن في شأنه وعدم تأثُّره به وعدم ظهوره على لسانه وجوارحه بالأرض التي لا تنبت لكونها سبخة أو صلبة أو طال مكث الماء فيها أو نحو ذلك، ونزول المطر عليها وعدم خروج النبات فيها. أو: إلاَّ نباتا لا نفع فيه، فإنَّ الكافر لا يعمل بالقرآن، فإن عمل ببعض فكنبات لا نفع فيه، فهذه استعارة تمثيليَّة أيضا، وهي أولى من تشبيه مفرد بمفرد في موضعين، ووجه الشبه في الأولى النفع والحسن، وفي الثانية القبح وعدم النفع.

[قلت:] وذلك كلُّه بأوجهه أولى من أن تفسَّر الآية بمطلق الامتنان، أو بمطلق القدرة، إذ لا يناسبهما ذكر قوله: ﴿وَالذِي خَبُثَ﴾. وفي الآية تلويح بأنَّ الخير في خلقة المؤمن والشرَّ في خلقة الكافر، فالسعادة والشقاوة من البطن لكن بلا إجبار ولا طبع، قال ﷺ: **«مثل ما بعثني الله تعالى به من العلم والهدى كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيِّبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب منها أخرى الماء هي قيعان لا تمسك**

الماء ولا تنبت الكلأ، فذلك مثل من فقه في دين ا لله تعالى ونفعه ما بعثني ا لله تعالى به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى ا لله تعالى الذي أرسلت به»[1]. قال رسول ا لله ﷺ في خطبته عن ا لله ﷻ: «**إنّي خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[2] رواه مسلم. وقال ﷺ: «**ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه**»[3] هذا لفظ البخاري.

﴿**كَذَالِكَ**﴾ كما بيّنّا وكرّرنا ﴿**نصرّفُ**﴾ نبيّنُ أو نكرّر ﴿**الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَّشْكُرُونَ**﴾ نعم ا لله، ويؤمنون به، وخصّهم بالذكر لأنّهم المنتفعون بها.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ

١- رواه **البخاري في** كتاب العلم، (٢٠) باب فضل من علم وعلّم، رقم ٧٩. رواه **المنذري** في الترغيب: ج١، ص٩٩، رقم ٢٣، من حديث أبي موسى الأشعري. وأورده **السيوطي** في الدرر: ج٣، ص١٠٢، من حديث أبي موسى الأشعري.

٢- رواه **مسلم** في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، (١٦) باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا... رقم ٦٣، (٢٨٦٥).

٣- رواه **البخاري** في كتاب الجنائز، (٧٨) باب إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يصلّى عليه؟ وهل يعرض على الصبيِّ الإسلام؟ رقم ١٢٩٢، ١٢٩٣، من حديث أبي هريرة.

﴿فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤﴾

قصة نوح عليه السلام

وسلّيَ الرسولُ ﷺ عن كفر قومه وإيذاءهم بقوله تعالى: ﴿لَقَدَ اَرْسَلْنَا نُوحًا اِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ و لم يقترن بالواو لعدم تقدُّم ذكر نوح، وقرن في هود لتقدُّم ذكر نوح وفي سورة ﴿قَدَ اَفْلَحَ﴾ (سورة المؤمنون: ٢٣) لذكر الفلك الدالّ عليه إذ هو أوَّل صانع الفلك.

(قصص) ولقّب نوحا لنوحه على نفسه لدعائه على قومه بالهلاك، أو لمراجعته ربَّه في ولده كنعان، أو لقوله لكلب: يا قبيح، وإيحاء ا لله ﷻ إليه: «أعبتني أم عبت الكلب؟»، أو لأنَّه كذّبه قومه، وكلّما كذّبوه بكى. وَقِيلَ: اسمه: عبد الجبَّار، وَقِيلَ: عبد السكون لسكون الناس إليه، وَقِيلَ: اسمه عبد الغفّار ابن لَمَك بفتح لام لمك وميمه، وَقِيلَ: بفتح اللام وإسكان الميم، وَقِيلَ: لَمْكان بفتح فإسكان، وَقِيلَ: لامَك بفتح الميم، وبضمّ ميم مُتَوَشْلخ وفتح تائه وواوه وسكون شينه، وَقِيلَ: بفتح الميم وضمّ التاء مشدَّدة وسكون الواو وفتح اللام، وبفتح همزة آخْنُوْخ من إسكان خائه وضمّ نونه وإسكان واوه، وَقِيلَ: خنوخ بلا همزة، وأخنوخ هو إدريس بعث في الألف الثاني وآدم حيٌّ فيما قيل، وولده نوح في آخر الألف الأوَّل. كبر آدم ودقَّ عظمه فقال: يا ربّ إلى متى أَكِدُّ؟ فقال تعالى: حتّى يولد لك ولد اسمه نوح مختون، فولد له نوح بعد عشرة أبطن، وهو يومئذ ابن ألف سنة إلاّ ستِّينَ عاما. ونوح عجميٌّ، اسم له من أوَّلَ على ما صحّح لا لقبٌ. ولا يتمُّ **عندي** حياة آدم إلى زمان نوح عليهما السلام، ابن متوشلخ بن إدريس. بعث ابن أربعين سنة، كما عن ابن عبَّاس رضي ا لله عنهما، أو ابن خمسين، أو ابن مائتين وخمسين، أو ابن مائة، أو ابن أربعمائة،

وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة، فعمره ألف ومائتان وأربعون في قول، وَقِيلَ: ألف وأربعمائة وخمسون، وهو أوَّل نبيء بعد إدريس، وهو أوَّل نبيء بعث بتحريم الأخوات والخالات والعمَّات.

بعث إلى من في الأرض كلِّهم إلاَّ الجنَّ، و لم تدم رسالته لأنَّه جاءت بعده رسل بشرائع، ورسالته إلى الكلِّ اتِّفَاقيَّة بعد الغرق، وخلافيَّة قبله، إذ لم يوجد إلاَّ من معه ونسله قوم في الأرض لم يغرقوا مؤمنون، بخلاف نبيئنا ﷺ فإنَّه بعث إلى قومه وغيرهم حتَّى الجنِّ والحيوان والملائكة والجمادات، قيل بعد إعقالها، وذلك أشرف له ﷺ ، ولا يعقبه نبيء أو شرع إلى يوم القيامة.

وقومُ رجلٍ: مَن اجتمع معهم في جدٍّ، وقد يطلق على من كان فيهم نزيلا، كما هو قول في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اِتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة يس: ١٩) .

﴿**فَقَالَ يَا قَوْمِ اِعْبُدُواْ اللهَ**﴾ وَحْدَهُ ووحِّدوه ﴿**مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ,**﴾ نعت على المحلِّ، لأنَّ إله مبتدأ، أو فاعل للكُمْ أو لوصف يستغنى به عن الخبر، و«مِن» صلة لتأكيد النفي، والجملة مستأنفة لتعليل العبادة المأمور بها، أو على معنى: أمرناكم بعبادته لأنَّه لا إله غيره ﴿**إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ في الدنيا إن لم تؤمنوا، فالخوف لإمكان أن لا يعذَّبوا في الدنيا ولو لم يؤمنوا، أو هو بمعنى اليقين على علمه أنَّهم إن لم يؤمنوا أنزل الطوفان، أو على أنَّ اليوم يوم القيامة، وأنَّهم لا يؤمنون، أو شكٌّ أن لا يعذَّبوا لإمكان أن يؤمنوا قبل الموت.

﴿**قَالَ اَلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ**﴾ الأشراف، سمُّوا كذلك لأنَّهم يملأون صدور المحافل بأجسادهم، أعني صدور مجالس الجماعات، بجلالتهم وهيبتهم وأتباعهم، والعيون بجمالهم وأبَّهتهم؛ أو لملاءتهم بالمعروف، وجودة الرأي. و لم يقل: «الذين كفروا من قومه» لأنَّه لم يؤمن أحد منهم، بل آمن من آمن من قومه لا من ملئهم في غير أوَّل دعائه إيَّاهم، بخلاف ما في هود فمنهم من آمن فقال فيها

ذلك واقتصر هنا على قوله: ﴿مِن قَوْمِهِ﴾.

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ نعلمك ﴿فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ بترك دين آبائك وقومك، بالغوا بجعله مظروفا للضلال بـ«إنَّ» واللام، ويقال: وبالجملة الاِسمِيَّة، ولذلك قابلهم بقوله في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ﴾ باستغراق الضلال بالنفي للنكرة، أو بنفي الواحدة فضلا عن أن يكون الضلال ظرفا له محيطا به، والضلال عدم الاهتداء وأصله الغيبة، ادَّعوا أنَّه غاب عن الحقِّ فنفى ما ادَّعوه، ولو قال: ليس بي ضلال لاحتمل نفي ضلالتين أو أكثر، ونفي الضلال مطلقا لأنَّه مصدر يصلح للقليل وللكثير، وأمَّا ضلالة ففيه تاء الوحدة؛ ولا يقال: المراد نفي الماهية فيكون أبلغ لأنَّا نقول: الماهية ليست بمعنى الوحدة أو القلَّة بل تصدق بالقليل والكثير. وناداهم: «يَا قَوْمِ» استجلابا إلى الحقِّ. وقابل الضلالة بمرادف ضدِّها وهو الهدى في قوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنَّه من كان رسولا من الله فهو على الهدى في الغاية، لأنَّ صيغة الاستدراك قد تكون للتأكيد نحو: لست بنائم لَكِنِّي مستيقظ، أو لَمَّا أرادوا بضلاله أنَّه ترك دين آبائه، وأنَّه ادَّعَى الرسالة ، ونفى الضلالة توهَّم منه أنَّه على دين آبائهم وأنَّه ترك دعوى الرسالة، فأثبتها بالاستدراك.

أو المعنى: ليس بي شيء من الضلال كائنا ما كان، بل في غاية من الهدى؛ أو الاستدراك هنا بمعنى مطلق التدارك على مَعْنى «بل»، كقولك: ما أنا مريض لكن صحيح جدًّا، أو لَمَّا نفى الضلالة بقي أن يقال: لعلَّ الرسالة أيضا غير ثابتة، فأثبتها بـ«لَكِنَّ»، أو أتى بـ«لَكِنَّ» على طريق تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، أي لا ضلالة بي إلاَّ الرسالة إن كانت ضلالة.

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ مستأنف في التفات لبيان الرسالة المذكورة في قوله: ﴿رَسُولٌ﴾؛ أو نعت لـ«رَسُولٌ» مراعًى فيه المعنى، لأنَّ الرسول هو القائل

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ التفاتا من غيبة الاسم الظاهر وهو «رَسُولٌ» إلى المتكلِّم، فالرابط هو المستتر؛ ولو راعى الظاهر لقال: يبلِّغكم بالياء، ويجوز أن يكون «أُبَلِّغُ» خبرا ثانيا لـ«لَكِنِّ» فلا التفات، كأنَّه قيل: لكنِّي رسول من ربِّ العالمين وَلَكِنِّي أبلِّغكم ﴿رِسَالاَتِ رَبِّي﴾ جمع باعتبار أفراد الوحي كلَّما جاءه، وباعتبار تعدُّد أنواعه، كأمر ونهي ووعظ وأحكام، وإنذار وتبشير على الإيمان إن وقع، وقصَّة ومسائل، وصحف إدريس وهي ثلاثون، وصحف شيت وهي خمسون، فهو يبلِّغهم ما أرسل به وما أرسل به غيره.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أرغِّبكم من عندي في الطاعة، وأحذِّركم عن المعصية بذكر عواقب ذلك، وبتمييز الأحسن من الحسن، والأصلح من الصالح، وبترغيبكم في القبول عن الله، فحقيقة النصح تعريف وجه المصلحة مع خلوص النيَّة من شوائب المكروه، ويقال أيضا: نصحتك، ولكن في اللام دلالة على إمحاض النصح، قال الفرَّاء: وهو الغالب.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اَ للهِ﴾ «مِن» للابتداء متعلِّق بـ«أَعْلَمُ»، أولى من تعليقه بمحذوف، أي: أعلم بالوحي من الله ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من الأمور الآتية، ومن شؤونه وبطشه الشديد. ولم يعلموا بقوم حلَّ بهم العذاب قبلهم لعدم ذلك، أو لم يسمعوا بذلك وقد وقع قبلهم. ﴿أَوَعَجِبْتُمُ﴾ قدِّمت الهمزة على العاطف قِصَّة على أخرى عند سيبويه والجمهور، لتمام صدارتها، أو دخلت على محذوف، أي: أكذَّبتم وعجبتم العجب، بشدِّ الذال، والهمزةُ إنكارٌ لللياقة، أو يقدَّر: أجاءكم إرشاد وعجبتم ﴿أَن جَآءَكُمْ﴾ أي من أن جاءكم ﴿ذِكْرٌ﴾ شيء يجب أن يذكر ولا ينسى، وهو ما أوحى الله ﷻ، أو وعظٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ أي على لسان رجل ﴿مِّنكُمْ﴾ من نسبكم أو جنسكم الآدميِّ،

أو من جملتكم تعرفون مولده ومنشأه، وكانوا يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ اللهُ لأَنزَلَ مَلآئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَآئِنَا الأَوَّلِينَ﴾ (سورة المؤمنون: ٢٤). ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ يخبر بالسوء الذي يترتّب على كفر الكافر ومعصيّته إن لم يتب ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ بسبب الإنذار بما تعذّبون به، أو لتعظّموا الله فلا تعصوه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ علّة ثالثة مرتّبة على الثانية التي هي الاتّقاء، وكانت بصيغة الترجّي تنبيها على أنّ التقوى غير موجبة للرحمة، بل الرحمة مسبّبة لها، فلو شاء الله ﷻ لم يُثِبْ المتّقي كما لا يعاقبه، لأنّه عبده لا ملك له مع الله، وهو الخالق لتقواه الموفّقة إليها، وأمّا أن يعذّب المتّقي فلا لأنّه ليس حكمة.

وقال قومنا بجوازه، فقالوا: لو شاء الله لم يثبه ولو شاء عذّبه، قلنا: ليس من الحكمة أن يشاء تعذيبه نعم يمكن أن يشاء ذلك باعتبار تقصيره، إذ لا يخلو من تقصير، والمقصود من الإرسال: الإنذار فقدّمه، وهو العلّة الأولى، والمقصود من الإنذار: الاتّقاء فعقّبه به، والمقصود من التقوى: الفوز بالرحمة فعقّبها بالرحمة، أي: لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ بالاتّقاء أو بالتذكُّر المترتّب على الذكر.

وزاد الله تقبيحا لكفرهم بأن كفروا بما ينفعهم لو آمنوا به، وبكونه جاءهم من سيّدهم المربّي لهم، المنعم عليهم، على لسان رجل منهم، هو من نسبهم، شرفه شرف لهم، ومن جنسهم، بحيث يتمكّنون من الفهم عنه ومراجعته كي يفهموا، وبأنّ في اتّباعه نجاة وفوزا ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أوّلاً، واستمرّوا على التكذيب ثانيا، والتكذيب شامل لذلك.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ من الغرق آخر مُدَد طويلة في الاستمرار على التكذيب، والفاء لمجرّد الترتيب وَالاتّصَال بآخر المدد بحيث الإنجاء، وللتسبُّب والترتيب المذكورباعتبار قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ بالعطف بالواو على مدخول الفاء، والإنجاء في

الشعراء (سورة الشعراء: ١٩٩) من شؤم أعدائه ﴿وَالذِينَ مَعَهُ﴾ أربعين رجلا وأربعين امرأة، أو ستّة رجال وأبنائه ساما أبا العرب، وحاما أبا السودان، ويافثا أبا الترك والبربر، أو أبنائه الثلاثة وأزواجهم وستّة وأزواجهم، أو سبعين وأبنائه الثلاثة وزوجه، وستّة وأزواجهم فهم ثمانية وسبعون، نصف رجال ونصف نساء، أو ثمانين بنوح عليه السلام ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ السفينة، حال من «الذِينَ»، أو من المستتر في «مَعَهُ»، أو متعلّق بـ«أَنجَيْنَاهُ» أو باستقرار معه، أو بـ«مَعَهُ» لنيابته عنه، ويجوز كون «فِي» للسببيَّة إذا علّقت بـ«أَنجَيْنَا».

وطولها في الأرض: ألف ذراع ومئتا ذراع، وعرضها: ستُّمائة ذراع؛ أو طولها: ستُّمائة ذراع وَسِتُّونَ ذراعا، وعرضها: ثلاثمائة وثلاثون ذراعا؛ أو طولها في السماء: ثلاث وثلاثون ذراعا؛ أو طولها في الأرض: ثمانون؛ أو في السماء: ثلاثون، وعرضها: خمسون. والذراع: من المنكب، وهذا **من الإسرائليات، وفي بعض ذلك بُعْدٌ**؛ أو طولها: ثلاثمائة في الأرض وثلاثون في السماء وعرضها: خمسون. وصَنَعَها في سنتين.

﴿وَأَغْرَقْنَا الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾ بالطوفان ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن فهم الحقّ، وهو وصف بوزن فرح، حذفت لامه كلام قاضٍ للساكن؛ وَقِيلَ: عن نزول العذاب.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ

وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قصّة هود عليه السلام

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ داخل في القَسَم، لأنّه معطوف على قوله: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾، وعطف على «نُوحًا» قوله: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ولا حاجة إلى دعوى تقدير، وكذا فيما بعد.

(قصص) وعاد هو: ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح، سمِّيت به أولاده ونسلهم. وهود عربيٌّ، وظاهر سيبويه أنّه عجميٌّ، كنوح ولوط بل هما مختلف فيهما أيضا. وهود هو: غابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، أو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام، وَقِيلَ: بن شالخ بن أرفخسد بن سام. عاش أربعمائة سنة وأربعا وستّين سنة، وَقِيلَ: مائة وخمسين، وصالح مائتين وثمانين، وَقِيلَ: نوح ابن عمِّ أبي عاد، وَقِيلَ: هود بن عوص بن إرم بن نوح. وكان بين هود وبين نوح ثمانمائة سنة، وهوابن أبي عاد. وجعل منهم لأنّهم أفهم لقوله وأعرف لحاله، وأرغب في اتّباعه. قال الكلبيُّ: هو واحد من تلك القبيلة، وقيل: ليس منها ولكنّه سمّي أخا لهم لأنّه من جنسهم الآدميِّ، لا من الجنِّ، ولا من الملائكة. وذكر أهل اليمن أنَّ يعرب بن

قحطان بن هود هو أوّل من تكلّم العَرَبيَّة، وبه سمِّيت العرب عربا، فَهُودٌ أعجميٌّ صرف صرف نوح ولوط. وفي القرآن ذكر القوم المرسل إليهم باسمهم إن عرفوا باسم كعاد وثمود ومدين، وبلفظ القوم أن لم يعرفوا باسم.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اِعْبُدُواْ ا للهَ﴾ وحده لم يكن هود في التذكير لقومه كنوح بل دونه في المواظبة، وكأنّه قيل: فما قال لهم؟ فلم يكن العطف، وَلَمَّا كثر [التذكير] من نوح كان العطف بالفاء، لأنّه لم يتأخّر تذكيره عن الإرسال لأنّه حضرهم، وهود ذهب إليهم من موضع ولو كان فيهم، بل قيل: باشر نوح التذكير قبل الإرسال. واحتجَّ على وجوب عبادة ا لله وحده بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ على حدِّ ما مرَّ ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ أتغفلون فلا تتَّقون عذابه، أو أتعرضون فلا تتَّقون العقاب والإشراك وظلم العباد وعبادة الأصنام، ورمل وصمد وصداء وصمود والهباء أصناما لهم. وفي سورة هود: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ فنقول: قالهما معا، فذكر ا لله ﷻ كلاًّ في موضع كما ذكر فيها: ﴿إِنَ اَنتُمُ, إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾.

وقال هنا: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ لأنهم تقدَّمهم عذاب قوم نوح وقد علموا به، وَقِيلَ: لأنّهم أقرب إلى القبول من قوم نوح، وكانوا ينزلون اليمن بالأحقاف ـ رمال بين عمان وحضرموت ـ وكانوا قد قهروا أهل الأرض بفضل قوّتهم وعظم أجسامهم، وقالوا: ﴿مَنَ اَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (سورة فصِّلت: ١٥) .

وكأنّه قيل: بِمَ أجابوه ؟ فقال: ﴿قَالَ اَلْمَلأُ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد بن عفير، ولذلك قيَّد الملأ بـ«الذِينَ كَفَرُوا» بخلاف نوح فالقليل الذين آمنوا به ليسوا من أشراف قومه، وإن كانوا منهم فإنّهم لم يؤمنوا عند مخاطبته لهم بل بَعْدُ، ومثل مرثد آمن بهود عند مخاطبته، لكن في سورة قد أفلح (سورة المؤمنون: ٢٤) وصف قوم نوح بما وصف

به قوم هود إلاَّ أنَّ الوصف هناك للذمِّ لا للتميـيز وهنا للتميـيز والفرق، كذا قيل، ولا مانع هنا أنّه للذمِّ.

﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ**﴾ خفَّة عقل وفساد وجهالة، إذ فارقت دين قومك ﴿**وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ عن الله فيما تقول، وما أنت برسول، خوَّف نوح عليه السلام قومَه بالطوفان فقالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حين تدَّعي الوحي من الله وحين تصنع سفينة في أرض لا ماء فيها، وأمَّا هود فنسب عبادة الأصنام إلى السفه، فقابلوه بـ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ وهم أقلُّ سوءً بالنظر إلى قوم نوح لسماعهم بالطوفان، ولذا قال هنا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بصورة استبعاد عدم اتِّقائهم بعد علمهم بما حلَّ بقوم نوح، وفي سورة هود: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إمَّا ذُكِرَا بالمعنى فإنَّ مرجع كلٍّ إلى معنى واحد، أو خاطبهم بكلٍّ منهما، وذكر في سورة ما لم يذكر في الأخرى، كما ذكر هنالك: ﴿إِنَ اَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ (سورة هود: ٥٠) وهكذا ما أشبه ذلك في القرآن.

وردَّ عليهم أبلغ ردٍّ بما في قوله: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ اَمِينٌ**﴾ فإنَّ من هو رسول من ربِّ العالمين في غاية الرشد لا يخالطه سفاهة. وفي نفي السفه إثبات الرسالة منه تعالى، نفي للكذب عنه، فلم يصرِّح به في مقابلة قولهم: ﴿إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وكان هود دون نوح في تكرير الدعاء لقومه فناسبه الفعل المضارع الدالُّ على التجدُّد، إذ قال: ﴿أَنصَحُ لَكُمْ﴾ وناسب هود الاسميَّة، و﴿أَمِينٌ﴾ بمعنى مأمون على الرسالة، وقبَّح عجبهم الداعي إلى كفرهم بقوله: ﴿**أَوَعَجِبْتُمْ**﴾ أستبعدتم وعجبتم؟ ﴿**أَن جَآءَكُمْ**﴾ من أن جاءكم ﴿**ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ**﴾ أي لسان رجل ﴿**مِنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ**﴾ على حدِّ ما مرَّ.

﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ**﴾ أي لا تعجبوا واذكروا،

أو تدبَّروا في أمركم واذكروا وقت جعلكم خلفاء في الأرض، أو ساكنين فيها في مساكنهم. وكان شدَّاد بن عاد ممَّن ملك معمور الأرض. وأوجب ذكر الوقت لم يذكر بالإيجاب الحوادث فيه مع أنَّها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها، بإيجاب ذكر الوقت لاشتمال الوقت عليها، فاستحضاره بمثابة استحضارها بتفاصيلها معاينة ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ﴾ في الإيجاد لكم أو في البدن المخلوق ﴿بَصْطَةً﴾ سعة في القوة، والعرض والطول سبعة أذرع عرض لستِّين طولا، ويزيد العرض وينقص، **وا لله أعلم.**

(قصص) ويأتي أحدهم الجبل فيقطع منه قطعة عظيمة ويقطع منه ما لا تحمله خمسمائة رجل من هذه الأمَّة، ويدخل أحدهم قدمه في الأرض الصلبة فتدخل فيها، ويقال: طويلهم مائة ذراع، وقصيرهم ستُّون، وبه قال الكلبيُّ، أو طويلهم خمسمائة ذراع وقصيرهم ثلاثمائة، أو طويلهم ثمانون، أو سبعون، أو أربعمائة، وذلك بذراعهم **فيما قيل وهو مشكل** فإنَّ في جسد الإنسان أربع أذرع نفسه تقريبا، ورأس أحدهم كالقبَّة العظيمة تلد الضبع في عينه أو أنفه. ومنهم شدَّاد بن عاد وقد ملك المعمور من الأرض. وكان هود عليه السلام في طولهم وعرضهم وقوَّتهم وأحسنهم وجها وأجملهم أبيض طويل اللحية.

﴿فَاذْكُرُوا ءَالآءَ ا للهِ﴾ من البسطة والأموال، تعميم بعد تخصيص، والأصنام لا تقْدِر على ذلك فكيف تعبدونها ؟ . وقد يتغذَّى أحدهم بمائة كبش، أو جمل. والمفرد: إِلًى بالتنوين كرضًى، أو أُلْيٌ كقفل أو ضلع.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بذكرها الموصل إلى الشكر المؤدِّي إلى الفلاح، أو الذكر: الشكر، وهو يُؤَدِّي إلى الفوز بالجنَّة. ولا بدَّ من العمل والتقوى أو هما المراد بالذكر، فالفلاح بالجنَّة. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ من مسكنك أو موضع عبادتك، كما أوحى ا لله إلى سيِّدنا محمَّد ﷺ في حراء فجاء قومه يدعوهم، أو

جئتنا من السماء كالملك، واعتقدوا أنَّ ا لله لا يرسل إلاّ ملكا، وهذا تهكُّم، أو من ا لله، أو أَقَصدتنا وتعرَّضت لنا ؟ و لم يريدوا المجيء من موضع ﴿لِنَعْبُدَ ا للهَ وَحْدَهُ, وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ أي تعدناه من العذاب، بالتعدية لاثنين؛ أو تعدنا به، وحذف الضمير، ولو لم يتعلّق بمثل ما تعلّق به الموصول، وقد قال بعض بقياس ذلك إذا أظهر المراد. ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في إخبارك بنزول العذاب المشار إليه بـ«أَفَلاَ تَتَّقُونَ» على ترك الإيمان بك.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ مجاز عن «حَقَّ» أو عن «وَجَبَ»، لأنَّ الوقوع لازم للوجوب، وكون الشيء حقًّا لا بدَّ منه، أو مسبَّب عن ذلك، أو شبَّه ما سيقع بما وقع لجامع تحقُّق الوقوع؛ أو الزمان الآتي بالماضي كأنّه قيل: سيقع، ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب بريح عقيم، مأخوذ من معنى الارتجاس، وهو الاضطراب، لأنَّ المعذّب في أَشَدِّ الاضطراب، ﴿وَغَضَبٌ﴾ إرادة الانتقام، وهي توجُّه متعلّق الإرادة الأَزَليَّة. ولِحِلْمِه ــ وكذا سائر الأنبياء ــ لم يجبهم بخشونة، فيجب تعلُّم ذلك، بل بنفي ما ادَّعوه عليه من السفاهة، وبالوعظ والاحتجاج بما ذكر وبقوله:

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ الأسماء: الأصنام المذكورة تعبدونها، أي اخترعتموها، أو وصفتموها، فما له من مفعولان كما قيل: إنَّ الثاني محذوف، وإنَّ الاسم بمعنى المسمَّى، أي في أشياء سمَّيتموها آلهة، أو خالقة رازقة ومنزلة المطر ونحو ذلك؛ وقدَّر بعض: ذوي أسماء، أو ذوات أسماء، وردَّ بعضٌ الضمير إلى «أسماء»، ومعنى كلٍّ واحد غير معنى الآخر، وهو أن يكون الضمير بمعنى الألفاظ، والأسماء بمعنى الذوات، أو العكس على الاستخدام ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ شامل للأجداد ﴿مَا نَزَّلَ ا للهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجَّة.

واستُدِلَّ بالآية على أنَّ الاسم هو المسمَّى لأنّهم يجادلون في الأصنام لا في

الألفاظ التي سمِّيت بها، وكذا هود يجادلهم في المسمَّيات لا في أسمائها، وإن جادلهم في لفظ إله فلانتفاء الأُلُوهِيَّة عنها. واستُدِلَّ بها أيضا على أنَّ اللغة توقيفيَّة إذ لو كانت اصطلاحيَّة لم يذمُّوا بتسميتهم الأصنام آلهة من غير توقيف من الله على تلك الأسماء.

والاستدلالان ضعيفان لأنَّا نقول: الأسماء هي الألفاظ، والمسمَّيات مدلولاتها، والذمُّ على المجادلة في الأسماء لا يستلزم اتِّحاد الاسم بالمسمَّى، وشهر قولهم: اسم بلا مسمًّى، بمعنى أنَّه مجرَّد عن معناه لعدم وجود معناه له، فأنكر عليهم تسميتها بما ليس معناه لها، فإنَّ الأُلُوهِيَّة معدومة فيها، وليس في الآية أنَّكم أطلقتم هذا الاسم على المسمَّى من غير توقيف من الله ﷻ، بل باصطلاحكم، فضلا عن أن تكون الآية ردًّا عليهم، والذمُّ لأجل تسمية ما لا يليق بالأُلُوهِيَّة إلها، لا لوضع اللغة من عند أنفسهم.

﴿فَانتَظِرُوٓاْ﴾ نزول العذاب الذي تطلبونه بقولكم: ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾. والجملة مرتَّبة على قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ...﴾؛ أو يقدَّر: «إذا أبيتم إلاَّ العناد فانتظروا». والأمر تهديد أو تحقير. ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ لعذابكم لتكذيبكم. فأرسلنا عليهم الريح ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ من الريح، أنجينا هودا ﴿وَالذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ولو شاء لم ينجهم من الموت بتلك الريح، لكن يبعثهم على السعادة، أو الرحمة منظور فيها إلى أنَّها السبب في الإنجاء، أي رحمناهم بالتوفيق إلى الإيمان المترتِّب عليه الإنجاء، ويجوز تعليق الباء بـ«مَعَهُ»، أو بمتعلَّقه، أي ثبتوا معه، أو آمنوا معه برحمة منَّا بأن وفَّقناهم.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَاتِنَا﴾ استأصلناهم، كما يعمُّ الشيء شيئا آخر حتَّى يقع على آخره فذلك استعارة تمثيليَّة. ﴿وَمَا كَانُواْ مُومِنِينَ﴾ عطف على «كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا»، تأكيدا في ذمِّهم، فإنَّ المكذِّب غير مؤمن، أو كذَّبوا في

الماضي ولا يؤمنون بعدُ في باقي أعمارهم قبل الإهلاك، ولا يؤمنون أيضا لو أبقاهم. ومن فوائد ذكر الإيمان: التلويح بأنَّ الفارق بين من نجا ومن هلك هو الإيمان.

(قصص) أمسك ا لله المطر ثلاث سنين فبعثوا إلى مكّة للاستسقاء قيل ابن عنز وجلهمة بن الخبيري، ومرثد بن سعد، ومع كلٍّ رهطٌ من قومه والكلُّ سبعون، وعادة أهل ذلك الزمان مسلمهم وكافرهم إذا نزل بلاء قصدوا بيت ا لله لكشفه، فنزلوا على معاوية بن بكر خارج الحرم سيِّد مكّة، وأمُّه كلهدة بنت الخبيري رجل من عاد، وأهلها العماليق أبوهم عمليق بن لاود بن سام، فأكرمهم وهم أخواله وأصهاره، وأمُّه كلهدة من عاد [نزلوا عليه] شهرا يشربون الخمر وتغنّيهم جاريتان: وردة وجرادة، فقيل: الجرادتان تغليبا. ومسيرهم أيضا شهر، وشفق على عاد إذ هم في قحط ووفدهم مشتغلون باللذّات عن الاستسقاء، وخاف أن يظنُّوا أنّه ثقل عليه مُقامُهم، فقالتا: قل شعرا نغنّيهم به ولا يدرون لمن هو، فقال:

ألا يا قِيلُ ويحك قم فَهينَم ... لعلَّ ا لله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إنَّ عادا ... قدأمسوا ما يبينون الكلاما
من العطش الشديد، فليس ترجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عياما
وإنَّ الوحش تأتيهم جهارا ... ولا تخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما
فقبَّح وفدكم من وفد قوم ... ولا لاقوا التَّحِيَّة والسلاما

فغنَّتاهم فانتبهوا، ودخلوا الحرم وطلبوا معاوية وأباه وكان شيخا كبيرا أن يمسك مرثدا لأنّه آمن بهود، وقال لهم: وا لله لا تسقون إلاّ إن آمنتم بهود،

وحينئذ أظهر إسلامه فقال:

عصت عاد رسولهم فأمست عطاشا ما تبلُّهم السماء
لهم صنم يقال له صمود يقابله صداء والهباء
فبصَّرنا الرسولُ سبيل رشد فأبصرنا الهدى وجلا العماء
وإنَّ الله لا سواه ربِّي على الله التوكُّل والرجاء

وقال رئيسهم قيل عند الكعبة: يا إلهنا إن كان هود على الحقِّ فاسقنا قد هلكنا، وقد قالوا: اللهمَّ أعط قيلا سؤلا واقض سؤلنا مع سوله، فأنشأ الله ثلاث سحابات بيضاء وحمراء وسوداء، وناداه من السحاب ملك: يا قيل اختر إحدى السحابات لك ولقومك، فقال: اخترت السوداء لأنّها أكثر ماء فنودي اخترت لقومك رمادا رَمْدِدًا لا يبقي من عاد أحدا، فطلعت عليهم السوداء من واد يقال له: المغيث، فقالوا مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال الله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ...﴾ (سورة الأحقاف: ٢٤) فأهلكوا بالريح في سبع ليال وثمانية أيَّام، هم وأولادهم وأموالهم ترفع الحيوان وتدقُّه والمتاع فتمزِّقه، ورأوها ترفع الإبل وما عليها، والرجال فتدقُّهم على الأرض وبالحجارة فبادروا البيوت وأغلقوها عليهم، فقلعت الأبواب وقتلتهم فيها وأخرجتهم، وكانوا تحت الرمال في تلك الأيَّام والليالي يسمع لهم أنين وألقتهم بعد ذلك الريح أو طير سود في البحر، وهود وأصحابه عند البحر في حظيرة يصيبهم من الريح ما يلين أجسادهم.

(قصص) وإذا أهلك الله قوم نبيء مضى هو ومن آمن معه إلى مكّة وعبدوا الله ﷻ فيها وماتوا فيها. وعن عليٍّ: إنَّ قبر هود بحضرموت في كثيب أحمر فيه أراك وسدر كثير، وَقِيلَ: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين

نبيئا، وأنَّ قبر هود وشعيب وصالح مع إسماعيل في تلك البقعة. وخرج الوفد من مكّة فنزلوا على معاوية بن بكر، فأقبل رجل على ناقة في ليلة مقمرة من أمصار عاد، فأخبرهم بهلاك عاد، فقالوا له: أين فارقت هودا وأصحابه؟ قال: فارقتهم بساحل البحر، فَشَكُّوا، فقالت هرملة بنت بكر أخت معاوية المذكور: صدق وربِّ الكعبة. وقيل لقيل: اختر لك، فاختار ما أصاب قومه، فقيل له: إنّه هلاك، فقال: لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعد قومي فهلك بالريح، وقيل لمرثد: اختر فقال: اللهمَّ اعطني برًّا وصدقا فأعطيَهما، وقيل للقمان: اختر بقاء سبع بعرات سمنٍ من أظْبٍ عفر لا يمسُّها قطر، أو عمر سبعة أنسر، واستحقر الأبعار، واختار النسور فكان يأخذ الفرخ الذكر منها لقوَّته فيربِّيه حتّى إذا مات أخذ غيره، وكلٌّ يعيش ثمانين سنة، فلمَّا بقي السابع قال ابن أخ للقمان: يا عمّ لم يبق من عمرك إلاَّ هذا النسر، فقال: يا ابن أخي هذا لبد، ولبد بلسانهم: الدهر، وَلَمَّا انقضى عمر لبد طارت النسور غداة من رأس الجبل و لم ينهض لبد، وكانت نسور لقمان لا تغيب عنه، وطلع لقمان الجبل فقال: انهض لبد، فأراد النهوض فسقط وقد وجد لقمان في نفسه وَهَنًا لم يجده قبل ذلك فمات مع لبد.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا

أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

قصة صالح عليه السلام

ولم يبق من عاد أحد إلاّ قوم سكنوا مكّة لم يحضروا سخطهم وهم عاد الثانية، وهم ثمود أرسل الله إليهم سَيِّدنَا صالحا عليه السلام كما قال الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ هو الأكبر، ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، وَقِيلَ: ثمود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام. ﴿أَخَاهُمْ﴾ بينه وبين هود مائة سنة.

(قصص) ﴿صَالِحًا﴾ صالح بن عبيد بن آسف بن ماشج بن عبيد بن حاذر بن ثمود ابن غابر بن سام بن نوح، وَقِيلَ: صالح بن عبيد بن جابر بن سام بن نوح، وصالح أخوهم في النسب، وكانوا بين الحجاز والشام إلى وادي القرى، وفي هذا النسب قال جلهمة بن الخيبري من قوم هود خال معاوية المذكور حين أظهر له مرثد إيمانه بهود:

أبا سعد رأيتك من قبيل ذوي كرم وأمُّك من ثمود
فَإِنَّا لا نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لِمَا تريد
أتأمرنا لنترك دين رفد ورمل والصمود والعبود
ونترك دين آباء كرام ذوي رأي ونتبع دين هود

وتريد بالضمِّ وسائر القوافي بالكسر، وذلك يسمَّى إجازة.

قيل: بعث الله صالحا إليهم حين راهق الحلم، وهو مخالف ما شهر به من البعث على أربعين، وأقام فيهم أربعين عاما، وعبارة بعض: بُعِثَ شابًّا ودعا قومه حتّى شمط وكبر، وَقِيلَ: أقام فيهم عشرين سنة ومات بمكّة وهو ابن ثمانية وخمسين. وثمود مأخوذ من الثمد وهو الماء القليل.

وكأنّه قيل: فماذا قال لهم ؟ فقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ قالوا: ألك حجّة ؟ فقال بعد خروج الناقة: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ على صدقي ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ قالوا: أين بيّنتك ؟ فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ﴾ نسبها لله لأنّها أرسلت حجّة لله عليهم، ولأنّها لم تكن من أمٍّ وأب بل من صخرة، وتعظيما لها كبيت الله وروح الله، ولأنّها لم يملكها أحد، وذلك كلُّه بعد نصح وكلام طويل في مدّة طويلة ﴿لَكُم﴾ خبر ثان، أو حال من «نَاقَة»، أو يقدَّر: هي لكم، أو حال من قوله: ﴿ءَايَةً﴾ حال من «نَاقَة»، لأنَّ المبتدأ اسم إشارة يتضمَّن معنى: أُشيرُ، ومعه هاء تتضمَّن معنى: أُنَبِّهُ، فقيل العامل أُنَبِّهُ أو أشيرُ قيل، أو يقدَّر: انظر إليها آية؛ أو «ناقة» بدل والخبر «لَكُمْ» عمل هو أو متعلّقه في الحال بعده.

(قصص) سألوا صالحا آية يوم عيد لهم فخرج معهم، وقد قالوا: ندعو آلهتنا وتدعو إلهك، فدعوها ولم تستجب لهم، فدعا الله صالح فأجاب له بالناقة من الصخر على ما وصفوا له، عيَّنوا له صخرة تسمَّى "الكاتبة" في ناحية الجبل، فقالوا له: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة على شكل البخت عشراء، وَبَرْاءَ جوفاء، ومعنى عشراء مضى عليها عشرة أشهر حين حملت وجوفاء عظيمة الجوف، ووَبْراء كثيرة الوبر، فدعا الله ﷻ فتمخّضت بحضرتهم الصخرة كالمرأة فخرجت منها كما وصفوا، وَلَمَّا خرجت ولدت مثلها في العظم. وخصُّوا بها في قوله: ﴿لَكُم﴾ مع أنَّ الإيمان بها نافع لكلٍّ من آمن بها إلى يوم القيامة لأنّهم الطالبون لها والمنتفعون بلبنها ونسلها، وبالإيمان بها لو آمنوا.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ وتشرب كما ذكر الشرب في آية أخرى، أو ﴿تَأْكُلْ﴾: تنتفع، فتعمُّ الأكل والشرب. ﴿فِي أَرْضِ اللهِ﴾ هي ناقة لله، لم يجر عليها ملك أحد، تأكل في الأرض التي هي ملك لله تعالى نفسها ونباتها لا وجه لكم في منعها، وفي ذلك تأكيد لعدم التعرُّض لها ويجوز تنازع «ذَرُوا» و«تَأْكُلْ» في قوله: ﴿فِي أَرْضِ اللهِ﴾، ومأكوها العشب. ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ مَّا من الأسواء، والنهي عن المسِّ مبالغة، إذ لم يقل: لا تسيئوا إليها، أو لا تسوؤوها، وأشدُّ مبالغة أن يقول: لا تقربوها بسوء، ولم يقل ذلك -والله أعلم- لأنَّ قربها بسوء بلا فعل له لا يوجب به الله الرجفة والإيذاء بلا مسٍّ بجسد أو غيره ممكن كالمنع من الرعي، والغالب بالمسِّ فجاءت الآية به، والمسُّ بلا سوء لم يحرَّم عليهم، **وحاصل الآية: لا تنالوها بسوء** ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ رجفة وصيحة.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض ﴿مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ أهلكهم الله وأسكنكم فيها، كما قال: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الاَرْضِ﴾ أرض الحِجْر بين الحجاز والشام، ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الحجر: ٨٠). ويجوز جعل الخلافة بمعنى جعلهم سلاطين، ولم يعرف أنَّ أحدًا من ثمود ملك الأرض كلَّها كشدَّاد من عاد.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا﴾ أي في سهولها، أو من أجزائها كاللَّبنات والآجر ﴿قُصُورًا﴾ الاتِّخاذ الصنعة والعمل، متعدٍّ هنا لواحد، ويضعف [القول] أنَّ الثاني «مِنْ سُهُولِهَا»، والسهول: جمع سهل وهي الأرضون، والقصور: الأبنية العظام التي تقصر الفقراء عن تحصيلها وتحبس عنها، والسهل: اللَّيِّن، ومقابله: الجبل، كما قال:

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ تنجرون وتبرون ﴿الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ يسكنون في القصور صيفا وفي بيوت الجبال شتاء. ضُمِّن «تنحت» معنى تجعل أو تتَّخذ بالنحت

بعض الجبل بيتا وبعض الجبل بيتا، وهكذا في جبل وجبال، أو تصيِّرون أبعاض الجبال بيوتا، أو تنحتون من الجبال، كقوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾(سورة الأعراف: ١٥٥) أي من قومه، أو تبرون أبعاض الجبال مُقَدَّرة أن تكون بيوتا، أي مسكونة، فـ«بُيُوتًا» حال مُقَدَّرَة في هذا الوجه مؤوَّلة بالمشتقِّ. تطول أعمار ثمود ثلاثمائة سنة وخمسمائة وغير ذلك، فكانت الأبنية لا تقوم بهم لطول أعمارهم، فكانوا يتَّخذونها أيضا في الجبال، ولكثرتهم أيضا نحتوا الجبال، وكانوا في سعة من الرزق ﴿فَاذْكُرُوا ءَالآءَ اَ للهِ﴾ كقوَّة أجسادكم، وكثرة أموالكم، وعسل النَّاقة ولبنها، وكانت تكفيهم ويدَّخرون أيضا ﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي اِلاَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بضرِّ الناقة وغيره، والإفساد أعمُّ من العثي.

﴿قَالَ اَلْمَلأُ الذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ عن الإيمان وعلى غيرهم ﴿لِلذِينَ اَسْتُضْعِفُواْ﴾ أذلُّوهم، أو عدُّوهم ضعفاء. وَكَأنَّه قيل: فبماذا أجابوه ؟ فقال: ﴿قَالَ الْمَلأُ...﴾، وعلى تقدير عدم السؤال يُكْتَفَى بالربط المعنويِّ، فكأنَّه عطف. والسين في «اسْتَكْبَرُوا» و«اسْتُضْعِفُوا» للمبالغة أولى منها للزيادة. ﴿لِمَنَ ـ امَنَ مِنْهُم﴾ «لِمَنْ» بدل كلٍّ من قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾، والمستضعفون هم من آمن والهاء للقوم، وإن فسَّرنا «الذِينَ اسْتُضْعِفُوا» بالكافرين المستضعفين والمؤمنين المستضعفين فهو بدل بعضٍ، والهاء للذين استضعفوا، والأوَّل أولى لأنَّ الأنسب ذكر أنَّهم احتقروا المؤمنين.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ إلى قومه أو إلينا ؟ والمعنى واحد، لأنَّ المتكلِّمين هم من قومه، وهذا استهزاء ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُومِنُونَ﴾ مقتضى الظاهر أن يقولوا: نعم، أو: علمنا أنَّه مرسل منه، وعدلوا عنه لزيادة التصريح بأنَّهم أهل إيمان به راسخ، وللتنبيه على أنَّه لا يشكُّ في إرساله عاقل فنحن مؤمنون به، ولسنا مِمَّن تعاصى من ذوي الرأي عن الإيمان به، فذلك من

الأسلوب الحكيم بالنعت، أو أسلوب الحكيم بالإضافة، وهو الجواب بما، الأولى أن يكون السؤال عنه كقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾(سورة البقرة: ١٨٨) كأنَّه قيل: لا ينبغي السؤال عن رسالته لظهورها، وإنَّما يسأل عن الإيمان به.

قيل: آمن به مائة وعشرون، وهلك قومه وهم ألف وخمسمائة دار، وَقِيلَ: آمن به أربعة آلاف إنسان، وبنوا مدينة اسمها حاضوراء، وَقِيلَ: ذهب إلى حضرموت ولَمَّا وصلها مات، فسمِّيت حضرموت، وَقِيلَ: مات بمكَّة ابن ثمان وخمسين.

﴿قَالَ الذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالذِي ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ مقتضى الظاهر أن يقولوا: إنَّا بما أرسل به كافرون، لكن عدلوا إلى التصريح بأنَّا لا نذعن إلى ما أذعنتم إليه، نؤمن بما كفرتم به، ونكفر بما آمنتم به.

(قصص) وكانت الناقة تشرب ماء البئر كلَّه يوما ولهم يوم، وتفرُّ منها حيوانهم في مرعاها، فكرهوا ذلك، كانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منه أنعامهم، وتشتو في باطنه فتهرب منه أنعامهم، وزيَّنَتْ لهم قتلها عنيزة أم غنم، وصدقة بنت المختار، وَقِيلَ: اسمها صدوق، عرضت نفسها لابن عمٍّ لها يقال له: مصدع بن مهرج، على أن يقتل الناقة، ودعت عنيزة قدار بن سالف لقتلها على أن تزوِّجه أيَّة بناتها شاء، قطع مصدع عرقوبها وطعن قدار في لَبَّتها، ومصدرها ستُّون ذراعا، ولا يسعها طريق ورودها، لعظمها بالشرب، فقتلوها وقسَّموا لحمها.

وقال الله ﷻ: **﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ﴾** نحروها، والعقر: القتل، أو الجرح، أو قطع عراقيب الإبل، والعرب إذا أرادوا النحر قطعوها، وهو سبب للنحر، وأسند العقر إلى جميعهم لرضا من لم يباشر العقر، وسكوت من لم ينه وأمر من أمر، **فالفاعل والراضي والآمر وتارك النهي يعمُّهم العذاب**، وَإِنَّمَا تولَّى عقرها قدار بن سالف وكان أحمر أزرق قصيرا يزعمون أنَّه ابن زانية، ولد على فراش سالف، وكان عزيزا في قوم سالف، وكان العقر يوم الأربعاء وفرَّ ولدها ودخل

الصخرة التي خرج منها انفتحت له، وانطبقت عليه، وَقِيلَ: ذبحوه، وَقِيلَ: طلع جبلا يسمَّى "قارة"، فقال لهم صالح: إن أدركتموه فلعلّكم تنجون، ورغا ثلاثا لكلِّ رغوة يوم كما قال لهم صالح، وأوحى الله إلى الجبل: أن تَطَاوَلْ فلم تدرك له قنّة فما ردُّوه ﴿وَعَتَوْا عَنَ اَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ خرجوا فسادا عن التوحيد والإيمان بصالح، وعن ترك الناقة.

﴿وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ايتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ به فحذف العائد المجرور بالحرف، ولو اختلف لفظ متعلّقه مع متعلّق جارِّ الموصول للعلم به، وكثير يقول بجواز ذلك إذا ظهر المعنى، أو يقدَّر: تَعِدُنَاهُ، بتعدّي الوعد لاثنين، والمراد: بما تعدنا على مسِّها بسوء من العذاب، وذلك استهزاء منهم وتعجيز لصالح أن يأتيهم على يده عذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فمن شأن الرسول الصدق، فكأنَّه قيل: إن كنت من الصادقين في وعيدك ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ والصيحة كما ذكرت في آية أخرى، والرجفة تحرُّك الأرض، وَأَمَّا قوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ﴾(سورة الحاقة: ٤) فمعناه لطغيانهم، أو الرجفة والصيحة التي زلزلت بها الأرض، وفي آية أخرى أهلكوا بالصاعقة (سورة الذاريات: ٤٤) ، فنقول: أهلكوا بالصيحة والرجفة والصاعقة.

(قصص) كما روي أنَّ صالحا التفتَ إليهم فرأى الدخان ساطعا فعلم أنّهم هلكوا. والفاء للسببيَّة دون اتِّصَال، لأنّهم بقوا بعد عقرهم وقولهم: ﴿ايتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ثلاثة أيّام إلاَّ أن مقدّمة الرجفة متّصلة، فإنّهم لَمَّا قالوا ذلك يوم الأربعاء بعد العقر قال لهم صالح عليه السلام: يصبح وجوهكم يوم الخميس مصفرَّة، ويوم الجمعة محمرَّة، ويوم السبت مسودَّة، ثمَّ يصبِّحكم العذاب، وَلَمَّا رأوا مبدأ ذلك أيقنوا وأرادوا إهلاكه، فالتحق بأخواله في البدو فمنعوه، يقال لهم: بنو غنم، رئيسهم "نفيل"، وعذّبوا أصحاب صالح ليدلُّوهم عليه فسألوهم

أن يدلُّوهم عليه فدلُّوهم عليه فجاءوه، فقال لهم نفيل: لا سبيل إليه، دلَّهم عليه بإذنه مبدع بن هرم، وروي أنَّه خرج ليلة الأحد إلى الشام ونزل رملة فلسطين، ثمَّ إلى مكَّة مع من آمن به، وقِيلَ: رجعوا إلى منزلهم وسكنوا فيه، وهم قليل جندع بن عمرو بن جراس سيِّد ثمود، وصَيَنْم بن هراوة بن سعد بن الغطريف بن هلال، ومبدع بن هرم، وجملتهم مائة وعشرة ومنعهم من الإيمان ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحبا أوثانهم، ورباب بن ضمير، وتكفَّنوا صبح الأحد وتحنَّطوا، وألقوا أنفسهم على الأرض ينظرون إلى السماء وإلى الأرض من أين العذاب، ولَمَّا اشتدَّ الضحى جاءهم صيحة من السماء فيها صوتُ كلِّ شيء وزلزلة من الأرض، فتقطَّعت قلوبهم، وهلكوا كبارهم وصغارهم، كما قال ا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ صاروا، أو لَمَّا كان ذلك قبل الزوال سُمِّيَ زمانه صبحا، وفي آية أخرى: ﴿ثلاثة أيَّام﴾ (سورة هود: ٦٥) ، أي ثلاثة كاملة، وألغى الكسر، أو لم يصحَّ هلاكهم في الأحد بل في غروب السبت، ثمَّ رأيت أنَّهم هلكوا يوم السبت. و«أَصْبَحُوا»: صاروا. وربَّما آمن من يؤمن حين رأوا العلامة من الصفرة أو ما بعدها، لكنَّه لا ينفعه إذ شاهد العذاب. ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ في أرضهم التي سكنوها ﴿جَاثِمِينَ﴾ باركين على ركبهم لا يتحرَّكون لموتهم، وذلك وارد في اللغة، أو لازمين محلَّهم، أو واقعين على صدورهم.

﴿فَتَوَلَّى﴾ ذهب ﴿عَنْهُمْ﴾ ظاهره أنَّ التولِّي عقب إصباحهم جاثمين، وشهر خلاف هذا كما مرَّ، فلعلَّ الفاء بمعنى الواو، ولَمَّا قرب جثوُّهم وقد أخذت فيهم مقدِّماته من الصفرة والحمرة والسواد جعله كأنَّه واقع بمحضره، ويجوز العطف على «قَالُوا» ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدَ اَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ أفرد

الرسالة لفظا، والمراد: الجنس، أو الاستغراق العرفيُّ، أي ما أرسلني بـه ا لله كلّـه، أو أراد كلمة التوحيد. ﴿**وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ هـذا ظاهر في أنَّ تولّيه عنهم قبل موتهم، لأنَّ الخطاب يكون للأحياء، ولكن لا مـانع من خطابهم موتى فيسمعون ولا يردُّون الجواب، كما سمع أهل القليب خطـاب رسول ا لله ﷺ، وقال: «**سَمِعُوني ولا يقـدرون على ردِّ الجـواب**»، إذ قـال: «**هل وجدتم ما وعـد ربُّكـم حقـًّا؟**»[1]، أو خـاطبهم صـالح تحسُّـرا عليهـم لا ليردُّوا الجواب، وفي ذلك بعض التسلية له. وَلَمَّا قـتلت الناقة قالوا لصالح: أدرك الناقة فقد عقرت، واعتذروا إليه وقالوا: قتلها فلان وفـلان لا نحـن يـا نبيء ا لله، ولحق صالح بالفصيل فبكى حتّى سالت دموعه لرؤية صالح.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

قصَّـة لـوط عليه السلام

﴿**وَلُوطًا**﴾ اُذكر لوطا، و«إِذْ» بدل اشتمال، أي: واذكر لوطا وقت قولـه، أو متعلّق بـ«رسالة»، أي: واذكر رسالة لوط إذ قال، وفيه حذف المصدر وبقـاء

١-رواه **البخاري** في كتاب المغازي، رقم ٣٧٦٠، من حديث ابـن عمـر. ورواه **أحمـد** في مسنده، ج٦، ص١٣٠، رقـم ٢٥١٥٧، مـن حديـث عائشـة بلفـظ: «علمـوا» بـدل «سمعوا»، وأوَّله: «أمر رسول ا لله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب...».

معموله، وفيه أنَّ الرسالة ليست في وقت قوله وإلاّ قيل كنظائره: «وَلُوطًا إِلى قَومِهِ فقال...»؛ وصرَّح بعض بجواز نصبه بـ«أَرْسَلْنَا».

ولوط هو بن هاران بن تارخ وهو عازر، فلوط ابن أخي إبراهيم وإبراهيم عمُّه، كان هو وإبراهيم عليه السلام بالعراق، فهاجر إلى الشام فنزل إبراهيم بفلسطين ولوط بالأردن، أرسله الله إلى أهل سدوم، وأقام فيهم ثلاثين سنة يعظهم، قيل: هو بلد بحمص. وَسُمِّيَ لوطا لأنَّ حبَّه لاط بقلب عمِّه إبراهيم، أي إلتصق به من قبل النبوءة وبعدها وكان معينا له.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَاتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الزنى بأدبار الرجال، سُمِّيَ فحشا لشدَّة قبحه. وبَّخهم عليها وقرعهم بصورة الاستفهام، وزادهم توبيخا بأنَّهم أوَّل من فعلها، إذ قال مستأنفا للإنكار عليهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنَ اَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [قلت:] وأمَّا أن يقال: كأنَّهم قالوا: لِمَ لا نأتي ذلك ؟ فقال: لا تفعلوا لأنَّه ما سبقكم بها أحد من العالمين، فضعيف، لأنَّه بصورة لو سبقكم أحد بها لجازت، لكن يجوز جعلها حالا من الفاحشة، أو حال من الواو، ومن حين يأتونها كان الذكر من الحيوان يجامع الذكر منها في الدبر لا قبل، ووبَّخهم ثالثا بقوله عز وجل:

﴿إِنَّكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ﴾ يأتون الكبار والصغار، المرد وغيرهم، وَقِيلَ: يأتون الغلمان والمرد، وعلى كُلِّ حال ذكر الرجال تقبيحا لهم بإتيان مثلهم ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ﴾ مع زيادة التأكيد بالجملة الإسمية ـ فيما قالوا ـ وبـ«إِنَّ» واللام، ومع زيادة بيان الفاحشة بأنَّها إتيان أدبار الرجال. و«شَهْوَةً» تعليلٌ، أي للاشتهاء؛ أو حال، أي ذوي شهوة، أو شاهين، أي مشتهين؛ أو مفعول مطلق لتضمَّن «تأتي» معنى الاشتهاء. وذكر ﴿مِن دُونِ النِّسَآءِ﴾ مع أنَّهم يأتون النساء في أقبالهنَّ، زيادة في التشنيع عليهم، بأنَّهم قد جاوزوا

موضع الحرث الحلال إلى موضع حرام ليس محرثا، **ومبنى الوطء كفُّ النفس عن الحرام والتناسلُ، لا مجرَّد قضاء الوطر.**

﴿**بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾ إضراب انتقال عن الإخبار بإتيان الفاحشة، أو عن توبيخهم عليها إلى الإخبار بأنَّهم أسرفوا بتلك الفاحشة، أو إلى الإخبار بأنَّهم ذووا إسراف في أمورهم، حتَّى أدَّاهم الإسراف إلى تلك الفاحشة، أو إضراب انتقال عن محذوف وهو ضعيف هكذا: «ما عدلتم بل أنتم...»، أو: «لا عذر لكم بل أنتم...»إلخ، وكأنَّهم قالوا: عدلنا أو نعذر.

(فقه) واللواطة بغيوب الحشفة توجب الرجم للفاعل والمفعول به، أو الإلقاء من شاهق أو القتل بالسيف ولو بلا إحصان أو كان عبدا، وبلا غيوبة يعزَّر أو ينكَّل، والرجم أحقُّ ويليه القتل بالسيف. والإلقاء من شاهق ضعيف إذ قد لا يموت، وفيه أيضا عدم إحسان القتلة، وفي الحديث: «**أحسنوا القتلة**»، وَيَدُلُّ للقتل بالسيف قوله ﷺ: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»[1] إذ لم يقل: ارجموهما، ووجه الرجم أنَّه أنسب برجم قوم لوط بالحجارة، لكن لا يلزم لأنَّه من الله، وَقِيلَ: يرجم المحصن كما فعل ابن الزبير بأربعة أحصنوا بعد إخراجهم من الحرم، ويجلد غيره كما فعل هو بثلاثة لم يحصنوا والجملة سبعة وجدوا في اللواط، وحضره ابن عبَّاس وابن عمر ولم ينكرا عليه؛ وعن أبي بكر ﷺ أنَّه أحرق بالنار رجلا عمل عمل قوم لوط، ولعلَّه لم يصحَّ إذ ورد النهي عن القتل بالنار، أو لا يستمرُّ عليه، وزعم بعض أنَّه إن لم يُحصن أدِّب وحبس وإنَّما يؤدَّب تأديبا فقط من لم يبلغ أو المجنون.

١- رواه **الترمذي** في كتاب الحدود، (٢٤) باب ما جاء في حد اللُّوطيِّ، رقم ١٤٥٦. ورواه **أبو داود** في كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم ٤٤٦٢، من حديث ابن عبَّاس.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قدَّم الخبر للحصر، وهذا هو المحصور فيه، وأمَّا المحصور ففي قوله: ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ﴾ أي رؤساؤهم ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ أخرجوا لوطا ومن آمن معه، وفي النمل: ﴿أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ﴾ لأنَّهم مرَّة قالوا هذا ومرَّة قالوا آخر، أو ليكون ما في النمل تفسيرا لهذه، وَقِيلَ: لنزولها قبل سورة الأعراف ﴿مِّن قَرْيَتِكُم﴾ سدوم أكبر قراهم، وفيها أربعة آلاف، وأهلكت معها عامور ودومة وساعور، وآمن أهل صَقْرَة فلم يهلكوا فهنَّ خمس قرى.

﴿إِنَّهُم﴾ أي لوطا ومن آمن به ﴿أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ يجانبون ما نأتيه من اللواط وعبادة الأصنام، لأنَّهم يرونه دنسا، أي ما كان قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ, إِنَّهُمْ, أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ إلاَّ جوابا لهم، قابلوا نصحه بذلك، واستهزؤوا بجعل ذلك المتجنَّب تطهُّرا، والحصر إضافيٌّ منظور فيه إلى المرَّة الأخيرة من مرَّات المحاورة، وقد صدر منهم قبلها أقوال قبيحة، وإلى بعض صواب، أي قالوا ذلك لا بعض صواب أو سهولة، وجيء بالواو في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ هنا، وبالفاء في النمل (سورة النمل: ٦٥) والعنكبوت (سورة العنكبوت: ٢٩) لوقوع الاسم قبل هنا، والفعل فيهما؛ والتعقيب بالفعل أنسب دون التعقيب بعد الاسم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي من آمن به وهم أربعة عشر من سدوم، وَقِيلَ: ما آمن به إلاَّ ابنتاه وهما ريثا وغيثا خرج بهما وطوى الله الأرض لهم حتَّى وصلوا إبراهيم عليه السلام. ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ, كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين في ديارهم فهلكوا، وكانت كافرة تستر كفرها تسمَّى واهلة، وَقِيلَ: والهة، وَقِيلَ: بها سفع، وكأنَّه لَمَّا استثنيت قيل: فما حالها؟ فقيل: ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، أي من جنس البشر الغابرين، أو غلب الذكور فلم يقل: من الغابرات، ويناسبه أنَّها تشتدُّ في إبقاء قومها على اللواط، وأنَّها تخبرهم بمن جاء لوطا من غير أهل البلد، فكأنَّها

ذكر يباشر ذلك.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أينما كانوا، و لم يخصَّ الإمطار بأهل القرية إلاَّ أنَّ أهلها أمطر عليهم فقلبت، وَقِيلَ: قلبت فأمطرت، فتكون الحجارة شقَّت الأرض في قلبها، وَقِيلَ: خسف بمن فيها، وأُمْطِرَ على من في خارجها، وكان رجل منهم في الحرم فرصده حجر أربعين يوما فخرج فوقع عليه.

(لغة) و«أمطر» ـ قيل ـ في الشرِّ، و«مطر» في الخير، كأوعد ووعد، ولعلَّ هذا غالب فقد قال الله ﷻ: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ (سورة الأحقاف: ٢٤) فإنَّه في الماء، وفي القاموس: «لا يقال: أمطرهم الله تعالى إلاَّ في العذاب»، وفي الصحاح: «أمطر ومطر سواء إلاَّ أنَّه كثر الإمطار في العذاب»، وزعم بعض الناس أنَّ الإمطار الإنزال من السماء خيرا أو شرًّا شيئا فشيئا، ومن أين له هذا الترتيب حتَّى فسَّر به كلام الزمخشريِّ؟.

﴿مَطَرًا﴾ أي أمطرنا عليهم ﴿حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ﴾ (سورة هود: ٨٢)، أي: آجور محروق بالنار معجون بالنار والكبريت، نزل متتابعا، على كلِّ واحد اسم صاحبه. شبَّه إرسالها بإنزال المطر لكون كلٍّ من السماء، وسمَّاه باسم إنزاله واشتقَّ منه «أمطر»، فـ«مَطَرًا» مفعول به لأنَّه الحجارة، ويجوز كونه مفعولا مطلقا على أنَّه اسم مصدر، أي إمطارًا. ويقال: إنَّ «أمطر» في الشرِّ و«مطر» في الخير كـ«أوعد» في الشرِّ، ويردُّه ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فإنَّهم عنوا الماء. و«مُمْطِرٌ» اسم فاعل «أمطر».

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلِّ من يصلح له لعلَّه ينزجر بعدهم عن اللواط، ومخالفة الرسول. [قلت:] وما قيل

عن أبي سعيد الخدريِّ أنَّ عاملي اللواط ثلاثون رجلا ونيِّف لا يبلغون الأربعين فأهلكهم الله جميعا لأنَّهم راضون ولا ينهون ضعيفٌ. وأُهلِكت نساؤهم لأنَّ عذاب الدنيا يعمُّ، وَإِلاَّ فلسن بلائطات، وأيضا يؤتين في أدبارهنَّ فذلك لواط، وأيضا قيل: يسحقن، وقد استغنى رجالهم بالرجال والنساء بالنساء.

(فقه) وتحرم المصاهرة باللواط في النساء والرجال. ووطء المرأة في دبرها بعد تزوُّجها لا يحلُّها لمطلِّقها ثلاثا، وتجب العدَّة والصداق أو العقر. ولا يكون اللواط في الجنَّة، ولا نكاح دبر امرأة فيها، ولا يخطر ببالهم، وإن خطر قبَّحوه ولم يطلبوه، وهو أقبح من الزنى في القبل ودبر المرأة، وقبل المرأة يحلُّ لغير زانيه بالتزوُّج أو التسرِّي، والدبر لا وجه لحلِّه. وعن مجاهد: «لو اغتسل اللائط بكلِّ قطرة نزلت من السماء وكلِّ قطرة من الأرض لم يزل نجسا»، أراد المبالغة، لأنَّ جنابته تزول بالاغتسال، وإنَّ غسله لا يحطُّ عنه الإثم، وكلُّ قطرة ممَّا اغتسل به سيِّئة إن اغتسل بلا توبة، وَلَكِنَّ السحاق وسائر الزنى كذلك، فلعلَّه أراد أنَّ حدث الجنابة لا يرتفع عنه بالغسل إلاَّ إن قدَّم عنه التوبة من اللواط، وغيره ليس كذلك.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ

طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

قصَّة شعيب عليه السلام

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ قبيلة سمِّيت باسم جدِّها مدين بن إبراهيم خليل الله ﷺ، لا كما قيل اسم قرية، وإنَّ التقدير: «وإلى أهل مدين»، لعدم الداعي إلى الحذف مع صحَّة الاستغناء عنه، كما في سائر القصص؛ وأيضا سمِّيت بلدتهم باسمه وسمِّيت أولاده به، فليحمل على أولاده لأنَّهم أنسب، وَقِيلَ: اسم ماء كانوا عليه. ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم، وَقِيلَ: شعيب بن تويب بن مدين، وقيل: شعيب بن ثيرون بن مدين، وبعض يقول: "ميكائيل" بدل "ميكيل"، وَقِيلَ: هو ابن يشجر بن لاوي بن يعقوب؛ وهو تصغير "شَعْب" بفتح فإسكان اسم جبل، أو بكسر فإسكان وهو الطريق في الجبل، والصحيح أنَّه مرتجل، وأسماء الأنبياء لا تصغَّر بعد الوضع، وأمَّا قبله هكذا فجائز.

ويقال: أُمُّ ميكيل هي بنت لوط عليه السلام، وَقِيلَ: إسحاق هو يثروب بن عيفاء بن ثَوْبَبٍ ـ بباءين موحَّدتين بوزن جعفر ـ بن إسحاق بن إبراهيم، ويقال: هو أعمى بلا عكَّاز، فإن صحَّ فعماه بعد النبوءة والرسالة، لأنَّ كلَّ نبيء سالم من منفِّر، ومرضُ أَيُّوب بعد النبوءة. وشعيب بعث إلى أُمَّتين إلى مدين فأخذوا بالصيحة، وإلى الأيكة فأخذوا بعذاب يوم الظلَّة، وهو حديث موقوف، وَقِيلَ: مرفوع وكلتا الأمَّتين وعظت بوفاء الكيل، وَقِيلَ: أرسل إلى أصحاب الرسِّ فهو إلى ثلاثة. ولا رسول إلى قوم فأهلكوا ثمَّ إلى آخرين فأهلكوا إلاَّ شعيبا، ويقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، كما في رواية عن رسول الله ﷺ،

ولا يشكل على التسمية أنَّ غيره أيضا حسن المراجعة لقومه، لأنَّ النكت لا تتزاحم، ووجه التسمية لا يوجبها، ولعلَّ له في حسن المراجعة زيادة على غيره، ولا يبعد أن يكون في المفضول شيء ليس في الفاضل.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اِعْبُدُواْ ا للهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ يتضمَّن هذا أمرهم بالتوحيد، لأنَّه لا وجه لعبادته إلاَّ بعد توحيده، ولأنَّه قال: ﴿مَا لَكُم مِّنِ اِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾، فكأنَّه قال: قولوا لا إله إلاَّ ا لله، وكأنَّهم قالوا: ما دليلك ؟ فقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ستجيئكم ولا بدَّ، فكأنَّها قد جاءت و لم يذكرها ا لله ﷻ في القرآن كما لم يذكر أكثر معجزات رسول ا لله ﷺ.

(قصص) أو هي عصا موسى إذ قال له شعيب: خذ إحدى هؤلاء العصيِّ فأخذها، فقال له شعيب: ردَّها وخذ غيرها، فردَّها فتناول الأخذ فما تناول إلاَّ إيَّاهَا سبع مرَّات، فقال له شعيب: خذها فمضى بها للرعي فأكلت تنِّينا في مرعاهم كان يمنعهم، وهي عصا آدم، وإخبار موسى [إيَّاه] أنَّ غنم رعيك تلد كلٌّ واحدة ولدا أسود الرأس أبيض باقي الجسد، فكان كذلك كلّه وما أشبهه.

وقوم شعيب عالمون به، وذلك قبل هلاكهم فذلك معجزة له، وإرهاص ـ أي تمهيد ـ لرسالة موسى، وإن كان موسى اتَّصَلَ بشعيب بعد هلاك قوم شعيب، فهي إرهاص فقط لموسى عليهما السلام. ونفيُ المعتزلة الإرهاص باطل محجوج، وَقِيلَ: بيِّنته هو قوله: ﴿أَوْفُواْ الْكَيْلَ...﴾ كأنَّه لَمَّا قال ما لم يقله أحد لزم أن يعلموا أنَّ ذلك من جنس ما يأتي من ا لله، أو قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

﴿فَأَوْفُواْ﴾ العطف على «اعْبُدُوا»، أو عَلَى «جَاءَتْكُمْ»، والتفريع بالفاء صالح في كلٍّ. والمعجزة لا يلزم ذكرها في القرآن وهي موجودة، وَقِيلَ: هي

نفس شعيب، وهو خطأ، وَقِيلَ: عصا موسى إذ أعطاه إيـَّاهَا شعيب وقـتلت ثعبانا في مرعى مهجور لأجله، وولادة غنمه الدرع خَاصَّـةً، ووقـوع العصـا في يد موسى سبع مرَّات مريدا لغيرها في ستٍّ، قلت: هـذا تمهيـد لرسـالة موسـى عليه السلام، إذ نبوءته بعد ذلك لا معجزة لشعيب، إذ لا معارض له حينئذ يستظهر بذلك عليه، إلاّ أنَّه لا مانع من وقوع معجزة في غير محـلِّ المعارضـة، علـى أنـَّه تذكُّر لمن عارض قبل أو بعد، ولا يصحُّ ما قيـل: إنَّ المعجـزة ﴿أَوْفُواْ...﴾، ولا أنَّها الموعظة، ولا أنَّه تصحُّ الرسالة بلا معجـزة، ولا يظهـر مـا قيـل: إنَّ تكليـم الملائكة لمريم تمهيد لرسالة عيسى، ولا معجزة لزكرياء بـل تـفريع لها وتسـهيل للأمر عليها.

﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أتِمُّوهما، وكانوا ينقصونهما.

دخل الشيخ يوسف بن إبراهيم الورجلاني في حجِّه مدين فوقف على بائع ينقص فضربه في قـفاه، وقرأ الآية، فالتفت إليه، فقال: نزلت فينا وا لله يا مغربي ! .

(صـرف) والميزان مصدر ميميٌّ، أي الكيـل والـوزن، وصـحَّ الكـلام بلا حذف، ولا حاجة إلى جعل المـيزان اسـم آلـة وردِّ الكيـلِ إليـه بتقديـر مضاف أي آلة الكيل، أو بجعله بمعنى آلة الكيل، ثمَّ تذكَّـرت أنَّ في هـود: ﴿الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ (سورة هود: ٨٤)، فناسب الآلة، لَكِنَّ المتعارف الأمـر بإيفاء الكيل والوزن لا بإيفاء آلة الكيل والوزن، فالمكيال والميزان في سورة هود بالمعنى المصـدريِّ، فـنـقول: الكيـل هنـا علـى معنـى المصـدر، وكـذا الميزان كالميعاد بمعنى الوعد.

﴿وَلاَ تَـبْخَسُواْ النَّـاسَ أَشْيَـآءَهُمْ﴾ لا تـنـقصوا أموالهـم بـتحـقـيرها،

وبالأخذ من كلِّ ما يباع أو من بعضه، وبالاحتيال لها والرشا، وبالغصب أو القهر على البيع بما لم يريدوا. ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الاَرْضِ﴾ بالشرك والمعاصي في حقِّ الله وحقِّ غيره ﴿بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ بعد إصلاح أمرها، أو بعد إصلاح فيها بإزالة المفاسد بالأنبياء والشرائع.

﴿ذَالِكُمْ﴾ أي ما ذكر من عبادة الله ومن الإيفاء والإتمام وترك البخس والإفساد ﴿خَيْرٌ لَّكُم﴾ أي نفع لكم في الدنيا بنماء الأموال، وأن تعرفوا بالوفاء فيكثر معاملوكم وقاصدوكم، وفي الآخرة بالثواب، أو أفضل لكم من غيره على اعتبار أنَّ فيما يفعلون ممَّا يخالف الشرع فضلا دنيويا ﴿إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ بما جئت به ظهر لكم الخيريَّة، وهذا أولى من تقدير: «إن كنتم مريدين للإيمان فبادروا إليه»، وَقِيلَ: الإيمان لغويٌّ، أي إن كنتم مصدِّقين لي فيما قلت.

﴿وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ في كلِّ صراط، في كلِّ طريق من طرق الأرض، وكانوا يقعدون في كلِّ طريق أمكنهم، والمراد عموم السلب ﴿تُوعِدُونَ﴾ حال، أي تخوِّفون الناس بأخذ متاعهم وثيابهم والمكس منهم، وكلِّ ما أمكنهم من السوء، كما دلَّ عليه حذف المعمول للعموم، فهذا أولى من أن ينازع تصدُّ في «مَن آمَنَ» على أعمال «تَصُدُّونَ» من قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنَ ـ امَنَ بِهِ﴾ أي من آمن بالله، أو بسبيل الله تطالبونه بالارتداد، وتصدُّون من أراد الإيمان، ويقولون إن لم ترتدَّ عن الإيمان به أو إن آمنت قتلناك.

﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ أي الصراط المعنويَّة التي هي الديانة، والمذكور قبل هي الصراط المحسَّة فذلك استخدام، وإن رجعنا الضمير لـ«سبيل» بحسب الظاهر

ففيه استخدام أيضا، لأنَّ السبيل المذكورة سبيل ا لله و«ها» لغيرها، إلاّ أن يقال: «تبغون» مضمَّن معنى تجعلون، أي تجعلون سبيل ا لله ﴿عِوَجًا﴾ ذات عوج، أو معوجَّة، أي تنسبونها بالعوج، وتصفون للناس أنَّها عوج أو تجعلون بدلها عوجا، ومن عوجهم أنَّهم يأخذون دراهم من دخل بلادهم غريبا، ويقولون: إنَّها زيوف، فيقطعونها فيأخذونها بنقصان، أو أعطوه بها زيوفا؛ ويجوز أن يراد ﴿بكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طرق دين الحقِّ، وعليه فسبيل ا لله ظاهر موضع المضمر، وأنَّ كلَّ مسألة منه طريق للحقِّ، فهم مجتهدون في المنع عن دين ا لله كلَّ اجتهاد، كلَّما علموا بجري أحد على مسألة من مسائل دين ا لله منعوه عنها، وكلَّما رأوا أحدا يريد الإيمان بشعيب منعوه وخوَّفوه بالقتل أو غيره، وقالوا: اِحذر أن يفتنك عن دينك فإنَّه أفضل من دينه، ولا ضعف في ذلك كما توهَّم بعض أنَّ المتعارف اكتفاؤهم بمنعهم عن الإيمان، وذلك على طريق التمثيل كقوله تعالى: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥) .

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً﴾ أي اذكروا ذلك الوقت لتتذكَّروا الواقع فيه من القلَّة المعقبة بالكثرة، أو اذكروا الواقع إذ كنتم قليلا في عددكم وعدَّتكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ فيهما، إلاّ أنَّ ظاهر الخطاب لا يلائم ذكر العدَّة أي الأسلحة والخيل كلَّ الملائمة، والاقتصار على العدد أولى في التفسير، فإنَّ ذكر العدد في مقام الامتنان يشعر بأنَّه كثر بحال يصلح من قوَّة البدن والمال وما يحتاج إليه. ويروى أنَّ مدين تزوَّج بنت لوط فرمى ا لله البركة في نسلها، وَقِيلَ: ﴿قَلِيلاً﴾: في المال كثيرين فيه، أي موسرين، وَقِيلَ: ﴿قَلِيلاً﴾: أذلَّة فكثَّركم بالعدد والعدَّة.

﴿وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ قبلكم، ولا سيما من قرب منكم كقوم لوط، إذ رجموا بالحجارة وقلبوا أرضا وبدنا ومالا، بتكذيبهم لرسولهم، لم لا تخافون أن تهلكوا مثلهم بتكذيبكم رسولكم ؟ .

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ﴾ منكم ﴿لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ به ﴿فَاصْبِرُواْ﴾ انتظروا أيُّها الكفّار، فالخطاب لهم، فالمراد بالصبر لازمه وهو الانتظار ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا﴾ «نا» واقعة على المؤمنين والكافرين، فلا حاجة إلى تقدير وبينكم، وفي ذلك تغليب التكلّم على الخطاب بالنسبة إلى الكفّار، وتغليب التكلُّم على الغيبة بالنسبة للمؤمنين.

والآية وعد للمؤمنين وإيعاد للكافرين لأنّها تتضمَّن نصر المؤمنين عليهم، ويجوز تفسير الصبر بظاهره والخطاب به للمؤمنين والكفّار، أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفّار، والكفّار على ما يسوؤهم من إيمان من آمن منهم، وما تقدَّم أولى لأنَّ مساق الآية للتربُّص إلى حكم الله عليهم بالهلاك، ويجوز أن يكون للمؤمنين لينالوا فضل الصبر ويظفروا بهلاك عدوِّهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أشدُّهم عدلا. وكأنّه قيل: بم أجابوا شعيبا إذ قال ذلك ؟ فقال:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ

كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

بقيَّة قصَّة شعيب مع قومه ونهاية أمرهم

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ عن الإيمان ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ با لله ووحدانيَّته ﴿مَعَكَ﴾ متعلّق بـ«آمنوا» لا بـ«نُخرِج» ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾ مدين وبينها وبين مصر ثمانية مراحل، ومَرَّ أنَّها سمِّيت باسم مدين بن إبراهيم، أرسل شعيب إلى أهل مدين وإلى أهل الأيكة، وهي قرب مدين.

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ لم يقولوا: أو لنعيدنَّكم كما هو الموافق لقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ لأنَّ مرادهم أن يعودوا اختيارا ولو بكره، لا أن يعودوا بالإجبار ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ ملّة الإشراك با لله والمنكرات التي يفعلونها، أي: أو لتصيرنَّ، والصيرورة إلى الشيء شاملة لأن لا يكون الصائر إليه فيه قبل ذلك كما هو شأن شعيب، فإنَّ الأنبياء لا يعصون قبل النبوءة ولا بعدها إلاَّ ما يعدُّ عصيانا في حقّهم، وشاملة لأن يكونوا فيه قبل الانصراف عنه، ثمَّ يرجع إليه كما هو شأن من آمن به من قومه.

ويبعد أن يكون الخطاب في «تَعُودُنَّ» لقومه فقط فيكون العود على ظاهره، إلاَّ أنَّ في هذا خطابين لفريقين كلٌّ على حدة، ولا بأس بذلك، فهو كقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾(سورة يوسف: ٢٩) إلاَّ أنَّه لا يناسبه كلَّ المناسبة قوله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ إذ لم يقل على هذا الوجه: «أو لو كانوا كارهين»، والجواب أنَّه مناسب جدًّا، إذ المؤمنون معه كَيَدٍ واحدة يهمُّه ما يهمُّهم، ويهمُّهم ما يهمُّه، فهذه نكتة ﴿أَوَلَوْ كُنَّا﴾ بإدخال نفسه معهم، وأمَّا إذا قلنا: الخطاب في «تَعُودُنَّ» له ولهم فلا خفاء في

دخوله أيضا في قوله: ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

ويجوز أن يكونوا توهَّموا من حاله قبل الإرسال إليهم أنَّه على دينهم ولو كان قد يأمرهم وينهاهم، فقالوا: لتعودنَّ أنت وقومك كما كنتم من قبل، أو أدرجوه مع قومه تغليبا لهم عليه مع علمهم بأنَّه لم يكن قطُّ على دينهم، أو أوهموا العامة أنَّه كان على دينهم قبل. و«في» بمعنى إلى، أو للظرفيَّة، وفيها مبالغة بأن تكون ملّتهم كظرف لشعيب ومن آمن به في التمكُّن فيها، والتقدير أنعود فيها لو لم نكن كارهين ولو كنَّا كارهين، بالعطف على محذوف كما رأيت، وهذا أولى من تقدير: «أتعيدوننا فيها» وتقدير العود أو الإعادة، إمَّا مجاراة لهم، كأنَّه كان فيها مع علمه أنَّه لم يكن فيها إذ خاطبوه خطاب الكائن فيها، وإمَّا مجاراة لتوهُّمهم أنَّه كان فيها، أو مجاراة لإيهامهم العامَّة، وإمَّا تفسير له بمطلق الصيرورة، وليس يحلُّ له إيهامهم أو إيهام العامَّة أنَّه كان عليه فليس موهما، ولكن مجاراة لَفظِيَّة. والاستفهام تعجُّب.

ويجوز أن يعتبروا على ما عندهم أنَّه لو شاء لكفر فحكموا بحكم من كان قبل في الكفر، كما أنَّ من الجائز أن يكون الكفر[1] في الإسلام في زمانهم بعد بلوغهم، فقال الله ﷻ: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾(سورة البقرة: ٢٥٥) في أحد أوجه، أو عبَّر بالعود لمشاكلة الخروج من القرية، أي ليكن منكم الخروج من قريتنا أو عودكم إليها كائنين في ملّتنا.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا﴾ قطعنا من عند أنفسنا ﴿عَلَى اَ للهِ كَذِبًا﴾ مفعول به، وإن قلنا: «افترينا افتراء» فجعل «كَذِبًا» مكان «افتراء» فمفعول مطلق، لَمَّا كان

١- في نسخة (ج) أن يكون الكفّار. تأمَّل.

على معنى جواب الشرط كان في معنى الاستقبال، فإنَّ الافتراء لم يكن وإنَّما يكون بعد ذلك إن عادوا في ملّتهم كما قال: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾. و«قد» لتقريب الماضي من الحال، أو لتحقيق، أي: افترينا الآن إن هممنا بالعود، أو تحقّق العود ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اَ للهُ مِنْهَا﴾ بعدم الكون فيها قطُّ كما هو حال شعيب ومن آمن قبل البلوغ أو معه، أو بالخروج منها بعد الكون فيها كما هو شأن من آمن من قومه بعد الكفر. مقتضى الظاهر: «بعد إذ خرجنا منها» على طريق التعجُّب من ذلك، ووجهه زيادة قبح الردَّة على قبح الإشراك الأوَّل، لأنَّ المرتدَّ قد بان له تمييز الحقِّ تحقيقا أو حكما فكيف يكذِّب نفسه؟.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما ينبغي لنا، أو ما يصحُّ لنا ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اَ للهُ رَبُّنَا﴾ أن نعود فيها أو إلاَّ أن يشاء ا لله خذلا لنا.

(أصول الدين) فا لله ﷻ أراد كفر الكافر وشاء كفره، والآية دليل على ذلك، ولا يقع في ملكه ما لا يريده، لأنَّ ذلك عجز وخروج عن الملك، ولَمَّا منعت المعتزلة إرادة ا لله الكفر قالوا: أراد حسم طمعهم في العود بتعليقه بما هو غير ممكن، وهو إرادة ا لله كفر الكافر، وذلك تعسُّف، ألا ترى إلى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الاَصْنَامَ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٧) وقول سَيِّدنَا محمَّد ﷺ: «**يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**»[1]، وقول يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ (سورة يوسف: ١٠١)، وأيضا إذا كان ا لله هو المنجِّي منها تَبَيَّنَ أنَّه هو المريد لعدم التنجية منها، فذلك مشيئة وإرادة لها منه في حقِّ من كان عليها. ومصدر «يَشَاءُ» ظرف، أي إلاَّ وقت مشيئة ا لله، أو

١-رواه الترمذي في كتاب الدعوات، (٩٠)، رقم ٣٥٢٢، مع زيادة في آخره. من حديث أمِّ سلمة.

شبه الظرف، أي في حال من الأحوال إلاَّ في حال أن يشاء الله، أو مقدَّر بالباء أي إلاَّ بمشيئة الله.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تمييز عن الفاعل، أي وسع علمه كلَّ شيء، فهو عالم بأحوالنا وأحوالكم، فيجازي كلاًّ بما يستحقُّه ﴿عَلَى اَللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبِّتنا على التوحيد والعمل الصالح، أو ينجِّينا من القوم الظالمين ﴿رَبَّنَا اَفْتَحْ﴾ أحكم ﴿بَيْنَنَا﴾ معشر المؤمنين ﴿وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ وهم المشركون بأن تنصرنا عليهم وتهلكهم، أو ربَّنا أظهر للناس أنَّ الحقَّ معنا لا معهم، وعلى كلِّ حال يكون هذا إعراضا منه عنهم إذ أيس من إيمانهم، وكلٌّ من ذلك عدل من الله كما قال: ﴿بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ﴾ أي أعظم أو أشدُّ ﴿الْفَاتِحِينَ﴾ الحاكمين أو المظهرين.

(لغة) قيل: الفتح بمعنى الحكم والقضاء لغة حمير، وَقِيلَ: لغة مراد، ووجه ذلك أنَّ الحاكم يفتح مواضع الحقِّ ويظهرها، وعن ابن عبَّاس: «ما كنت أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا اَفْتَحْ﴾ حتَّى سمعت ابنة ذي يزن وقد جرى بيني وبينها كلام، فقالت: أفاتحك، أي أقاضيك».

أجاب الله دعاءه فنصره وأهلكهم فمضى هو والمؤمنون إلى مكَّة فسكنوها، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة وباب سهم، وعن ابن عبَّاس: «في المسجد الحرام قبران فقط: قبر إسماعيل في الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود».

﴿وَقَالَ الْمَلأُ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ﴾ كان هذا بالواو للعطف على «قَالَ الْمَلأُ» الأوَّل، أو على «قَالَ أَوَ لَوْ...»، وهؤلاء الملأ هم المذكورون، لأنَّ ذلك معرفة أعيدت معرفة، ولا دليل على غيرها ولو احتمل أنَّهم آخرون دون

الأوَّلين في المرتبة واسطة بينهم وبين العامَّة، ذكرهم في الضلال وثانيا في إضلالهم غيرهم، لأنَّ الإضلال بعد الضلال، وأظهر لبعد الأوَّل ولمكان اللبس. ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ في دينه وتركتم دينكم، ومعلوم أنَّ اتِّبَاع دينه ترك لدينهم لتضادِّهما فلو اتَّبعوه إلاَّ في قليل كانوا غير تابعين له، إلاَّ إن كان ممَّا يجوز تركه فذلك من شرعه، إلاَّ إن كان تركهم إيَّاه تحليلا لِمَا حرَّم أو تحريما لِمَا حلَّ فليسوا بتابعين ﴿اِنَّكُمْ إِذًا﴾ هي «إِذْ» الساكنة المعوَّض تنوينها عن جملة فتحت، أو هي «إِذًا» التي هي حرف جواب، أو «إِذَا» الشرطيَّة بالألف بعد الذال، حذفت الجملة المضافة هي إليها وعوَّضت التنوين، والمراد إذ اتَّبعتم، أو إذا اتَّبعتم ﴿لَخَاسِرُونَ﴾ فيما كان لكم من التطفيف وأخذ الأموال من الناس بالبخس والمكس، وقطع الطريق، أو ﴿لَخَاسِرُونَ﴾: في دينكم من عبادة غير الله، وزعم بعض أنَّ المعنى خاسرون في الدين أو في الدنيا، وفيه أنَّهم لا يرجون الآخرة.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ تحرُّك الأرض الشديد، وفي موضع آخر: ﴿وَأَخَذَتِ الذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ (سورة هود: ٩٤)، وفي آخر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ (سورة الحجر: ٨٣)[1] وكلٌّ واحد سبب كاف في إهلاكهم، جمعهم الله ﷻ، فيستفاد من موضع ما لا يستفاد من موضع آخر، أو أسند الإهلاك إلى السبب الأوَّل وهي الصيحة أو الرجفة في موضع، وإلى الثاني في موضع.

(قصص) صاح بهم جبريل عليه السلام من السماء وأرسل الله ﷻ من جهنَّم حرًّا فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا الأسراب فوجدوها أشد حرًّا من غيرها، وخرجوا

١- لعلَّه: «وفي موضع آخر: ﴿فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾» كما يدلُّ عليه ما يأتي في نسخة (أ).

إلى صحراء فبعث ا لله عليهم سحابة تحتها ريح طيِّبة فاجتمعوا تحتها ذكورهم وإناثهم وصغارهم وكبارهم، فألهبها ا لله عليهم نارا، ورجفت الأرض من تحتهم، وصاح جبريل من فوقهم فصاروا رمادا، وروي أنَّهم حبس ا لله عنهم الريح سبعة أيَّام ثمَّ سلَّط عليهم الحرَّ، وذكر بعض أنَّ أهل مدين هلكوا بالصيحة وأهل الأيكة بالظلَّة وكلٌّ منهم على يد شعيب، وكان ملوك مدين أبو جاد، وهوز، وحطي وكلمن، وسعفض، وقرشت، وملكهم يوم الظلَّة كلمن.

﴿**فَأَصْبَحُواْ**﴾ أي صاروا، أو الإصباح ما قبل الزوال من الضحى ﴿**فِي دَارِهِمْ**﴾ مدينتهم ولذلك أفرد الدار، أو الإضافة للجنس أي في ديارهم كما صرَّح به في موضع آخر ﴿**جَاثِمِينَ**﴾ منحنين على ركبهم ﴿**الذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا**﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿**كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا**﴾ كأن لم يلبثوا فيها، يقال: غَنِيَ في المكان بكسر النون يغنَى بفتحها أقام فيه طويلا، أهلكهم ا لله واستأصلهم حتَّى كأنَّه لم يكونوا فيها ﴿**الذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ**﴾ في دنياهم ودينهم إذ لم يتَّبعوا شعيبا، وهذا إبطال لِمَا زعموا أنَّ الخسران في متابعته، أكّد بالموصول وصلته، وذكر شعيبٍ وبالحصر في قوله: ﴿كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ وضمير الفصل كقولك: إنَّما الخاسرون الذين كذَّبوا شعيبا، لا شعيب ومن آمن به فإنَّهم الرابحون، وأجيز أن يكون «الذِينَ» بدلا من واو «يَغْنَوْاْ» و«كَانُواْ» حالا بلا تقدير «لقد» أو بتقديره.

﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ**﴾ أعرض شعيب عنهم إذ لم يبق فيهم حسٌّ، ولنزول السخط عليهم، وهو غير مردود ﴿**وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدَ اَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ**﴾ فلم تقبلوا، قاله تأسُّفا عليهم، على طريقة طبع البشر ولو كانوا أشقياء، اشتدَّ حزنه إذ كانوا قومه، قال ذلك كأنَّه يخاطبهم أو خاطبهم وهم موتى، كما خاطب سيِّدنا محمَّد ﷺ أصحاب القليب وسمعوه، وَقِيلَ: قال شعيب

ﷺ ذلك قبل هلاكهم، ولا تلائمه الفاء بعدُ. ثمَّ أنكر على نفسه وسلاَّها بأنَّهم اختاروا الهلاك لأنفسهم، وظهور قضاء الله عليهم الذي لا يردُّ نزل بهم فقال: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَى﴾ أحزن حزنا شديدا، وهذا استفهام تعجُّب من نفسه، أو إنكار للياقة حزنه عليهم، والفاء سببيَّة لتمام الإبلاغ والنصح، ويجوز أن يكون قوله: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدَ اَبْلَغْتُكُمْ...﴾ غير حزن شديد بل اعتذار. «فكيف» استفهام إنكار، أي لا آسى ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ قضى الله كفرهم فكفروا.

وأخبر الله ﷻ أنَّ سنَّته إهلاك المكذِّبين قبل شعيب وبعده فقال تحذيرا لقريش:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

سنَّة الله في التضييق والتوسعة قبل إهلاك الأمم

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ المراد: مجتمع القوم ولو في البدو، لَكِنَّ نبيء البدو يكون من قرية، أو المراد خلاف البدو، لأنَّه لا يكون إلاَّ من أهل القرى، و«قَرْيَةٍ» نكرة عامَّة في سياق السلب، ولذلك عبَّر عنها بالجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ بـ«الـ» العهديَّة ﴿مِن نَّبِيءٍ﴾ فكذَّبوه، أو من نبيء كذِّب، أو يقدَّر: «إن كذِّب» بعد قوله: ﴿الضَّرَّاءِ﴾، ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ﴾ شدَّة الفقر ﴿وَالضَّرَّآءِ﴾ المرض وغيره من المضرَّات، قاله الزجَّاج، وَقِيلَ: البأساء في البدن والضرَّاء في المال، وكلٌّ ذلك من السرور وهو الفرح، والمضرَّة، فإنَّ حالة تسرُّ وحالة تضرُّ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ يتذلَّلون، والأصل: «يتضرَّعون».

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ الفعلة السيِّئة، أو الحال السيِّئة من البأساء والضرَّاء ﴿الْحَسَنَةَ﴾ الفعلة الحسنة، والحال الحسنة، كالخصب والصحَّة، و«مَكَانَ» ظرفٌ، و«الْحَسَنَةَ» مفعول به على تضمين بدل معنى أثبت، واختاروا أنَّهما مفعولان، والمأخوذة الحسنة ومكان السيِّئة المتروك.

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كثروا عددا وعدَّة ومالا، و«حَتَّى» حرف ابتداء داخلة على الماضي غير جارَّة، وغير مقدَّر بعدها «أن» ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا اَلضَّرَّآءُ وَاَلسَّرَّآءُ﴾ هكذا عادة الزمان، وليست الضرَّاء [على زعمهم] عقوبة على عدم متابعة من يَأمركم بترك دينكم فاثبتوا على دينكم، وأمَّا المؤمن فيُثبت الضرَّآءَ والسرَّاء عقابا من الله وثوابا وابتلاء، قال:

ثمانية عمَّت بأسبابها الورى فكلُّ امرىء لا بدَّ يلقى الثمانية
سرور وحزن واجتماع وفرقة وعسر ويسر، ثمَّ سقم وعافية

﴿فَأَخَذْنَاهُم﴾ أهلكناهم ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة وذلك أعظم حسرة، والعطف على «قَالُوا» أو على محذوف، أي واستمرُّوا على الكفر فأخذناهم بغتة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بأنَّ الله يأخذهم، وذلك أعظم ما يكون إذ جاءهم العذاب وقت انتظار السرَّاء أو فيها.

﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ اَلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ اَلسَّمَآءِ وَالَارْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ اُلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَاَمِنَ أَهْلُ اُلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اَللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اَللَّهِ إِلَّا اَلْقَوْمُ اُلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ اَلَارْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾

﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾

الترغيب بالإيمان لزيادة الخير، والترهيب من الكفر بالعذاب المبكّر

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ هم أهل القرى في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾، أي المكذّبين بدليل قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ با لله ورسله، وَقِيلَ: أهل القرى أهل مكّة وما حولها على أنَّ «الـ» للعهد الخارجيّ، فيكون [التقدير] أنذِرْ أهل القرى المذكورة المكذّبة بما أوقع بالمكذّبين قبلهم، ولا دليل على هذا الخصوص، وَقِيلَ: «الـ» لجنس القرى المرسل إليها ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ تركوا الإشراك والمعصية ﴿لَفَتَحۡنَا﴾ وسَّعنا ﴿عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بركات السماء: المطر، وبركات الأرض: النبات والثمار، وتصحيح الأبدان فيها، وتطييب هوائها والسلامة، وتأثُّر الأنعام والحيوانات بنباتها، وأولى من ذلك أن يقال: بركات السماء والأرض: النفع العام من كلّ جانب الذي جعله ا لله في الأشياء السَّمَاوِيَّة والأرضيَّة، كالماء وطيب الأرض وحرارة الشمس والأرض والبرودة، ونحو ذلك.

(بلاغة) والفتح استعارة أَصلِيَّة، اشتقَّ منها تبعيَّة، والجامع: سهولة التناول، أو مجاز مرسل كذلك أصليٌّ فتبعيٌّ لعلاقة اللزوم، أو التسبُّب.

وقد شاهدنا الفتح لمن لم يؤمن و لم يتَّق وسمعنا به، وأيضا قال ا لله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ...﴾(سورة الأنعام: ٤٥) الجواب أنَّ المراد بفتح البركات فتحها عليهم منتفعين بها لدينهم ودنياهم، شاكرين بها غير معاقبين عليها، [قلت:] أمَّا لمن لم يؤمن و لم يتَّق فغير بركات

بل انتقام بعدُ، **هذا ما ظهر لي**، وَقِيلَ: المراد آمنوا من أوَّل الأمر، وَقِيلَ: المراد دوام البركة أو زيادتها، وهما قولان منقوضان.

﴿**وَلَكِن كَذَّبُواْ**﴾ رسله وكتبه وعصوا، واكتفى بالتكذيب عن نفي التقوى لأنَّ التكذيب يوجب نفي التقوى، ولأنَّه أعظم من ترك التقوى ﴿**فَأَخَذْنَاهُم**﴾ حال السرَّاء مطمئنِّين للسرَّاء لا يخطر ببالهم العذاب، أو حال الضرَّاء منتظرين للسرَّاء، وهو أَشَدُّ ما يكون إذ جاءهم السوء حيث انتظروا الخير، فإنَّ قولهم: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ﴾ يرجع إلى العموم والاحتمال، ولو خصَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ بحالة السرَّاء، ويقوِّي استشعار الضرَّاء أنَّها أنسَب بقولهم: أثبتوا على دينكم فإنَّ هذه الضرَّاء ليست لمخالفتنا من يدعونا إلى غيره.

واعتبر بعضهم ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا...﴾ فأوجب أنَّ الأخذ في السرَّاء، وهذا الأخذ والأخذ المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ واحد لا جدب ولا قحط، لأنَّهما قَدْ زَالاَ بتبديل الحسنة مكان السيِّئة؛ وحمل الأوَّل على الأخرويِّ والثاني على الدنيويِّ أو بالعكس بَعِيدٌ. ﴿**بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ بكونهم يكسبون الشرك والمعاصي، أو بما كانوا يكسبونه من ذلك.

﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى**﴾ أي أحسب أهل القرى أعمالهم السيِّئة منجية لهم من العذاب، أو مباحة، فأمنوا، والاستفهام إنكار للياقة أمنهم، وَقِيلَ: لنفي وقوع أمنهم مكر الله، ولا يخفى ضعفه، لأنَّه لا يخفى أمنهم، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَلاَ يَامَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ﴿**أَنْ يَّاتِيَهُم بَأْسُنَا**﴾ أي عذابنا، وَلَمَّا لم يتقدَّم ذكر أهل القرى الآن أظهر فقال: ﴿أَفَأَمِنَ﴾، والهمزة داخلة على حسب أهل القرى، وهو المعطوف عليه بالفاء، أو الهمزة مِمَّا بعد الفاء لكمال صدرها، والمعطوف عليه بالفاء ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ والفاء لمطلق

الترتيب، كأنَّه قيل: أبـعْدَ أَخْذِناهم أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ؟ . ﴿بيَاتًا﴾ أي ليلا وقت البيات، وهو ظرف، كما أنَّ «ضُحًى» ظرف، أو بائتين، أو ذوي بيات، أو مفعول مطلق على أنَّ الإتيان تبييت، وهو الإهلاك ليلا كما يقال: بيَّتهم العدوُّ، فيجوز أن يكون المعنى: ذوي تبييت، أو مبيَّتين على الحاليَّة، أو مبيَّتا على إسناد التبييت للبأس، ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ حال من الهاء، أو من المستتر في «بَيَاتًا» على اعتبار مبيَّتا، أو مبيَّتين، فأجاز الكوفيُّون استتار الضمير في المصدر.

﴿أَوَاَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ أظهرَ لزيادة الإيضاح في التقريع ﴿أَنْ يَّاتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ أي الضحى الأوَّل، وهو شباب اليوم.

(لغة) وأوقات النهار: الدرور، والبزوغ، والضحى، والغزالة، والهاجرة، والزوال، والدلوك، والعصر، والأصيل، والصنوت، والحدور، والغروب؛ ويقال: البكور، والشروق، والإشراق، والراد، والضحى الأكبر، والمنوع، والهاجرة، والأصيل، والعصر، والطفل، والحدور، والغروب.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ غير مستعدِّين لِمَا ينفعهم ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اَللَّهِ﴾ الواو للموجودين في عصره ﷺ المكذِّبين المرادين في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ لا لعموم القرى في قوله: ﴿وَلَوَ اَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ فهذا تقرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾ جمعا بعد تفريق، زيادة للتحذير، فلم يكن العطف، لأنَّ المقرَّر به مقرون بالفاء.

ومكر الله: استدراجه إيَّاهم بالنعمة والصحَّة، فلا يشكرون بل يفسقون فيأخذهم، ولا ينسب إلى الله إلاَّ مشاكلة كما هنا في قول بعض، والصحيح أنَّه يجوز نسبته إليه ﷻ ولو بلا مشاكلة، وعلى كلٍّ يكون مجازا، وذلك تشبيه بإظهار المحبوب وإخفاء المكروه، فلفظ «مكر» استعارة تمثيليَّة، إذ شبَّه بمجموع أشياء هي إظهار الإنعام عليهم وقصدهم بالسوء وإيقاعه، بمجموع أشياء هي

إظهار المحبوب وإخفاء المكروه وإيقاعه.

(أصول الدين) وأمن مكر الله من الكبائر، كما رواه ابن مسعود وابن عبَّاس مرفوعا، وروي أنَّه كفرٌ بمعنى أنَّه كفر فسق لا شرك، وإن نوى أنَّه لا يقدر على الانتقام منه فشرك. والأمن: الاسترسال في المعاصي اتِّكالا على عفو الله.

قيل: هنا محذوف تقديره: «لَمَّا أمنوا خسروا»، فعطف عليه بالفاء في قوله عَجَلَّ : ﴿فَلاَ يَامَنُ مَكْرَ اَللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والأولى أنَّ الفاء في جواب «إِذَا»، أي إذا تَبيَّنَ ذلك، أو إذا كان الأمن في غاية القبح فلا يأمن، وقرن بالفاء ولو صلح شرطا لحذف أداة الشرط، فهي تَدُلُّ عليه، وَقِيلَ: تفريع على محذوف، أي فلمَّا أمنوا خسروا ﴿فَلاَ يَامَنُ مَكْرَ اَللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وعبارة بعض أنَّها للتنبيه على تعقيب العذاب أَمْنَ مكر الله تعالى، ويقال: هي تعليل ما يفهمه الكلام من ذمِّ الأمن وخسرانهم لمصالحهم الأُخرَوِيَّة لشركهم ومعاصيهم، وبترك استعمال عقولهم في إدراك الحقِّ.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلذِينَ يَرِثُونَ اَلاَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ يخلفونهم في ديارهم وغيرها، وهم المشركون عموما، أو أهل مَكَّة ومن يليهم، واستعار للخلف «يَرِثُ» لتمكُّنهم تمكُّن الوارث بلا نزاع للميِّت، وضمَّن «يَهْدِ» معنى: يُبَيِّنُ، ومفعوله محذوف، تقديره: «الصراطَ المستقيمَ»، وفاعله ضمير ما ذكر، أي ما جرى للأمم، أو فاعله ضمير الهدى أو المصدر من جواب لو في قوله: ﴿أَن﴾ أنَّ الشأن ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ إصابَتَهم بذنوبهم ﴿أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أَوَلَمْ يهد ـ أي يُبَيِّن ـ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها صراطا مستقيما، أو عاقبة سوء إصابتناهم بذنوبهم لو نشاء، أو لا مفعول لـ«يَهْدِ»، أي أو لم يفعل الهداية

لهم؟، أو ضمن معنى اللازم، أي أو لم يَتَبَيَّن لهم أنَّه لو نشاء؟، أو فاعل «يَهْدِ» ضمير يعود إلى الله و«أَن لَّوْ نَشَآءُ» مفعول به على معنى: أو لم يُبَيِّن الله لهم أن لو نشاء؟، وعلى تقدير معطوف عليه بين الهمزة والعاطف يقال: أغفلوا و لم يهد لهم؟، وإن جعلنا فاعل «يَهْدِ» ضميرًا لله قدَّرنا: أَخَذَلَهُم الله و لم يهد لهم؟ أي هداية عصمة.

﴿**وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ**﴾ نربط عليها بالخذلان عطف على نخذلهم، أو خذلناهم أو يغفلون عن الهداية، أو لا يهتدون، أو عن التأمُّل والتفكُّر، ونطبع، إلاَّ أنَّه ليس كلُّ كافر في عنوان الطبع، بل يهدَّدُ بالطبع فلا يؤمن إلاَّ أنَّ قوله: ﴿فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ ينافي العطف على «أَصَبْنَا»، لأنَّ معناه: سماع تفهُّم، فهو يدلُّ على أنَّهم مطبوع على قلوبهم، لأنَّ المراد استمرار هذا الحال، وذلك طبع، قال الله تعالى: ﴿كَذَالِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ وقال: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْ﴾ وإدامة الطبع لا تصلح عقابا للكافرين، وليس العطف على «أَصَبْنَاهُمْ» بمعنى نُصيبهم، لأنَّ الإصابة منفيَّة بـ«لَوْ»، والطبع غير منفيٍّ بل ثابت، إلاَّ أن يراد الطبع على القلب حتَّى لا تسمع الأذنان الأخبار، فهذا منفيٌّ، فيجوز عطفه على «أَصَبْنَا». ﴿**فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ**﴾ سماع تدبُّر، أو لا يسمعون أخبار الأمم ولا يتصدَّون لسماعها، ويهربون عن سماعها.

﴿**تِلْكَ اَلْقُرَى**﴾ أي قرى الأهل المذكورين في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾، أو القرى المعهودة، أي قرى الأمم المذكورين: قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، و«القرى» تابع لتلك، والخبر قوله: ﴿**نَقُصُّ عَلَيْكَ**﴾ يا محمَّد ﴿**مِنَ اَنبَآئِهَا**﴾ أو «القُرَى» خبر أفاد بالحال، وهي «نَقُصُّ»، فإنَّ كونها قرى لا يجهل، كما تقول: هذا زيد عالما، لمن علم زيدا أو جهل أنَّه عالم، أو ذلك خبر

إن أفاد أوَّلهما بثانيهما، كما تقول لمن علم زيدا: هذا زيد عالم، تفيده بأنَّه عالم؛ وإن جعلنا «الـ» في القرى للكمال فقد أفاد، سواء جعلنا «نَقُصُّ» حالا أو خبرا، وجعلنا «الْقُرَى» تابعا أو خبرا. والمراد بـ«أَنبَائِهَا» أخبار أهلها؛ و لم يذكر أهلها، لأنَّ إهلاكها إهلاك لأهلها وزيادة، فهو أفظع. وحكمة القصِّ لأحوالهم مع الاستئصال دفعةً أهول للكفرة، وفيه تسلية رسول الله ﷺ، وتحذير قومه من أنْ ينزل عليهم مثل ما نزل على مَن قبلهم. و﴿نَقُصُّ﴾ بمعنى قصصنا، أو سنقصُّ في السور الأخرى ما لم نقصَّ هنا.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحة الدَّالة على صحَّة رسالتهم، قسمة الآحاد على الآحاد لا توجب التسوية، فإنَّ لبعض الرسل آيات متعدِّدة ولبعض الرسل أكثر من بعض، تقول: باع القوم دوابَّهم ولبعض دابَّة ولبعض اثنتان ولبعض أكثر.

﴿فَمَا كَانُواْ﴾ بعد مجيء رسلهم بها ﴿لِيُومِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ﴾ من التوحيد ولوازمه الشَّرعيَّة، ممَّا يجب فعله أو تركه، والبعث والحساب والثواب والعقاب ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل مجيء رسلهم بعين ما كذَّبوا به ونحوه قبل المجيء، وقد كانوا يسمعون من بقايا من قبلهم قبل مجيء رسلهم، و لم يجعل في الآية الحدَّ لانتفاء إيمانهم، فإيمانهم منتف إلى موتهم فما آمنوا قطُّ، ولن يؤمنوا إلى الموت.

أو ﴿فَمَا كَانُوا لِيُومِنُوا﴾ في بقيَّة أعمارهم بما كذَّبوا به قبل هذه البقيَّة، وبعد مجيء الرسل، ففي هذا الوجه لم يذكر عدم إيمانهم قبل مجيء الرسل إلاَّ بالمقام، وبقوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾، وأمَّا قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُومِنُوا﴾ فلا يلزم منه انتفاء الإيمان قبلُ، ألا ترى أنَّ اليهود آمنوا برسول الله ﷺ ولَمَّا جاء كفروا به ؟ .

(نحو) الرابط محذوف لظهور المعنى، وقد جرَّ الموصول بما جرَّ به، ولكن لم يتحدَّ المتعلّق وتقديره: بما كذّبوا به، ويجوز تقديره منصوبا، أي بما كذّبُوه، أي بما أنكروه، ويجوز أن تكون مَصدَرِيَّة بسبب تكذيبهم بما سمعوا به قبل مجيء الرسل، ويجوز أن يكون المكذّب به واحدًا، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ﴾(سورة الأنعام: ٢٩) وذلك جميع الشرائع، وقيل ضمير «كَذّبُوا» لأسلافهم، وفيه تفكيك الضمائر بلا قرينة معيَّنة ﴿كَذَالِكَ﴾ الطبع المذكور على قلوب أهل القرى ﴿يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ الجائين بعدهم، أو يطبع على من مضى وغيرهم لكفرهم، فالكافرون الجنس، أو الكافرون المعهودون في زمانه ﷺ ، فاللفظ للعهد، وأظهر مقام الإضمار للإيذان بعلّيَّة الكفر.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم﴾ لأكثر الأمم السابقة، وفيهم مسلمون قليلون موفُّون، وإن أريد المهلكون فقط فالأكثر بمعنى الكلّ، ويجوز أن يراد أكثر الناس، فتكون الآية اعتراضا في آخر الكلام، ولـ«وَجَدَ» مفعول واحد، وإن فسِّر بـ«عَلِمَ» فله مفعولان ثانيهما «لأَكْثَرِهِم»، وهكذا إذا لم أذكر ذلك. ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ من صحَّة عهد، أو وفاء عهد، ويجوز أن لا يقدَّر مضاف بأن يشبَّه عهدهم كالعدم في عدم التأثُّر، كأنَّه لم يكن، وذلك أنَّهم أعطوا العهد لله ﷻ في الشدَّة أن لا يشركوا به ولا يعصوه ﴿لَئِنَ اَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(سورة الأنعام: ٦٤) ونقضوه، أو العهد قولهم: «بلى» يومَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾(سورة الأعراف: ١٧٢)، أو جعلهم كأنَّهم أعطُوا العهد لظهور الآيات، حتَّى كأنَّهم قالوا: آمنّا بها ولا نخالف، أو المراد عهد الله إليهم كقوله تعالى: ﴿أَلَمَ اَعْهَدِ اِلَيْكُمْ﴾ (سورة يس: ٥٩) أي لم يَفوا به.

﴿وَإِنْ وَّجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ﴾ بخلاف أقلّهم، أو ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ كلّهم، أو الضمير للناس ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ «إِنْ» مخفّفة، أي وإنَّه، أي الشأن، أو إنَّا، واللام مزيلة

لتوهُّم النفي، وقال الكوفيُّون: «إنْ» نافية واللام بمعنى إلاَّ، والجملة تفسير وتأكيد لِمَا قبلها.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

قصّة موسى عليه السلام مع فرعون والملأ من قومه

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ بعد الأمم، أو بعد الرسل المذكورين: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾. ﴿مُوسَىٰ﴾ عمره ــ قيل ــ مائة وعشرون سنة، زعم بعض أنَّ بينه وبين يوسف أربعمائة سنة، وبين موسى وإبراهيم سبعمائة سنة ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ هنَّ

العصا، واليد البيضاء، والسنون المجدبة، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل والضفادع، والطمس المذكور في سورة يونس (سورة يونس: ٨٨)، وهو مسخ أموالهم حجارة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الوليد بن مصعب بن الريَّان، وَقِيلَ: قابوس وكنيته أبو العبَّاس، وَقِيلَ: أبو مرَّة، ويقال: كان قبله فرعون آخر هو أخوه اسمه قابوس بن مصعب ملك العمالقة، و لم يذكر في القرآن، وفرعون إبراهيم نمرود، وفرعون هذه الأمَّة أبو جهل. ويقال: ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة وعشرين سنة، قيل: لم ير مكروها وأنَّه لو حصل له في مدَّته جوع يوم أو حمَّى ليلة أو وجع لم يدَّع الرُّبُوبِيَّة.

(لغة) ومن ملك مصر في الجاهليَّة يسمَّى فرعون، ومن ملك عُمان يسمَّى الجلندَى، ومن ملك الحبشة يسمَّى النجاشي، ومن ملك الترك يسمَّى خاقان، ومن ملك الأندلس يسمَّى لدريق بالدال أو بالزاي، ومن ملك البربر يسمَّى جالوت، وكسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، ويقال له أيضا: هرقل، وقومه المسقو، وفيه قلت بعد أبيات:

وبين الأسير والقتيل جنوده وعيشة ذلك الحَلاَحِلُ تَخْضَرُّ

بشدِّ الراء، وقلت من قصيدة أخرى:

رسول به كسرى كسير، وقيصر قصير، ذليل هان يغبط زَقْلاَبا

وبين هذا البيت وتدميره نحو عامين والحلاحل عبد الحميد سلطان الإسلام، وقيصر وكسير مجانسة وليسا معنى لهما فإنَّ معنى كسرى واسع الملك ومعنى قيصر القطع والخروج، إذ قطع بطن أمِّه وأخرج فكان يفتخر بأنَّه لم يخرج من الفرج.

﴿وَمَلإِيْهِ﴾ أشرافه، كما مرَّ تفسيره، أو المراد قومه ﴿فَظَلَمُواْ﴾ كفروا مكان الإيمان ﴿بِهَا﴾ وسمَّى الكفر بها ظلما لوضوحها، وأيضا الشرك ظلم

عظيم، وعدَّاه بالباء لأنَّه بمعنى كفر أو كذَّب، أو المفعول محذوف أي ظلموا أنفسهم أو الناس بسببها إذ صدُّوهم عن الإيمان بها ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإهلاك بالغرق، أي عاقِبَتُهُمْ، وأظهر ليصفهم بالإفساد الموجب للهلاك، والخطاب له ﷺ أو لكلِّ من يصلح له.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك وإلى قومك ﴿حَقِيقٌ﴾ نعت لـ«رَسُولٌ» وقوله: ﴿عَلَيَّ﴾ خبر لقوله: ﴿أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ والجملة خبر ثان أو «عَلَيَّ» متعلِّق بـ«حَقِيقٌ» و«أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ...» في التأويل فاعل «حَقِيقٌ»، أو «حَقِيقٌ» خبر لقوله: ﴿أَن لَّا أَقُولَ...﴾، ويجوز أن يكون «حَقِيقٌ» بمعنى محقوق، كذلك نعت أو خبر، ومرفوعه نائب فاعل ضمير مستتر، أو «أَن لَا أَقُولَ...» في التأويل. و«عَلَى» للاستعلاء، أو بمعنى الباء وعليه فـ«أَن لَّا أَقُولَ...» فاعل على أنَّ «حَقِيقٌ» بمعنى فاعل، أو نائب على أنَّه بمعنى مفعول.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ هي العصا واليد، أفرد الآية لأنَّهما حجَّة على معنى واحد وهو التوحيد ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدلُّ على أنِّي رسول من الله ﷻ ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ من مصر إلى الشام وطن آبائهم، وفرعون قد استعبدهم واستعملهم فيما شاء من الأعمال والبناء وحرق الآجر وسائر الصنائع، وعلى شيوخهم جزية، وكانوا في مصر من عهد يوسف إذ ملك مصر، وجاء موسى عليه السلام من الشام إلى مصر لينقذهم من ذلك. ويقال: بين دخول يوسف عليه السلام مصر ودخول موسى عليه السلام أربعمائة عام. ﴿قَالَ﴾ فرعون، وهو جوابُ: فماذا قال فرعون لعنه الله؟ ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ﴾ من إلهك ﴿بِئَايَةٍ﴾ على دعواك ﴿فَاتِ بِهَآ﴾ أي أحضرها عندي، وذلك قد يكون مجيء البيِّنة من الله ﷻ إلى موسى، وبعد ذلك تجيء إلى فرعون فتخالف الشرط

والجواب، واندفع تحصيل الحاصل ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك، وفي هذه الآية الجائية.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ من يده وكانت معه من آس الجنَّة التي خرج منها آدم في الأرض، وصلت شعيبا واسمها "ماشا"، وَقِيلَ: من عوسج، وَقِيلَ: من لوز، وكانت تضيء بالليل ـ قيل ـ يضرب بها الأرض فيخرج له رزقه منها، ولا عود في جنَّة الجزاء الدائمة ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر لا يشكُّ فيه.

(قصص) كثير الشَّعر أصفر أشقر، فتح فاه ووضع لحيه الأسفل على سور القصر والأعلى في الهواء، وبينهما اثنا عشر ذراعا، وَقِيلَ: ثمانون ذراعا، أو الأسفل في الأرض والأعلى على السور، وَقِيلَ: كان كالمدينة **وا لله قادر على قلب الحقائق**، وَقِيلَ: إنَّ ذلك محال لا يوصف ا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإيجاده فلا تتعلَّق به القدرة، ولا يوصف بالعجز تعالى ا لله، والصحيح الأوَّل، وليس ذلك بأعظم من إيجاد ما لم يكن بلا واسطة، ومن ذلك أن يخلق النحاس ذهبا هكذا، أو بأن يسلب عن أجزاء النحاس الوصف الذي صار به ذهبا كما صوَّر الماء نباتا، وكما صوَّر الدم نطفة، والنطفة علقة وهكذا، وتوجَّه نحو فرعون فهرب وأحدث أربعمائة مَرَّة في ذلك اليوم بالبول والغائط، وانطلق بطنه إلى أن غرق، ومات خمسة وعشرون ألفا في الانهزام والازدحام، وأنشدوا موسى: بالذي أرسلك خذه وأومن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه وعاد عصا في يده. وهي "ثعبان" في عظم الجسم، و"حيَّة" في خبث المنظر وهوله، و"جانٌّ" أيْ حيَّة خفيفة رقيقة في الخفَّة، أو تبدو أَوَّلاً على الدقَّة ثمَّ تصير غليظة كالثعبان، وهي في ذلك كالحيَّة.

وروي أنَّه وقف موسى وهارون بين يدي فرعون، فلقَّن ا لله تعالى موسى عليه السلام أن قال: «لا إله إلاَّ ا لله الحليم الكريم سبحان ربِّ السماوات السبع

وربِّ العرش العظيم، والحمد لله ربِّ العالمين، اللهمَّ إنِّي أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شرِّه، وأستعينك عليه فاكفنيه بما شئت»، فتحوَّل ما في قلب موسى من الخوف أمنا، وتحوَّل ما في قلب فرعون من الأمن خوفا، فمن دعا بهذا الدعاء وهو خائف أمَّنه الله، ونفَّس كربته، وخفَّف عنه كرب الموت.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أخرج يده اليمنى من طوق قميصه، أو من تحت إبطه بعد الإخراج من الطوق فلا ينافي ذكر الإخراج من الجيب في الآية الأخرى (سورة النمل: ١٢). ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾ ذات نور يغلب نور الشمس، وكان عليه السلام شديد الأدمة فيما قيل، قال لفرعون: ما هذا؟ قال: يدك، فأدخلها فيما ذكر فأخرجها بيضاء كذلك ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ متعلّق بـ«بَيْضَاءَ»، أي ابيضَّت للجماعة الناظرين، كما يجتمع الناس للأمر العجيب ينظرون إليه، أو ابيضَّت إحداثا لبياضها لينظروه لا أصالة في خلقتها، فإنّها أدماء؛ وساغ التعليق بـ«بَيْضَاءَ» لأنّه يكفي الحدث، ولو لم يَدُلَّ اللفظ على الحدوث، أو متعلّق بمحذوف نعت لـ«بَيْضَاءَ».

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر، وفي الشعراء (سورة الشعراء: ٣٣) قاله فرعون، فنقول قاله الملأ وقاله فرعون، فذكر في سورة ما لم يذكر في الأخرى، أو قاله ابتداء وتلقّوه عنه لأعقابهم، أو قالوه تبليغا عنه، أو لَمَّا صدر عنه وعنهم على سبيل التشاور صحَّ إسناده إلى الكلِّ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنَ اَرْضِكُمْ﴾ بسحره طلبا للرئاسة والملك ﴿فَمَاذَا تَامُرُونَ﴾؟ من تمام قول الملأ، أي فماذا يصدر الأمر منكم؟ والخطاب في كلِّ ذلك من بعض الملإ لبعض، أو لِلعَامَّةِ، أو لمن يلي الملأ، أو الخطاب منهم لفرعون بصيغة الجمع تعظيما في الكافين والواو، أي: قَالَ الْمَلأُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يريد إخراجك من أرضك فماذا تأمر؟، أو تمَّ القول في قوله: ﴿مِنَ اَرْضِكُمْ﴾ ويقدَّر وقال فرعون: فماذا تأمرون؟ على الحدوث خطابا منه لملئه عطفا على كلامهم،

أو على تقدير: «إذا كان ذلك فماذا تأمرون؟» ويؤيِّده قول ابن عبَّاس: ما الذي تشيرون به عليَّ؟ ويُـؤَيِّده أيضا قوله عَزَّ وَجَلَّ:

﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي اِلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ يَاتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ولا مفعول لـ«تأمر» على أنَّ المعنى صدور الأمر بدون تعلُّقه بمأمور، أو يقدَّر: «ماذا تأمرنا»، أو «ماذا تأمرونني» أو «تأمروننا».

(نحو) و«مَاذَا» مفعول مطلق مركَّب، أي: أيَّ أمر تأمرون؟، أو «ما» مبتدأ واقعة على الأمر و«ذَا» خبر، أي ما الأمر الذي تأمرونه، وهاء تأمرونه مفعول مطلق، وَأَمَّا أن يقدر: ما الذي تأمرون به؟ ففيه حذف العائد المجرور بدون أن يجرَّ الموصول بمثله، ودون اتّحاد متعلّقيهما، والجمهور على المنع، وأجيز لظهور المعنى.

ومعنى ﴿أَرْجِهِ﴾: أخّره بحذف الياء الأصليَّة، أو منقلبة عن همزة، والمراد أخّرهما لترى رأيك فيهما، وَقِيلَ: احبسهما، والأمر بحبسهما لا يوجب ثبوت الحبس، فلا يعترض بأنَّه لم يثبت أنَّه حبسهما، وقيل أيضا: إنَّهُ لم يقدر على حبسهما بعد أن رأى ما رأى، وقوله: ﴿لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ كان قبل هذا، أو تخويف عمدا بما لا يطيقه، أو القائلون لم يعلموا ذلك منه.

وَقِيلَ: أخّره عمَّا عهدت من قتله لِيَتَبَيَّنَ أمره للناس، وفي آية أخرى قال: ﴿لِلْمَلإِ حَوْلَهُ...﴾ (سورة الشعراء: ٣٤) ويجاب بأنّه ذكر ما ذكره قومه، ففي الآية كلامه وهنا كلامهم، أو قاله ابتداء وقالوه حكاية عنه للناس، أو للتبليغ عنه، ومعنى ﴿حَاشِرِينَ﴾ جامعون، والمراد جمع السحرة و« في » على ظاهرها بمعنى بثّهم في المدائن، أو بمعنى إلى. و«الْمَدَائِن» مدائن مصر، أو مدائن صعيد مصر، وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد.

اتَّفَقَ رأيهم على جمع السحرة، والمبالغة في السحر، ظنًّا أن مدَّعَى موسى سحر، فجمعوا اثنين وسبعين ساحرا، أو اثني عشر ألفا، أو خمسة عشر ألفا، أو سبعة عشر ألفا، أو تسعة عشر ألفا، أو بضعا وثلاثين ألفا، أو ثلاثمائة من قومه وثلاثمائة من العريش، أو سبعين ألفا، أو ثمانين ألفا، أو بضعا وثمانين ألفا، أو سبعين ساحرا، تعلَّموا السحر من مجوسيِّين من أهل نينوى، على أنَّ المجوس تقدَّموا على موسى عليه السلام وهو الواضح، وشهر [عند] بعض المُحَقِّقِينَ أنَّهم بعد موسى ظهروا زمان زرادشت، وهو بعد موسى؛ قلت: الأخبار وردت أنَّهم تقدَّموه فنقول: تقدَّموه ولكن ظهر أمرهم بعده، ورئيسهم رجل يقال له: شمعون، أو يوحنا أو رؤساءهم سابور وعازور وحطحط، أقوال.

﴿وَجَآءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد إرساله إليهم أعوانه، أو يقدَّر: فأرسل فجاءوا، أو: أرسل فحشروا وجاء السحرة، وعلى كلِّ حال حذف إيذانا بمبادرة فرعون في الإرسال، ومبادرة رسله في الحشر، ومبادرة مَن حُشِروا في المجيء. وكأنَّه قيل: ماذا قالوا إذ جاءوا؟ فقال: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا اِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ولذلك كان بلا عطف، وذلك على حذف الاستفهام لدلالة المقام، أي أَإِنَّ لنا لأجرا؟ كما يدلُّ له قراءة الاستفهام، أو على الإخبار جزما من أنفسهم بالأجر على طريق الإدلال، أو المبالغة حتَّى يراعيهم فلا يكذِّبهم، كما قال ﷻ: ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ وزاد على مطلوبهم التقريب تحريضا لهم ورغبة منه كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي برفع المنزلة، مثل أن أجيبكم إلى كلِّ ما تطلبونه منِّي، وأقدِّم كلامكم على كلام غيركم، وأن تكونوا أوَّل من يدخل وآخر من يخرج، ونحو ذلك... والعطف على «نَعَمْ» عطف جملة على حرف، إذ كان في معنى الجملة فإنَّ «نَعَمْ» بمنزلة: إنَّ لكم لأجرا، ولا تتوهَّم أنَّ الجمل مقدَّرة بعد «نَعَمْ» كما زعموا.

﴿قَالُواْ يَا مُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ أوَّلاً عصيَّك وحبالك وما تسحر به، يَظُنُّون أنَّه يسحر بالعصا والحبال ونحوها مثلهم، أو: إمَّا أن تلقي ما معك كائنا ما كان ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أوَّلاً عصيَّنا وحبالنا وما شئنا، أو ما معنا، والتقدير: الأمر إمَّا أن تلقي أوَّلاً، أو اختر إمَّا أن تلقي أوَّلاً، أو إمَّا إلقاؤك مبدوء به وإمَّا أن نكون، فذلك خبر لمحذوف، أو مفعول لمحذوف، وخيَّروه ــ قيل ــ تأدُّبا مع الخصم، وإظهارا للجرأة وعدم المبالاة بفعل الخصم.

ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه أثيبوا على ذلك التأدُّب بالإيمان لأنَّه تأدُّب في حال الشرك مع أنَّهم لم يقصدوا به الله ﷻ،وكانت رغبتهم في أن يلقوا أوَّلاً، ولذلك غيَّروا الأسلوب إذ لم يقولوا: وإمَّا أن نلقي إلى صيغة الحصر بتعريف الطرفين وبضمير الفصل، أو ضمير التأكيد، تقوية للحصر، [قلت] ولا يظهر لي إرادة التأدُّب لأنَّهم لا يبالون بموسى قبل الإسلام ولا يوقِّرونه ولا يخافونه.

ولم يبال موسى عليه السلام بهم لوثوقه بالله ﷻ فيما أذن له فيه وعدم مبالاته بما يفعلون، فأمرهم بالإلقاء أوَّلاً ولتظهر معجزته، قيل: وتأدُّبا مع الخصم كما قال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ أوَّلاً ما أنتم ملقون ﴿فَلَمَّآ أَلْقَواْ﴾ ما يسحرون به ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ بأن خيَّلوا لهم الشيء على غير ما هو به، أَوْهَمُوهم أنَّ حبالا غلاظا وخشبا طوالا وغلاظا حيَّات ملأت الوادي، وركب بعضها بعضا متحرِّكة بأن دهنوها بالزئبق من ظاهر وأدخلوه تجاويفها، وأصابتها حرارة الشمس فتحرَّكت بعض تحرُّك لذلك، والتوى بعضها على بعض، ويقال: ذلك ميل في ميل، ويقال: حمل ثلاث مائة بعير، وتوهَّم الناس تحرُّكها بلمعانها أيضا ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ عاجلوا رهبتهم بذلك، أو أرهبوهم إرهابا شديدا، فالسين والتاء للطلب، أو للمبالغة، واختيرت المبالغة بهما لأنَّ أصلهما الطلب والتكلُّف، وما كذلك يكون على الكمال.

﴿وَجَآءُوا۟ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في فنّه من الإيهام، وإنّما صحَّ لموسى عليه السلام أن يأمرهم بإلقاء السحر مع أنَّ إلقاءه كفر لأنّه لم يرد الإلقاء بالذات، بل أراده ليظهر بطلانه بمعجزة من الله عزّ وجلّ، ولو ألقى أوَّلاً لم يظهر ذلك، وليس أمره أمرا بمعصية ورضى بها، بل أمره عبادة، لأنّه إنّما تظهر معجزته بإلقائهم ولتحقيرهم وتحقير إلقائهم، ولأنَّ المراد: إن كان لا بدَّ من الإلقاء فألقوا أوَّلاً، وقال في آية أخرى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾(سورة طه: ٦٥).

ويقال: لَمَّا قالوا ذلك سمع موسى عليه السلام مناديا: بل أنتم ألقوا يا أولياء الله[1]، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾. وذلك في الإسكندريَّة فيما قيل، وزعموا أنَّ ذنب الحيَّة وراء البحر، ولا يتمُّ ذلك إلاّ إن أريد بالبحر الخليج الواصل الإسكندرية من النيل. طلوا الخشب الطوال والغلاظ والحبال والعصيَّ بالزئبق وجعلوه في تجاويفها ميلا في ميل، وتحرَّكت بحرارة الشمس، فالناظر يتخيَّل حيَّات تتحرَّك ويركب بعضها بعضا وثعابين، والسحر تارة تخييل كما في القصَّة وتارة تحقيق، والكلُّ بخلق الله تعالى.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا

١- هذا بعيد جدًّا لأنَّ القوم لا يؤمنون با لله بل بفرعون اتَّخذوه إلها ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾. هذا بقطع النظر عن مصدر الصوت.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

إيمان السحرة بربِّ العالمين وتهديد فرعون لهم

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ على لسان جبريل الطَّيْكِلا ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنَ اَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها كما ألقاها أوَّلاً بحضرة فرعون، فإذا هي ثعبان، وكما ألقاها قبل ذلك ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ...﴾ (سورة طه: ١٠) ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ (سورة طـه: ٢٠)، وليس معه أحد ﴿فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ﴾ تتلقَّف: تبتلع، أي فألقاها فصارت حيَّة. ﴿فَإِذَا هِيَ...﴾ حذف إيذانا بسرعة ذلك كلّه، والمضارع لحكاية الحال كأنّها حاضرة ﴿مَا يَافِكُونَ﴾ يقلبونه عن أصله في نظر الناظرين لا حقيقة.

(قصص) وهو تلك الحبال والخشب، شيئا فشيئا في سرعة بسعة فمها ثمانين ذراعا حتّى أتت عليها كُـلّها، وقصدت الحاضرين وهربوا ومات في الهروب خمسة وعشرون ألفا، وقِيلَ: سبعون ألفا، وقصدت فرعون في خيمته فذهب عنها سبع خطوات فشهدوا عرجه الذي كان يخفيه، كذا قيل، [قلت:] وفيه أنَّ حاضره حينئذ في شغل بنفسه عن تعيين سبع خطوات والعرج. فأخذها موسى عصا كما كانت لم تزدد طولا ولا غلظا، وقال السحرة: لو كان ذلك سحرا لبقيت حبالنا وعصيُّنا، فآمنوا.

﴿فَوَقَعَ اَلْحَقُّ﴾ ثبت ودام، ولم يزُل كما زال سحرهم، وَقِيلَ: ظهر وَتَبَيَّنَ الحقُّ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ﴾ ظهر بطلان ما كانوا، أو لم يُؤثِّر، وهذا أولى

﴿يَعْمَلُونَ﴾ ما كانوا يعملونه، أو بطل كونهم عاملين، والأوَّل أولى و«تَلَقَّفُ» و«يَأْفِكُ» و«يَعْمَلُ» لحكاية الحال ﴿فَغُلِبُواْ﴾ أي غُلب فرعونُ وقومه المستمرُّون على الكفر، بدليل وصفهم بانقلابهم صاغرين، وتمييز السحرة عنهم بإلقائهم ساجدين، ويبعد أن يراد بالضمير الكفرة والسحرة الساجدون، أو السحرة الساجدون وحدهم، لأنَّ الذلَّ شامل للساجدين، إلاَّ أنَّهم ذلُّوا لله إيمانا به وبنبيئه، والمستمرُّون على الكفر ذلُّوا ذلالة هوان وعاقبة سوء ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان البعيد حِسًّا لبعد مصر على المدينة، ومعنًى لأنَّهم ومكانهم ممَّا يحتقر، ويبعد أن تكون «هُنَالِكَ» للزمان، لأنَّ أصلها المكان ولو كانت قد تجيء للزمان مع قبول التأويل بالمكان، ولأنَّ الأنسب أن يخبر بأنَّهم غلبوا في ذلك المكان الذي حضره فرعون وقومه وحضروا الغلبة.

﴿وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ﴾ أذلاَّء، أي صاروا أذلاَّء بعد اعتزاز، وهذا أنسب من أن يكون المعنى: انقلبوا إلى بلادهم صاغرين ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ كسجود الصلاة، وَقِيلَ: الخضوع، وذلك إلهام من الله تعالى، أو عرفوا ذلك قبلُ. ألقاهم الله للأرض، أو ألقوا أنفسهم للأرض بسرعة كأنَّهم لم يتماسكوا كما لا يتماسك الحجر الملقى، وذلك استعارة، جعل الله الإسراع من الخرور بلا تمالك، أو لم يتمالكوا تحقيقا، ومدحوا مع هذا لتقدُّم سببه منهم، وهو الخشوع بمعجزة موسى، وهي مُؤَثِّرة فيهم انقيادا وخشوعا لا مجبرة، فكان المدح والثواب، ولو كانت مجبرة بقي الثواب والمدح كذلك، لبقائهم على ما أجبروا عليه بعد زواله وقبل الموت، لو كان إجبارا، وَقِيلَ: سجد موسى وهارون شكرا لله تَعَالَى فسجد السحرة تبعا لهما.

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ لأنَّ شأن هذه العصا لا يتأتى بالسحر، وفي إلقائهم ساجدين وقولهم هذا عكس لِمَا أراد فرعون، أراد

أن يكسر بهم موسى فكسره موسى عليه السلام بهم، وَزَادُوا ذكر ربِّ موسى وهارون إزالة لتوهُّم أنَّ مرادهم بربِّ العالمين فرعون، إذ كان لعنه الله يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الاَعْلَى﴾ (سورة النازعات: ٢٤) ولو لم يذكروا هارون لأوهم اللفظ إرادة فرعون، إذ كان موسى متربِّيا في حجر فرعون، فربَّما توهَّم متوهِّم أنَّهم أرادوا أنَّ فرعون ربٌّ لموسى وسائر العالمين.

والآية وآية طه دلَّتا على جواز الذكر بالمعنى، فإنَّه هنا ذكر موسى قبل هارون، وفي طه ذكر هارون قبله وما قالوا إلاَّ بتقديم أو تأخير فقط، أخَّر هنا هارون لأنَّ الفاصلة على النون، وفي طه موسى لأنَّ الفاصلة على الألف، ويحتمل أنَّهم كرروا ذلك فتارة قدَّموا وتارة أخَّروا، ويحتمل أنَّ فريقا قدَّم وفريقا أخَّر فذكر في سورة ما لم يذكر في الأخرى.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ توبيخا وإنكارا.

(صرف) ﴿ءَامَنتُم بِهِ﴾ من ثلاث همزات في الأصل: الأولى للاستفهام التوبيخي محقَّقة محذوفة في الإمام[1]، والثانية همزة «أفعل» مسهَّلة بين همزة مفتوحة وبين همزة ساكنة ثابتة، وهي همزة آمن كأكرم وأعلم زائدة، وبعدها ألف محذوفة في الإمام، تتولَّد من حصَّة الفتح في الثانية الثابتة وهذه الألف الثالثة المحذوفة في الإمام همزة (أَمَنَ) الثلاثي هي فيه فاء الكلمة، قلبت ألفا لسكونها بعد همزة أفعل، هذه قراءة نافع، وهي في خطِّنا معشر المغاربة، والأصل: «أأأ» بهمزة مفتوحة فهمزة مفتوحة أيضا فهمزة ساكنة قلبت ألفا وكذا في غير هذه السورة. والهاء لموسى عليه السلام لقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم﴾ وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُ﴾ (سورة الشعراء: ٤٩) أي لموسى، وهو الراجح، أو لربِّ موسى في

١-أي في خطِّ مصحف الإمام.

قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾: قيل: أو لله لعلمه من المقام، وعلى العود لموسى لم يذكر معه هارون لأنَّ العمدة في الواقعة موسى، أي ءَآمنتم برسالته ﴿قَبْلَ أَنَ اذَنَ لَكُم﴾ أن آمركم بالإيمان به.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي هذا الذي صنعتموه من الإيمان به ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مصر أو الإسكندريَّة، ويطلق مصر على القاهرة وأعمالها، ويروى أنَّ موسى عليه السلام التقى مع كبير السحرة فقال له: أتؤمن با لله تعالى إن غلبتك؟ فقال: لآتينَّ غدا بسحر لا يغلبه سحر، فوا لله إن غلبتني لأومننَّ بك، وفرعون حاضر، وإنَّه نشأ من ذلك قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ...﴾ اتَّفقتم عليه مع موسى فيما قبل الخروج إلى السحر، والهاء في «مَكَرْتُمُوهُ» مفعول مطلق، كما تقول: هذا قيام قمته، وهذا جلوس جلسته، وإن ضمِّن «مكر» معنى أثبت كانت الهاء مفعولا به، والمعنى: الخداع والاحتيال.

﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ هم القبط. وَلَمَّا لم يجد حجَّة على موسى و لم يجد دفع حجَّته، وخاف أن يؤمن غيرهم ركن إلى إغراء القبط عليهم، وتهييج عداوتهم بإخباره بأنَّ إيمان السحرة ليس لحجَّة لموسى عليهم توجب الإيمان به، بل لاتِّفاقهم معه على أن يخرجوكم من أرضكم وملككم، وأكَّد ذلك بالوعيد كما قال ا لله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحلُّ بكم، وفسَّر هذا بقوله:

﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُم﴾ الصلب الشدُّ على خشبة أو نحوها، وَقِيلَ: المراد هنا الشدُّ من تحت الإبطين مع التعليق ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ومعنى ﴿مِنْ خِلاَفٍ﴾: اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، أو الرجل اليمنى مع اليد اليسرى، متعلِّق بمحذوف حال من «أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم»، ويجوز ـ مع بُعدٍ ـ أن يكون المعنى: لأقطِّعنَّ أيديكم كلَّها وأرجلكم كلَّها لأجل مخالفتكم لي.

وهو أوَّل من سنَّ القطع من خلاف، وجعله الله سنَّة للقطَّاع تعظيما لجرمهم، ولعظمه سمَّاه الله محاربة الله ورسوله، وإذا ذكر من فضائل العرب كون الدية مائة من الإبل من قصَّة عبد المطَّلب، وأنَّ الأميال من هاشم، وأنَّ ميراث الخنثى من جارية ابن الضرب أمكن أن يقال: فهذا القطع تقدَّم فيه فرعون، الجواب أنَّه لعنه الله قطع من خلاف بمرَّة، والله شرع القطع من خلاف على التعاقب لسعة رحمته، إذ قال: ﴿أَن يُّقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ اَوْ يُنفَوْا﴾(سورة المائدة: ٣٣) وفي السرقة واحدة لكن هذا على القول بتخيير الإمام في القتل وما بعده، وفي سرقة أخرى يدا أو رجلا آخر. وفي غير هذه جيء بالواو لأنَّها لمطلق الجمع تصلح لمعنى «ثمَّ». والتشديد في «أقطِّع» و«أصلِّب» للمبالغة.

﴿قَالُوا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ قدِّم للحصر والاهتمام والتعظيم والفاصلة عن متعلَّقه وهو قوله: ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ راجعون بالموت أو بالبعث بعده فيثيبنا، وربَّما استطابوا التصليب والتقطيع لذلك، أو شوقا إلى الله. ويروى أنَّهم رأوا في سجودهم منازلهم في الجنَّة، ويروى أنَّهم رأوا منازلهم فيها تبنى. وقد صلَّبهم وقطَّعهم من خلاف، وَقِيلَ: لا، لقوله تعالى: ﴿لاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا...﴾ (سورة القصص: ٣٥)، الجواب: أنَّ المراد الغلبة بالحجَّة أو في العاقبة. أو إنَّا لا بدَّ ميِّتون، والأجل محتوم لا يتأخَّر، أو «نا» ضمير لهم ولفرعون وكَفَرَتِهِ، نصير إلى الله فيجازي كلاًّ بما استحقَّ، وعلى كلٍّ حال لم يبالوا بوعيده.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾ ما تكره منَّا كراهة شديدة، أو ما تنكر منَّا، أو ما تعيب علينا، أو ما تطعن علينا ﴿إِلاَّ أَنَ امَنَّا بِئَايَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ ومصدر آمنَّا مفعول به لـ«تَنقِمُ» أو مفعول لأجله، أي إلاَّ إيماننا، ولا خير إلاَّ فيه، وكلُّ ضرٍّ في خلافه، فلسنا نرجع عنه، فاقض ما أنت قاض فلسنا نهاب الموت بالقطع والتصليب.

(بلاغة) والآية من تأكيد المدح بما يشبه الذمَّ، قال السعد[1]: ولكن ليس من قبيل قوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب

بل من ضرب آخر وهو أن يؤتى بالمستثنى مفرّغا إليه، والعامل ممَّا فيه الذمُّ، والمستثنى ممَّا فيه المدح، قلت: هما من باب واحد.

ومرادهم بالآيات العصا تعظيما لها، أو العصا وما قد شاهدوه معها كاليد البيضاء، أو انقلاب العصا ثعبانا، وكونه عظيما، وبلعه ما صنعوا، وعدم عظمه بما بلع، أو عدم رجوع ما صنعوا، وعدم بقاء أثره كروث ورماد، ورجوعه عصا كما كان، والسابق يلائم العصا وأحوالها، وأمَّا غيرها فلو كان لا يلائم المقام لكن لا مانع من حضور الإيمان بشيء في غير وقته السابق.

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ حتَّى لا نرجع للكفر بعد الإيمان لفعل فرعون. وإفراغ الإناء: صبُّ ما فيه، وهو تصييره فارغا، فاستعمل في إلقاء الصبر عليهم تشبيها بإلقاء ما في الإناء، أو المعنى: ربَّنا آتنا صبرا واسعا بحيث يغمرنا ويحيط بنا كما يحيط الماء، فالإفراغ مستعار للإفاضة المستعارة لإلقاء الصبر، أو شبَّه الصبر في الكثرة وغمره بالماء الذي يحيط ورمز إليه بالإفراغ، أو شبَّه الصبر بالماء لجامع التطهير، كما أنَّ الماء يطهِّر الدنس، الصبر على فعل فرعون يطهِّر الذنوب، وذلك استعارة. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ غير مفتونين عن دين الإسلام.

١- يريد به سعد الدين التفتازاني المتَوَفَّى سنة ٧٩١هـ، ويسمَّى مسعود بن عمرو، عاش بخراسان، وله مؤلَّفات عدَّة، وهو حجَّة في علوم الحديث، وكان مفسِّرا ومتكلِّما وأديبا. **الموسوعة الفِقهيَّة الكويتيَّة**، ج١، ص٣٤٤.

فقيل: إنَّهُ صلبهم وقطَّعهم، وَقِيلَ: لم يفعل ذلك و لم يقدر عليه لقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ والمشهور الأوَّل، والغلبة لا تتعيَّن بعدم فعل ذلك فإنَّها بالحُجَّةِ وإنَّها بالإغراق، وإنَّ ابن عبَّاس قال: صلبهم وقطَّعهم من خلاف، ولا يدلُّ طلب التوفّي على الإسلام على عدم فعله ـ كما قيل ـ لجواز أن يتوفَّاهم الله بالقطع والتصليب على الإيمان، ولا يدلُّ مبالغته في الصبر عن الإيمان على أنَّه صلبهم وقطعهم، لجواز أن لا يصل ما رغب فيه.

وهاب لعنه الله موسى عليه السلام بعد ذلك أن يأخذه أو يحبسه وخلّى سبيله خوفا منه شديدا، و لم يرض قومه بذلك فقالوا له ما ذكر الله بقوله:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

نصيحة موسى لقومه وتهديد فرعون لهم

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَيَذَرَكَ﴾ خصَّ موسى بالذكر هنا بيانا لكونه عمدة، وإفسادهم تبع لإفساده ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ والاستفهام إنكار للياقة، و«لِيُفْسِدُواْ» إغراء بتعليل، بالغوا عليه بأنَّ قصدك ترك موسى وقومه لأجل أن يفسدوا، أو كأنَّك تركتهم ليفسدوا، أو اللام للعاقبة، أي: يفسدوا كلَّ ما وجدوا صالحا من الدنيا والدين،

فالحذف للعموم، أو نزل منزلة اللازم، أي: ليوقعوا الفساد، أو يقدَّر: ليفسدوا الناس، كما روي أنَّه لَمَّا آمنت السحرة تبعه ستُّمائة ألف من بني إسرائيل، وواو قوله: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطف، أو معيَّة ليذرك، أي: أتذر موسى وقومه مع تركه آلهتك.

(قصص) وقد جعل لهم أصناما آلهة صغارا يتقرَّبون إليه بعبادتها، وقال: أنا ربُّها وربُّكم، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الاَعْلَى﴾(سورة النازعات: ٢٤) وَلَمَّا صنعها لهم أضيفت إليه، لكنَّ المتبادر أن يضاف الإله إلى عابده، وَقِيلَ: آلهته الكواكب يعبدها، وَقِيلَ: الآلهة الشمس وأنَّه كان يعبدها[1]، أنشد الفارسيُّ «وأعجلنا الإِلَهَةَ أن تتوب»، وَقِيلَ: هو دهريٌّ ينكر وجود الله، وَقِيلَ: لم ينكره فكان يقول: أحب لي في الدنيا وأخِّر العقاب للآخرة. وزعم بعض أنَّه يعرف اسم الله الأعظم فيدعو به ويجيء المطر فيقول قد جئتكم بالمطر، وهذا في أهل موضع يستحقُّون المطر، وَقِيلَ: كان يعبد بقرة وكلَّما رأى بقرة حسنة أمر بعبادتها، ولذا أخرج السامريُّ بقرة لبني إسرائيل، وَقِيلَ: جعل شيئا في عنقه يعبده.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ صغارهم الذكور **﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ﴾** نبقي بناتهم الصغار على الحياة، كما فعلنا قبل، فلا يتوهَّم أنَّ موسى هو المولود الذي ذكر المنجِّمون والكهنة أنَّ ملكنا يزول على يده، فنحن على ما كنَّا عليه من الغلبة، ولا يزول ملكنا، وقد انقطع طمعه عن قتل موسى إذ رأى أمره في علوٍّ وازدياد. **﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾** أراد نفسه، وجمع تعظيما، أو أراد نفسه وقومه، أو أراد قومه، لأنَّهم الذين يلون القتال إن

١-وهذا قريب ممَّا توصَّل إليه علماء الآثار الفرعونيَّة.

أراده، فإسناد القهر إليه على هذا مجاز عقليٌّ، كإسناد القتل والاستحياء إليه إن أراد نفسه في «نَقْتُلُ» و«نَسْتَحْيِي».

وعن ابن عبَّاس: ترك القتل في بني إسرائيل بعدما ولد موسى، فلمَّا جاء موسى بالرسالة وكان من أمره ما كان أعاد فيهم القتل، فشَكَوْا إليه فقال لهم تسلية ما قال الله عنه في قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُواْ بِاللهِ وَاصْبِرُواْ﴾ على أذى فرعون وقومه، أو شكوا إليه حين سمعوا ما قال فرعون لعنه الله، وقرَّر الأمر بالاستعانة بقوله: ﴿إِنَّ الاَرْضَ﴾ أرض مصر، أو الأرض كلَّها، فتشمل أرض مصر أوَّلا وبالذات ﴿لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعد لهم بأنَّ الله ﷻ ينجز لهم ما وعده لهم من إهلاك القبط، وإيراث بني إسرائيل أرضهم. والعاقبة: الأمر الأخير المحمود إذا أطلق عن قرينة تصرفه، وهذا حضٌّ لبني إسرائيل على التقوى.

﴿قَالُوا أُوذِينَا﴾ بالاستعمال في الأعمال الشاقَّة ﴿مِن قَبْلِ أَن تَاتِيَنَا﴾ طفلا أو من قبل أن تأتينا بالرسالة ﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ طفلا أو بالرسالة. لَمَّا قرب ولادته شرع في قتل أبنائهم مع الاستعمال، وَلَمَّا جاء بالرسالة زاد شدَّة في استعمالهم وأعاد القتل فيهم واستعملهم النهار كلَّه، بعد أن كان يستعملهم إلى نصف النهار، وَقِيلَ: أرادوا بالإيذاء الإيعاد بالشرِّ، وَلَمَّا كان الامتهان بنحو الاستخدام لأجل شأن موسى ناسب ذكرهم ذلك لموسى عليه السلام. والمجيء والإتيان بمعنى واحد، فذكرهما تفنُّن وتركٌ للتكرار، كما تفنَّن بـ«أَنْ» المَصدَرِيَّة أوَّلاً وبـ«ما» المَصدَرِيَّة ثانيًا، ولم يعد لفظ «أَنْ»، وكلٌّ من المجيء والإتيان يكون في سهولة وصعوبة، وفي المعاني والأزمان، والجواهر والأعيان.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُّهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ فرعون وقومه ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الاَرْضِ﴾ هذا القول من موسى تصريح بما أبهم في قوله: ﴿اسْتَعِينُواْ بِاللهِ

وَاصْبِرُواْ...﴾ حين رآهم لم يتسلّوا بقوله: «اسْتَعِينُوا»، وكان بلفظ: «عَسَى» لأنّه يقول على ما يرجو من الله، والله ﷻ يقول: «عَسَى»، وما أمره إلاّ جزم، أو لأنّه لا يدري أهم المستخلفون أم ذرِّيَّتهم أم غيرهم وغير ذرِّيَّتهم، ولو جزم بإهلاك الأعداء، فقيل: أقام بنوا إسرائيل في أرض مصر بملكهم، وهو ظاهر الآية لأنّه قال: ﴿يَسْتَخْلِفَكُمْ﴾، والأصل والحقيقة استخلافهم بأنفسهم لا بأولادهم، وَقِيلَ: خرجوا إلى الشام مع موسى عليه السلام، ونقلوا معهم يوسف ميِّتا، وهو المشهور، وتركوا مصر لنساء قوم فرعون وضعفائهم وأطفالهم، وروي أنَّ مصر فتحت لهم في زمان داود عليه السلام، وهذا ضعيف ورجَّحه بعض وقال: إنّهم لم يرجعوا إليها في حياة موسى.

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيها، أتشكرون أم تكفرون؟ فتجازون على ذلك، ومعنى «يَنظُر»: يعلم، والمراد بالعلم: الجزاء، والجزاء مترتِّب، ولذلك كانت الفاء، وإلاّ فعلم الله قديم، نعم هو عالم بعملهم إذا عملوه كما علمه قبل وقوعه، ولا حدوث علم في ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم

بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ۝﴾

أنواع عذاب الدنيا لآل فرعون وهلاكهم لاستكبارهم

وشرع في تفصيل مبادئ إهلاكهم بقوله: ﴿وَلَقَدَ اَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ قومه معه قبل الغرق ﴿بِالسِّنِينَ﴾ أعوام القحط وقلَّة المال، كما قال ﷺ: «اللهمَّ اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف»، أو «سنين كسني يوسف»[1] ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ لقلَّة الماء، ولِمَا يفسدها، كريح وشدَّة برد.وشدَّة حرارة ونزول بَرَد بفتح الراء. وعن ابن عبَّاس: «القحط لأهل البادية، ونقص الثمرات في أمصارهم». قال كعب الأحبار: «يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلاَّ تمرة». ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ حالَهم، كحال من يعصي فيعاقَب رجاء للانزجار، ففيه استعارة تمثيليَّة، أو «لَعَلَّ» للتعليل، أي ليذكَّروا أنَّ ذلك لكفرهم ومعاصيهم فينزجروا، إلاَّ أن «لَعَلَّ» يثبت المحقِّقون مجيئها للتعليل.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ الحالة المحبوبة، من صحَّة بدن وخصب ونحوهما ﴿قَالُواْ﴾ لعدم تذكُّرهم ﴿لَنَا هَذِهِ﴾ نحن أهل لها وليس فينا ما ينافيها فلم يشكروا عليها. ويقال: قال له قومه: إن كنت ربًّا فأتنا بجري النيل، فقال: غدا يجيئكم، فاغتسل ليلا وتضرَّع إلى الله تعالى ومشى حافيا إلى النيل فدعا الله فجاء يجري. وعرَّف «الْحَسَنَة» تلويحا بالكثرة، وكذلك قرنها بـ«إِذَا» المبنية في

١- رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، رقم ٣٢٠٦.

اللغة على غير شكٍّ لتحقُّقها، بخلاف السَّيِّئَة فإنّها نُكِّرت لقلّتها، كأنّه قيل: فرد من أفراد السوء أو نوع، وكذلك قرنت بـ«إنْ» المبنية في اللغة على الشكِّ سوقا لها مساق ما يشكُّ فيه هل يقع؟ ومساق ما يجيء حدوثا لا لقصد له، ولا شكَّ لله، ولا واقع من الحوادث إلاّ بإرادته.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ قحط أو عاهة ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ يتطيَّروا، قلبت التاء طاء وأدغمت، وهو مضارع «اطَّيَّرَ» بهمزة الوصل الحادثة على صيغة التفعُّل، أي يتشاءموا، والعرب تسمِّي الشؤم طيرا وطائرا وطِيَرة بكسر ففتح وقد تسكن، لتشاؤمهم ببارحها ونعيق الغراب، حتّى إنّهم يقولون [له] بفيك التراب، وفَرْقِهم بين أن يقول عق أو غق، وبأخذ الطائر ذات اليسار، ويقال: البارح ما ولاك مياسرة، والسانح ما والاك ميامنة، وَقِيلَ: البارح ما جاء من اليمين والسانح ما جاء من اليسار.

وكانوا يحبُّون السانح ويكرهون البارح، وإذا أرادوا سفرا أو نكاحا أو غارة أو حاجة فتتشاءم بالبارح وتتبرَّك بالسانح، وإن وجدوا طائرا ماكثا أطاروه فيكون سانحا أو بارحا، فإن جاء من جهة اليمين أو أطير فذهب يمينا فعلوا فهو سانح، فإن جاء من اليسار أو أطير فذهب يسارا تركوا وهو بارح، فقال ﷺ: «**أقرُّوا الطير في وُكُنَاتِها**»[1] والوكنة موضعه أي لا تطيِّروها تفاؤلا وتشاؤما، وقال: «**من رجَّعه التطيُّر عن حاجته فقد أشرك**»[2]، قيل: وما كفّارته يارسول الله؟ فقال: «**أن يقول أحدكم " اللهمَّ لا طير إلاّ طيرك، ولا خير إلاّ خيرك،**

١- رواه **أبو داود** في كتاب الضحايا، باب في العقيقة، رقم ٢٨٣٥. ورواه **البيهقي** في كتاب الضحايا، (٦٣) باب أقرُّوا الطير على مكاناتها، رقم ١٩٣٣٧، من حديث أمِّ كرز الكعبية.

٢- رواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، رقم ٦٧٤٨، بلفظ «من ردَّته الطيرة من حاجة فقد أشرك» (م.ح).

ولا إله غيرك " ويمضي لحاجته إن كانت حلالا». فسمُّوا الشؤم طائرا إذ جعلوا الطائر أمارة تسمية للمدلول باسم الدالّ. وكذلك تشاءمت اليهود لعنهم الله برسول الله ﷺ، فقالوا: لَمَّا جاء أقحطنا، وغلت أسعارنا، وكثر موتنا، وكان ﷺ يتفاءل ولا يتطيّر، وأصل الفأل: الكلمة الحسنة على لسان آدميّ، وهو أصفى قلبا من البهائم والطير، فيؤخذ بها لا بصوت البهيمة أو الطائر أو ذهابه إلى جهة. والشؤمُ: ضدّ اليمن. **﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾** من المسلمين فيقولوا: أصابنا ما نكره بهم.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَآئِرُهُمْ﴾ أي شؤمهم أي سبب شؤمهم **﴿عِندَ اللهِ﴾** وهو قضاؤه وحكمه عليهم، أو طائرهم: سبب شؤمهم أعمالهم المكتوبة عند الله، وهي أعمال سوء توجب العقاب، فإنّه لا خير ولا شرَّ إلاَّ بقضاء الله ﷻ، أو أعظم من شؤمهم عند الله وهو النار لا ينالهم في الدنيا. ونقول: طائر الإنسان عمله. **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** أنَّ ما يصيبهم من الله كلّهم، أو بعضهم علم ولم يعمل، وكلُّ حادث جائز وَإِنَّمَا هو بإيجاد الواجب سبحانه.

﴿وَقَالُواْ﴾ لموسى **﴿مَهْمَا﴾** بالألف لأنه مركّب من «ما» الشرطيَّة و«ما» الزائدة، قلبت ألف الأولى هاء تخفيفا عن التكرير، أو من «مَهْ» اسم فعل بمعنى: أكفف، باق على معناه، وَقِيلَ: مجرَّد عنه وما، وَمَنْ قال: بسيطة كتبها بالياء، **وخطُّ المصحف لا يخالف**، ومعناه: كلُّ ما، وهو مبتدأ، ولا دليل على الاشتغال، ولا تكون ظرفا بمعنى متى، وأمَّا قوله:

فإنّك مهما تعط بطنك سؤله [وفرجك نالا منتهى الذمِّ اجمعا][1]

١- أورده ابن دريد لحاتم بن عبد الله، **شواهد المغني**، ص٢٥٣.

فهي فيه مفعول مطلق، بمعنى أيَّ عطاء أعطيت بطنك سؤله، ولو كانت في الآية بمعنى متى لم يعد إليها هاء «بِهِ». ﴿تَاتِنَا بِهِ مِنَ ـــ ايَةٍ﴾ بيان لهاء «بِهِ»، حال منه، وسمَّوها «آية» تهكُّما، أو أرادوا: على زعمك، ﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ أنَّث هنا ضمير «مَهْمَا» لأنَّها فسِّرت وبيِّنت بـ«آيَة»، أو أعاد لنفس الآية، وهو في المعنى عود لـ«مَهْمَا» وضميره.

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُومِنِينَ﴾ فما نحن بمصدِّقين لك عليها أو فيها، أي الآية المعبَّر عنها بـ«مَهْمَا»، أو مذعنين لك، أو مؤمنين بك. فقال موسى عليه السلام: يارِبِّ إنَّ فرعون وقومه بغوا واعتدوا ونقضوا العهد، فخذهم بنقمة تكون لقومي عظة ولمن بعدهم آية وعبرة، وقد مرَّ عليهم شأن العصا واليد البيضاء و لم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الماء كما قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ من السماء سبعة أيَّام، أو ثلاثة، في ظلمة شديدة، والسيل يدخل بيوت القبط ويصل تراقيهم ويغرق قاعدهم دون بني إسرائيل ودون بيوتهم مع اختلاط بيوتهم ولو تسفل بيت منهم عن بيوت القبط، ولا يرون شمسا ولا قمرا ولا يطيقون الخروج فلم يجدوا حرث أرضهم ولا التصرُّف فيها، فاستغاثوا بفرعون، فقال لموسى عليه السلام: أزل عنَّا هذا الماء نؤمن بك، فأزاله الله وجفَّف الأرض وأنبت ما لم يروه قبل فقالوا: هذا الذي جزعنا منه خير لنا و لم نشعر، والله لا نؤمن بك ولا نرسل بني إسرائيل.

أو ﴿الطُّوفَانَ﴾: الجُدَرِيُّ، أو موت الحيوان، أو الطاعون شهرا، أو ﴿الطُّوفَانَ﴾: ماء أقام ثمانية أيَّام، وأزال الله ذلك، فأقاموا شهرا في عافية ونقضوا العهد، وأرسل الله عز وجل عليهم الجراد، كما قال الله عز وجل: ﴿وَالْجَرَادَ﴾ كثيرا، يتراكب ذراعا ويغطِّي ضوء الشمس، مبتلى بالجوع حتَّى أكل الخشب والأبواب اليابسة والسقوف والثياب، مكتوبا في صدر كلِّ جراد: «جند الله

الأعظم»، سبعة أيَّام من سبت لسبت، وضجُّوا: إن زال آمنَّا، فأشار موسى بعد خروجه إلى صحراء إلى الشرق والغرب، فذهب من حيث جاء، أو ألقته الريح في البحر. وَسُمِّيَ جرادا لأنَّه يجرِّد الأرض من النبات، **والنهي عن قتله في الحديث إن صحَّ مقيَّد بعدم تعرُّضه لأكل النبات**[1]، والاشتقاق في أسماء الأجناس قليل. وبقي لهم ما يأكون من غلّتهم فقالوا: بقي لنا ما يكفينا فلا نترك ديننا، وأقاموا شهرًا في عافية وعادوا إلى أعمالهم الخبائث فأرسل ا لله ﷻ عليهم القمَّل كما قال:

﴿**وَالْقُمَّلَ**﴾ ضرب بعصاه كثيبا من الرمل أحمر فعاد قمَّلا يأخذ أبشارهم وأشعارهم وأشعار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم ومنعهم القرار والنوم، وأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض ومسَّ أبدانهم وامتلأ طعامهم قملا، ويحصل شيء قليل من الدقيق من عشرة أجربة حبًّا كثلاثة أقفزة من عشرة أجربة، أو هو السوس، أو أولاد الجراد قبل أن تنبت الأجنحة، أو الحمنان وهو ضرب من القراد، أو دواب صغار تشبه القراد، أو صغار الذرِّ أو هي القراد، أو البراغيث، أو الجعلان. بقي عليهم ذلك من سبت لسبت سبعة أيَّام فصرخوا إن يكشف فنتوب، فكشف وأقاموا شهرا فنكثوا فقالوا: تَيَقَّنَّا أنَّه ساحر إذ جعل الرمل قملا فأرسل عليهم الضفادع كما قال:

﴿**وَالضَّفَادِعَ**﴾ ملأت بيوتهم ومياههم وطعامهم وتثب في القدور وفي النار، وفي أفواههم عند الأكل وعند الكلام، ولا تحترز عمَّا تموت به من نَّار أو قدر لوجه ا لله، فقيل: أبدلها ا لله من ذلك بردا، أي زادها بردا، إذ قد أعطيت ذلك لنار إبراهيم، وبقي ثلث كلّ فرد أو ثلث الجميع فعمَّها البرد في قصَّة

١- ولا يَصِحُّ هَذَا أبدا، لأنَّ الجراد من الآفات العَالَمِيَّة تجب محاربته.

موسى الطَيْقِلاْ.

﴿وَالدَّمَ﴾ في مياههم حتّى غلبها، أو صارت دما، وكذا ماء البقول والثمار، وماء الأغصان يجتمع إسرائيليٌّ وقبطيٌّ على إناء فيشرب الإسرائيليُّ منه ماء، والقبطيُّ دما، وكذا ماء البقول والثمار والغصون، ويصبُّ الإسرائيلي من فيه ماء في فم القبطي فيرجع فيه دما، أو الدم: الرعاف، وَقِيلَ: سال عليهم النيل دما.

﴿ءَايَاتٍ﴾ حال من «الطُّوفَانَ» وما بعده، وصحَّ لأنَّه بمعنى دالاّت، كلُّ واحدة دامت سبعة أيَّام من سبت لسبت، وَقِيلَ: كلُّ واحدة تدوم شهرا ويعافون في شهر بعده، كما روي عن ابن عبَّاس، وَقِيلَ: في كلِّ سنة آية، فهنَّ في تسع سنين. ﴿مُفَصَّلاَتٍ﴾ مبيَّنات لا يشكُّ عاقل منصف غير مكابر لعقله أنَّها من الله ونقمة، أو مفصَّلات لامتحان أحوالهم بالأزمنة بإبقاء كلِّ واحدة سبعة أيَّام من سبت لسبت، وزوالها بدعاء موسى شهرا، فاصلا بين كلِّ عذابين إلزاما للحجَّة عليهم، ويقال: بقي موسى فيهم بعد إيمان السحرة عشرين سنة، وَقِيلَ: أربعين سنة، وَقِيلَ: ستّة عشر شهرا يريهم الآيات على مهل ﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان بها وبموسى ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادتهم الإجرام من قبل، مستمرِّين عليه.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ المذكور وهو الخمسة، أي لَمَّا تمَّت الخمسة المذكورة، أو لَمَّا وقع عليهم الرجز الأخير، فإنَّهم ولو كانوا قد تضرَّعوا عند كلِّ واحد كما مرَّ لكن لم يقولوا ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ إلاَّ في الأخيرة، ولو قالوه في كلِّ واحدة لقال: وكلَّما وقع عليهم الرجز، وَقِيلَ: لَمَّا وقع عليهم الرجز في كلِّ واحدة، وقيل: الخمسة الماضية غير الطاعون، والرجز هنا الطاعون عذاب سادس، وقيل: ثلج أحمر لم ير مثله مات به في يوم واحد سبعون ألفا، والمعروف أنَّه الموت، قال ﷺ: «**الطاعون رجز أرسل على**

طائفة من بني إسرائيل ـ أو قال: على من قبلكم ـ فإذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»[1].

ويروى عن ابن عبَّاس أنَّ موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل أن يذبح كلٌّ واحد كبشا فيخضِّب كفه بدمه فيضرب بها على باب داره، فسألهم القبط عن ذلك فقالوا: ينزل العذاب عليكم فننجوا، فقالوا: ما يعرفكم الله إلاَّ بهذا؟ فقالوا: أمرنا نبيئنا بذلك، ففيه قالوا: ما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿**قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ**﴾ في إزالته ﴿**بِمَا عَهِدَ عِندَكَ**﴾ من قبول دعائك، أو من كشف العذاب إن آمنَّا، أو من النبوءة إذ عهد الله إليه بها عند نزولها وقبلها، وتكفَّل بأعبائها مع أنَّ لها حقوقا تحفظ فصحَّ أنَّها عهد عنده، كما يكتب منشور لمن أريد توليته فيكون عنده، والباء متعلِّق بـ«ادْعُ» على التوسُّل، أو السببيَّة، ويجوز تعليق الباء بحال محذوف أي متوسِّلا بما، أو فعل قسم، أي نحلف بما عهد عندك، وجوابه قوله تعالى: ﴿**لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ**﴾ المذكور ﴿**لَنُومِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ**﴾ أو يقدَّر: أسعفنا إلى ما نطلب بما عهد عندك. وإذا لم نجعل الباء للقسم فهذا جواب قسم محذوف أي والله، إن كانوا معترفين بالله، أو نحلف بفرعون أو بآلهتنا، أو ﴿**قَالُواْ ادْعُ...**﴾ مقسمين لئن كشفت عنَّا الرجز لنؤمننَّ بك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل.

﴿**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ**﴾ بدعاء موسى في السادسة، أو في كلٍّ واحدة ﴿**إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ**﴾ الأجل آخر المدَّة المضروبة لشيء، وآخرها وقت

١- رواه **مالك** في الموطَّأ، كتاب الجامع، (٧) باب ما جاء في الطاعون، رقم ٣٢. ورواه **مسلم** في كتاب السلام، (٣٢) باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، رقم ٩٢، من حديث سعد بن أبي وقَّاص عن أبيه.

الشروع في الغرق أو الموت بعده، أو العذاب بعدهما، أو الأجل: المدَّة، فيقدَّر مضاف، أي إلى آخر أجل، وهو ما عيَّنوه لإيمانهم.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجَأُوا نقض العهد بلا توقُّف وتأمُّل، والظاهر أنَّ جواب «لَمَّا» قرن بـ«إِذَا» الفجائيَّة، أو يقدَّر: نسوا أو أعرضوا، وهذا النسيان أو الإعراض يبادره النكث؛ وأصل النكث: فكُّ ما غزل، استعير للخروج عن العهد بالإيمان.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي أردنا الانتقام منهم لمعاصيهم، وليس المراد فعلنا الانتقام وهو الإغراق، لأنَّه يتكرَّر مع قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ وينافيه العطف بالفاء إذ يلزم عليه عطف الشيء على نفسه بالفاء، فيكون الشيء بعد نفسه باتِّصال، فكيف لو كان بانفصال، ولك اعتبار الانتقام مجملا فعطف عليه بالفاء عطف مفصَّل على مجمل، كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ...﴾(سورة هود: ٤٥).

(لغة) واليمُّ: البحر مطلقا، أو قعر البحر، أو لجَّته، والمراد: القلزم أو النيل، وهو الماء المغرق، وقيل: لا يسمَّى بحرا إن كان عذبا، وأنَّ قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ...﴾(سورة فاطر: ١٢) تغليب، ولعلَّ الخلاف في اليمِّ هل يسمَّى به العذب لا في البحر. وسمِّي البحر يمًّا لأنَّه يقصد بالانتفاع، من معنى يمَّم وتيمَّم أي قصد.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم بآياتنا ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ كغافل عن الشيء لم يره ولم يسمعه، فكيف يتدبَّره مع ذلك؟ ولا حاجة إلى ردِّ ضمير «عَنْهَا» إلى النقمة المعلومة من «انتَقَمْنَا» إذ هو خلاف الأصل لحصول الخروج عن إشكال أنَّ الغفلة ضروريَّة لا عقاب عليها بأنَّ المراد شبهُها لا حقيقتها.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

وراثة بني إسرائيل أرض مصر والشام بعد فرعون والعمالقة

﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ من فرعون أو العمالقة، وذكر الإرث إشارة إلى الأخذ بسهولة ﴿الْقَوْمَ﴾ بني إسرائيل ﴿الذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ يوجدون ضعفاء من فعل الكفرة بهم من الاستعباد وقتل الأولاد، أو يفعل بهم ما يفعل بالضعيف الذي لا يردُّ عن نفسه لضعفه، أو يحسبون ضعفاء وليسوا كذلك عند الله، بل أقوياء بالحقِّ الذي عندهم أو بالسعادة ﴿مَشَارِقَ الاَرْضِ وَمَغَارِبَهَا التِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ مفعول ثان لـ«أَوْرَث»، والمراد: أرض الشام شرقه وغربه، أي كلُّه، أو مصر على أنَّهم رجعوا إليها، أو في زمان داود، أو ملكوها بالتصرُّف فيها وكونها تحت أيديهم ولو لم يدخلوها.

والبركة بالرزق والثمار وكثرة الأنبياء، فإنَّ أرضه تنبت الثمار الكثيرة بلا ماء كثير، وليس ماؤه أكثر من ماء غيره، بل ماء غيره أكثر من ماء مواضع كثيرة منه، ومياه دمشق كثيرة جدًّا. وذكر بعض أنَّه لم يبعث نبيء إلاَّ من الشام، والنبيء ﷺ أسري منها، بل بعث من أرض هي أفضل من الشام، ليكون كملك رعيَّته في غير بلده أيضا. قال ﷺ لعبد الله بن حوالة الأزدي: **«عليك بالشام فإنَّها خيرة الله تعالى من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده»**[1]،

١- أورده الهندي في الكنز، ج١٢، ص٢٧٥، رقم ٣٥٠٢٤، مع زيادة في أوَّله وآخره، من حديث عبد الله بن حوالة.

وقال: «**يأتي زمان لا يبقى مؤمن إلاّ بالشام**»[1]، وقال: «**ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها على الشام**»[2]، وسمِّيت بسام بن نوح فإنّه في السريانيَّة بالشين المعجمة، أو بقوم من كنعان تشاءموا إليها، أي تياسروا إليها، أو لأنَّ أرضها شامات بيض وحمر وسود. و«التي» نعت لـ«مَشَارِقَ» و«مَغَارِبَ»، ويضعف كونه نعتا للأرض للفصل بالعطف.

ويجوز أن تكون الأرض أرض مصر أورثهم ا لله إيَّاهَا بعد فرعون، فإنَّ فيها البركة بالنيل وغيره، ويدلُّ له قوله تعالى كذلك: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ (سورة الشعراء: ٥٩) وقوله كذلك: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ـ اخَرِينَ﴾ (سورة الدخان: ٢٧) أو مصر والشام، ولا يصحُّ ما قيل: أرض الدنيا المعمورة، لأنّه لم يملكها بنو إسرائيل كلّها، ولا داود ولا سليمان عليهما السلام.

﴿**وَتَمَّتْ**﴾ مضت ونجزت، والموعود كالمعلّق، والوفاء به تمام وكمال له ﴿**كَلِمَةُ رَبِّكَ اَلْحُسْنَى**﴾ وعده الأزليُّ، أو وعده بالمنِّ بالنصر، وإيراثهم وتمكينهم في الأرض إلى آخر ما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُّهْلِكَ عَدُوَّكُمْ...﴾(سورة الأعراف: ١٢٩) وفي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذِينَ...﴾(سورة القصص: ٥). ﴿**عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ**﴾ بسبب صبرهم على استعباد فرعون إيَّاهُم، وقتل الأولاد إذ لم ينجُّوا أنفسهم بالكفر، بل بقوا على الإسلام، ولا ينافي هذا الصبر قولهم تضجُّرًا وتأسُّفا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَاتِيَنَا...﴾ لأنَّ التأسُّف لا ينافي الصبر، وإنّما ينافيه السخط للمقدور.

١- لم نقف عليه.

٢-رواه **الترمذي** في كتاب المناقب، رقم ٣٨٨٩. و**أحمد** في مسند الأنصار، رقم ٢٠٦٢٢، من حديث زيد بن ثابت. (م.ح).

﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أبطلنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ﴾ من القصور والعمارات ﴿فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ اسم كان يعود لِـ«مَا»، أو إلى الشأن، أو «كَانَ» زائد، أو «مَا» مَصدَرِيَّة، وأجاز بعض كون «فِرْعَوْنُ» اسم «كَانَ»، مع أنَّ الخبر الفعليَّ لا يتقدَّم على المبتدإ حال اللبس، وهنا يلتبس أنَّ فرعون فاعل «يَصْنَعُ»، وسوَّغه هنا وجود فعلين يستحقُّ كلٌّ منهما فاعلا، ويجوز تنازع «كَانَ» و«يَصْنَعُ» في «فِرْعَوْنُ». ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ يرفعون من الجنّات والبناء العالي كصرح هامان.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ١٤١﴾

جحود بني إسرائيل نعم الله عليهم

﴿وَجَاوَزْنَا﴾ موافق للمجرَّد، أي: وجزنا، فالباء للتعدية في قوله: ﴿بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾ أي أجزناهم، والثاني قوله: ﴿الْبَحْرَ﴾ أي صيَّرناهم جائزين بحر القلزم على الصحيح، أو النيل وهو خطأ، وعلى كلِّ حال دخلوا من أرض ورجعوا فيها بطرق مقوَّسة، وإلاَّ فعرض القلزم بعيد جدًّا، وبعضه الأعلى متّصل بالمحيط بعيد جدًّا، والنيل لو دخلوا غربيه لاحتاجوا إلى سفن يرجعون بها إلى شرقه.

﴿فَأَتَوْا﴾ مرُّوا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هم العمالقة الذين أمر الله موسى عليه السلام بعد ذلك بقتالهم، أو هم لخم قوم من العرب باليمن، وقيل: بمصر ﴿يَعْكُفُونَ﴾ يقيمون بالعبادة ﴿عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أو يعكفون على عبادة أصنام لهم، وهي بقرٌ أو صُوَرُهَا، من نحاس أو حجارة على صورتها، وأصل عجل السامريِّ من ذلك.

﴿قَالُوا﴾ أي بنوا إسرائيل المجاوَزُ بهم البحرُ ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا﴾ نذكر الله به ونعبده به، وهذه ردَّة معنويَّة إذ علموا أنَّ إلههم هو الله عز وجل، وذلك لشدَّة جهلهم وقسوة قلوبهم، حتَّى ظنُّوا أنَّ ذلك لا يقدح في دينهم، أو اجعل لنا إلها نعبده دون الله أو مع الله سبحانه، وهذه ردَّة معنويَّة لأنَّهم يذكرون الله، والظاهر أنَّها صريحة كأهل الكتاب العابدين لغير الله بعدهم، ولشدَّة جهلهم ظنُّوا أنَّ عبادة غير الله تعالى لا تضرُّ إذا كانت تقرُّبا إليه، أو مع معرفته، ولم يقولوا كلُّهم: اجعل لنا إلها، لبعد ذلك عن السبعين الذين اختارهم للميقات، قلت: إن بعدت عنهم الردَّة الصريحة لم تبعد المعنويَّة، فقد قيل: هم القائلون ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾(سورة النساء: ١٥٣).

﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ يعبدونها، و«مَا» كَافَّة، أو مصدريَّة في قول جواز دخولها على الجملة الاسِميَّة، أي إلها ثابتا لنا كثبوت آلهة لهم، أو اسم، أي: كالفريق الذي هو لهم آلهة، أو كفريق هو لهم آلهة، وحذف صدر الصلة لطولها، ويصحُّ ـ على ضعف ـ أنَّ آلهة بدل من المستتر في «لَهُم»، و«لَهُم» صلة أو صفة.

وروي أنَّ الصحابة مرُّوا بذات أنواط بعد فتح مكَّة وحنين، فقال بعضهم: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، وهي شجرة يعلِّق بها المشركون سلاحهم وَرُبَّمَا عبدوها، والصحابيُّ لا يريد عبادة شجرة

لكن يريد تعليق السلاح فقط، فقال: «الله أكبر ! **هذا كما قال قوم موسى له: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، لتتَّبعنَّ سنن من قبلكم، حتَّى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه، أو ركبوا متن ضباة لركبتموها**»[1]، ومال إلى شجرة أدنى منها واستظلَّ تحتها.

﴿**قَالَ**﴾ موسى ﴿**إِنَّكُمْ قَوْمٌ**﴾ ذكر لفظ القوم إيضاحا لكونهم جماعة معلومة مخصوصة موسومة بما يذمُّهم به من الجهل ﴿**تَجْهَلُونَ**﴾ تعتادون الجهل حتّى جعلتم الإشراك با لله بدلا من شكره، وزيادة عبادته على إنجائكم من فرعون وقومه وإهلاكهم. ولكون «تَجْهَلُونَ» بمعنى تعتادون الجهل كان لازما، ولا يحسن أن يقال: هو متعدٍّ حذف مفعوله للعموم، لأنَّهم لا يجهلون كلَّ شيء، وليس المقام لأن يقال: جهلوا كلَّ شيء، إلاَّ أن يراد بالعموم كثرة جهلهم، وحاصله: إنَّكم جاهلون بحقيقة الأُلُوهِيَّة، أو الجهل مطلق السفه الشامل لذلك.

﴿**إِنَّ هَٰؤُلَآءِ**﴾ العاكفين على أصنام لهم ﴿**مُتَبَّرٌ**﴾ مكسَّر مدمَّر، كما سُمِّيَ التبر تبرا لأنَّه مكسور، وكذا كسارة الذهب، والتدمير: الإهلاك، والناس يهلكون أنفسهم على الذهب. والخبر سببيٌّ ولذلك أفرد مع أنَّ اسم «إِنَّ» جمعٌ، وروعي مرفوعه وهو «مَا» من قوله: ﴿**مَا هُمْ فِيهِ**﴾ من الدِّين الباطل، وذلك أولى من جعل «مَا» مبتدأً و«مُتَبَّرٌ» خبره، والجملة خبر «إِنَّ». ﴿**وَبَاطِلٌ**﴾ عطف على «مُتَبَّرٌ»، ﴿**مَا**﴾ فاعل، أو مبتدأ خبره «بَاطِلٌ» كما في الذي قبله ﴿**كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ من عبادة الأصنام. أكَّد الكلام بـ«إِنَّ» واسم

١- رواه **الترمذي** في كتاب الفتن، رقم ٢١٠٦. ورواه **أحمد** في كتاب مسند الأنصار رقم ٢٠٨٩٢. من حديث أبي واقد الليثي. (م.ح).

الإشارة الذي يفيد تميز المسند إليه دلالةً على أنَّه جدير بمضمون خبره، وأيضا هؤلاء ممَّا يُشارُ به للبعيد كما يشار به للقريب، والمراد هنا: البعد تحقيرا، أو أكَّد بالتدمير والبطلان. وفي التتبير تلويح بأنَّ أصنامهم تكسَّر وتفتَّت، لا تنفعكم عبادة الأصنام لذاتها، ولا للتقرُّب بها إلى ا لله ﷻ.

﴿قَالَ أَغَيْرَ اَ للهِ أَبْغِيكُمُ, إِلَهًا﴾ أأبغي لكم غير ا لله إلها؟ و«إِلَهًا» تمييز، أولى من كونه حالا، ووجه كونه حالا أنَّه في معنى الوصف، أي معبودا، أو أبغي غير ا لله لكم حال كونه إلها؛ والهمزة للإنكار والتوبيخ. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانكم لا كلّ عالم، لأنَّ هذه الأمَّة أفضل من كلِّ أمَّة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ...﴾(سورة آل عمران: ١١٠) أو على الناس كلّهم على معنى أنَّ فيهم من الأنبياء والمعجزات ما ليس في هذه الأمَّة أو غيرها، وأمَّا الفضل بالذات فلهذه الأُمَّة، كما تقول: هذا الفقير لكونه ذا فرس أفضل من هذا الغنيِّ من حيث لا فرس له. والجملة حال، كيف تطلبون إلها غير ا لله والحال أنَّه فضَّلكم على غيركم بنعم الدين والدنيا، فقابلتم هذا التفضيل بإشراك أبلد الحيوان با لله ﷻ في العبادة، وهو البقر أو جماد على صورته بلا حياة ولا قلب؟!. وفي قصَّة فرعون وقومه وهلاكهم زجر لقريش وتسلية لرسول ا لله ﷺ، وتلويح بنصره على قومه كما نصر موسى على فرعون.

﴿وَإِذَ اَنجَيْنَاكُم﴾ واذكروا بني إسرائيل وقت أنجيناكم، أو اذكروا إنعامه عليكم إذٍ، أو الواقع إذ، وهذا تذكير بالنعمة ليشكروها ويتركوا الكفر، وهو من كلام موسى عليه السلام. وإسناد الإنجاء إليه مجاز لعلاقة السَّبَبِيَّة، والمنجي حقيقة هو ا لله، ويجوز أن يكون من كلام ا لله أوحاه في ذلك الزمان إليهم ﴿مِّنَ ـالِ فِرْعَوْنَ﴾ من استعبادهم لكم واستخدامكم وقتلكم، إنجاءً دائما بإغراقهم، وذلك نعمة لا تنغَّص، بخلاف ما لو أنجاهم منهم مع بقاء حياتهم

متمكّنين قادرين أو غير متمكّنين. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ﴾ مستأنف لبيان ما منه الإنجاء، أو حال من «آل» أو من الكاف، أو بدل من الجملة، أي يعذّبونكم العذاب السوء، أو بسوء العذاب، أو ضمّن معنى المتعدّي لاثنين، أي يكلّفونكم أو يذيقونكم سوء العذاب، وهو أشدّه.

﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ استئناف لبيان قوله ﷻ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أو بدل منه، واستحياء النساء: إبقاؤهنَّ بلا قتل، سواء المولودات الصغار والكبار، أو طب المكرَهات على السقط ﴿وَفِي ذَالِكُم﴾ أي الإنجاء من آل فرعون أو في ذلكم العذاب ﴿بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي ابتلاء وامتحان، أو البلاء: النعمة، لأنَّ البلاء مشترك بين النعمة والمحنة، فا لله يختبر شكر عباده بالنعمة وصبرَهم بالمحنة: ﴿فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾(سورة الفجر: ١٥) ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾(سورة الأعراف: ١٦٨) ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(سورة الأنبياء: ٣٥). ويجوز أن يراد: الامتحان والنعمة استعمالا للكلمة في معنييها.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ

قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

مناجاة موسى لربّه تعالى وإنزال التوراة عليه

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ثلاثين مفعول ثان لـ«وَاعَدْنَا»، وهو نفس الموعود، والمراد: وعد عبادة عظيمة، أي واعدناه إيّاهَا بالعبادة فيها، وليس ظرفا، وكأنّه قيل: واعدنا عبادتها، أو تمامها، أو مكثها منه وإنزال الكتاب منّا، وذلك أنَّ المواعدة من الله ومنه.

والثلاثون هي ليالي ذي القعدة صارت ثلاثين لا تسعة وعشرين، أمره بصومها فصام لياليها وأيّامها لا لياليها فقط بأمر الله، على أن يعطيه التوراة ويكلّمه على تمامها، ولَمَّا تمّت كره أن يلقى الله بريح فم الصوم فمضغ شيئا من نبات الأرض أو تسوَّك بعود خرنوب، أو أكل من ورق الشجر، فقال الملائكة: كنَّا نشمُّ من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، وفي قولهم: كنَّا نشمُّ تفسير لِمَا روي «أنّه أوحى الله إليه لا أكلّمك حتّى يعود فوك إلى ما كان إليه أما علمت أنَّ ريح فم الصائم أحبُّ إليَّ — أي إلى ملائكتي — من ريح المسك» ، وأمره بصوم عشرة من ذي الحجَّة آخرها يوم العيد كما قال:

﴿وَأَتْمَمْنَاهَا﴾ أي الثلاثين، زدنا عليها ما يتمُّ به شأنها، فلا يقال: هي تامَّة في نفسها بعددها فكيف يتمُّ عددها، أو أتممنا المواعدة المعلومة من «وَاعَدْنَا» ﴿بِعَشْرٍ﴾ بليال عشر، صامها ليلا ونهارا، أقدره على ذلك في أربعين يوما، أو كان يفطر عند الغروب فقط، والوصال مباح للأنبياء خَاصَّةً، أو مع أممهم السابقة، وشاركهم الصحابة أوَّل الأمر ثمَّ نسخ جوازه لغير النبيء ﷺ.

﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ الميقات: ما قدِّر فيه عمل، والوقت ما وقِّت لشيء قدِّر أو لم يقدَّر ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي بالغا أربعين ليلة، أو حال كون ميقاته أربعين، أو ظرف على تأويل أنَّ كُلَّ جزء من الأربعين به التمام، إذ لو لم يكن لم يحصل التمام.

(نحو) وزعم بعض أن «أَرْبَعِينَ» حال إذ ناب عن الحال وهو «بالغا»، وردَّه أبو حيَّان بأنَّ مفعول الحال لا يسمَّى حالا، [قلت:] وردُّوا عليه تعصُّبا بأنَّ النحاة يسمُّون معمول العامل باسم العامل، كما يسمُّون الظرف خبرا وهذا خطأ، والصواب مع أبي حيَّان، لأنَّ الظرف يسمَّى خبرا لتضمُّنه معنى الخبر الاستقراريِّ، وإذا حذف المنعوت المخبر به فإنَّما يطلق على النعت أنَّه خبر، لأنَّه جيء به على معنى الإخبار به، وهكذا... ولا أنَّ أربعين بمعنى بالغا، إلاَّ من لم يبلغ العقد وآخرها يوم العيد.

أو ﴿ثَلاَثِينَ﴾: ذو الحجَّة تَمَّت بعشر من محرَّم آخرها يوم عشوراء، فكلَّمه الله آخر يوم عيد الأضحى، أو آخر يوم عشوراء، وعده الله أن يهلك فرعون ثمَّ ينزل عليه كتابا فيه ما تفعل بنو إسرائيل وما تذر، فأمره الله ﷻ أن يصوم الأربعين، كما أجمل في سورة البقرة وفصَّل هنا بثلاثين وعشر، وقيل: الثلاثون للتقرُّب، والعشرة لإنزال التوراة، وللكلام في الجزء الأخير منها أو بعد تمامها، وفيها وقعت قصَّة العجل. وما نزل في العشرة أو آخرها أو بعد تمامها صحَّ أنَّه نزل في الأربعين أو بعد تمامها، ولكن خصَّت العشرة بالإنزال لأنَّها أعدَّت له ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ﴾ حين ذهب إلى الطور للمناجاة ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ قم فيهم مقامي بالأمر والنهي والتعليم، وهذا يدلُّ أنَّ موسى أصل في النبوءة لهارون قُوَّةً وسبقا، لأنَّه أضاف القوم لنفسه، وجعل هارون عليه السلام تبعا له، وهارون رسول من الله ﷻ استقلالا ورسول من موسى تبعا وخلافة.

﴿وَأَصْلِحْ﴾ أمورَهم ولا تترك فيهم فسادا، واحملهم على عبادة الله ﷻ، أو لا مفعول له، أي كن ذا إصلاح فيهم دواما ومواضبة ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ اَلْمُفْسِدِينَ﴾ ذمٌّ على عدم اتِّبَاع سبيلهم في الإفساد والدعاء إليه.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾ يوم الخميس يوم عرفة كلَّمه الله فيه، وأعطاه التوراة صبيحة يوم الجمعة يوم النحر أو ذلك يوم عاشوراء ﴿وَكَلَّمَهُ, رَبُّهُ﴾.

(قصص) صيَّر الله الأرض مظلمة مع الطور سبعة فراسخ، أو أربعة من كلِّ جهة حين جاء للمناجاة، وطرد شيطان موسى وهوام الأرض ونحَّى ملكيه وكشط السماء ورأى العرش والملائكة عابدين لله في الهواء، وسمع صرير أقلام الملائكة، وكلَّمه الله ولم يسمع جبريل مع أنَّه معه، أنشأ الله له كلاما وسمعه من كلِّ جهة وفي جميع جسده خلقه الله في ذلك، أو حيث شاء من الهواء، أو من الشجر، أو من الأرض، أو من الجبل، فسمعه حروفا وأصواتا. وروي أنَّه كلَّمه باثني عشر مائة لغة، ولم يفهم حتَّى كلَّمه بلغته، وأوَّل ما كلَّمه به لغة البربر وذلك ألف ومائتا لغة. ويروى كلَّمه بألف لغة وكان يصف كلامه تعالى بالرعد القاصف مع حلاوته له عليه السلام وعدم صعوبته، وقد قال أبو منصور الماتريدي: إنَّه خلق له الكلام في الشجرة. وروي سمع صرير الأقلام بالكلمات العشر، وأنَّ ذلك كلَّه أوَّل يوم من ذي الحجَّة.

(أصول الدين) ولا تقل: سمع كلامه القديم وهو صفة أَزَليَّة بلا صوت، لأنَّ القديم لا ينتقل، ونحن لا نثبت الكلام القديم النفسيَّ بل كلامه تعالى خلق الكلام، أو نفي الخرس، أو إيحاؤه.

ولم يختصَّ بإذنه ليعلم أنَّه من الله ﷻ لا من شيطان، كما روي أنَّ إبليس غاص من بعيد حتَّى خرج بين رجليه، فقال له: إنَّ مكلِّمك

شيطان، وعلم موسى أنَّه من الله لسمعه من كلِّ جهة وبجسده كلِّه، ومن ذلك كان على وجهه مثل شعاع الشمس فغطَّاه ببرقع إذ لا يقدر أحد أن ينظر إليه، وقالت زوجه: لم أر وجهك منذ كلَّمك ربُّك، فكشفه لها فأخذها مثل شعاع الشمس، فوضعت يدها على وجهها، وخرَّت ساجدة وقالت: ادع الله أن أكون زوجك في الجنَّة قال: ذلك إن لم تتزوَّجي بعدي، فإنَّ المرأة لآخر أزواجها.

﴿قَالَ﴾ على لسان الذاهبين معه وقيل: هو من قول موسى على ظاهره ﴿رَبِّ﴾ ياربِّ ﴿أَرِنِي﴾ نفسك ﴿أَنظُرِ اِلَيْكَ﴾ أي أراك، أي: اظهر لي أرك، أو قوِّني على أن أراك، ولو لم تظهر لي، أو أزل مانع الرؤية أنظر إليك.

(أصول الدين) ويقال: لَمَّا استحلى ما سمع من الكلام هاج به الشوق إلى طلب الرؤية مع علمه بأنَّها لا تكون في الدنيا ولا في الآخرة، لأنَّ ما نَفْيُه مدحٌ لا يختصُّ انتفاؤه بزمان، ولأنَّ المرئيَّ جسم في جهة مركَّب متلوِّن، والله منزَّه عن ذلك، فإذا ادُّعِيَ أن يُرَى بلا كيف فذلك تناقض، ونفس الإدراك ممنوع، فإذا رُئِيَ فقد أدرك، ولو كان ذلك لا بكيف ولا يقدر على وصفه، وانتفاء الرؤية ذاتيٌّ، كما أنَّ انتفاء الشِّبه ذاتيٌّ، وما هو ذاتيٌّ لا يتخلَّف بالدنيا والآخرة، ولا يخفى أنَّ قِدَمَه تعالى ينافي مباشرة الحادث، وَإِلاَّ كان حادثا، أو الحادث قديما، وكلا الأمرين باطل، ومعلوم أنَّ القديم لا تحلُّ به صفة الحادث، والمخالف للحوادث لا تدركه الحوادث.

﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ لم يقل: لن تنظر إِلَيَّ إمَّا لأنَّ النظر هنا إمَّا نفس الإدراك بالعين فذلك رؤية، وإِمَّا توجيه الحدقة إلى جانب المرئيِّ وغايتها حصول الرؤية، فَذَكَر الرؤية، وموسى منزَّه عن ذلك، بل قاله أصحابه. ونفي الرؤية مدح فلا يختصُّ موسى بانتفائها، وَإِنَّمَا خصَّ بالذكر لأنَّه

طلبها بإفراد نفسه فأجابه على الإفراد، فقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾ و لم يقل: لم أُرَ[١] بالبناء للمفعول على صيغة العموم.

ولا يقال: لو كان الطلب منهم لبيَّن لهم أنّهم أخطأوا، لأَنـَّا نقول: أنكر عليهم، كما أنكر عليهم إذ قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَهًا﴾ ولَمَّا تمادوا على طلب الرؤية أراد النصَّ من الله لهم، جمعا بين ما عنده من الدليل العقليِّ وما يطلبه من الدليل السمعيِّ، بل لو طلبها لعدم علمه بانتفائها لم يلزم شيء، لأنـَّه يطلب العلم من الله سبحانه والنبوءة لا تتوقَّف على العلم بجميع الأصول مرَّة، قاله الحسن البصريُّ، ولا يقال: لو كان السؤال لهم لقال: أرهم ينظروا إليك، وقال: لن يروني لأنـَّا نقول: تكلَّم بصيغة نفسه عنهم، لأنّه إذا مُنِع الرؤية فأولى أن يُمْنعوها، ومنْعُ موسى منعٌ لهم لاستحالتها، كأنّه قيل: لست مِمَّن يُرَى كيف يُحَسُّ الحادثُ القديمُ.

﴿وَلَكِنُ انظُرِ اِلَى اَلْجَبَلِ﴾ جبل زبير، وهو أعظم جبل بمدين وهو طور سيناء ﴿فَإِنِ اِسْتَقَرَّ مَكَانَهُ,﴾ مع ظهور آية له ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ هو لا يستقرُّ له ولا يطيق، وهو أقوى منك فكيف تطيق مع ضعفك؟ فأَحْيَى الله الجبل وجعل له العقل وأظهر له آية فلم يستقرَّ كما قال:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ ظهر بظهور آية وظهروه ظهور آية له، قيل: أظهر له من نور عرشه «قدر نصف أنملة الخنصر»، رواه الحاكم حديثا[٢]، وقال الضحَّاك: «مثل منخر الثور من نور الحجاب»، والحجاب: جسم

١- لَعَلَّ الأصوب: «لن أُرَى».

٢- رواه الحاكم في **المستدرك** (٣٢٦) تفسير سورة الأعراف، ج٢، ص٣٥١، رقم ٣٢٤٩، من حديث أنس.

مخصوص ليس الله حالاً فيه كالعرش والكرسيِّ ليس الله فيهما، وعن عبد الله بن سلاَّم وكعب الأحبار: «مثل سمِّ الخياط»، وعن سهل بن سعد: «قدر الدرهم». ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مدكوكا، أو نفس الدكِّ مبالغة: دقيق الأجزاء كالتراب، أو سوِّي بالأرض، أو جعله كسرا، وقد قيل: جعله جبالا صغارا ستَّة: أحدا وورقاء ورضوى بالمدينة، وثورا وتبيرا وحراء بمكَّة، وذلك كلُّه لنور خلقه الله فكيف لو بدا الله جلَّ عن صفة الخلق! ﴿وَخَرَّ﴾ سقط، يطلق ولو بلا صوت، وخصَّه بعض بما له صوت لجريه في الهواء كالحجر الساقط من عال، وعليه فإطلاقه استعارة، أو مجاز الإطلاق والتقييد. وذلك يوم عرفة وإعطاء الكتاب يوم النحر ﴿مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مغشيًّا عليه، سكران لهول ما رأى من حال الجبل، وما نزل على الجبل من النور، وما يروى أنَّه حين صعق لكزته الملائكة بأرجلها، وقالوا: أتطمع في رؤيته يا ابن النساء الحيَّض، أظنُّه **كلاما وضعته اليهود كذبا.**

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من صعقه ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أسبِّحك عن أن ترى، وعن صفات الخلق دائما بلا انقطاع تسبيحا ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من سؤال الرؤية عن قومي بلا إذن ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُومِنِينَ﴾ من بني إسرائيل بما أوحيت بأنَّك لا ترى، وأنَّ صفات الخلق لا تليق بك، ومنها رؤيتك في الدنيا أو الآخرة. وكلُّ ما أوحي إلى نبيء من الأنبياء فذلك النبيء هو أوَّل من يؤمن به مِمَّن معه أو بعده، وذلك من حيث إنَّهُ موحى إليه به، ولو علم قبله أو علم بعده بدونه ودون وسائطه.

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ﴾ تسلَّ عمَّا أصابك من الصعق وغيره ممَّا تكره، بإرسالِيك وبكلامي، كما قال: ﴿إِنِّي اِصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ ناس زمانك المؤمنين المخلصين، كما أنَّ قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُم عَلَى العَالَمِينَ﴾(سورة البقرة: ٤٧)

مراد به ناس زمانهم لا كلٌّ من يجيء ولا الملائكة إلاَّ ما فيه تفضيل[1]، وأمَّا الملائكة فلهم كلام الله بلا واسطة تارة وبها أخرى، وبعض بها وبعض بدونها. وقيل: سمعه السبعون معه لأنّهم أحضروا ليخبروا ولَمَّا سمعوه طلبوا أن يرى الله سبحانه فيروه معه، وعن ابن عبَّاس قعدوا أسفل الجبل وصعد ولم يسمعوا.

﴿بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾ لك بلا واسطة ملك، أمَّا هارون عليه السلام فتبع له لا مختصٌّ بكتاب ولا متكلّم له، وشرعه شرع موسى، والرسل كلُّهم شاركوه في الرسالة لكن زاد عليهم بكلام الله عز وجل بلا واسطة.

وقد كلَّم الله عز وجل وتعالى سيِّدنا محمدًا ﷺ بلا واسطة، والقرآن ناطق بأنَّ هذه الأمَّة خير أمَّة فما نبيئها إلاَّ خير الأنبياء، وليس موسى أعظم من إبراهيم لكن قد يُؤتى المفضول ما لم يؤتَ الفاضل، قال الله سبحانه: «يا موسى إنّما كلَّمتك لأنّي لم أخلق خلقا تواضع إليَّ تواضعك». والرسالة: الإرسال، أو نفس ما أرسل به، أو المراد: تبليغ رسالتي. والكلام: التكليم، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(سورة النساء: ١٦٤)، أو التوراة، كما يسمَّى القرآن كلام الله تسمية بالمصدر، ومعلوم أنّه لم يؤت رسول كتابا مثل التوراة إلاَّ القرآن فإنّه أفضل بإذن الله وحاكم عليها.

وقدَّم الرسالة على الكلام لأنّها أسبق، أو ليترقَّى الكلام إلى الأشرف، فإنَّ التوراة أو التكليم أعلى من باقي الوحي إليه. وأعاد الباء تنبيها على مغايرة الكلام للرسالة

(من مناجاة الله لموسى) قال ابن عبَّاس: قال رسول الله

١- كذا في النسخ المعتمدة.

ﷺ: «ناجى موسى ربُّه بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيَّام، كلُّها وصايا» فكان فيما ناجاه : ياموسى «لم يتّصف المتّصفون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرَّب المتقرِّبون بمثل الورع عمَّا حرَّمت عليهم، ولم يتعبَّد المتعبِّدون بمثل البكاء من خيفتي، أمَّا الزاهدون في الدنيا فأبيحهم جنّتي حتّى يتبوَّءوا فيها على أطيب عيش وأرغده، وأمَّا الورعون عمَّا حرَّمت عليهم، فإذا كان يوم القيَّامة لم يبق عبد إلاّ ناقشته الحساب إلاّ الورعين فإنّي أجلُّهم وأكرمهم وأدخلهم الجنّة بغير حساب، وأمَّا الباكون من خشيتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه، وأحبُّ الأعمال إليَّ ذكري، والأتقى: الذي يذكرني ولا ينساني، والأغنى: الذي يقنع بما يؤتى، والأفضل: الذي يحكم بالحقّ ولا يتَّبع الهوى، والأعلم: الذي يطلب علم الناس إلى علمه لعلّه يسمع كلمة تدلُّه على هدى أو تردُّه عن ردى، والأحبُّ إليَّ عملا: الذي لا يكذب لسانه، ولا يزني فرجه، ولا يفجر قلبه، ويليه قلب مؤمن في خلق حسن، والأبغض: قلب كافر في خلق سيِّئ، ويليه جيفة بالليل بطّال بالنهار. اذكرني ياموسى بـ"لا إله إلاّ الله" اذكرني بـ"لا إله إلاّ الله"، لو أنَّ السماوات والأرضين وما فيهنَّ في كفّة و"لا إله إلاّ الله" في كفّة مال بهنَّ "لا إله إلاّ الله"».

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ من الفضل المطلق، والرسالة والتوراة والكلام ﴿وَكُن مِّنَ اَلشَّاكِرِينَ﴾ لنعمي، قال موسى: يا ربّ دلّني على عمل أشكرك به، فقال تعالى: «قل: "لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير"، لو أنَّ السماوات السبع والأرضين في كفّة وهذا الذكر في كفّة لمال بهنَّ».

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي اِلاَلْوَاحِ﴾ عشرة ألواح، أو تسعة، أو سبعة، أو اثنان، طول اللوح: عشرة أذرع، أو اثنا عشر من خشب، أو سدر الجنّة، أو ياقوت

أحمر، أو من زمرد، أو زبرجد، أو من صخرة ليَّنها الله ﷻ له فقطعها بإصبعه، أو التوراة حمل سبعين بعيرا يقرأ الجزء في سنة، لم يحفظها إلاَّ موسى ويوشع وعزير وعيسى. قال الحسن: «هذه الآية في التوراة بألف آية».

وكتابة التوراة في الألواح خلقٌ من الله، أو المكتوب في الألواح غير التوراة، كما قال البيضاويُّ: «أو غيرها»، ويبعد أن يريد أو غير تلك الأقوال. ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ محتاج إليه في دينهم، وقيل: بأعمَّ من ذلك، حتَّى إنَّ كعبا بلغ صفِّين ونظر ساعة واقفا فقال: لَيُرَاقَنَّ بهذه البقعة من دماء المسلمين ما لم يهرق في بقعة، وقال: إنَّ ذلك في التوراة، ولعلَّه استخراج ورمز. و«مِنْ» متعلِّق بـ«كَتَبْنَا» وهي للابتداء، أو بمحذوف حال من قوله: ﴿مَوْعِظَةً﴾ مفعول «كَتَبْنَا»، أي موعظة عظيمة من كلِّ نوع، والمراد بالشيء: النوع، وهذا معنى كبير ﴿وَتَفْصِيلاً﴾ تبيينا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ محتاج إليه.

﴿فَخُذْهَا﴾ أي فقلنا له: خذها. و«قُلْنَا» معطوف على «كَتَبْنَا»، ويجوز أن يعتبر الخطاب في «لَهُ»، أي وكتبنا لك، فلا يقدَّر: «قلنا»، و«هَا» عائد للألواح، أو لـ«كُلِّ شَيْءٍ»، لأنَّه بمعنى الجملة أو الجماعة، كأنَّه قيل: وتفصيلا للأشياء، أو للموعظة، أو للرسالة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ وعزم، حفظا وفهما وعملا ودرسا وتعليما.

﴿وَاٰمُرْ قَوْمَكَ﴾ وكلَّ من أمكن لك، وخصَّ القوم بالذكر لأنَّه أحقُّ للنسب والجوار، ولأنَّ التوراة مطلوبة لهم وفخر لهم، أو القوم: الأمَّة ﴿يَاخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي يتمسَّكوا بأحسنها، وقيل: الباء صلة في المفعول به، وقيل: هو محذوف، أي يأخذوا أنفسهم بما هو أفضل فيها، انتقالا عن الجائز إلى ما هو خير منه على طريق الندب، كالعفو بدل القصاص، والصبر بدل الانتقام، وصدقة النفل بدل الإمساك، وقيام الليل بدل النوم،

وكلٌّ ذلك حسن يأخذوا بالأحسن فيه، ومعنى حُسْنِ النوم أنَّه مباح لا قبيح حرام، أو الأحسن: الواجب والمندوب والحسن: المباح، أو الأحسن: الحسن وكلُّها حسن، أو الناسخ، أو أن يحمل ما احتمل معنيين أو معاني على ما هو أقرب إلى الحقِّ وأحوط.

أو المراد: الزيادة المطلقة، وهي المأمور به، فَإِنَّهُ أبلغ في الحسن من المنهيِّ عنه في القبح، ومرتبة حسن المأمور به أعلى من مرتبة قبح المنهيِّ عنه، وهذا راجع إلى التفضيل بـ«مِنْ»، كأنَّه قيل: المأمور به أحسن من المنهيِّ عنه، كما تقول: العسل أحلى من الخلِّ، والصيف أحرُّ من الشتاء، أي أبلغ في الحلاوة من الخلِّ في الحموضة، وأبلغ في الحرِّ من الشتاء في البرد، ولِحَرِّ الصيفِ حدَّةٌ ولبرد الشتاء حدَّةٌ وحدَّةُ حرِّه أشدُّ من حدَّة برد الشتاء، ولحلاوة العسل حدَّةٌ ولحموضة الخلِّ حدَّة وحدَّة حلاوته أشدُّ من حموضة الخلِّ؛ أو أحسن خارج عن التفضيل، أي بحسَنها ـ بفتح السين ـ وهو الواجب والمندوب والمباح، ومقابله القبيح وهو المعاصي وما يقرب منها.

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ اَلْفَاسِقِينَ﴾ فرعون وقومه، و«الـ» للعهد، ودارهم: مصر القاهرة وأعمالها، والمراد بإراءتها إراءتها خاوية لتعتبروا فلا تفسقوا، فخاوية مفعول ثالث للإراءة العِلمِيَّة، أو إدخالها بالإرث على أنَّ الإراءة بصريَّة كما قرئ: ﴿سَأُورِثُكم﴾، وكما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ...﴾(سورة الأعراف: ١٣٧) وكما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾(سورة الشعراء: ٥٩).

فهذا وعد للمؤمنين رجعوا من الشام إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، فورثوا ما فيها من الجنَّات والعيون والكنوز والمقام الكريم، وضعف القول بأنَّهم لم يرجعوا، أو أنَّه ملكها غيرهم، أو ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: منازل المهلكين، كعاد وثمود لتعتبروا فلا تفسقوا، أو ديار الجبابرة والعمالقة بالشام تملَّكها بنو إسرائيل، أو دارهم: جهنَّم، أخبر بني إسرائيل لينزجروا، ويردُّهما قراءة:

﴿سَأُورِثُكُم﴾ لأنَّهم لم يورثوا منازل عاد وثمود ونحوهم، ولا يورث المؤمنون جهنَّم، وقد قيل: رجع يوشع من الشام إلى مصر بعد موت موسى عليهما السلام، وقيل: دخلها موسى ومقدِّمته يوشع، والخطاب لموسى وقومه تغليبا على غيبة قومه، وهذا أولى من أن يقال: هذا على طريق الالتفات عن الغيبة في «يَاخُذُوا بِأَحْسَنِهَا» إلى الخطاب، وأنَّ الكاف لقومه، وأنَّ الأصل: سأريهم دار الفاسقين.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

عقوبة التكبُّر عن فهم أدلَّة العظمة الإلهيَّة

﴿سَأَصْرِفُ﴾ بالطبع على القلوب فلا يعتبرون ﴿عَنَ ـ ايَاتِي﴾ آيات التوراة وسائر وَحْيِي أو دلائلي في الآفاق كالسماوات والأرض وما فيهما، أو سأصرف عن إبطال آياتي ولو اجْتُهِدَ في إبطالها كما فعل فرعون ﴿الذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ من كفَّار قريش، أو من الكُفَّار مطلقا ﴿فِي الاَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي بدينهم الباطل، أو حال كونهم بغير حقٍّ تأكيدا، لأنَّ التكبُّر لا يكون بحقٍّ ،أو بغير حقٍّ في علمهم أنَّهم غير محقِّين، أو احترز عن التكبُّر بحقٍّ كاعتقاد الإنسان رفعة رتبته بكونه على الهدى بلا تسفيه حقٍّ ولا تحقير خلق، وكالتكبُّر على الفسَّاق لله لا للنفس. والكلام مع موسى، أو مع رسول ا لله صلى ا لله وسلم عليهما.

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُومِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَّرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ عطف على «يَتَكَبَّرُونَ»، أي الذين من صفتهم التكبُّر بغير الحقِّ، وانتفاء الإيمان بكلِّ آية رأوها، وانتفاء اتِّخَاذ سبيل الرشد سبيلا، وثبوت اتِّخَاذ سبيل الغيِّ سبيلا. والرشد: الهدى، والغيُّ: الضلال.

والآية: تشمل الآية المنزَّلة والمعجزة، فالرؤية المشاهدة بالسمع أو البصر من عموم المجاز لا من الجمع بين الحقيقة والمجاز، والمعنى: وإن يشاهدوا كلَّ آية لا يؤمنوا بها، على نفي العموم، فقد يؤمنون ببعضها لكن لا ينفع الإيمان بالبعض، أو على عموم النفي لأنَّهم ولو آمنوا ببعض لكن لاينفع، ولا يحقّقون ما آمنوا به، فكأنَّهم لم يؤمنوا، والظاهر الأوَّل ولو كان الثاني ملائما للطبع، وقيل: المراد الآية المنزَّلة، ويدلُّ له قوله سبحانه: ﴿وَإِن يَّرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ والموعظة ممَّا يجب أن يرجع إليه في كلِّ أمر يذكر به كما كثر في أكثر الفواصل نحو: ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وانظر سورة الرحمن كيف وقع فيها التكرير ليستأنف السامع ادّكارا واتّعاظا، ويجدِّد تنبيها واستيقاظا.

﴿ذَالِكَ﴾ أي صرفي إيَّاهُم عنها ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي ثابت بأنَّهم ﴿كَذَّبُواْ﴾ أي بتكذيبهم ﴿بِئَايَاتِنَا﴾، أو مفعول مطلق، لأنَّه إشارة إلى الصرف لا صرف، أي سأصرف عن آياتي ذلك الصرف ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي وبكونهم غافلين عنها، فذلك عطف، ولا تثبت واو الاستئناف. والغفلة: الإعراض عن الشيء بلا عَمْدٍ شبِّه به الإعراض عنه عمدا ﴿وَالذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا وَلِقَآءِ الاَخِرَةِ﴾ أي الدار الآخرة وهي البعث، أو بآياتنا ولقاء جزاء الآخرة ﴿حَبِطَتَ اَعْمَالُهُمْ﴾ أعمالهم الحسنة، كصلة رحم، وصدقة، وفكِّ العاني، وإطعام الجائع، وسائر مكارم الأخلاق، وذكر الله والتلبية، ونحو ذلك من فرض ونفل، لا

ثواب لهم. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من التكذيب بالآيات وسائر الضلال، أي إلاّ عقاب ما كانوا يعملون، أوما كانوا يعملون هو الجزاء، تسمية للمسبِّب باسم السبب، وقيل: تُجسَّم أعمالهم فيعذَّبون بها وهو خطأ.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

قصَّة اتـِّخاذ السامريّ العجل وموقف موسى منه

﴿وَاتَّخَذَ﴾ صاغ ﴿قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد ذهابه إلى الطور للمناجاة، وأخذه العهد منهم أن لا يحدثوا في الدين ولا يشركوا. و«مِنْ»

للابتداء، وقيل: زائدة بخلافها في قوله: ﴿مِنْ حُلِـيِّهِمْ﴾ فإنّها فيه للتبعيض لا لمعنى واحد، فصحَّ تعلُّقهما بعامل واحد بلا تبعيَّة، مع جواز تعلُّقه بمحذوف حال لقوله: ﴿عِجْلاً﴾ ولو نكرة لتأخُّره.

(صرف) والأصل حُلُوْيٌ بضمِّ الحاء واللام وإسكان الواو والإعراب على الياء، قلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء، جمع حَلْي بفتح فإسكان، وهو ما يتزيَّن به من ذهب وفضَّة وغيرهما، استعاروه بأمر الله حين أرادوا الخروج من مصر قبل غرق فرعون وأبقاه الله ﷻ ملكا لهم، وليس غنيمة لأنَّه بلا قتال، ولا تحلُّ لهم الغنائم، وقيل: استعاروه لعرس وأحلَّ الله ﷻ أن يملكوه بعد غرق فرعون وقومه، كما ورثوا أرضهم وسائر أموالهم وأضافه إليهم لملكهم إيَّاهُ بعد الغرق. والعجل: ولد البقرة.

﴿جَسَدًا﴾ مستقلاًّ لا صورة منقوشة في الحائط، بدلا من «عِجْلاً» لا نعت، لأنَّه جامد غير مؤوَّل بمشتقٍّ، إلاَّ أن يسوغ ذلك بجعله له نعتا رافعا لـ«خُوَار» على الفاعليَّة، فيكون من النعت الجامد لوصفه بمشتقٍّ، أي جسدا ثابتا له خوار، كقوله ﷻ: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾(سورة مريم: ١٧) وأجاز بعضهم عطف البيان في النكرات.

﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ صوت البقر يخور ويمشي عند السدِّيِّ، أو يخور ولا يتحرَّك عند وهب، وقيل: يمشي، وكان لحما ودما، وإذا خار سجدوا له حتَّى يسكت، وقيل: خار مرَّة واحدة ذبحه موسى عليه السلام، والذبح دليل اللحم والحياة، وكذا الخوار، وحرَّقه وألقاه في البحر.

(قصص) صوَّره السامريُّ من الحليِّ، وكان حدَّادا مطاعا في قومه، وألقى فيه أو في فمه من تراب أثر فرس جبريل حين رأى أثره ينبت في الحين،

وقد سأله قومه إلها يعبدونه، وقيل: وقعت فيه قُوَّة من جبريل وهو روح الحياة فحيي، وذلك بأمر الله لا كلّما مرَّ بشيء، وإنّما شاهد أثر الفرس حين جاء جبريل على صورة فرس أنثى ليتبعه خيل فرعون وقومه، وكانت ذكورا فيغرقوا، وأمسكه عنده أو كان ذلك عند ذهابه إلى الطور مع موسى، وظاهر ذلك أنَّه عندهم إله مستحدث لا ما قيل إنَّهم من أهل الحلول، ادَّعوا حلول الله في تلك الصورة، وإنّهم لذلك قالوا: ﴿وَإِلَهُ مُوسَى﴾(سورة طه: ٨٨) وإنّما قالوه توهُّما، أو خداعا. وقيل: الخوار مجاز صوريٌّ وكذا العجل جعل في جوفه أنابيب على شكل مخصوص موجَّه للريح فيخرج منه صوت كصوت البقر، وليس لحما ودما وهو قول جمهور المعتزلة، ولو كان ذلك لَمَا احتاج إلى أثر الرسول، إلاّ أن يقال: أحدث فيه أثر الرسول صوتا كصوت البقر بلا حياة، ولا انقلاب لحما ودما، ولا حاجة إلى أنابيب.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ اَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ﴾ كما يتكلّم الإنسان وكما كلّم موسى ربَّه ﴿وَلاَ يَهْدِيهِمْ﴾ كما يهدي الإنسان آخر، وكما هدى الله قوم موسى ﴿سَبِيلاً﴾ مستأنف للتعجيب منهم ومن إخلالهم في النظر، ومن ضلالهم إذ جعلوه إلها، وعبدوه حتّى إنَّهُ يلزم على ذلك أنّه خالق للأجسام والأعراض، مع أنَّه لا يوجد منه كلام إلاّ الخوار ولا يرشدهم لسبيل.

﴿اِتَّخَذُوهُ﴾ صاغوه من الحليِّ، فهو تأكيد لِمَا سبق ذمًّا لهم، أو اتَّخذوه إلها ﴿وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ عطف، أو حال، أي: ومن شأنهم الظلم بالذنوب لأنفسهم ولغيرهم، فلم يكن ذلك بدعا فيهم، والظلم أيضا: النقص من الحقّ، وأيضا: وضع الشيء في غير موضعه.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ نائب فاعل «سُقِطَ»، والفاعل العضُّ أو الفم أو الأسنان، ومن شأن النادم عضُّ يده، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾(سورة

الفرقان: ٢٧) أو التقليب ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾(سورة الكهف: ٤٢) أو الرأس ومن شأن النادم وضع وجهه أو ذقنه على يده، أو الندم أو الخيبة، وخصّت اليد لوقوع أثر الندم عليها، ولأنّها المباشرة للأعمال غالبا، حتّى أنّه يسند إليها ما لم تباشر، أو اليد بمعنى النفس.

(لغة) ومن ندم على أمر وعجز قيل له: سقط على يده، أو في يده، و«في» على ظاهرها، أو بمعنى على ، ولم يسمع قبل القرآن: سقط في يده، أو في أيديهم أو نحو ذلك، وهو لا يتصرّف في معنى الندم لا يقال: مسقوط في يده أو يسقط في يده بالبناء للمفعول، أو للفاعل على معنى الندم، أو ساقط في يده كذلك أو نحو ذلك من التصاريف، وذلك استعارة تمثيليّة شبّه حال الندم في النفس بحال الشيء في اليد.

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ علموا أنّهم قد ضلّوا باتّخاذ العجل، أو عبر عن العلم برؤية العين مبالغة في ظهور ضلالهم المعقول حتّى كأنّه محسوس للمسارعة إلى بيان حصوله، وللإشعار بسرعته كأنّه سابق على الرؤية، ولأنَّ الانتقال من الجزم بالشيء إلى تبيُّن الجزم بالنقيض يكون في الغالب إلى الشكّ، ثمَّ الظنّ بالنقيض ثمَّ الجزم به ثمَّ تبيُّنه.

والقوم جازمون بأنّهم على صواب، وكان ندمهم المعبّر عنه بقوله ﷻ: ﴿سُقِطَ﴾ بعد رجوع موسى، وقدَّمه على ذكر رجوعه ليتّصل ما قالوا بما فعلوا، وأخّر قوله ﷻ: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الندم مع أنّه مُقدَّم إذ هو سبب الندم، لأنّه علّة لقوله: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ والمقصود هو المعلول فقدَّم المقصود، ولأنَّ الندم هو السبب لطلب المغفرة فيقدَّم، وهي في قوله ﷻ:

﴿قَالُوا﴾ لله وبعض لبعض ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوبة علينا

وهو توفيقه لنا إليها وقبولها ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بعدم العقاب، وقدَّم التوبة لأنَّ التخلية قبل التحلية، وقبولها مقدَّم على المغفرة وسبب لها، وقدَّم الرحمة مع أنَّها تحلية على المغفرة مع أنَّها تخلية مسارعة إلى ذكر ما هو المقصود الأصليُّ بالذات وأنَّها سبقت غضبه تعالى، ولأنَّ الرحمة مبدأ لإنزال التوبة المكفِّرة لذنوبهم ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دنيا وأخرى، كما قال آدم وحوَّاء: ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ...﴾(سورة الأعراف: ٢٣).

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ﴾ من المناجاة ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ﴾ عليهم لعبادتهم العجل، وقد أخبره الله في المناجاة، أو في الرجوع قبل الوصول ﴿أَسِفًا﴾ حزنًا، أو شديد الغضب، وليسا بمعنى واحد، كرِّر للتأكيد، كما قيل: وإذا أصبت بمن فوقك حزنت أو بمن تحتك غضبت، فهو حزن لله سبحانه، غضبان على قومه ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِي﴾ لإشراككم، والمراد: من بعد غيبتي، أو توحيدي وإخلاصي العبادة لله ﷻ.

(نحو) و«مَا» واقعة على الخلافة: اسم موصول، أو نكرة موصوفة، والرابط مفعول مطلق محذوف، أي بئس الخلافة التي خلفتمونيها، أو بئس خلافة خلفتمونيها، والمخصوص بالذمِّ محذوف، أي خلافتكم هذه، أو الفاعل مستتر، و«مَا» نكرة موصوفة تمييز، أو مَصدَرِيَّة، والمصدر تمييز أو فاعل.

والخلافة: بقاؤهم خلفه، أو كونهم خلائف في فعل ما يفعله، وقول ما يقول، ومن حقِّ الخلفاء أن يسيروا بسيرة مستخلفهم، ولا يتكرَّر قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِي﴾ مع قوله: ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ لأنَّ معنى الخلافة أن يقوموا مقامه في التوحيد والعدل وإبطال الشرك، ومعنى البعديَّة ذهابه عنهم إلى المناجاة. والخطاب للكفرة منهم إذ عبدوا العجل، أو المعنى قمتم مقامي، فالخطاب لهارون والمؤمنين معه إذ لم يكفُّوا عبَّاد العجل عن عبادته، والخلافة في الحقيقة

لسيِّدنا هارون عليه السلام وغيره من المؤمنين تبع له، وعلى أنَّ الخطاب لـه فقط ظنَّ موسى عليه السلام الظنَّ البشريَّ العاجل الذي لا يؤاخذ عليه، ولا سيما مع عظم الشرك وشدَّة غضبه أنَّ هارون لم يفرغ وسعه حتَّى يمنعهم من الشرك، فلذلك قيل: ﴿بيسَمَا﴾، أو الخطاب للكفرة ولهارون عليه السلام ومن معه، فهم أشركوا وهارون ومن معه قصَّروا فيما ظهر لموسى عليه السلام.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ ضمِّن «عَجِلَ» معنى سبق أو ترك فعدَّاه، أي أسبقتم أمر ربِّكم، أو تركتموه أي شأنه، وهو واحد الأمور، وهو توحيده وعبادته، أو ميعاده، أن يبقوا على الدين حتَّى يأتي بالتوراة على رأس أربعين، في قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أو ثلاثين يوما، ويقال: عدُّوا الليل يوما والنهار يوما فتمَّ عدد الأربعين على عشرين، وقالوا أو قال لهم السامريُّ فتبعوه: إنَّ موسى عليه السلام لم يأتنا وقد مات، أو الأمر ضدُّ النهي، أي أتركتم أمره بالتوحيد والعبادة.

﴿وَأَلْقَى الاَلْوَاحَ﴾ تغلَّبت عليه شدَّة الغضب لدين الله فنسي الأدب مع الألواح فألقاها في موضع ليرجع إليها إذا تفرَّغ، لكن بعنف، فانكسرت فرفع منها سِتَّة أسباع كان فيها تفصيل كلِّ شيء، وبقي سُبُعٌ كان فيه المواعظ والأحكام، وقيل: رفع ما في الستَّة من الإخبار بالغيب لا نفس الألواح، ثمَّ ردَّ ما رفع في لوحين بعد أن صام أربعين يوما أخرى لتردَّ، أقدر الله تعالى موسى على حملها ولو كان وقر سبعين بعيرا.

قال ابن عَبَّاس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«يرحم الله أخي موسى ليس الخبر كالمعاينة»**[1] إنَّ الله تعالى أخبر موسى أنَّ قومه قد ضلُّوا فلم يكسر

١- رواه الهندي في الكنز، ج٢، ص٢٤، رقم ٢٩٩٠. ورواه الحاكم في كتاب التفسير، تفسير

الألواح، ولَمَّا عاين ذلك كسر الألواح، أي ألقاها عمدا مع تغلُّب الغضب لا إهانة، وقيل: وقعت منه بلا اختيار منه لغفلته عنها للغضب، والآية إخبار لنا بما وقع لا تعنيف لموسى فضلا عن أن يقال: لو كان بلا اختيار لم يعاتبه الله تعالى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾ أنَّه أخذ بقيَّتها، أو أخذها كلَّها كما هو ظاهر الآية ما لم يكسر وما كسر، كما روي أنَّ كسورها في تابوت بني إسرائيل إلى زمن داود عليه السلام، وما بعده مع السكينة، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ﴾(سورة البقرة: ٢٤٨). ومرَّ القول بأنَّ الألواح عشرة وغير ذلك.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأس أخيه هارون عليه السلام وهو شعر لحيته كما في "طه"، والقول بأنَّهُ أخذه ليناجيه في شأن القوم ويسائله أو ليسكنه مِمَّا فيه من الغضب، أو أخذه أخذ الإنسان لحيته في غضب غير ظاهر ولا دليل عليه، والجرُّ إليه يدلُّ على العنف وهو المراد، وما ذكر لا عنف فيه، وقوله: ﴿لاَتَاخُذْ بِلِحْيَتِي...﴾(سورة طه: ٩٤) دليل على العنف والعتاب، وكذا قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أي اغفر لي الجرَّ.

﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ توهُّما بأنَّه قصَّر في كفِّهم عن الشرك، وذلك التوهُّم جاءه من شدَّة الغضب لله، ولا يؤاخذ عليه، وكان أكبر من موسى بثلاث سنين، وكان متحمِّلا لجفاء من جفاه ليِّنا، وكان أحبَّ إليهم، وموسى حديد شديد الغضب، ومع شدَّته وحدَّته يحبُّه كلُّ من رآه.

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ يا ابن أمَّ، والأصل: أمِّي قلبت الياء ألفا وحذفت الألف، وجرُّ الإضافة مقدَّر في الميم، أو ذلك كمركَّب مبنيٍّ على الفتح، وهو أخوه لأمِّه

سورة الأعراف، رقم٣٢٥٠/٣٦٧. من حديث ابن عبَّاس.

وأبيه واقتصر على الأمِّ تعطُّفا، ولأنَّ المقام للعجلة ﴿إِنَّ اَلْقَوْمَ﴾ بني إسرائيل الكفرة ﴿اسْتَضْعَفُونِي﴾ وجدوني ضعيفا أو صيَّروني ضعيفا، أو عالجوا ضعفي باجتماعهم عليَّ حتَّى قهروني ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ حين أتيت بمجهودي في كفِّهم عن عبادة العجل ﴿فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ اَلاَعْدَآءَ﴾ أي لا تجعلهم شامتين بي، أي فرحين ببليَّتي التي هي الجرُّ من الرأس المشروع فيه، والشتم باللسان لي. واللفظ نهيٌ عن المسبَّب والمراد: النهي عن السبب، وهو فعل ما يكون سببا لشمتهم، كأنَّه قيل: لا تفعل ما يكون سببا لشمتهم أي لا تبق عليَّ هذا الجرَّ، ولا تزد جرًّا آخر ﴿وَلاَ تَجْعَلْنِي﴾ لا تصيِّرني بالتهمة، أو لا تعتقدني ﴿مَعَ اَلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ في المؤاخذة والتقصير أو الرضا، وقد واخذه بالقول في قوله: ﴿بِيسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُم ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِي...﴾ (سورة طه: ٩٢) ومقتضى الظاهر: «معهم» وأظهر ليصفهم بالظلم.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ جرِّيه إليَّ برأسه، أو ذنوبي كلَّها، فدخل جرُّه إيَّاهُ أوَّلاً وبالذات ﴿وَلأَخِي﴾ ما كان منه من تقصير في كفِّهم، وهذا على التوهُّم، أو ما يمكن أن يكون منه من تقصير، أو ذنوبه كلَّها، فيدخل التقصير أوَّلاً وبالذات، أشركه في الدعاء إرضاء له ودفعا لشماتة الأعداء، وهي من أشدِّ البلايا حتَّى قال شاعر:

.... والموت دون شماتة الأعداء

ولم يقل: «وقال ربِّ اغفر لي» بالواو لأنَّه استئناف بيانيٌّ، ناشئ من اعتذار هارون، كأنَّه قيل: فماذا قال موسى عند اعتذار هارون؟ فقال الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ اِغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾.

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لم يقل: وأدخلني وأخي،

أو أدخلني وإيَّاهُ، كما قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾ لظهور مرجع الضمير، بخلاف الأوَّل فإنَّه لو قال: ربِّ اغفر لنا، لم يصرِّح بأخيه، والقصد: التصريح إرضاء، ودفعا للشماتة، ولإمكانِ توهُّم التعظيم، أو تعميم غير هارون دونه، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ أبلغ من «ارحمنا»، لدلالته على إحاطة الرحمة بهم كأنَّها ظرف لهم، وأنت أرحم بنا منَّا على أنفسنا.

﴿إِنَّ اَلذِينَ اَتَّخَذُواْ الْعِجْلَ﴾ أي «إِنَّهُم»، ووضع الظاهر موضع المضمر، أي إِنَّهُم صاغوه من الحليِّ، أو اتَّخذوه إلها، وفي التوراة: «لا تَتَّخِذُوا الصور المنسوبة للحياة»، ولم يخصَّ النهي بعبادتها. ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ في أنفسهم وأعقابهم، وما ينال العقب كأنَّه نال السلف في التوجُّع، وبالعكس، ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا﴾ هذا من جملة ما أوحى الله إلى موسى عليه السلام حين أخبره بأمر العجل عند الطور، أو في رجوعه قبل الوصول أو بعد الوصول، فالاستقبال باعتبار تلك الأزمنة، لا باعتبار نزول القرآن.

وغضب الله هنا فعل لا صفة، لأنَّه عذابهم في الدنيا والاخرة، إلاَّ أن يقال: سينالهم مقتضى غضبه أي علمه وقضائه، والمراد: القتل لأنفسهم ومن غيرهم، والجزية والجلاء والمسكنة، وعذاب جهنَّم وهوانهم في الدنيا والآخرة، ومن ذلك (لا مساس) ـ قيل ـ وتحريق إِلَهِهم ونسفه في اليمِّ، ولعلَّ تحريقه ونسفه لا يحزنون به لأنه يتبادر أنَّهم لَمَّا زجرهم عليه السلام عنه ثابت إليهم عقولهم، وقد شاهدنا قَضِيَّة (لا مساس) يمد المغربيُّ أو غيره يده إلى يده فيغطي يده بنحو ثوب فيمسُّ بها مطوية يد المغربي[1]، وأقرُّوا أنَّ ذلك لحمَّى تصيبه

١- الظاهر أنَّ الشيخ رحمه الله يشير إلى ما يقع للحجَّاج المغاربة من حجزهم في ميناء رابغ وتبخيرهم وقاية من مرض ربَّما يحملونه، وذلك عندما زار البقاع المقدَّسة (انظر تفسيره لسورة الأحزاب).

بالمسِّ مباشرة.

﴿وَكَذَالِكَ نَجْزِي اِلْمُفْتَرِينَ﴾ أي نجزيهم على هذا الوصف وهو الافتراء بالإشراك، وهو تكرير لذكر فعله بهم، ووصف الشيء غير وقوعه، فليس في ذلك تشبيه الشيء بنفسه، أو المراد: المفترون غير هؤلاء، أو هؤلاء مع غيرهم، إن حيوا وتكرَّر افتراؤهم.

ولا فرية أعظم من قولهم: ﴿هَـٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ﴾، فإنَّ فرعون في عتوِّه لعلَّه لم يقل لقومه هذه الآلهة آلهة لكم ولموسى، وَلَعلَّهُ لم يفتر أحد مثلها قبلهم ولا بعدهم ولا معهم، ووصفهم بالافتراء لا ينافي أنَّهم ماتوا شهداء بقتلهم أنفسهم توبة وطاعة لأمر الله، كما تصف الزاني بالزنى بعد توبته، والقاذف بالقذف بعد توبته، ولو أخرج الحدُّ منهما يزني ويتوب، وترجمه وتجلده فتقول زنى وفعلنا به ذلك، وتقول افترى ولو جُلد، إلاَّ أنَّه ليس كلُّ مفتر على الله يجزى بهذا الجزاء الذي منه قتلهم أنفسهم الذي ظاهره قهر وباطنه لطف، والجواب أنَّ التشبيه في نفس الجزاء لا في خصوص الجزاء.

وقيل: سينال أولاد الذين عبدوا العجل وهم الذين على عهد رسول الله ﷺ، والذلَّة والغضب ما أصاب النضير وقريظة من القتل والجلاء والجزية، أو ذلك من تعيير الأبناء بما فعل الآباء، وقيل: المراد بـ«الذِينَ»: المتَّخذون، وَبِهَاءِ «يَنَالُهُمْ»: أخلاقهم، وبالغضب: الغضب الأخرويُّ، وبالذلَّة: الجزية ونحوها، كما فعل بهم "بُخْتُنُصَّر".

﴿وَالذِينَ عَمِلُواْ﴾ من هؤلاء وغيرهم ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ الإشراك وما دونه ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ بعد عملها ﴿وَءَامَنُواْ﴾ عطف سابق على لاحق، فإنَّ الإيمان قبل التوبة أي ثمَّ آمنوا وتابوا، أو أريد بالإيمان مسبَّبه وهو الثبات عليه والعمل بمقتضاه، أو نزل الإيمان الثابت مع المعاصي أو الشرك منزلة العدم،

فقال: ﴿ثُمَّ تَابُواْ... وَءَامَنُواْ﴾ أي أخلصوا، والمراد بالإيمان هنا في عبارتي مجرَّد التصديق، والتوبة ترك الكفر، ولا يلزم منه الإيمان لإمكان خلوِّ الذهن عنهما، أو بأنَّ الله سبحانه يقبل توبة التائب ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي لغفور لذنوبهم، مُنْعِمٌ عليهم من بعد السيِّئات لتوبتهم، ولا يعاظم الله شيء، أو من بعد التوبة المعلومة من «تَابُوا»، والأوَّل أولى لأنَّه أشدُّ إدخالا في الطمع وإبعادا عن الإيَّاس.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى اَلْغَضَبُ﴾ أي انكفَّ وزال، مجازٌ مرسل تبعيٌّ، لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو أحدهما، فإنَّ السكوت موضوع لانقطاع الكلام، واعتبر لمطلق الانقطاع، فاستعمل في جزئيٍّ من هذا الانقطاع المطلق وهو الغضب، أو شَبَّه انقطاع الغضب بانقطاع الكلام، فسمَّاه سكوتا واشتقَّ منه «سَكَتَ»، أو شبَّه الغضب بإنسان يغري موسى عليه السلام ويقول له: قل لقومك كذا وكذا، وألق الألواح، وخذ برأس أخيك، واجرره إليك! ثمَّ يسكت، ورمز إلى ذلك باللازم وهو السكوت، فهو تخييل، أو استعارة تصريحيَّة.

﴿أَخَذَ اَلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها كلَّها، لأنَّ المعهود الكلُّ، و«الـ» للعهد، وتقدَّم بحث في ذلك. ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي فيما كتب فيها، "فُعْلَة" بمعنى مفعولة، أي مكتوبها، وهو الحروف كما هو ظاهر، أو الألفاظ بواسطة الحروف، أو المعاني بواسطة الألفاظ المدلول عليها بالحروف، أو المراد: ما نسخ موسى من الألواح المكسورة وهو أنسب، لأنَّ أصل النسخ غير الكتابة الأولى، إلاَّ أن يعتبر أنَّ الألواح نسخت من اللوح المحفوظ، وقال عطاء: «﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾: ما بقي منها». وقيل: لقَّن الله التوراة لموسى فنسخها من قلبه في الألواح المذكورة، والمشهور أنَّها جاءت مكتوبة من الله عز وجل.

﴿هُدًى﴾ من الضلال إلى الحقِّ في الدنيا ﴿وَرَحْمَةٞ﴾ أي إنعام فيها وفي الآخرة، أو إرشاد إلى الصلاح دينا ودنيا ﴿لِّلذِينَ﴾ تنازعه «هُدًى»

و«رَحْمَةٌ»، أو هو نعت لهما. ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ﴾ منصوب بقوله: ﴿يَرْهَبُونَ﴾ وقوّي باللام لضعفه بتقديم المنصوب، فهي لام التقوية، كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾(سورة يوسف: ٤٣) والأصل: «للذين هم يرهبون ربَّهم»، أو التقدير: يرهبون المعاصي، أو العقاب لأجل ربِّهم، فاللام للتعليل، والتقديم على كلٍّ وجه للاختصاص والفاصلة، وعلى طريقة العرب في التقديم للاهتمام.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾

اختيار موسى سبعين رجلا من قومه ومناجاته لله

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ أي من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ «سَبْعِينَ» مفعول به لـ«اخْتَارَ»، أو المفعول: «قَوْمَهُ» بلا تقدير لـ«مِنْ»، و«سَبْعِينَ» بدل بعض، والرابط محذوف، أي سبعين رجلا منهم، ولا بأس بذلك ولا ضعف للعلم به، وهو أولى من نصب «قَوْمَ» على نزع الجارّ. والسبعون مِمَّن لم يعبد العجل وهم اثنا عشر ألفا، وجملة من خرج معه من مصر ستُّمائة ألف وعشرون ألفا، كلُّهم عبدوا العجل إلا اثني عشر ألفا ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ هو الميقات المعهود في قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا﴾، وقوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ فهو ميقات الكلام وطلب الرؤية. والميقات: الوقت الذي وعده أن يأتوه فيه، قلبت الواو ياء للكسر قبلها.

(قصص) أمره الله ﷻ أن يأتيه إلى الجبل في سبعين غيره من بني إسرائيل، فاختار من كلّ سبط ستّة، والأسباط اثنا عشر وزاد اثنين، وقال: ليتخلّف منكم اثنان فتشاجروا، فقال لمن قعد: أجر من خرج فقعد كالب ويوشع، وقيل: لم يجد إلاّ ستّينَ شيخا، فأوحى الله إليه أن يختار من الشباب عشرة فاختارهم، فصاروا شيوخا، وأمر السبعين أن يصوموا ويتطهّروا ويطهّروا ثيابهم، ولَمَّا دنوا من الجبل غشيه غمام، فدخله موسى بهم، وخرُّوا سجَّدا فسمعوا الكلام الذي خلقه الله لموسى بالأمر والنهي، ولَمَّا انكشف الغمام أقبلوا إليه، وقالوا: ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.

(قصص) وقيل: الميقات ميقات وعده الله لموسى أن يأتيه فيه بسبعين رجلا من خيار بني إسرائيل ليعتذروا عن عبادة بني إسرائيل العجل، وقد تابوا من عبادته، ولَمَّا بلغوا أسفل الجبل أخذتهم الرجفة، وقيل: ذهب موسى إلى الجبل بهارون فنام هارون أسفل الجبل فتوفّاه الله، ولَمَّا رجع موسى قالوا: قتله موسى، فاختار سبعين بأمر الله ﷻ وذهب بهم إلى هارون فأحياه الله، وقال: ما قتلني أحد بل توفّاني الله تعالى، فأخذتهم الرجفة، وقيل: أوحى الله تعالى إليه: إنّي متوفّي أخيك فاذهب إلى غار كذا، فإذا فيه سرير واضطجع فيه، وبحضرته ابن لهارون فقال لهارون: ادخل فاضطجع فمات ورجع هو وابنه، فقالوا: قتلته حسدا لحبّنا إيَّاهُ، قال: ويحكم أأقتل أخي، وقد سألت الله أن يجعله وزيري، وهذا ابنه معي؟! فذهب بسبعين إليه فأحياه الله تعالى فقال: ما قتلني، فقالوا: أنت لا تغلب، فادع الله أن يجعلنا أنبياء فأهلكهم الله تعالى فدعاه فأحياهم ورجعوا وهم أنبياء، **ولا دليل على صحّة هذا**. وقيل: قالوا: أنت منّا وتزعم أنّ الله ﷻ كلّمك ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فقال: اختاروا سبعين، فاختاروهم وبرزوا وماتوا.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، قال ابن عبَّاس: لأنَّهُم لم يفارقوا قومهم حين عبدوا العجل فعوقبوا بالرجفة، قال ابن عَبَّاس: هم غير السبعين الذين سألوا الرؤية وأخذتهم الصاعقة وماتوا، الذين كانوا في ميعاد أخذ التوراة، والمراد هنا: من جاءوا للاعتذار والتوبة من عبادة العجل، فأخذتهم الرجفة لا الصاعقة، وهم بَعدَ الذين أخذتهم الصاعقة. واختلفوا هل مع الرجفة موت؟ والجمهور على أَنَّهُم ماتوا؛ وعن وهب: ماتوا يوما وليلة، وقال وهب: لم يموتوا لكن لَمَّا رأوا الهيبة أخذتهم الرعدة، فظنَّها موسى موتا فدعا الله ﷻ وبكى فكشفها عنهم، وقيل: الرجفة: الموت بالصاعقة، وهي النار الخفيفة السريعة، وقيل: عوقبوا بالموت أو الصاعقة لطلب الرؤية، أو لنفي الإيمان عن أنفسهم حتَّى يروه، وقيل: الرجفة الصيحة، أو حسيس جنوده فماتوا به، وقيل: زلزلة الجبل. ولكنَّ الذين جاءوا إلى قبر هارون لا يحرقون ولا يعاقبون إن كانوا غير الذين قالوا: قتله موسى، إلاَّ إن كان منهم إحداث مثل أن لم يؤمنوا بقوله: ما قتلني أحد.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يارب ﴿لَوۡ شِئۡتَ﴾ إهلاكهم ﴿أَهۡلَكۡتَهُم﴾ أمتهم ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ قبل خروجي بهم ليعاينوا موتهم فلا يتَّهموني بقتلهم، أو من قبل عبادة العجل ﴿وَإِيَّايَ﴾ عطف على الهاء، وهذا تسليم لقضاء الله، وتواضع له أنَّ له أن يفعل ما يشاء، و لم يفعل موسى ما يعاقب عليه بالإهلاك. وقيل: لو شئت أهلكتني بقتلي القبطي ولكن عفوت عنِّي. ولَمَّا أخذتهم الرجفة قال: يارب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقد أهلكت خيارهم و لم يبق معي رجل واحد منهم؟ لو شئت أمتَّهم وإيَّاي معهم من قبل أن يصحبوني ليعاين بنو إسرائيل ذلك، فلا يتَّهموني.

و«لَوْ» شرطيَّة، والتمنِّي إنَّما يستفاد من جملة الكلام، كما يقول من يتمنَّى الغيث: لو شاء الله سقانا، تمنَّى أن يموتوا هم وهو قبل أن يرى ما رأى،

كما قالت مريم: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾(سورة مريم: ٢٣)، أو أن يكون ذلك بسبب آخر مثل أن يهلكهم فرعون، أو يغرقوا، وقد أنقذتهم من ذلك ولو أنقذتهم من هذا الإهلاك لم يبعد من فضلك العامّ كما انقذتهم، أي لو شئت أهلكتهم من قبل لفعلت لكن لم تشأ، فكذلك لو تشاء لم تهلكهم الآن. أو تمنّى ودعا أن يحييهم ويرجعهم إلىقومهم كما أحياهم قبل عن فرعون والغرق. أو لو أردت إهلاكهم بذنوبهم من قبل لفعلت، وذلك ذكر للعفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّا﴾ من عبادة العجل وطلب الرؤية، والاستفهام استعطاف، أي: لا تعذّبنا بذنوب غيرنا، أو إنكار لوقوع الإهلاك ثقة بلطف الله ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي الرجفة أو الفتنة المعلومة مِمَّا ذكر، التي هي عبادة العجل، أو مسألة الرؤية ﴿إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ أي فتنة منك لا من غيرك، لأنَّ غيرك لا يوجد شيئا إلاّ بك، أو إلاّ اختبارك القوم بخلق الحياة في العجل والخوار، وكلامك المطمع في طلب الرؤية، فزاغ بعض بذلك وثبت آخرون، كما قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ إضلاله بالخروج عن الحقّ فيها، واعتقاد السوء، أو الشبهة أو الجزع ضدّ ما في قوله تعالى: ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ هدايته باتّباع الحقّ فيها وَقُوَّة الإيمان، وقيل: تصيب بهذه الرجفة من تشاء وتصرفها عَمَّن تشاء.

﴿اَنتَ وَلِيُّنَا﴾ متولّي أمورنا بالتصرّف فيها القائم، فأنت الناصر لنا، والحصر مستفاد من تعريف الطرفين ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما قارفنا من عبادة العجل، وطلب الرؤية هذا عن قومه إذ طلبها عنهم، وأيضا ندم عن طلبها عنهم، ومن إلقاء الألواح وجرّ الأخ إليه بشعر رأسه، وهذا عن نفسه.

ومن قال: استغفر من قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ وأنّه جرأة على الله عظيمة، فقد وصف رسول الله موسى بصفة المجبرة فيُكَفّره، وليس ذلك جرأة

فيستغفر منه بل رضي بالقضاء. [قلت:] **وَمِمَّا يروى ولا يقبل** أنه قال: يا ربِّ من جعل الروح في العجل؟ قال: أنا، قال: فأنت أضللتهم يا ربِّ، قال: يا رأس النبيئين يا أبا الحكماء، إنِّي رأيت ذلك في قلوبهم فيسَّرته لهم، فإنَّ قوله: فأنت أضللتهم عبارة سوء، ولو كان الله هو المضلُّ لهم تحقيقا فإنَّه لفظ إجبار، وكيف يرتِّب المدح برأس النبيئين وأبي الحكماء على هذا اللفظ الذي لا يحسن؟ وكيف يقول: رأيته في قلوبهم فزيَّنته لهم كأنَّه وقع في قلوبهم بلا إيقاع منه تعالى فيها، فلو صحَّ هذا على معنى غير الإجبار ومن غير الوقوع بلا إيقاع منه لقلنا طلب المغفرة من لفظ لا يحسن حاشاه منه.

﴿**وَارْحَمْنَا**﴾ في الدارين. قدَّم المغفرة لأنَّها تخلية، وأخَّر الرحمة لأنَّها تحلية. ﴿**وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**﴾ لأنَّك تغفر بلا عوض ولا خوف ولا حاجة ولا رقَّة، وتبدِّل بالسيِّئة الحسنة، وغيرك يغفر لذلك بلا تبديل للسيِّئة بالحسنة، ولم يقل: وأنت خير الراحمين، ولا أنت خير الغافرين والراحمين، لأنَّ المغفرة أهمُّ، مع أنَّها تتضمَّن الرحمة، وهي تبديل للسيِّئة حسنة.

﴿**وَاكْتُبْ**﴾ أوجب، أو أثبت، أو أقسم، واختار الكتب لأنَّه أدوم، أو وفِّقنا للحسنات التي يكتبها الحفظة ﴿**لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً**﴾ ما يحسن من طاعة ونعمة وعافية وسهولة الموت ﴿**وَفِي الآخِرَةِ**﴾ حسنة تسهيل القبر والحشر والحساب والموقف والجنَّة، وكأنَّه قال: اقْبل وفَادَتَنا واجعل جائزتنا المغفرة والرحمة ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾ رجعنا إليك بالتوبة، تعليل جملي للدعاء، فإنَّ الدعاء مِمَّا يوجب قبوله[1]، وأصل الهود الرجوع برفق، سمِّيت به اليهود مدحا، ولَمَّا بدَّلوا كان ذمًّا لهم لازما باعتبار المسمَّى، لا باعتبار مدلول اللفظ، والمراد: هدنا إليك من معصيتنا.

١- لَعَلَّ الصواب: «فإنَّ الرجوع إلى الله مِمَّا يوجب قبوله» (خ أ).

والعجب مِمَّن يخطِّئ نافعا وغيره في ضمِّ الهاء، وزعم أنَّه لا يقال: هاد يهود بل هاد يهيد بمعنى مال يميل، كما قرأ زيد بن الإمام علي بن أبي طالب، فإنَّ الضمَّ قراءة متواترة، والقرَّاء إنَّما أخذوا القراءات عن الصحابة كنافع عن ابن عمر وعن التابعين، ويجوز أن يكون مبنيًّا للمفعول من هاده يهيده حرَّكه فهم حرَّكوا أنفسهم أو حرَّكهم الله أو الوعظ على لغة من يقول في بيع: بوع.

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾

من تمام الإيمان برسالة موسى الإيمان برسالة محمد عليهما السلام

﴿قَالَ عَذَابِيَ أُصِيبُ بِهِ مَنَ اَشَآءُ﴾ تعذيبه لخذلانه، أو تكفير الذنوب به، كما أمروا بقتل أنفسهم ، وكإعلاء الدرجات لا اعتراض عليَّ، فإنَّ المخلوقات كلَّها ملك لله ﷻ، ولا اعتراض على من تصرَّف في خالص ملكه، وملك المخلوق لمخلوق غير خالص فيتعرَّض عليه بالأمر الشرعيِّ كالنهي عن الإسراف وظلم العبد وإخراج الزكاة.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الدنيا بالإحياء والصحَّة والعقل فيمن عقل والرزق، المؤمن والكافر المكلَّف وغير المكلَّف، ودفع البلاء وغير ذلك،

قيل: هذا معنى: «**رحمتي سبقت غضبي**»[1] ويروى: «**غلبت غضبي**» وإذا صار الناس إلى الآخرة وجبت الرحمة للمؤمنين خَاصَّةً، والكافر كالمستضيء بنور غيره فإذا ذهب السراج بنور السراج بقي في الظلمة.

عبَّر بالمضارع في العذاب وبالماضي في الرحمة وسعتها ـ قيل ـ لأنَّ الرحمة مقتضى الذات، والعذاب مقتضى المعاصي، والمشيئة معتبرة في جانب الرحمة أيضا، ولم يقل: وسعت كلَّ شيء مِمَّا أشاء، أو وسعت مَنْ أشاء، تعظيما لأمر الرحمة، وقيل: للإشعار بغاية الظهور.

ولَمَّا نزل ذلك قال إبليس والمشركون بلسان الحال: إنَّا من كل شيء، فنزل قوله تعالى: ﴿**فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾ الشرك والكبائر، تعريض بأنَّ هؤلاء غير متَّقين، والسين للتأكيد لا للاستقبال، والمضارع للحال، أو بمعنى الماضي، وما قبل هذا إجمال وهذا الكتب تفصيلُ خصوص، وقال بعض: إنَّ المراد بـ«الذِينَ يَتَّقُونَ»: عموم المتَّقين من غير أهل الكتاب ومن أهل الكتاب، ونسبه بعض للجمهور.

﴿**وَيُوتُونَ الزَّكَاةَ**﴾ المفروضة، لم يذكر الصلاة اكتفاء بالتقوى إذ تركها أعظم ما يتَّقى ـ بعد الإشراك ـ من حقوق الله ﷻ، وزعم بعض أنَّ إيتاء الزكاة هنا تزكية النفس بطاعة الله ورسوله. قيل: ذكر الزكاة لمشقَّتها على بني إسرائيل لمزيد حبِّهم للدنيا ﴿**وَالذِينَ هُم بِئَايَاتِنَا يُومِنُونَ**﴾ فقالت اليهود والنصارى بلسان الحال: نحن نؤمن بالتوراة والإنجيل ونؤدِّي الزكاة، فنزل ردًّا

١- رواه **البخاري** في كتاب التوحيد (٢٠) باب قول النبيء ﷺ: «لا شخص أغير من الله». رقم ٦٩٨٦، من حديث أبي هريرة، وأوَّله قوله ﷺ: «إنَّ الله لَمَّا قضى الخلق، كتب عنده...».

عليهم قوله تعالى: ﴿الذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ في شرعه كلّه إذا أدركوه، أو قومك ياموسى الآن باعتقاد الإيمان به، فمن لم يؤمن به مِمَّن أدركه، أو لم يعمل بشرعه هلك وكفر، ومن لم يعتقد الإيمان به من قومك هلك. والرسول أخصُّ من النبيء وقدِّم مع ذلك، والغالب تقديم الأعمِّ، وإمَّا ما قيل: الرسالة من الله والنبوءة: الإخبار منه للعباد، وما قيل: إنَّ النبيء ينبئ عن الله وما لا تستقلُّ العقول بإدراكه، وإنّهما مفهومان مفترقان فلا يكفي جوابا.

﴿النَّبِيءَ الاُمِّيَّ﴾ وإنّما أخّر الصفة العَامَّة ـ وهي النبيء ـ لتخصيصها بالأمِّيِّ، فالنبيء بهذا أخصُّ من الرسول، ولا سيما أَنَّهُ ذكر بلفظ النبيء الأمِّيِّ في التوراة، وذلك بحسب الوضع الشرعيِّ والاستعمال، وأمَّا بحسب الوضع واللغة فكلٌّ منهما عامٌّ، وقد جاء ﴿رَسُولاً نَّبِيئًا﴾(سورة مريم: ٥١، ٥٤) والأمِّيُّ نسب إلى الأمِّ، كأنّه ولد من أمّه ﴿الذِي يَجِدُونَهُ﴾ أي باسمه وصفته، ولحذفهما أفرد قوله: ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ لا يغيب عنهم لظهوره في التوراة وتكرُّره فيها ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالاِنجِيلِ﴾ اسمه فيها المُنحَمِنا بضمِّ الميم الأولى وكسر الثانية أفصح من فتحها، وهو بالسريانيَّة في التوراة، ومعناه مُحَمَّد الذي يحمده الخلق؛ وفي الإنجيل: أحمد، وبسطت الباب في شرح نونيَّة المديح.

تيمم نجدا في تلهُّفه الجاني يَؤُمُّ رسول الله للإنس والجان

وهو أكثر من ثلاث مجلّدات[1].

وعن كعب هو في أهل الجنّة: عبد الكريم، وفي أهل النار: عبد الجبَّار، وفي أهل العرش: عبد المجيد، وعند الملائكة: عبد الحميد، وعند الأنبياء: عبد

١- أشاد الشيخ كثيرا بهذا المؤلّف، وقد تقدَّم التعريف به في الجزء الأوَّل، وهو من المخطوطات النفيسة، وتوجد منه نسخة بخطِّ المُؤَلِّف في مكتبة معهد عمِّي سعيد بغرداية.

الوهَّاب، وعند الشياطين: عبد القاهر، وعند الجنِّ: عبد الرحيم، وفي الجبال: عبد الخالق، وفي البرِّ: عبد القادر، وفي البحر: عبد المهيمن، وعند الهوام: عبد الغيَّاث، وعند الوحوش: عبد الرزَّاق، وفي التوراة: موذموذ، وفي الإنجيل: طاب طاب، وأحمد، وفي الصحف: عاقب، وفي الزبور: فاروق، وعند الله: طه، ومحمد ﷺ ، وفي البخاري ومسلم والبيهقي والدارمي يدخل حديث بعض في بعض من التوراة والإنجيل والزبور **«إنَّه رسول شاهد مبشِّر ناذر حرز للأمِّيِّين ليس فظًّا ولا غليظا ولا صخَّابا في الأسواق، يعفو، لن يميته الله حتَّى يهدي به الله أهل الضلال، لا قصير ولا طويل متَّضع في أحواله، اسمه أحمد ومحمَّد، يحلب الشاة ويركب الحمار والبعير، غفرت له قبل أن يعصيني، أعطيت أمَّته من النفل ما أعطيت الأنبياء من الفرض حتَّى يجيئوا يوم القيامة بنور كنور الأنبياء»**[1] وفي ردِّ الشرود إلى الحوض المورود تفاصيل ذلك[2] .

﴿يَامُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ لَمَّا نزل ﴿الذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ...﴾ أيس اليهود والنصارى، وإنَّما قلت بلسان الحال لأنَّ ذلك نزل متَّصلا، وإن كان بالقول أو التمنِّي فاجعل بدل قولي: نزل سمعوا، يطمعون بالأوَّل، ويأيسون بالثاني، في سرد واحد.

روي أنَّ رسول الله ﷺ اجتاز في طريقه برجل من اليهود يمرِّض ابنا له أي قائما على ابنه المريض، فمال إليه فقال: **«يا يهودي، هل تجدونني مكتوبا عندكم في التوراة؟»** فأومأ إليه اليهودي أن لا، فقال ابن اليهودي: والله

١- روى **البخاري** الجزء الأوَّل منه فقط في كتاب التفسير (٣٢٥) باب: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ رقم ٤٥٥٨. من حديث ابن عمرو.

٢- اسم المؤلَّف للشيخ أيضا مطبوع طبعا حجريًّا.

يا رسول الله إنّهم يجدونك مكتوبا في التوراة، ولقد طَلَعْتَ وإنَّ في يده لسفرا من التوراة يقرأ فيه صفتك وصفة أصحابك، وذكرك فلَمَّا رآك ستره عنك، فأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنَّ محمَّدا عبده ورسوله، فكان آخر ما تكلّم به الغلام حتّى مات، فقال رسول الله ﷺ: «**أقيموا على أخيكم حتّى تقضوا حقّه**». قال الراوي: فحلنا بينه وبين أبيه حتّى واريناه وانصرفنا. ويروى أيضا أنّه دخل ﷺ كنيسة فوجد فيها صبيًّا مريضا بين اليهود، فقال لهم: «**هل تجدونني في التوراة؟**» فأنكروا، فزحف الصبيُّ إلى سفر من التوراة فقرأ صفته ﷺ وآمن بالله ورسوله فمات وأمر المسلمين أن يتولّوا أمره[1].

وقيل: «هاء» في «سَأَكْتُبُهَا» للرحمة لكن على معنى جعله لهم يوم الجمعة والأرض مسجدا أو طهرا، وقراءة التوراة عن القلب، فقالوا: لا بل اجعل لنا السبت، والصلاة في الكنائس، والقراءة نظرا، فجعل الله ذلك لهذه الأمَّة. ومعنى الأمّي كأنّه ولد حين الوحي إليه لا يعرف الكتابة ولا يقرأها، أو إنّه من الأُمَّة العَرَبِيَّة والكتابة عندهم قليلة، وكذا قراءتها، قال عمر: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّا أمَّة أمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب**»[2] ولو كان يكتب أو يقرأ لقالوا: يأخذ من الكتب ويكتب ما يسمع. أو أَنَّهُ من أمّ القرى مكّة، أو نسب إلى الأَمّ بفتح الهمز بمعنى القصد، وضمُّها من تغيير النسب، ويَدُلُّ له قراءة يعقوب ﴿الأَمِّيَّ﴾ بفتح الهمزة، لكن لعلَّ الفتح نسب إلى الأُم بالضمِّ والفتح من تغيير

١- رواه **أحمد** في مسنده كتاب المكثرين من الصحابة، رقم ٣٧٥٥ بنفس المعنى. من حديث ابن مسعود (م ح).

٢- رواه **البخاري** في كتاب الصوم باب قول النبيء ﷺ «لا نكتب ولا نحسب» رقم ١٩١٣. ورواه **النسائي** في كتاب الصيام (١٧) ذكر الاختلاف على يحي بن أبي كثير في خبر أبي سلمة فيه، رقم ٢١٣٩. من حديث ابن عمر.

النسب لكن الأصل خلاف التغيير، **والصحيح الأوَّل** لقوله تعالى في غيره ﷺ من العجم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾(سورة البقرة: ٧٨).

والطَّيِّبَات: كلحم الإبل وشحم الغنم والبقر، حرِّمت عليهم، وأحلَّها رسول الله ﷺ، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ التي استحلُّوها بجهالة أو عمد كالميتة والدم ولحم الخنزير، والرشوة والربا.

وقيل: الطيِّب ما يستلذُّ الطبع كالشحم، والخبيث ما يستخبثه الطبع كالدم، وذلك قاعدة من الله تعالى، إلاَّ ما دلَّ عليه منفصل، وقيل: الطيِّب الحلال والخبيث الحرام كالربا، وردَّ بأنَّه لا فائدة في ذلك، ويجاب بأنَّ المراد لا يزاد على ما في الشرع ولا ينقص منه، وأنَّ الحلَّ والحرمة بالشرع لا بالعقل.

و«الإِصر» و«الأَغلاَل»: التكاليف الشاقَّة، وهما شيء واحد، سمِّيت إصرا لأنَّها كالشيء الذي يحبس صاحبه عن الحركة، يقال: أصره بمعنى حبسه، وسمِّيت أغلالا لشبهها بما يربط اليد إلى العنق مثلا، كقتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض النجاسة من البدن والثوب بالمقراض أو نحوه، وقطع العضو العاصي وتعيين القصاص في القتل عمدا أو خطأ، وتحريم أخذ الديَّة، وترك العمل يوم السبت، وتحريم الانتفاع بالغنيمة. أو الإصر: العهد أن يعملوا بما في التوراة هكذا، والأغلال: تلك المشاق.

وفي بعض الآثار: لَمَّا أجاب الله تعالى موسى عليه السلام بما مرَّ قال: «أتيتك يا ربِّ بوفد بني إسرائيل فكانت وفادتنا لغيرنا». وعن ابن عبَّاس دعا موسى ربَّه سبحانه وتعالى، فجعل دعاءه لمن آمن بمحمَّد ﷺ، وعنه سأل موسى ربَّه سبحانه وتعالى مسألة فأعطاها محمَّدا ﷺ وتلا الآية.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِ﴾ من بني إسرائيل أو غيرهم إلى قيام الساعة، وعن ابن عبَّاس من أهل الكتاب ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ عظّموه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه في الدين. وقيل: التعزير: التعظيم مع النصر، وعليه فمعنى قوله: ﴿نَصَرُوهُ﴾: أنّهم نصروه لي ﴿وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أي القرآن، شبَّهه بالنور الحسِّيّ لأنّه ظاهر مظهر للحقائق، والمراد اتِّبَاعه بالأعمال، و«مَعَ» متعلّق بـ«أُنزِلَ»، أي أثبت معه من الله، أو بمحذوف حال، أي أنزل مصاحبا لنبوءته؛ أو بـ«اتَّبَعُوا» أي: واتّبعوا مع اتِّبَاع سننه ﷺ، أو حال من الواو، أي اتَّبَعوا القرآن مصاحبين له ﷺ في اتِّبَاعه، فإنّه ﷺ تابع، وهؤلاء الصفات ترغيب لأتباعه، وبيان لعلوّ مرتبته، وبيان لكيفيَّة اتِّبَاعه ﷺ، واغتنام مغانم الرحمة الواسعة في الدارين ﴿أُولَئِكَ﴾ لا غيرهم مِمَّن كفر به من أهل زمانك يا موسى، أو بعده إلى قيام الساعة ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون برحمة الدنيا والآخرة. وهنا تمّ خطاب الله ﷻ لموسى عليه السلام .

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾

عموم الرسالة الإسلاميّة

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ العرب والعجم، بني إسرائيل وغيرهم ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وبهذا العموم وقوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(سورة الفرقان : ١) والحصر في نحو: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(سورة البقرة: ٥) وقوله: ﴿كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾(سورة سبأ: ٢٨) يحكم ويبيِّنُ ما أوهم من الآيات أنَّ بني

إسرائيل أمروا أن يحكموا بما في التوراة والإنجيل، وإنّما ذلك فيما قبله ﷺ أو فيما معه بشرط موافقة القرآن، أو قبل نزول ما ينقضه من القرآن، أو ما فيهما من صفاته وأحكامه.

﴿**الذِي لَهُ, مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ**﴾ صفة الله، أو أعني الذي، أو هو الذي، ولا يضرُّ فصل النعت بمعمولي عامل منعوته، لأنَّ عامل الكلِّ واحد وهو رسول ﴿**لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ بيان لقوله: ﴿الذِي لَهُ, مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ فإنَّ من ملكهما هو الإله لا غيره، وهو مستأنف أو بدل، أو عطف بيان على جوازه في الجمل من قوله: ﴿لَهُ, مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ ولو كان لا محلَّ للجملة المتبوعة، وزاده تقريرا بقوله: ﴿**يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ إذ لا يقدر على الإحياء والإماتة إلاَّ من هو إله، ولا تعلّقان لسوق الكلام لمفعولهما، لأنَّ المراد: ذو الإحياء والإماتة فلا يقدَّر لهما مفعول، اللهمَّ إلا أن يقدَّر: يحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء. ويجوز أن يكون «الذي» مبتدأ خبره «يُحْيِي وَيُمِيتُ».

﴿**فَـَامِنُواْ**﴾ تفريع بالفاء للإيمان على ما تقرَّر من رسالته ﷺ، فإنَّ المقصود من الإسال الأمر بالإيمان، وهذا من قوله ﷺ إلى قوله: ﴿تَهْتَدُونَ﴾ وإنّما قال: ﴿**با للهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيءِ الاُمِّيِّ الذِي يُومِنُ بِا للهِ وَكَلِمَاتِهِ**﴾ القرآن وغيره مِمَّا أنزل الله، ولم يقل با لله وبي لتجري عليه الصفات المذكورة الداعية إلى الإيمان، وهي الرسالة والنبوءة وكونه لا يكتب ولا يعرف قراءة، ومع ذلك أتى بما يعجز، وكونه يؤمن با لله وكلماته، والضمير لا يوصف ولِيُفِيدَ بلاغة بطريق الالتفات من التكلُّم للغيبة، وليفيد أنَّ الذي يجب الإيمان به هو المتّصف بالنبوءة والأمّيَّة والإيمان با لله وكلماته، الذي في التوراة والإنجيل بهذه الأوصاف كائنا من كان، إيَّاي أو غيري، وهذا إرخاء للعنان وإظهار للنصفة ﴿**وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ أرجوا الاهتداء باتّباعه، أو لكي تهتدوا، فإنّه لا هدى لمن كفر به، أو لم يتابعه.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١٦٠ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝١٦٢﴾

اتّباع الحقّ لدى بعض قوم موسى ونعم الله على بني إسرائيل

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ جماعة ﴿يَهْدُونَ﴾ هدوا الناس ﴿بِالْحَقِّ﴾ والباء للملابسة، أو للآلة، ودون ذلك أن تكون بمعنى إلى، أو اللام، أو صلة في المفعول الثاني لهدى، والأوّل للناس ويتعيّن الأوّلان في قوله: ﴿وَبِهِ﴾ بالحقّ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ عَدَلوا في الحكم، وعدل للمضارع لحكاية الحال الماضية قبل التحريف، هم على عهد موسى عموما بالتقوى، أو قوم مخصوصون على عهده أيضا، وفي ذلك دفع لِمَا يتوهّم من تخصيص هذه الأمّة بذلك، أو هم من آمن برسول الله ﷺ من بني إسرائيل على عهده كعبد الله بن سلاّم. ولا يلزم من لفظ الأمّة الكثرة، ولو كان الغالب الكثرة، وهؤلاء كثير بالنسبة، ولا سيما من قبل التحريف، وأيضا المنفرد عن قومه [في الصلاح] أمّة ولو واحد ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾(سورة النحل: ١٢٠). أو لَمَّا أخلصوا عُظّموا وكانوا كالكثير جدًّا.

وقيل: سبط من بني إسرائيل تَبرّأوا من قتل الأسباط أنبيائهم فسألوا الله أن

يفارقوهم، ففتح لهم سربا وأجرى معهم نهرا وأرزاقا، ومصابيح تطفأ ليلا ويبيتون، وساروا سنة ونصفا وخرجوا وراء الصين، في أرض طيِّبة لا يضرُّهم ما خالطهم من سباع وهوام، إذ لا يعصون الله طرفة عين تصافحهم الملائكة لا يصل إليهم أحد ولا يصلون إلى أحد، يمطرون ليلا ويزرعون نهارا.

(قصص) قال رسول الله ﷺ ليلة الإسراء لجبريل عليه السلام: «**أحبُّ أن أرى القوم الذين أثنى الله عز وجل عليهم ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ...﴾**» قال: بينك وبينهم ستُّ سنين ذهابا وستٌّ رجوعا فادع ربَّك، فدعا وأمَّن جبريل فأوحي إليه أن أجبه، فركب البراق فبلغهم في خطوات، فقالوا: من أنت؟ قال: «**النبيء الأميُّ**»، قالوا: أنت الذي بشَّر الله بك موسى؟ قالوا: فمن معك؟ قال: «**أترونه؟**» قالوا: نعم قال: «**جبريل**» قال: «**فلم كانت قبوركم على أبواب دوركم؟**» قالوا: لنذكر الموت صباحا ومساء، «**فَلِمَ تَساوى بنيانكم؟**» قالوا: لِئَلاَّ نشرف ولا نسدَّ الريح، «**فلم لم يكن قاض ولا سلطان؟**» قالوا لإنصافنا، «**ولِمَ لَمْ يكن سوق؟**» قالوا: نزرع جميعا ونحصد ونأخذ الكفاية، «**فَلِمَ يضحك هؤلاء؟**» قالوا: مات ميِّتهم على الإسلام، «**ولِمَ يبكي هؤلاء؟**» قالوا: ولد لهم مولود ولا يدرون عَلاَمَ يموت، «**فما تصنعون إذا ولد ذكر؟**» قالوا: نصوم شهرا شكرا لله، «**أو أنثى؟**» قالوا: شهرين، «**لِمَ**» قالوا: لأنَّ موسى عليه السلام قال: إنَّ للصبر عليها أجرا عظيما، «**أتزنون؟**» قالوا: لو زنى أحد لحصبته السماء وبلعته الأرض، «**أتربون؟**» قالوا: إنَّما يربي من لا يؤمن برزق الله، «**أتمرضون؟**» قالوا: لا إذ لا نذنب، والمرض كفَّارة لذنوب أمَّتك. وعلَّمهم شريعة الإسلام والصلوات الخمس والفاتحة، وسورا عشرا وأمرهم أن يتركوا السبت وأن يستقبلوا الكعبة ويجمعوا، وقالوا: أوصانا موسى أن يبلِّغك من أدركك سلامه، فردَّ عليه وعليهم السلام. ومعنى أن يجمعوا: أن يصلُّوا

جماعة. ويروى: «إنَّ بينكم وبينهم نهرا من رمل يجري»، ولا صحَّة لذلك.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ فرَّقناهم، والشدُّ للمبالغة ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ حال، أو «قَطَّعْنَا»: صيَّرنا، فـ«اثْنَتَيْ عَشْرَةَ» مفعول ثان، ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من «اثْنَتَيْ عَشْرَةَ»، أو من تمييزه المحذوف، أي اثْنَتَيْ عَشَرَةَ فرقه، وقال ابن مالك: تمييز، ولعلَّه أراد بدل التمييز لأنَّه جمع، ولو كان تمييزا لقال: اثني عشر، بإسقاط التاءين، لأنَّ السبط مذكَّر وقال: سوَّغ إثباتهما ذِكْرُ «أُمَمًا» المؤنَّث، وأيضا جعله تمييزا لأنَّه يجوز إطلاق الأسباط على فرقة، على أن يكون كلُّ فرد منها سبط، فلكونه بمعنى فرقة ثبتت التاءان. والسبط: ولد الولد، أو ولد البنت، أو الولد. وأولاد يعقوب اثنا عشر، وأولاد كلِّ واحد سبط من بني إسرائيل كقبيلة من العرب ﴿امَمًا﴾ بدل من «أَسْبَاطًا»، وقد أجيز الإبدال من البدل، أو نعت، وجملة «قَطَّعْنَاهُمْ» عطفت على ما قبلها عطف قصَّة على أخرى، إذ هذه في شأن التيه قطَّعهم اثنتي عشرة ليخفَّ أمرهم على موسى، بجعل عريف لكلِّ سبط ضبطا لأحوالهم ولا يتحاسدوا.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ في التيه ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ فيه حين عطشوا فقالوا: من أين لنا الشراب؟ ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ اَلْحَجَرَ﴾ حجرا مخصوصا خفيفا مربَّعا في قدر رأس الرجل من رخام، أو كذَّان يحمله معه في مخلاته، حرصا عليه، وهو الذي فرَّ بثوبه ليرى أنَّه غير آدر[1].

﴿فَانبَجَسَتْ﴾ فضرب فانبجست، وحذف لأنَّ موسى لم يتوقَّف، ولأنَّ ضربه لم يُؤَثِّر بذاته، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ...﴾(سورة الأنفال: ١٧). والانبجاس: خروج الماء، وقيل: بقلَّة، وعليه

١- راجع القصَّة إن شئت في الجزء الأوَّل، آية ٦٠ صحيفة ١١٧.

فيكثر بعد، فيجمع بين آيتي الانبجاس والانفجار الذي هو الكثرة، وزعم بعض أنَّ التقدير فإذا ضربت انبجست ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ من كلِّ وجه من أوجهه الأربعة ثلاث عيون.

﴿قَدْ عَلِمَ﴾ عرف ﴿كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم، يجعل كلُّ سبط جدولا من عينهم المخصوصة بهم إلى حفرة يحفرونها، وذلك بتعيين موسى، وقيل: بطبع الله لهم على علم ذلك. وأناس: بمعنى ناس، وكلاهما اسم جمع.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ عن حرِّ الشمس في التيه ﴿الْغَمَامَ﴾ السحاب، يلقي ظلَّه عليهم، يسير بسيرهم ويسكن بإقامتهم، ولهم عمود نور في السماء يسيرون ليلا بضوءه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ شيء حلو ينزل كالثلج من الفجر إلى طلوع الشمس يسمى الترنجبين يأخذ كلُّ واحد صاعا ﴿وَالسَّلْوَى﴾ جنس الطائر المسمَّى بالسماني، تحشره بالضمِّ عليهم ريح الجنوبة ـ بالفتح ـ فيأخذ كلٌّ ما يكفيه، وهو رخو بإذن الله ﷻ لا يمتنع ﴿كُلُواْ﴾ قائلين لهم: كلوا، أو مقولا لهم: كلوا، أو قلنا: كلوا ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من المنِّ والسلوى والماء.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي فظلموا بأن كفروا النعم وما ظلمونا، أي لم يشكروا هذه النعم في التيه، أو لم يشكروا النعم قبل التيه فوقعوا فيه بكفرها، وما ظلمونا بذلك، ودلَّ هذا على الفاصلة وهي قوله: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتعدِّيهم الحدود، وبطر النعم، وضرره عليهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ واذكر يا مُحَمَّد وقت قيل... لأجل الواقع فيه من قولهم لأسلافهم بعد خروجهم من التيه، أو اذكر واقعة إذ قيل على تصرُّف «إذ» بإضافة واقعة إليه، أو اذكر الواقع إذ قيل، أي قال الله لهم أو يوشع، أو قال

موسى قبل الخروج: ﴿اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ هي أريحا قرية الجبَّارين العمالقة، بقيَّة عاد رئيسهم عوج بن عنق، أو المقلس، وهذه ظرف أو مفعول به، والإشارة لقرب القرية إليهم والدخول في سورة البقرة (آية ٣٧) لأجل السكنى المذكور هنا، وسمِّيت القرية قرية لاجتماع الناس، والمقراة: حوض يجمع فيه الماء، وقرية النمل لاجتماعه فيها، أو شبَّه بجتمعها بقرية الناس ﴿وَكُلُواْ مِنْهَا﴾ من ثمارها ومطاعمها، فـ«مِنْ» للتبعيض، أو خذوا منها إذا سكنتموها فـ«مِنْ» للابتداء، أفاد الحال أنَّ الأكل منها مسبَّب لسكناها، وأفاده في سورة البقرة من الفاء، وأيضا ما في سورة البقرة دليل لِمَا هنا ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ لا يزاحمكم أحد فيها ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ مسألتنا، أو مطلبنا حطَّة، أي أن تحطَّ عَنَّا ذنوبنا، أي تغفرها، أو أمرك أو شأنك حطَّة، أو مطلوبنا أن نحطَّ في هذه القرية، أي نقيم بها. وإنَّما أصابهم التيه لامتناعهم عن قتال الجبَّارين، وقولهم: ﴿فَاذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤).

﴿وَادْخُلُواْ الْبَابَ﴾ باب القرية ﴿سُجَّدًا﴾ سجود انحناء كهيئة الراكع ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ بقول حطَّة والسجود ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثوابا لا يكتنه لإحسانهم بطاعتهم، وهو تفضُّل محض ليس في مقابلة ما أمروا به، ولو بني على الإحسان، ولذلك لم يعطف بل استأنف به، ومقتضى الظاهر: «سنزيدكم»، والمراد: مَن لم يبدِّل قولا قيل لهم، أو ذلك وعد مشروط على الوفاء بالإحسان فلم يتمَّ لهم لتبديلهم، أو المراد مطلق المحسن، والأوَّل أظهر وأنسب بقوله:

﴿فَبَدَّلَ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالذي قيل لهم ﴿قَوْلاً غَيْرَ الذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ «مِنْ» للتبعيض فمنهم من لم يبدِّل، وتبديل القول قولهم: حبَّة في شعيرة، أو حنطة في شعيرة، وكذلك بدَّلوا الفعل إذ بدَّلوا السجود الانحناء

بالزحف على أستاههم، أمروا أن يطلبوا الغفران بأيٍّ لفظ لا بلفظ الحطّ فقط وجعلوا مكانه طلب الدنيا، وقد قيل: قالوا بالنبطيَّة حطا سمقاثـا، أي حنطة حمراء، وقيل: قالوا ذلك التبديل استهزاء وكذا الزحف ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بالتبديل المذكور ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذابا بالطاعون فمات في يوم واحد سبعون ألفا، وقيل: أحد وعشرون ألفا ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أعاد ذكر تسبّب الرجز عن الظلم مع علمه من تسليط الإرسال على الذين ظلموا لزيادة تقبيح الظلم والزجر عنه.

(بلاغة) قيل قال هنا: ﴿اسْكُنُوا۟﴾ وفي سورة البقرة: ﴿ادْخُلُوا۟﴾(سورة البقرة: ٥٧) لأنه لا بدَّ لساكن موضع من دخوله، وهنا: ﴿وكُلُوا۟﴾ وهناك: ﴿فَكُلُوا۟﴾ لأنَّ للدخول حالة مقتضية للأكل عقب الدخول فكان بالفاء، وللسكنى حال مستمرٌّ فكان بالواو، ومتى شاءوا أكلوا، وهناك: ﴿رَغَدًا﴾ (سورة البقرة: ٣٥) لأنَّ الأكل عقب الدخول ألذّ، والأكل مع السكنى والاستمرار دون ذلك في الجملة، ولا يدفع هذا الاعتبار قوله في آدم: ﴿رَغَدًا﴾. وهناك تقديم الدخول والسجود على قول حطّة لأنَّ المقصود تعظيم أمر الله ﷻ، فاستوى التقديم والتأخير. وهنا: ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ بلفظ القلّة وهناك: ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾ إشعارا بأنَّ هذا الدعاء يسقط القليل من الذنوب والكثير، وهناك: ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ بالواو بيانا للوعد بشيئين، وهنا كأنّه قيل ما بعد الغفران؟ فقال: ﴿سَنَزِيدُ﴾. وهناك: ﴿أَنزَلْنَا﴾ وهنا: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لأنَّ الإنزال لا يشعر بكثرة، فَكَأَنَّهُ أنزل أوَّلاً قليلا ثمَّ كثر كثرة عبَّر عنها بالإرسال، كما قيل: ﴿انبَجَسَتْ﴾ للقلّة أوَّلاً، و﴿انفَجَرَتْ﴾ للكثرة ثانيا، أو أجمل بالإنزال وفصَّل بالإرسال، وأيضا الإرسال من فوق ـ كما دلّت عليه «عَلَى» ـ هو إنزالٌ فتساويا. وهنا: ﴿يَظْلِمُونَ﴾

وهناك: ﴿يَفْسُقُونَ﴾ وصفًا لهم بظلم أنفسهم وبفسقهم، أي خروجهم عن الطاعة، وذكر الظلم والفسق في موضعين دلالة على حصولهما فيهم، وا لله أعلم.

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

حيلة اليهود على صيد السمك يوم السبت وعقاب المخالفين

﴿وَسْأَلْهُمْ﴾ اسأل يا محمَّد معاصريك من اليهود ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ سؤال توبيخ وتقريع بكفر قدمائهم، إذ زعموا أنَّ قدماءهم لم يخالفوا ا لله ﷻ، وكانوا يعتقدون أنّه لا يعلم أحد غيرهم شأن أهل هذه القرية، وكانوا يخفونه. وهي قرية حضرة بحر القلزم، تسمَّى أيلة بين مدين والطور، أو مدين، أو طبريَّة لَكِنَّ طبريَّة ليست على بحرالقلزم على عهد داود عليه السلام، بل بعده بفتح البحر، أو مغنى بين مدين وعَيْنُونَا، فأخبرهم النبيء ﷺ بها وبواقعة أهلها فبهتوا. والمراد: سلهم عن أهل القرية، أو عن خبرها وحالها، وما وقع فيها، وهذه الآيات الثمان ﴿وَاسْأَلْهُم...﴾ مدنيَّات في سورة مكّيَّة.

﴿إِذْ﴾ متعلّق بـ«كَانَتْ» أو بـ«حَاضِرَةَ الْبَحْرِ»، أو بواقعة القرية أو خبرها ـ قيل ـ أو بدل منها، لأنَّ المراد: اسألهم عن واقعة القرية، أو خبرها، واعترض

تعليقه بـ«كَانَتْ» أو «حَاضِرَة» بأنّه لا فائدة في تقييد الكون أو الحضور بوقت العدوان ﴿يَعْدُونَ﴾ يجاوزون الحدَّ بالاصطياد، وواو «يَعْدُونَ» للأهل المقدَّر، أو للقرية، بمعنى أهلها، أو إليهم على الاستخدام ﴿فِي السَّبْتِ﴾ وقد نهوا عنه، تركوا الجمعة وأخذوا السبت إذ خُيِّرُوا، فحرَّم عليهم الصيد فيها، وناسب أنّهم سبتوا الخير عن أنفسهم، أي قطعوه.

﴿إِذْ﴾ متعلّق بـ«يَعْدُونَ»، أو بدل من «إِذْ»، وتعليقه بـ«يَعْدُونَ» أولى، لأنَّ السؤال عن عدوانهم أبلغ في الردِّ عليهم ﴿تَاتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ياؤه عن واو بكسر ما قبلها ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ والحيتان لله تعالى أو للبحر، وأضيفت إليهم لأنّها بليَّة عليهم إذ نهوا عنها، وهلكوا بسببها. والسبت: اليوم، وإضافة «يَوْمَ» إليه للبيان إضافة عامٍّ لخاصٍّ، وأضيف إليهم لأنّه عيدهم، خصُّوا بالاشتغال فيه بالعبادة وترك أشغال الدنيا، وتعريضا بهم إذ اختاروه وهو شرٌّ لهم. أو السبت مصدر بمعنى القطع، إذ يقطعون فيه أعمال الدنيا، وزعموا أنّه سمِّيَ سبتا لأنّه يوم لم يخلق الله ﷻ فيه شيئا، ويدلُّ للمصدريَّة قراءة بعض: «يوم إسباتهم» وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ﴾. ﴿شُرَّعًا﴾ جمع شارع، بمعنى ظَهَرَ ودنا، فحيتانهم تظهر على الماء وتقرب من الساحل، للابتلاء من الله ﷻ.

(أصول الدين) ومن الخطإ ما روي أنَّ الله ﷻ أمر السمك أن يحجَّ إلى صنمين لَقيم ولقمانة على شاطئ البحر كلَّ يوم سبت، ونهى الله أهل القرية أن يأخذوه يوم السبت، فمن قال: دعا الله الحوت إلى عبادة الصنمين أشرك، ومن قال: جعلهما كالكعبة فقد دخل شبهة موهمة مظلمة، عامله بما استوجبه من الشرِّ، لأنَّ الله ﷻ **لايضلُّ الناس بتعظيم صنم.**

﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ﴾ يناسب أنَّ سبتهم مصدر، أي ويوم لا يقطعون العمل ولا يعظِّمون السبت لأنّهم في يوم آخر، وهو سائر الأيَّام بعد يوم

السبت، ولا يتعيَّن ذلك لجواز أن يكون المعنى: يوم لا يدخل السبت وهو سائر الأيَّام، فالمراد: انتفاء يوم السبت، كقوله: «على لاحب لا يهتدي بمناره» أي لا منار فيه فضلا عن أن يهتدي به، وفيه جواز تقديم معمول ما بعد «لاَ» عليها، إلاَّ أنَّه ظرف أعني «لاَ» في قوله: ﴿لاَ تَاتِيهِمْ﴾ للابتلاء من ا الله ﷻ لهم. ﴿كَذَالِكَ﴾ أي لا تأتيهم مثل ذلك الإتيان بل تأتيهم قليلا غير شارعة، والوقف على كذلك، والإشارة للإتيان، واستأنف قوله: ﴿نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بالصيد، وقيل: بمعاص أُخَر، أراد ا الله إظهارها وقد أخفوها وجمعها مع الصيد لِئَلاَّ يقولوا عذَّبنا بلا ظلم ولا تعدٍّ، قلت: لا يظهر ذلك.

وأولى من ذلك أنَّ الإشارة للبلاء كنظائره من القرآن والوقف على ﴿تَاتِيهِمْ﴾، أي: نبلوهم مثل ذلك البلاء، والمراد: وصفه، أو نبلوهم بلاء آخر مثل ذلك البلاء، والباء متعلّق بـ«نَبْلُوا» أولى من تعلُّقه بـ«يَعْدُونَ»، لأنَّ كون الاعتداء بالفسق سببا لتعذيبهم بارتكاب ما نهوا عنه أقرب من كونه سببا للابتلاء بذلك البلاء.

﴿وَإِذْ﴾ عطف على «إِذْ» من قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾، لا على «إِذْ» من قوله: ﴿إِذْ تَاتِيهِمْ﴾ إذ يلزم عليه دخول الطائفة في أهل العدوان، وزمان القول بعد زمان العدوان ومغاير له ﴿قَالَتْ﴾ لمن نهي عن الصيد ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة ﴿مِنْهُمْ﴾ لم تصدَّ ولم تنه، أو نهت وأيست وتركت النهي، أو طائفة مِمَّن صاد قالت تهكُّما، وهم الذين اعتدوا ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ لا تنفعهم الموعظة، وحكمة الوعظ الانتفاع به، واستأنفوا بقوله: ﴿اَ۬للَّهُ مُهْلِكُهُمْ, أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أو نعتوا القوم به، والإهلاك في الدنيا بالقتل أو بالمسخ، وقد وقع به، والتعذيب في الآخرة، أو الإهلاك استئصال، والتعذيب بدونه، وكلاهما في الدنيا، وَ«أَوْ» بمعنى الواو، يجمع لهم بين إهلاك الدنيا وعذاب الآخرة، أو

للإضراب، أو تبقى على أصلها، والمعنى: ينتقم منهم في الدنيا فقط إن تابوا، ويعذّبهم في الآخرة إن لم يتوبوا، فـ«أَوْ» لمنع الخلوّ لا لمنع الجمع، لجواز أن لا يتوبوا فينتقم منهم في الدنيا ويعذّبهم في الآخرة، واختار اسم الفاعل في الموضعين عن المضارع للدلالة على التحقّق.

﴿قَالُواْ مَعْذِرَةٌ﴾ أي مقصودنا بالموعظة أو مداومتها عُذْر، أي طلب العذر من الله، وكأنّه قيل: اعتذار، والواو للمقول لهم: لم تعظون، والقائلون ليسوا من الفرقة الهالكة ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فلا ينسبنا إلى التقصير بترك النهي، **فالأمر والنهي واجبان في كلّ أمّة** ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يتركون الصيد، والعطف على المعنى، وكأنّه قيل: للاعتذار ولطلب التقوى منهم، وهذا مِمَّا يبطل القول بأنَّ الأمَّة في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتُ امَّةٌ﴾ فرقة من القوم الهالكين، إذ لو كان الأمر كذلك لقال: «ولعلّكم تتّقون» بالخطاب، والجواب بدعوى الالتفات عن خطابهم إلى الغيبة بعيدٌ.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ تركوا، وهو مجاز لعلاقة اللزوم والتسبّب، أو لشبه الترك عمدا بالزوال عن الحافظة الذي لا يراد هنا، لأنّه لا يؤاخذ به، ولأنَّ الترك عن عمد هو الذي يترتّب عليه إنجاء الناهين، في قوله ﷻ: ﴿أَنجَيْنَا﴾. ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وعظوا به من عذاب الله وإهلاكه على من خالفه ﴿أَنجَيْنَا اَلذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ اِلسُّوءِ﴾ الصيد في السبت وسائر الفسق واستمرُّوا، أو نهوا لَمَّا رأوا أنّه لا ينفع نهيهم سكتوا، وكلا الفريقين يصدق عليه أنّه ينهى ولو كان أظهر فيمن استمرَّ.

﴿وَأَخَذْنَا اَلذِينَ ظَلَمُواْ﴾ صادوا وفسقوا، أو رضوا، أو أعانوا، أو لم ينهوا قصورا في الديانة، وتهاونا لا اكتفاء بنهي الناهين مع الإنكار بقلوبهم ﴿بِعَذَابِۢ بِيسٍ﴾ شديد، والياء عن همزة كـ«ذيب» بياء عن همزة، مصدر وصف به

ـ قيل ـ أو هو من فعل جامد من باب «نِعْـمَ» صِيرَ وَصْفًا ونعت به، وذلك العذاب البيس عذاب آخر، وهو غير المسخ، أصابهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بالصيد وغيره، ولَمَّا لم ينـزجروا عن الفسق بذلك العذاب بل زادوا اعتداء مسخوا قردة، كما دلَّت عليه الفاء بالأصالة في قوله:

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ تكبَّروا عن ترك ما نهوا عنه من الصيد وسائر الفسق ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً﴾ ويقال: هم الشباب، وأمَّا الشيوخ فخنازير وذلك للآية الأخرى ﴿خَاسِئِينَ﴾ وهم نحو اثني عشر ألفا، أو نحو سبعين ألفا.

(قصص) أخذ رجل سمكة يوم السبت وربطها إلى وتد على الساحل في الماء، وأخذها يوم الأحد فلاموه، وفي السبت الآخر حوتين كذلك وأخذهما في الأحد، فلَمَّا لم يروا العذاب شرعوا في أخذه يوم السبت وبيعه وأكله، فصار أهل القرية أثلاثا معتدين وناهين مستمرِّين، أو غير مستمرين وغير ناهين ولا مكتفين بنهي الناهي بل هانت عليهم المعصية، ويجوز أن يكون العذاب البيس هو هذا المسخ، والفاء خرجت عن أصلها إلى بيان المجمل.

ومعنى القول: توجيه الإرادة الأَزَلِيَّة إلى تصييرهم قردة، ولا كلام في ذلك، والأمر بالكون تهوين، إذ لا قدرة لهم على مسخ أنفسهم، ولو كان لهم قدرة على ذلك لم يفعلوا فليس ثَمَّ أمر ولا مأمور ولا تكليف بكون، ولا لفظ حقيقة، شبَّه تأثير قدرته تعالى في مسخهم بلا توقُّف ولا امتناع ولا عمل ولا آلة بقول المطاع لمطيعه: افعل كذا، فيفعله بلا توقُّف، ففي الآية استعارة تمثيليَّة. و﴿خَاسِئِينَ﴾: أذلاَّء مهانين، والمسخ قردة على حقيقته لا كما قيل مسخت قلوبهم حتَّى لا يفهموا حقًّا كالقردة.

(قصص) قدر عليهم الناهون لقلّتهم بالنسبة للناهين، أو لإلقاء الذلّ عليهم من الله ﷻ أو لعذابٍ شديدٍ أصابهم فضعفوا، فعزلوهم لمخالفتهم جانبا وجعلوا إليهم بابا، وقيل: بابا للناهين وبابا للعاصين، وأصبحوا يوما ولم يخرج إليهم أحد فدخلوا عليهم، أو علوا الجدار عليهم، فإذا هم قردة لا يعرفونهم والقردة تعرفهم وتدور حول أقاربها وأصحابها باكية، وتشمُّ ثيابهم، فيقولون ألم ننهكم؟ فتقول برأسها بلى وماتوا عن ثلاثة أيَّام، قال الحسن: **قلَّما رأيت أحدا أكثر الاهتمام بالمعصية إلاَّ فعلها**، وتقدَّم تحقيق كلام فيمن نجا مختصرا آنفا، وعن ابن عبَّاس ما أدري ما فعل بالفرقة الساكتة وبكى، فقال عكرمة: جعلني الله فداءك لم تهلك قد أنكروا وكرهوا وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ...﴾؟ وروي أنَّه قال أيضا عكرمة: إن لم يقل الله ﷻ أنجيناهم فإنَّه لم يقل أهلكتهم، ورجع إلى قوله وكساه بردين، رواه الحاكم وهو قول الحسن، وروي أنَّه رجع إليه بعد ما جزم بهلاكها، وقال ابن زيد: هلكت.

(فقه) وهذه أشدُّ آية في ترك النهي عن المنكر، وأنت خبير أنَّ النهي على الكفاية فإذا سكت الساكت لقيام غيره بالنهي لا لرضى أو إعانة وقد أنكر بقلبه فلا بأس، ويبعد أن يكون النهي فرض عين عند هؤلاء.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

رفع الجبل فوقهم وإذلالهم إلى يوم القيامة واستثناء الصالحين

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ عطف عامله على «اسْأَلْهُمْ»، أي واذكر إذ تأذّن، والمعنى: أعلَمَ ربُّك أسلاف اليهود على ألسنة أنبيائهم لئن غيَّروا، أو لم يؤمنوا بأنبيائهم، وقيل: بالنبيء الأمِّيِّ ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ ليسلِّطنَّ، جواب القسم المقدَّر المعلَّق لـ«تَأَذَّنَ»، أو جواب لـ«تَأَذَّنَ» على أنَّه بمعنى حقَّق، أو حتَّم، أو عزم، والمريد لفعل شيء يؤذن نفسه به، وأفعال العزم تجاب كالقسم، كـ«عَلِم ربُّك» و«شَهِدَ»، وفسَّره ابن عبَّاس بـ«قَالَ». وهو تَفَعَّلَ ـ بفتحات ـ من الإذن ﴿عَلَيْهِم﴾ على اليهود قبل النبيء ﷺ وبعد بعثه، وعن ابن عبَّاس على اليهود الذين في عصره ﷺ، المرادين في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾، ويجوز عوده إلى اليهود قبله ﷺ لعصيانهم، فيكون ذلك زجرا لليهود على عهده وبعده، ولا يعود إلى من عتوا وصادوا لأنَّهم مسخوا وهلكوا ولا ذرِّية لهم. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلِّق بـ«يَبْعَثَنَّ»، ويضعف تعليقه بـ«تَأَذَّنَ». ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ يعاملهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أفظعه، بالإذلال وأخذ الجزية، فبعث عليهم سليمان عليه السلام أذلَّ عصاتهم، وبعده بختنصر، فقتَّلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية، فكانوا يؤدُّونها إلى المجوس إلى أن بعث نبيئنا ﷺ فضربها عليهم، وقتل منهم وسلَّط عليهم العرب.

وقيل: لم يسلَّط عليهم سليمان بل بختنصر بعده. و"بخت نصر" مفتوح مركَّب مُعْرَب على الراء، ويجوز إعرابه بالإضافة، لأنَّ "بخت": عطيَّة، و"نصر": صنم وجد مطروحا عنده، إذ ولد فأضيف إليه. ولا تزول عنهم

الجزية إلى نزول عيسى فيقتلهم قتلا ولا يقبل عنهم الجزية، وإن صحَّ أنَّهم أتباع الدجَّال إذا خرج زال عنهم الذلُّ[1]، ولا إشكال لأنَّ خروجه كقيام الساعة، أو إذا خرج تركوا اليهوديَّة ودانوا بإلهيَّته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ على العاصي المصرِّ، كناية عن أنَّه لا يردُّ إذا جاء ولا يربَّص، وهو حليم قبل مجيئه، أو سرعته: مجيئه في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ للتائبين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ فرَّقناهم أو صيَّرناهم فرقا، والهاء لليهود مطلقا، وخصَّ المعاصرين للنبيء ﷺ بعد دخولهم في العموم بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، ولقلَّة الصالحين فيهم على عهده ﷺ جدًّا خصَّ بعضُهم الهاءَ هنا بِمَن قبله ﷺ، لكن لا مانع من إرادة الحكم على المجموع في ذكر أنَّ منهم الصالحين. ﴿فِي الاَرْضِ أُمَمًا﴾ فهم في كلِّ أرض، أرض العرب وأرض العجم، في هذه الأرض ومن وراء البحر، وفي الجزائر أذلاَّء لا شوكة لهم، ولا سلطان ولا قرية سكنوها وحدهم. ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ الجملة نعت «أُمَمًا»، والهاء لـ«أُمَمًا»، والصالحون: قبله ﷺ في المدينة وغيرها، والصالحون: المؤمنون به على عهده، ولَمَّا بعث ﷺ كفر به من أدركه إلاَّ قليلا. ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَالِكَ﴾ أي قوم دون ذلك، أو ناس دون ذلك في الصلاح، آمنوا واتَّقوا بعض التقوى و لم يبلغوا مبلغ هؤلاء، وقيل: المراد المشركون منهم، وقيل: المشركون والفاسقون، وأجاز بعضهم حذف الموصول ولو لم يذكر مثله، أي مَنْ دون ذلك بفتح الميم، والإشارة إلى الصلاح المعلوم من ﴿الصَّالِحُونَ﴾، أو إلى ﴿الصَّالِحُونَ﴾ بتأويل من ذكر، وهذا أنسب بالتقسيم، لأنَّ مناسب الصالحين الكافرون والفاسقون،

١-ولعلَّ ذلك الواقع في أيَّامنا فإنَّهم أنصار الدجَّال قولا وعملا، تأمَّل.

والإشارة للصلاح تناسب أنّه قيل منهم الصلاح و لم يقل ذلك، وإن قدِّر: «ومنهم دون أهل ذلك الصلاح» نَاسَبَ. وقيل: إنَّ بعض العرب تطلق «ذَا» للتثنية والجمع كالفرد. ومعنى الدونية: الانحطاط إلى الشرك وإلى الفسق.

﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ﴾ النعم والخصب والعافية جلبا وترغيبا ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الجدب والأمراض والشدائد زجرا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن شركهم وفسقهم.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فيه تجريد خلف عن بعض معناه وهو البعديَّة، واستعمل في باقيه وهو مطلق المجيء حتّى صحَّ مجيء لفظ «بعد» بعده، وأصله المجيء بعد حتّى لا تحتاج إلى ذكر لفظ «بعد» ﴿خَلْفٌ﴾ شُهِر في خَلْفٍ: السوءُ وهو المراد في الآية، وذلك على الغالب، وقد يستعمل في الخير كقول حسَّان:

لنا القدم الأولى إليك وخَلْفُنَا لأَوَّلِنا في طاعة الله تابع

وقد يقال: سكّنه للضرورة، وأمَّا عقب الخير فبفتح اللام، وقد يستعمل في الشرِّ، وكلاهما مصدر يستعمل بمعنى الوصف، وقيل: في المسكن أنّه جمع خليف، ويردُّه أنّه لا يثبت جمع فعيل على فَعْل، وأنّه يطلق أيضا على الواحد فاسم الجمع أولى به، وقيل: جمع لخالف كراكب ورَكْب، وتاجر وتَجْر، والمراد: أسلاف ولو أجانب.

﴿وَرِثُواْ الْكِتَابَ﴾ التوراة، أخذوه عمَّن قبلهم، و«الـ» للعهد، لأنَّ الكلام في اليهود والتوراة كتابهم يقرأونها ويقفون على ما فيها، وذكر ذلك بالإرث لأنَّ الإرث أبلغ ما به الملك، لأنّه لا يفسخ ولا يسترجع ولا يبطل بردٍّ ولا إسقاط، مع ما فيه من السهولة لكونه بلا عقد ولا علاج، ولا يحتاج لقبول أو قبض، والمراد: علماء اليهود على عهده ﷺ لا مطلقهم، وذلك حكم على

المجموع لا كُلِّيَّة، لأنَّ الجهَّال أبعد عن أن يعتبروا بإرثه ولو وجب عليهم العمل به، ولقوله:

﴿يَاخُذُونَ عَرَضَ هَذَا اَلاَدْنَىٰ﴾ هذا المال الأدنى، أي القريب الزوال قليل، أو المال الدنيء أي الخسيس، والخسَّة بالقلّة والتكدُّر، ويردُّه أنَّ هذا مهموز وما في الآية غير مهموز، وادِّعاء قلب الهمزة ألفا تكلُّف، وذلك مال الدنيا وعرضه ما تيسَّر لهم أخذه من حلال أو حرام، سمِّي عرضا لعدم ثباته، ومنه سَمَّى المتكلِّمون ما يقابل الجوهر عرضا لأنَّه لا يبقى، ومن ذلك قوله ﷺ: «**الدنيا عرض حاضر يأكل منها البرُّ والفاجر**»[1] وقوله ﷺ: «**الدنيا عرض حاضر وظل زائل**»[2] وصفهم بالرغبة في المال حلالا وحراما بما تقدَّم، وبيَّن الحرام بقوله:

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ يأخذون الرشا في الحكم وعلى تحريف التوراة وعلى كتمها، وعلى تفسيرها بغير معناها وعلى محو ما أرادوا، وعلى كتمانه، ويتمنّون أو يرجون مغفرة ذلك بلا توبة بل مع إصرار كما قال:

﴿وَإِنْ يَّاتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ﴾ في الحرمة ﴿يَاخُذُوهُ﴾ بل ظاهر يقولون الجزم بالمغفرة مع الإصرار، وهو أشدُّ قبحا عليهم، ويأخذون مستأنف لبيان حالهم، أو حال من واو «وَرِثُواْ» ونائب فاعل «يُغْفَرُ» هو «لَنَا»، أو مستتر عائد إلى الأخذ المعلوم من «يَاخُذُونَ»، والإسناد إلى نائب الفاعل ولو ظرفا أو مصدرا حقيقةٌ لا مجاز كما قيل.

وقرَّرهم ووبَّخهم بقوله: ﴿أَلَمْ يُوخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي الميثاق في

١- أخرجه **الشافعي** في مسنده رقم ٦٧. وأورده أيضا **القرطبي** في تفسيره: ج٥ ص٣٣٩.

٢- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

التوراة، وأضيف إلى الكتاب لأنه فيه أو لأنَّه متعلَّقه إن علّق به كمكر الليل، أي استيثاق في التوراة ﴿أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اَ للهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ﴾ فإذا طمعوا في الغفران مع الإصرار، أو طلبوه مع الإصرار، أو اعتقدوا إمكانه فقد قالوا على ا لله غير الحقِّ، فإنَّ فيها من ارتكب ذنبا عظيما لا يغفر له إلاَّ بالتوبة، و«أَن لاَ يَقُولُواْ» في تأويل المصدر عطف بيان للميثاق، أو بدل، أو متعلّق به على إضمار الباء، أي: بأن لا يقولوا...، أو متعلّق بـ«يُؤْخَذ» على إضمار لام التعليل، أو «أَنْ» تفسيرٌ لأخذ الميثاق فتكون «لاَ» ناهيةً.

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ عطف على «وَرِثُوا»، والجامع عقليٌّ، لأنَّ إرث الكتاب سبب لدرسه، وفسَّره بعض بضيَّعوا في هذا الوجه، أو عطف على «أَلَمْ يُؤْخَذْ» باعتبار معناه الخبريِّ المأخوذ من التقرير، كأنَّه قيل: قد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، ودرسوا ما فيه، عقليٌّ أيضا، لأنَّ الدراسة سبب للاطِّلاع على الميثاق الوارد في الكتاب، وذلك كعطف ﴿وَضَعْنَا﴾ على ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ (سورة الشرح: ١،٢)، و﴿لَبِثْتَ﴾ على ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ (سورة الشعراء: ١٨)، وأجيز عطفُهُ على «لَمْ يُؤْخَذْ»، فينسحب عليه الاستفهام التقريريُّ، أي: قد ثبت درسهم له فلِمَ لا يعملون به؟

﴿وَالدَّارُ الاَخِرَةُ خَيْرٌ﴾ نفع، أو أفضل بالنسبة إلى ما في الدنيا من فضل، فإنَّ ما يأخذون من نحو الرشا فيه فضل دنيويٌّ على عدم أخذه ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الحرام والقول على ا لله بغير الحقِّ ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أتدرسون فلا تعقلون؟ خطاب للذين يأخذون عرض هذا الأدنى على طريق الالتفات من الغيبة للخطاب، ويبعد أن يكون الخطاب لهذه الأمَّة في ذلك العصر، إذ لم تظهر الرشوة على عهد نزول الآية، اللهمَّ إلاَّ إن اعتبر ما يصير بعدُ، أو يراد:

أفلا تعقلون حال اليهود فتحتجُّوا عليهم؟.

﴿وَالذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ بالشدِّ للمبالغة، أو لموافقة يمسك الثلاثي، كما أنَّه جاء «أمسك» بالهمزة بلا زيادة معنى على مسك بالتخفيف، والمعنى: يعملون، وهذا أولى لأنَّ الموفِّي بالدين من الصالحين ولو لم يبالغ. والمضارع للتجدُّد والاستمرار، لأنَّ التمسيك يَعُمُّ الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فإنَّها في أوقات ـ كذا قيل ـ مع أنَّ أوقاتها عامَّة إلاَّ أنَّ عمومها دون ذلك. ﴿بِالْكِتَابِ﴾ التوراة ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ﴾ ذكر إقامتها مع دخولها في قوله: ﴿يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ﴾ تعظيما لشأنها وترغيبا، ولأنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمعنى أنَّه من عمل ذلك من أهل الكتاب قبل بعثه ﷺ أو بعدها وعمل بالقرآن والعملُ به داخل في التمسيك بالتوراة، لأنَّ في التوراة الأمر بطاعته ﷺ.

أو المراد: من آمن به ﷺ على عهده كعبد الله بن سلام وأهله وعمَّته خالدة بنت الحرث، والنعمان السبائي، ومخيرق أسلم يوم أحد، ومحمَّد بن يامن، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن شعية، وأسيد بن عبيد، قيل: وابن صوريا. أو المراد: مسلمو هذه الأمَّة، والكتاب: القرآن، ويناسبه مع القول بأنَّ المراد: من أسلم من اليهود على عهده ﷺ أنَّ غيرهم من مؤمني اليهود تقدَّم في قوله: ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾.

و«الذِينَ» مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُصْلِحِينَ﴾ والربط هو قوله: ﴿الْمُصْلِحِينَ﴾، لأنَّهم نفس من تمسَّك بالكتاب وأقام الصلاة، أو الربط العموم، على أنَّ المراد: الموفون بدين الله مطلقا، أو محذوف، أي: المصلحين منهم، على أنَّ «مِنْ» للبيان، ويجوز أن تكون للتبعيض، وهذا على أنَّ معنى التمسُّك بالكتاب الإيمان به وعلاج العمل به، فقد لا يوفِّي لعمل كبيرة، فخصَّ المصلحين وهم الموفون.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا اَلْجَبَلَ﴾ رفعناه من أصله قلعا له، كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا

فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾(سورة البقرة: ٩٣)، أو جبدناه بشدَّة، أو زعزعناه، وهذا ردٌّ على اليهود إذ قالوا: لم تعص أسلافنا على حدِّ ما مرَّ في قوله: ﴿وَسْأَلْهُمْ﴾. والجبل: الطور الذي سمع موسى فيه كلام الله وأخذ فيه الألواح، أو جبل من جبال فلسطين، أو هو الجبل عند بيت المقدس، لَمَّا أتى موسى بالتوراة وقرأها عليهم امتنعوا من قبولها لِمَا فيها من التغليظ، فقلع الجبل وأقامه على رؤوسهم بينه وبينهم قدر القامة بقدرهم، فرسخا في فرسخ، فخرُّوا ساجدين على خدودهم وحواجبهم اليسرى ناظرين بعيونهم اليمنى خوف أن يسقط عليهم، فلذلك لا تسجد اليهود إلاَّ كذلك، وكان أحبَّ السجود إليهم يقولون لأنَّه دُفع عَنَّا العذاب به.

﴿فَوْقَهُمْ﴾ حال مقدَّرة، إذ الجبل حال نتقه ليس فوقهم، أو متعلِّق بـ«نَتَقْنَا» على تضمين معنى أثبتنا، قيل: أو لمعنى رفعنا بالنتق الجبلَ ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ سحابة أو سقيفة والجملة حال من «الْجَبَل».

﴿وَظَنُّواْ﴾ رجَّحوا، أو أيقنوا، لأنَّ رفعه على أن يقع عليهم إن لم يقبلوا التوراة ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ عطف على «نَتَقْنَا»، أو حال ثان، أي ساقط عليهم إن لم يقبلوا التوراة فقبلوها، والباء بمعنى على، أو للإلصاق. وروي أنَّه لَمَّا نشر موسى عليه السلام ألواح التوراة بينهم لم يبق شجر ولا جبل ولا حجر إلاَّ اهتزَّ، ولذلك لا ترى يهوديًّا تقرأ عليه التوراة إلا اهتزَّ وحرَّك رأسه.

وقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مفعول لقول محذوف حال من ضمير «نَتَقْنَا»، أي قائلين: «خُذُواْ...»، أو قول معطوف على «نَتَقْنَا» حذف هو وعاطفه، أي وقلنا: «خُذُواْ...». و﴿مَآ ءَاتَيْنَاكُمْ﴾: الكتاب، والقوَّة: الاجتهاد بالدرس والعمل؛ وذِكْر ما فيه: نشره في

الناس وحملهم عليه؛ أو خذوه بالقبول والدرس، واذكروا ما فيه بالعمل، ولا تجعلوه كشيء نسي ولا يعمل به؛ والاتّقاء: ترك قبائح الأعمال، وأخلاق السوء، والاعتقاد الزائغ؛ أو الأخذ بقوّة: القبول والعمل، وذكر ما فيه: قراءته.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٧٤﴾

الميثاق العامُّ المأخوذ على بني آدم

﴿وَإِذَ اَخَذَ رَبُّكَ﴾ في الجنَّة، أو في بطن "نعمان" واد جنب عرفة، أو بـ"سرنديب" جبل في هند، نزل آدم فيه من الجنّة، أو بين مكّة والطائف. وعبّر بالأخذ عن الإخراج لأنَّ فيه اختيارا للمأخوذ وهو السبب في الإسناد إلى الربِّ، على طريق الالتفات السكّاكي فقط، لأنَّ هذا منقطع عن الخطاب قبله الذي في بني إسرائيل. والإضافة إلى الكاف تشريف له ﷺ، ومقتضى الظاهر: وإذ أخذت ﴿مِن بَنِي ءَادَمَ﴾ الذين في صلبه قبل أن يلدهم، سمَّاهم أبناء لأنّهم سيولدون فهو من مجاز الأوّل ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل بعض ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ مفعول «أَخَذَ»، والإخراج من ظهورهم فرع إخراجهم من ظهره ولازم له.

(قصص) فأفادت الآية إخراج أولاده الذين من صلبه والإخراج من صلبهم وهم بنو آدم كلُّهم، وقيل: هم مائة وعشرون كما تلدهم حوّاء بعدُ، تلد كلَّ سنة ولدين ابنا وبنتا، وأخرج ممَّا أخرج منهم نسلا، ومن هذا النسل ذرِّيَّة ومن الذرِّيَّة ذرِّيَّة، وهكذا ثمَّ ردَّهم في ظهر آدم أحياء وأماتهم في داخله، وا لله

قادر أن يشملهم جسد آدم واستحالوا لحما ودما حتّى يخرجوا نطفا، وهم صور إنسان دقاق، أودعها الحياة والعقل وأخرجها، السعيد أبيض والشقيُّ أسود، وعلى صور الذرِّ كذلك والإخراج من مسام ظهره، أي ثقبه أو شقِّ ظهره، أو من ثقوب رأسه.

ونصّ القرآن الظهر، والأوّل أصحُّ، وأولى منه أن يخرجهم ا لله بقدرته بلا توسُّط شقٍّ أو ثقب كما خلق حوَّاء منه، وما روي أنّه مسح بيمناه على ظهر آدم فخرج السعداء، وبيسراه فخرج الأشقياء كناية عن التعظيم والإهانة، إذ لا اتِّصَال بين الحادث والقديم، أو المسح: التقدير، أو مسح المَلَك، وذلك في الجنَّة، وقيل: في " نعمان " بعد الخروج، وقيل: قبل الدخول.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قال: احملوا لي عليكم شهادة، وليشهد أيضا بعضكم على بعض، وشهادة المرء على نفسه إقرار ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي قائلا: ألست بربِّكم؟ أو محكيٌّ بـ«أَشْهَدَ» لأنَّه في معنى القول، قال لهم: اِعلموا أنَّه لا إله غيري، ولا ربَّ لكم غيري، وسأنتقم مِمَّن أشرك بي، وأُرسِلُ إليكم من يذكّركم هذا الميثاق وأُنزِلُ كتبا، وقد علم ا لله أنَّهم ينسونه لطول الأزمنة وتغيُّر الأطوار وكثرة التنقُّلات. وعن علي الإمام: إنِّي لم أنس ذلك و لم أنس قولي بلى، وكذا عبد ا لله التستري، وزاد أنّه يعرف تلامذته من ذلك اليوم، وأنَّه لم يزل يربّيهم في الأرحام حتّى وصلوا إليه والعهدة عليه[1].

١- أي العهدة على التستريِّ الذي قال هذا القول، أو على من تقوَّل عليه. والتستريُّ هو سهل بن عبد ا لله بن يونس ولد في تستر بالأهواز سنة ٢٠٠هـ وسكن البصرة وتُوُفِّيَ بها سنة ٢٨٣هـ. صحب ذا النون المصري بمَكَّةَ فترة أحد أئمَّة الصوفيَّة وعلمائهم والمتكلّمين في الرياضيَّات والإخلاص، وعيوب الأفعال. قال ابن خلّكان: «لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع». انظر: عادل نويهض: معجم المفسِّرين، ج١، ص٢١٨.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي أنت ربُّنا لا غيرك، وكتب إقرارهم وألقمه الحجر الأسود، وكتب أجلهم ورزقهم وبليَّتهم، وآدم مشاهد للخروج والإقرار والإدخال، فرأى غنيًّا وفقيرا، أو حسنا وغيره، وصحيحا ومريضا، فقال: يارب لو سوَّيت بينهم؟ فقال: إنِّي أحبُّ أن أشكر، والأشقياء قالوا: بلى، خوف هيبة منه فلم ينفعهم، والسعداء قالوه باختيار فنفعهم. وجاء التقرير بـ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لإظهار جلاله وأمارة نافعة، وقيل: بالتربية والإخراج المشاهد فقالوا كلُّهم: بلى، ولا دليل لمن قال: إنَّ الوقف على ﴿بَلَىٰ﴾ وفيه تمَّ كلام الذرِّيَّة، و﴿شَهِدْنَا﴾ من كلام الملائكة.

وقيل: الآية استعارة تمثيليَّة بأن أخرجهم ونصب لهم دلائل ربوبيَّته، وركَّب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها، حتَّى صاروا بمنزلة من قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ نزَّل تمكينهم من العلم بها وتمكُّنهم منه منزلة الإشهاد والاعتراف. ﴿شَهِدْنَا﴾ بذلك تأكيد في المعنى لـ«بَلَى»، لا كما زعموا أنَّ الجمل مقدَّرة بعد «بَلَى» و«نعم»، فإنَّ ما يقدِّرون هو نفس معناهما، وأمَّا «لا» فتقدَّر بعدها الجمل، لأنَّها وضعت لأن تنفيَ ما بعدها من جملة أو مفرد.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ حذَر أن تقولوا، أو لئلاَّ تقولوا، وهو تعليل لـ«أَشْهَدَهُمْ»، والخطاب على طريق الالتفات إليه من الغيبة، كأنَّه قيل: لِئَلاَّ يقولوا، أو حذر أن يقولوا ﴿يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي عن الميثاق الذي أخذ علينا في التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾ لا نعرفه لا يكون لهم حجَّة، لأنَّهم قد أخذ عنهم، وقيل لهم: ستنسونه ونبعث إليكم كتبنا ورسلنا به. ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبلنا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم، فالمؤاخذة عليهم لا علينا ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ تعذِّبنا ﴿بِمَا فَعَلَ اَلْمُبْطِلُونَ﴾ آباؤنا المبطلون بتأسيس الشرك لنا.

﴿وَكَذَالِكَ﴾ كما بيَّنَّا هذه الآية من أخذ الميثاق ﴿نُفصّلُ﴾ نُبيِّنُ ﴿الآيَاتِ﴾ سائر الآيات وتَقَدَّمَ كلام في مثل هذا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم والتقليد فيه، إلى الاستدلال بالحجج النَّقلِيَّة والعَقلِيَّة على الوَحدَانِيَّة وصدق الرسل، وقد ثبت في العقول على الإطلاق أنَّ التقليد في الأمور على الإطلاق دِينِيَّة أو دُنيَوِيَّة لا يكون عذرا مع قيام الدليل والتمكُّن من العلم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَـٰٓئِكَ كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

نماذج من المهتدين والضالّين

﴿وَاتْلُ﴾ يا محمَّد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود، عطف على اذْكُرْ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ. ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿الذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ علم بعض الكتب كالتوراة والصحف والكتب قبل ذلك، وما حصله ممَّا سطِّر قبله، أو من السماع حتَّى كان عنده الاسم الأعظم الذي لا يردُّ معه دعاء ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ كما

تنسلخ الحيَّة من جلدها، فلم يتأثَّر بها وكفر بعد الإيمان، فصحَّ الكلام بلا دعوى قلب، إذ لم يقل انسلخت منه، وقد قيل: إنَّ الأصل «انسلخت منه» فقُلب، واستدلَّ بعض بالآية على أنّه يقال: انسلخ الرجل من العلم، ولا يقال: انسلخ العلم منه، وكذا في النزع، قلت كلُّ ذلك وارد، كما ورد أنَّ الله تعالى نزع الاسم الأعظم من بلعام ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ تبعه الشيطان، من باب أَفْعَلَ بمعنى فَعَلَ، أي لزمه بالوسوسة والإضلال، ولم يفارقه كأنّه قيل: أدركَه وصار قرينه.

وقد قيل: معناه أدركه الشيطان بعد أن غلب الشيطان بالعبادة، أو تبعه الشيطان على أنّه إمام الشيطان مبالغة، أو صيَّره تابعا إيَّاهُ كقوله تعالى: ﴿اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾(سورة الطور: ٢١) في قراءة على معنى أنّه جعله تابعا لخطواته ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الضالّين.

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ رَفْعه ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ بالآيات والعمل بها إلى منازل العلماء الأبرار ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ﴾ مال واطمأنَّ، والمراد: فأعرض عنها، فعبَّر عن الإعراض بسببه وهو الميل إلى الدنيا، وإنّما كان سببا لتعلُّق المشيئة به، كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ والسبب الحقيقيُّ: المشيئة. ﴿إِلَى الاَرْضِ﴾ أي إلى الدنيا، عبَّر عنها بالأرض، لأنَّ الأرض للسكنى والحركة والسكون، والغرس والحرث والبناء والعيون والتجر وكسب الأموال والمعادن، والنكاح والتسرِّي ونحو ذلك من الملاذّ، وذلك متاع الحياة الدنيا. أو الأرض عبارة عن السفالة في الدين، وقيل: مال إلى الخلود في الأرض طامعا فيه لاسم الله الأعظم الذي عرفه، واختيار لفظ الأرض مشاكلة للسماء الملاحظة بذكر قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في المعاصي واختيار الدنيا على الدين وبيع الدين بالدنيا، فلم نرفعه بل وضعناه.

﴿فَمَثَلُهُ﴾ صفته الشبيهة بالمثل الذي هو كلام شبه مضربه بمورده في الغرابة ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي صفة الكلب، وفسَّرها بقوله: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ تشدد عليه بالطرد ﴿يَلْهَثْ اَوْ تَتْرُكْهُ﴾ لم تحمل عليه عطف على «تَحْمِلْ» بـ«أَوْ» ﴿يَلْهَثْ﴾ عطف على «يَلْهَثْ» بها، يلهث دائما حمل عليه أم لم يحمل عليه لضعف فؤاده، فهو يلهث وإن لم يعي ولم يعطش، واللهث: إخراج اللسان في تنفس.

شبَّه بأخسِّ الحيوان في أخسِّ أحواله، تصويرا للمعقول بالمحسوس، إذ واظب على حبِّ الدنيا ومالها وهو وسخ الناس، وقد آتاه الله العلم والكفاف حتّى ألقى نفسه في خسَّة فوق خسَّة الكلب اللاهث لهثا متتابعا، فهو متابع للدنيا اتّبَاعا مستمرًّا.

(قصص) وهو بلعم بن باعوراء، وقيل: بلعام بن باعر، والمراد واحد، إلاَّ أنّه اختلف في اسمه واسم أبيه؛ من علماء بني إسرائيل، وقيل: من كنعان، وكان يرى العرش إذا نظر إليه؛ قيل: كان في مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلّمين الذين يكتبون عنه[1] ثمَّ إنَّهُ أوَّل من ألّف كتابا بأنّه ليس للعالم صانع.

وعن مالك بن دينار رحمه الله أنّه بعث بلعم بن باعوراء إلى ملك مدين ليدعوه إلى الإيمان فأعطاه مالا وأقطعه أصلا وتبعه، وترك دين موسى عليه السلام. قيل: وكان قد أوتي النبوءة واسم الله الأعظم وإجابة الدعوة، [قلت:] ولا يصحُّ أنّه أوتي النبوءة لأنَّ الأنبياء لا يعصون صغيرة فكيف يشركون، إلاَّ إن أريد بالنبوءة علم النبوءة كما قال ﷺ: **«من حفظ القرآن فقد طوى النبوءة بين جنبيه»**[2].

١- لايخفى عليك ما في هذا من مبالغات الأقدمين.

٢- رواه **الترمذي** في كِتَاب الترغيب، ج٢، ص٣٥٢، رقم ٢١ بلفظ: «من قرأ القرآن...» من حديث ابن عمرو.

(قصص) وروي أنَّ موسى عليه السلام أتى أرض الجَبَّارين، وهي من أرض الشام ليقاتلهم، وهم بنو كنعان، فأتوا بلعم فقالوا: إنَّ موسى شديد ومعه جند عظيم جاء ليخرجنا من أرضنا ويسكن فيها بني إسرائيل فادع الله ليردَّهم عَنَّا، فقال: ويلكم كيف أدعو على نبيء الله والمؤمنين ومعهم الملائكة، وأنا أعلم من الله ما لا تعلمون، وإن فعلت ذهبت دنياي وآخرتي، وألحُّوا عليه فقال: أؤامر ربِّي، وكان لا يدعو حتَّى يؤامر الله عز وجل، فقيل له في المنام: لا تفعل، فقال لهم: نهاني، فأهدوا له وألحُّوا، فآمر الله ثانيا فقال: لم ينهني، فقالوا: لو كره لنهاك كأوَّل مرَّة، ولم يزالوا يتضرَّعون له حتَّى فتنوه، فركب أتانه متوجِّها إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له "حسبان"، فسارت قليلا فقعدت، وضربها فقامت فركبها فسارت قليلا فقعدت فضربها فقامت، وهكذا مرارا فأنطقها الله: ويحك يا بلعم أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي تردُّني عن وجهي؟! ويحك كيف تدعو على نبيء الله والمؤمنين؟ فخلاها الله حتَّى أتى الجبل فجعل يدعو بسوء ويقلب الله لسانه على قومه، وبخير فيصرفه الله إلى بني إسرائيل، وقالوا له: ويحك ما تصنع؟ فقال: لا أملك شيئا، فوقع لسانه على صدره، فقال: ذهبت عنِّي الدنيا والآخرة ولم يبق إلاَّ الحيلة فزيِّنوا النساء وأعطوهنَّ ما يبعن لهم، ولا يمتنعن عَمَّن أرادهنَّ، فإن زُنِيَ بواحدة كفيتموهم، فمرَّت جميلة على عظيم من بني إسرائيل، وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب فأخذها ومرَّ بها إلى موسى عليه السلام، فقال: تزعم أنَّ هذه حرام عليَّ! فقال: نعم حرام حَلِّهَا، فقال: لا أطيعك فرجع بها إلى قبَّته فواقعها، فأهلك بالطاعون سبعون ألفا منهم. وروي أنَّ بلعم دعا عليهم فكانوا في التيه، فقال موسى: يا ربِّ بم وقعنا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعم باسمي الأعظم، فقال: ياربِّ كما سمعت دعاءه فاسمع دعائي عليه بسلب اسمك الأعظم عنه فسلب، فخرج منه كحمامة بيضاء.

[قلت:] ويبحث بأنَّ سببه قولهم: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبَ اَنتَ وَرَبُّكَ...﴾(سورة المائدة: ٢٢)، وقد يجمع بأنَّ دعاء بلعم هو سبب وقع الرعب بهم من كنعان حتّى قالوا ذلك، وأمَّا ما قيل كيف يدعو موسى سلب الاسم الأعظم وهو نبيء يدعو إلى الإسلام؟ فلا يصحُّ، لأنَّه دعا بسلبه لأنَّه يضرُّ المسلمين به، و لم يدع بأن يكون مشركا، وقيل: دعاه ملك البلقاء أن يدعو على موسى فلا يدخل بلده أو لا يدخل بلدي فدعا، فوقعوا في التيه، ويردُّه أنَّ التيه راحة لموسى ونقمة على قومه إذ عصوا، ويقال: كيف لم يدع على الملك فينجو من شرِّه ومن الدعاء على موسى وقومه؟ ويقال: إنَّ الجبَّار المذكور نصب له خشبة يصلبه عليها إن لم يدع.

وروي أنَّ الآية في رجل من بني إسرائيل أعطاه الله ثلاث دعوات مستجابات، فقالت له زوجه البسوس: أعطني واحدة فأعطاها، فقال: ما تريدين؟ فقالت: أن أكون أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا فكانت، فرغبت عنه فدعا فكانت كلبة تنبح، فقال له أولاده منها: إنا نعيَّر بها فادع الله ﷻ أن يعيدها كحالها الأوَّل، ففعل، فذهبت دعواته فيها.

وقيل: في أميَّة بن أبي الصلت قرأ الكتب وعلم أن الله يرسل رسولا في زمانه فرجا أن يكونه، ولَمَّا بعث الله ﷻ نبيئنا محمدًا ﷺ كفر به حسدا، روي أنَّه ﷺ قرأ عليه ﴿يسٓ﴾ وخرج يجرُّ رجليه، فقال له قريش: ما تقول؟ فقال: إنَّه على الحقِّ فقالوا: أتؤمن به؟ قال: أنظر. ويروى أنَّه أراد الإسلام وجاء إليه فسمع بوقعة بدر فقال: لو كان نبيئا لم يقتل قومه، وذلك جهل منه لأنَّه قتلهم بإذن الله ﷻ.

وقيل: في أبي عامر بن النعمان الراهب، ترهَّب ولبس المسوح في الجَاهِلِيَّة، فقدم المدينة فقال للنبيء ﷺ: ما هذا الذي جئتنا به؟ فقال: بدين إبراهيم

الطَّيْلاً، فقال: فأنا عليه، فقال ﷺ: لا بل زدت عليه، فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب طريدا وحيدا، فخرج إلى الشام فأرسل إلى المنافقين استعدُّوا بالسلاح وَالقُوَّة وابنوا لي مسجدا، وَإِنِّي آتي بجند من قيصر أخرج به محمَّدًا وأصحابه من المدينة، فمات بالشام طريدا وحيدا.

﴿ذَالِكَ﴾ المثل في الحرص على الدنيا ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾ صنع كُفَّار مكَّة مع رسول الله ﷺ للحرص على الدنيا ما يشبه فعل بلعم مع موسى، فلا يراد أنَّ هذا تمثيل لحال بلعم فكيف قال بعده: ﴿سَآءَ مَثَلاً الْقَوْمُ...﴾؟ ولم يضرب إلاَّ لواحد، وكانوا يقولون: إن جاءنا نبيء آمنَّا به، أو القوم: اليهود أتاهم الله في التوراة العلم بالنبيء ﷺ وصفاته، حتَّى إنَّهم يبشِّرون الناس به ويستفتحون به على مشركي العرب إذا آذوهم، ولَمَّا جاء كفروا به وانسلخوا عن حكم التوراة، وقيل: **المراد ما يعمُّ هؤلاء كلَّهم.**

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ المذكور، وهو مفرد مصدر بمعنى مفعول، أي: أقصصه على اليهود المعاصرين لك، فإنَّها نحو قصَّتهم معك حين انسلخوا عَمَّا وجدوا في التوراة من صفاتك، وبقصِّك إِيَّاهُ عليهم ترغمهم بذكر صنعهم الخبيث معك، ويعلمون بقصِّك أنَّه جاء من الله بالوحي ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ المعنى: أقصص القصص راجيا لتدبُّرهم فيؤمنوا، أو رجاء له.

﴿سَآءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾ أي ساء مثلاً مثلُ القوم المذكورين، أي هو مثل القوم، أو ساء أصحاب مَثَلِ القومُ بجرِّ «مَثَلٍ» منونا ورفع «القَومُ»، فقدَّرنا المضاف أوَّلا أو آخرا، لأنَّ المثل ليس نفس القوم. ﴿الذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا﴾ بعد وضوحها ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾ لا غيرها منصوب بـ«يَظْلِمُونَ»، قدِّم للفاصلة والحصر. وقوله: ﴿كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ عطف على «كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا» ودخل «أَنفُسَهُمْ» في العطف، أي القومَ الجامعين للتكذيب وظلم أنفسهم.

﴿مَن يَهْدِ ا للهُ﴾ لدينه هدى عصمة ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ أي الهدى منحصر فيه لا يتجاوزه، هدى العصمة، بأن يهدي نبيء أو غيره أحدا هدى عصمة لم يهده ا لله لا يتصوَّر هذا، اقتصر عَلَى ذكر الهدى بقوله: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ لأنَّ في الاهتداء خير الدنيا والآخرة، كما أنَّ الخسران شامل للدنيا والآخرة، ولذلك قال: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يخذله ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ راعى لفظ «مَنْ» الأَوَّل فأفرد تلويحا بأنَّ المهتدين كواحد لاتِّحاد دعواهم، بخلاف الضالِّين فلهم سبل لا تنحصر، لأنَّها بحسب هواهم، ونفسهم الأَمَّارة بالسوء والشياطين.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خلقنا والآية تذييل لِمَا قبلها، وتسلية لرسول ا لله ﷺ بأنَّ من عصاه و لم يتب فهو مِمَّن ذرأه لجهنَّم. ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ قدِّم على المفعول به الصريح لطوله، والمراد بـ«جَهَنَّمَ» مطلق دار العذاب الأخرويِّ لا خصوص طبقة تسمَّى بذلك، واللام للعاقبة لا للتعليل كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦) فخلقهم يترتَّب عليه صرف اختيارهم إلى الباطل، وعلى ذلك خلقهم بلا إجبار ومع أنَّه تعالى أراد الكفر من الكافر، وقيل: للتعليل وضُعِّف، وأولى منه أن تكون لشبه الملك.

(لغة) ولام الاستحقاق هي الواقعة بين معنى وذات، نحو «الحمد لله» و«العزَّة لله» و«الملك لله» أي التملُّك لله والأمر لله ونحو ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (سورة المطففين: ١)، أي هلاك، و﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ (سورة البقرة: ١١٤)، و«للكافرين النار»، أي عذابها.

ولام الاختصاص هي الواقعة بين ذاتين التي تلي لا تملك الأخرى، نحو: «وللكافرين النار» إذا لم تعتبر عذاب النار، ونحو: الجنَّة للمؤمنين فإنَّ مالك الجنَّة هكذا هو ا لله تعالى، وإن اعتبرت تَنَعُّم الجنَّة أو لذَّة الجنَّة فللاستحقاق، لأنَّها بين معنى وذات، ونحو: «الحصير للمسجد»، و«المنبر للخطيب»،

و«السرج للدابَّة»، و﴿إِنَّ لَهُۥ أَبًا﴾ (سورة يوسف: ٧٨)، ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥ إِخْوَةٌ﴾ (سورة النساء: ١١)، و«القميص للعبد».

(فقه) على أنَّ العبد لا يملك، وقيل: يملك ما أعطاه غير سيِّده لا لوجه سيِّده، وقيل: يملك ما أعطاه سيِّده أيضا، وعلى الأوَّل الشافعي وأصحابنا.

(لغة) ولام الملك هي الواقعة بين ذاتين يصلح أن تكون التي بعد اللام مالكة للأخرى. والمراد بالذات: ما هو جسم وما ليس جسما ولا عرضا، نحو: «لزيد دار»، و« لله السماوات والأرض»، و« لله الملك» بمعنى الأجسام المملوكة. وقد تجتمع الذات وغيرها مع الذات كالمثال إذا أريد بالملك الأجسام المملوكة والأعراض، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(سورة سبأ: ١) إذا أريد الأجسام والأعراض. وإن فسِّر الويل في الآية بواد في جهنَّم أو بجُبٍّ فيها فواقعة بين ذاتين. وَأَمَّا «دمت لك» فواقعة بين معنى وذات، لأنَّ الدوام معنى، وكذا «الشعر لفلان» بمعنى نفس تركيبه أو النطق به، وأمَّا الصوت فلكلِّ ناطق به صوت، والصوت جسم.

وإن شئت فاللام للاستحقاق وللاختصاص، وَمِمَّا يشمل الاختصاص الملك، فلام «الْحَمْدُ للهِ» للاستحقاق أو الاختصاص لا للملك، ومن قال: للملك فلعلَّه اعتبر معنى انَّ ا لله تعالى مالكا لكلِّ شيء، والجمهور على منع استعمال الكلمة في معنييها أو معانيها، فحيث احتمل استعمالها في الأجسام والأعراض حملت على الأجسام فتدخل الأعراض بالتبع، ولو عبِّر عن معانيها كلِّها بالاستحقاق لصحَّ وزال الاشتراك، [قلت:] **والحقُّ أنَّه يجوز تعليل أفعال** ا لله بالأغراض على وجه لا يقدح في صفات ا لله ﷻ.

﴿كَثِيرًا﴾ لا قليلا، وليس في الآية أنَّ أهل النار أكثر من أهل الجنَّة بل في الحديث، إلاَّ باعتبار أنَّ المعنى: لقد ذرأنا لجهنَّم كثيرا بخلاف الجنَّة فخلقنا لها

قليلا بالنسبة، لَكِنَّ مفهوم جهنم مفهوم لقب ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنسِ﴾ ولا يوجد في جهنَّم معذَّب سواهم، يعني كثيرا مِمَّن أصرَّ منهم على الكفر. وقدَّم الجنَّ لأنّهم أشدُّ جهالة وعمى وصمما في الدين، وأشدُّ شبها بالأنعام، وأكثر عددا، وأقدم خلقا، ويتضرَّرون بالنار ولو خلقوا منها، كما يتضرَّر الإنسان بالطين ولو خلق منه، وحقيقة النار لم تبق فيهم، كما أنَّ حقيقة الطين لم تبق في الإنسان، وأيضا نار الآخرة غير النار التي خلقوا منها، وأيضا المعذَّب هو الروح وليس مخلوقا من النار.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ قابلة للتدبُّر ومتمكِّنة منه، أهملوها فلم ينتفعوا بها كما قال: ﴿لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ما هو الحقُّ ﴿وَلَهُمُ, أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ إبصار استدلال، أو كأنَّهم عمي فقدوها إذ لم ينتفعوا بها للدين ﴿وَلَهُمُ, ءَاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما أنزل وما نصب من الأدلَّة، أو كأنَّهم صمٌّ إذ لم ينتفعوا بها لدينهم.

﴿أُوْلَئِكَ كَالاَنْعَامِ﴾ التحقوا بالأنعام حين أهملوا ما ميَّزهم الله به من العقل والتمكُّن من الفهم، فصاروا كالأنعام الفاقدة لذلك الذي يميِّزون به، وأضرب عن ذلك إضراب انتقال بقوله: ﴿بَلْ هُمُ, أَضَلُّ﴾ من الأنعام لأنَّها تهرب من مضارِّها وتقصد منافعها، وإذا قارنها هاد اهتدت إلى ما أريد منها بخلاف الكافر، فإنَّه لا يهتدي بهاد، ويحطب لنفسه ما يحرقها من الذنوب عنادا، مع علمه أو تمكُّنه من الهدى، ولا خفاء في أنَّه من ضيَّع ما يصل به إلى الفضائل العظيمة أخسُّ مِمَّن لا يكسبها لعدم قدرته وهي البهائم، وأيضا هي مطيعة لله ﷻ عابدة غير عاصية.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة المهلكة، قالت عائشة رضي الله عنها في صبيٍّ مات من الأنصار: «طوبى له من أهل الجنَّة» فقال ﷺ: «ما

يدريك أنَّ ا لله خلق للجنَّة أهلا وللنار أهلا وهم في أصلاب آبائهم؟»[١] وهذا قبل أن يعلم أنَّ الأطفال مطلقا في الجنَّة، ويروى: «عصفور من أهل الجنَّة».

﴿وَ للهِ الاَسْمَآءُ الْحُسْنَى﴾ ألفاظ يذكر بها ويختصُّ بها، كما أفاده تقديم ﴿وَ للهِ﴾، لا توجد حقيقة معانيها لغيره ولو وجد لفظهما، إلاَّ ا لله والرحمن فلا يوجد لفظهما لغيره، ولا يحلُّ، فلا يجوز أن تُسَمَّى السورة بعد ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ الرحمن كما في ألسن العَامـَّة، بل يقال: «سورة الرحمن». وذلك حرام، وجاء الحديث: «**إنَّ لله تسعة وتسعين اسما مائة إلاَّ واحدا من أحصاها دخل الجنَّة وإنَّ ا لله وتر يحبُّ الوتر**»[٢]، هو ا لله الذي لا إله إلاَّ هو الرحمن الرحيم الملك القدوس... وليست محصورة في التسعة والتسعين، ففي الحديث «**أسألك بكلِّ اسم سمَّيت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[٣] وقد حفظت أسماء غير التسعة والتسعين.

ويقال: لله تعالى ألف اسم، نقله ابن العربي، وقال: إنَّ الألف قليل، وذكر بعض أنَّها أربعة آلاف، وذكر بعض الصوفيَّة أنَّها لا تكاد تحصى، ومعنى «أحصاها»: حفظها، كما روي: «**من حفظها دخل الجنَّة**»، ونسبه بعض لأكثر المحقِّقين، وقيل: إحصاؤها مراعاة معانيها والعمل بها، وقيل: المعنى من استحضر معانيها عند ذكرها، ولا بدَّ من اجتناب الكبائر، وقيل: المراد بالأسماء الصفات، كالألوهيَّة والرحمة والعلم والخلق ونحو ذلك من صفات الذات

١- رواه **مسلم** في كتاب القدر، رقم ٤٨١٣. ورواه **النسائي** في كتاب الجنائز، رقم ١٩٢١. من حديث عائشة (م ح).

٢- رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء، (٢) باب في أسماء ا لله تعالى وفضل من أحصاها. رقم٥ (٢٦٧٧)، ورواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (٨٣) رقم ٣٥٠٦. من حديث أبي هريرة.

٣- رواه **الطبراني** في الكبير، ج١٠، رقم ٢١٠. من حديث أبي هريرة.

وصفات الفعل، كما يقال: «طار اسم فلان في الآفاق»، أي شاع ذكره بالمحاسن، كالجود والشجاعة والصحيح الأوَّل.

(أصول الدين) وهي توقيفيَّة، وقيل: يجوز قياسها فيما ورد منها فعل، كطحى ودحا وبنى، وتضاف لمعموله كداحي الأرض، وكعلَّم بالشدِّ، فيجوز في هذا القول مُعَلِّم الإنسان، ويجوز عالم وعليم وعلاَّم، ولا يجوز فقيه ويجوز جواد لا سخيٌّ. وقيل: يجوز قياسها، ولو لم يَرِد فعل أو مصدر حيث لا إيهام ولا نقص بل إعظام وإجلال بأيِّ لغة كان، وصحَّحه بعض، [قلت] **وهو قول وجيه** لأنَّا أمرنا بعبادته وإجلاله بلا حدٍّ، وليس المنع أولى من الإجازة، لأنَّ كلاًّ منهما تشريع، وإنَّما الفرق في المقارفة، فيقول مثلا: لا أطلق له اسما حذرا وخوفا لعلَّه لا يجوز، ولا يضاف للأشياء الحقيرة، لا يقال: خالق الخنافس والقرود، ويجوز إطلاق ماكر وخادع في مقام المشاكلة.

وسمع المشركون النبيء ﷺ والمسلمين يقولون: يا الله يا رحمن، فقالوا: يزعم محمَّد أنَّه يعبد ربًّا واحدا فما لهم يدعون اثنين؟ فنزل ﴿قُلُ ادْعُواْ اللهَ أَوُ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ﴾(سورة الإسراء: ١١٠). و﴿الْحُسْنَى﴾: اسم تفضيل، والمعنى: أحسن الأسماء. ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ سمُّوه، أو نادوه، أو اعبدوه.

﴿وَذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿الذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ﴾ يميلون فيها عن الحقِّ بالاشتقاق منها لغيره إشراكا به، كاللات من الله، والعزَّى من العزيز، ومناة من منَّان، أو بتحريفها كقادَر بالفتح، وعبد القادَر بفتح قبل الراء وعبد الاَّ، بحذف الهاء من الله، واللَّه بترك مد اللام بالألف، وتسمية السورة الرحمن، بل قل: سورة الرحمن.

ومن الإلحاد تسميته بما لا يجوز، كتفسير الربيع في: «أنبت الربيع البقل»، والطبيب في: «شفى الطبيب المريض» بالله تعالى، على التجوُّز

الاستعاريّ، بل هما على ظاهرهما، والتجوُّز في الإسناد إليهما، وكذا تفسير الرؤية به تعالى، وفيه أيضا تسمية بما فيه تاء التأنيث وذلك في قولهم: «سرَّتني رؤيتك».

(أصول الدين) ولا يحكم على موحِّد بشرك على خطئه في لفظ إذ لم يرد الشرك، ولا يعذر في ترك التعلُّم، والخطأ إلى ما هو إشراك لولا التأويل أشدُّ من الخطإ بفعل، ولو فرضنا أنَّ إنسانا لا يحلُّ قتله فقتله أحد لكان ذنبه دون ذنب من قال: إنَّ الإنسان خالق لفعله، ودون ذنب من قال برؤية الباري تعالى، ودون ذنب من قال صفات الله سبحانه غيره، لأنَّ هؤلاء الثلاثة لولا التأويل لكانت إشراكا، وكذا القول بإجبار الله تعالى الخلق على الفعل، والقول بسلب القدرة البتَّة عن العبد، **ومذهبنا خال عن ذلك كُلّه والحمد لله ﷻ كما قال لي بعض علماء مكّة لا بدعة في مذهبكم.**

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أمرهم بالإعراض عن المشركين وعدم اتّباعهم، وعدم التلهُّف في أثرهم، وأخبرهم بأنّهم سيجزون على عملهم، [قلت:] وليس في ذلك نهي عن قتال فضلا عن أن يقال: نسخ بآية القتال، لأنَّ ذلك يقال لهم قبل نزول القتال وبعده.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ

بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

المهتدون والمكذِّبون من أمَّة الدعوة الإسلاميَّة

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِالْحَقِّ﴾ القرآن وسائر ما أنزل على رسول ا لله ﷺ ﴿وَبِهِ﴾ لا بغيره، ولا بالزيادة ولا بغيرها ﴿يَعْدِلُونَ﴾ فيما بينهم وفيما بينهم وبين غيرهم، وبين غيرهم وغيرهم.

وهذه الأمَّة أمَّة الإجابة والاتِّباع لسيِّدنا مُحَمَّد ﷺ، قال ﷺ: «**لا تزال من أمَّتي طائفة على الحقِّ إلى أن يأتي أمر ا لله**»[1] رواه البخاري ومسلم، يعني لا يزال دين ا لله قائما في طائفة بعد أخرى إلى أن يقرب قيام الساعة جدًّا، فلا ينافي ما روي مرفوعا: «**لا تقوم الساعة إلاَّ على أشرار الخلق**»[2] وما روي «**لا تقوم الساعة حتَّى لا يقال في الأرض ا لله**»[3] وفي رواية «**لايضرُّهم من ناوأهم**»[4] أي خالفهم وعاداهم، ويروى: «بأرض المغرب»، وروى ابن جريج

١- رواه **البخاري** في كتاب العلم (١٣) باب من يرد به ا لله خيرا يفقِّهه في الدين، رقم ٧١، من حديث معاوية. ورواه **مسلم** في كتاب الإمارة، (٥٣) باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ...» رقم ١٧٠ (١٩٢٠) من حديث ثوبان.

٢- رواه **الحاكم** في الفتن والملاحم، رقم ٨٤٠٩ (١١٧) من حديث عبد ا لله بن عمرو. ورواه **التبريزي** في كتاب الفتن، (٧) باب لا تقوم الساعة إلاَّ على أشرار الناس، رقم ٥٥١٧ (٢) من حديث ابن مسعود.

٣- رواه **التبريزي** في كتاب الفتن، (٧) باب لا تقوم الساعة إلاَّ على أشرار الناس، رقم ٥٥١٦ (١) من حديث أنس.

٤- رواه **مسلم** في كتاب الإمارة (٥٣) باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمَّتي...» رقم ١٧٤ (١٠٣٧) و١٧٥ من حديث معاوية.

أنه قرأ ﷺ الآية وقال: «**هي أمّتي**» وكذا روى قتادة.

وقيل: المراد بالأمَّة: العلماء والدعاة إلى دين ا لله من هذه الأمَّة، وقيل: من آمن من أهل الكتاب، واستدلَّ بالآية على صحَّة الإجماع، لأنَّ المعنى أنَّ في كلِّ قرن طائفة بهذه الصفة، [قلت:] الإجماع حقٌّ لكن لا دليل في الآية عليه لجواز أنَّ في كلِّ زمان أمَّة فيهم مجتهد أو فيهم حافظٌ ثقةٌ أو كتابُ حقٍّ.

﴿**وَالذِينَ كَذَّبُواْ**﴾ من أهل مكّة وغيرها ﴿**بِئَايَاتِنَا**﴾ أي القرآن وسائر ما أوحى ا لله ﷻ إلى سيِّدنا مُحَمَّد ﷺ ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم**﴾ سنستدنيهم إلى الهلاك بالإمهال، وإدامة الصحَّة، وتوفير النعمة، حتّى يظنُّوا أنَّ ذلك رضى باعتقادهم وأفعالهم وأقوالهم كما قال: ﴿**مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ ما يراد بهم، قال ﷺ: «**إذا رأيت ا لله أنعم على عبده وهو مقيم على معصيته فاعلم أنّه مستدرج**»[1] فتلا هذه الآية.

(**بلاغة**) والآية استعارة تمثيليَّة. والاستدراج حقيقة: الإنزال درجة بعد درجة، أو الإصعاد درجة بعد درجة على مهل، أو بلا إصعاد ولا إنزال بل على استواء في مهل، أو الجعل كصبيٍّ يقارب خطاه، أو الطيُّ كدَرَجَ الثوبَ: طواه، أي نطوي آجالهم، أو نخرج منهم درجا أي مشيا، والواضح الأوَّل. والسين للوعيد والتأكيد، لأنَّ المراد: الحال والاستمرار.

﴿**وَأُمْلِي**﴾ أمهل ﴿**لَهُم**﴾ عطف على «نَسْتَدْرِجُ» وحكم التأكيد في الوعيد بالسين منسحب عليه، ولا ينسحب عليه الاستدراج، لأنّه ليس معمولا للاستدراج، وكأنّه قيل: وسأملي، ولم يقل: نملي بل بالهمزة لأنَّ معنى ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ**﴾: سأستدرجهم بالهمزة، ولو دلَّ على العظمة بالنون، ولأنّه

١- رواه **التبريزي** في كتاب الرقائق، الفصل الثالث، رقم ٥٢٠١ (٤٧) من حديث عقبة بن عامر.

بالهمزة بعد النون أبلغ في الوعيد إذ في الهمزة التصريح بخصوص واجب الوجود بلا صيغة مشاركة، كمثل أن تواعد قوما بصيغتك وصيغة غيرك في لفظ واحد، ولَمَّا بلغت التشديد في الأمر خصَّصت أنَّك الفاعل بهم ما توعد، وهم في ذلك أذلُّ لك وأخضع. ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ مكري بالإهلاك، سمَّاه كيدا لأنَّ ظاهره إحسان وباطنه خذلان بالاستدراج، أو لنزوله بهم وهم لا يشعرون، قيل: وفيه استعارة تمثيليَّة في المعنى لا معان مجموعة كقوله: «والطاعنين مجامع الأضغان»، أي القلوب فإنَّها فيه في معنى لا معان ﴿مَتِينٌ﴾ قويٌّ لا يطاق ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ أكذَّبوا ولم يتفكَّروا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ في صاحبهم مُحَمَّد رسول الله ﷺ ﴿مِن جِنَّةٍ﴾ من نوع ما من أنواع الجنون. «مَا» نافية، أو استفهاميَّة إنكاريَّة علِّقت بـ«يَتَفَكَّرُ»، لأنَّه فعل قلب والتعليق تعطيل عامل عن معموله الذي يتوصَّل إليه بنفسه أو بحرف جرٍّ، وهو هنا «في»، و«مِنْ» صلة للتأكيد في المبتدإ أو في الفاعل، وفي ذلك التعليق غنى عن تقدير: «أو لم يتفكَّروا فيعلموا ما بصاحبهم من جنَّة»، وفي هذا التقدير أيضا تعليق، وعن دعوى تمام الكلام في «يَتَفَكَّرُوا» واستئناف نفي الجنون بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ نفيا خالصا أو إنكاريًّا. وقدَّر بعضٌ: «أو لم يتفكَّروا في الذي في صاحبهم من جنون في زعمهم فيفهموا أنَّه باطل!.

وَإِنَّمَا ينسبونه ﷺ إلى الجنون بهتانا محضا، أو لكونه قد يتغيَّر وجهه من شدَّة الوحي بصفرة، أو كلامه بحرصه في التبليغ، وكونه قد يغلِّف رأسه بالحنَّاء من شدَّة وجعه، وكونه معرضا عمَّا لا يعني وعن اللذَّات التي يلتذُّون بها، وتعبه في العبادة ولا يعتقدون لها ثمرة، ومداومته على حال لا يعتادونها وهي دعاؤهم إلى الله تعالى.

(سبب النزول) وأنَّه صعد على الصفا فدعاهم فخذا فخذا إلى الإيمان فأصبح فقال قائلهم: إنَّ صاحبكم لمجنون بات يهوِّت ـ أي يصيح ـ فنزل:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الإنذار فصاحة ومعنى وصدقا، وفي الآية إن شاء ا لله ﷻ تعريض بهم بأنّهم مجانين دينا وكمجانين الحسّ، إذ حسبوا ما هو بعيد جدًّا عند العقلاء -ولو منهم- جنونا.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ نظر استدلال، أي أكذّبوا و لم ينظروا، أو ألم يتفكّروا ولم ينظروا ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا﴾ أي وفيما ﴿خَلَقَ ا للهُ مِن شَيْءٍ﴾ كائن ما، وذلك عطف على خاصّ، وذكر الخاصّ لظهور عظم الملك فيه وهو السماوات والأرض، ويجوز عطف «مَا» على «السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ». والملكوت: الملك مطلقا، أو الملك العظيم لزيادة الواو والتاء، أو الملك الغائب يسمعون به ويذعنون إليه كالعرش، أو الغائب الضمنيُّ الذي يشاهدون ما خرج منه كالنار في ضمن الشجر الأخضر والحجارة، والثمار في ضمن الأرض والماء والخشب، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ا للهُ مِن شَيْءٍ﴾ يشمل ذرّات الأجسام والأعراض، ففي كلّ ذرّة دلالة على ا لله وكمال قدرته، إذ لا يخلقها سواه، ولا يقصرها على ما هي عليه من شكل أو لون أو طعم أو غير ذلك من الصفات مع إمكان غيرها إلاّ ا لله.

أمرهم ا لله سبحانه أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وفي كلّ شيء وفي أجلهم لعلّه قد اقترب فيبادروه بالإيمان والصلاح قبل نزول العذاب أو الموت كما قال: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ﴾ وفي أنّه عسى ﴿أَنْ يَّكُونَ﴾ أي الشأن، فقد تكرّر ضمير الشأن ومسمّاهما واحدٌ، كقولك: «زيد عسى أن يقوم زيد» في مجرّد التكرير، وأجاز بعض -بل سيبويه وارتضاه ابن هشام- أن يكون اسم «أَنَّ» ضمير «هُمْ»، أي: وأنّهم عسى أن يكون ﴿قَدِ اِقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فاعل «اقْتَرَبَ»، والجملة خبر «يَكُون»، أو اسم «يَكُون» ضمير الأجل، على أنّه و«اقْتَرَبَ» تنازعا في «أَجَلُ»، أو «أَجَلُ» اسمه، وفي «اقْتَرَبَ» ضميره، وفيه

تقديم الخبر الفعليّ بحال يلبس بالفاعليّة، إلاّ أن يغتفر بطلب الفعل الأوّل للمرفوع إذ لا بدّ له منه.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ بعد القرآن وهو أفضل حديث وأصدقه ونهايته في البيان، أو بعد هذا الحديث وهو القرآن، أو بعد الرسول، أي بعد حديثه وهو القرآن، والرسول أصدق الناس، أو بعد أجلهم كيف يؤمنون بعد انقضاء أجلهم؟ .

﴿يُومِنُونَ﴾ إذ هو الغاية في البيان والصدق، وكلّ كلام هو دونه، فلا يتصوّر إيمانهم بما هو دونه، وهذا إقناط من إيمانهم للطبع عليهم، فقد انسحب على هذا ما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ من التوبيخ، ويجوز كونه مرتبطا بقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَّكُونَ قَدِ اِقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي لم لا يتوقّعون اقتراب الأجل ويتركون الإعراض عن الإيمان بالقرآن؟ .

وقرّر ضلالهم وعلّله بالضلال المطلق الذي لا هادي له في قوله: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اِللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ إلى دين الحقّ ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتردّدون، والنون في «نَذَرُهُمْ» على طريق الالتفات إلى التكلّم من الغيبة.

(لغة) والواو عاطفة على جملة الشرطِ والجوابِ عطفَ قصّةٍ على أخرى، لأنّ الواو لا تكون حرف استئناف، إذ لا وجه لقولك: إنّ هذه الواو جاءت لتدلّ على أنّ ما بعدها مستأنف، بخلاف «من» الابتدائيّة فإنّها وضعت لتدلّ أنّ مبدأ الفعل مدخولها. وكذلك لا تكون الواو للاعتراض إذ لا وجه لقولك: إنّ هذه الواو وضعت لتدلّ على أنّ هذه الجملة معترضة، فلْتُحمل الواو في المسألتين على ما يمكن من العطف أو الحال مثلا، ولو قلت في الاعتراضيّة: إنّها عاطفة قبل تمام الجملة المعطوف عليها لجاز، لأنّ الجمل يتوسّع فيها ما لا

يتوسَّع في المفردات. وفي المقام مناسبة، كأنَّـه قيـل نذرهـم في طغيـانهم يعمهـون لأنَّهم مِمَّن أضلَّ ا لله ﷻ .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٧ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨ ﴾

علم الساعة عند الله والرسول إنَّما هو بشير ونذير لهم

(سبب النزول) سأل بعض اليهود كحمل بن أبي قشير وسمول بن زيد وبعض قريش رسول ا لله ﷺ : متى قيام الساعة ؟ فنـزل قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ يوم القيَّامة، سمِّي ساعة لوقوعه بغتة، أو لأنَّه للسعيد كساعة، أو لسرعة الحساب فيه، إذ لا يشغل ا لله شأن عن شأن. زعم اليهود أنَّهم يعلمون متى الساعة وهم لا يعلمونها متى هي، لكن أرادوا إيهامه ﷺ . وقريش قالوا له: أخبرنا بها سرًّا لقرابتنا، ونزلت الآية ردًّا عليهم، والمراد بيوم القيامة المعبَّر عنه بالساعة: وقت موت الحيوانات كلِّها، وهذا أولى من تفسير الساعة بوقت البعث أو ما بين موتهم وبعثهم، وعليه فقِلَّته لمجيئه بغتة، أو لأنَّه مدهش فيقِلُّ، أو يقلُّ ما قبله، أو لأنَّه يسير عند ا لله تعالى، أو لسرعة حسابه.

والآية مناسبة لقوله تعالى: ﴿وأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَّكُونَ قَدِ اِقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، وأيضا من مات فقد قامت قيامته لانكشاف ما لَهُ من ثواب أو عقاب ﴿أَيَّانَ﴾

متى ﴿مُرْسَاهَا﴾ مصدر ميميٌّ، أي إرساؤها، أي إثباتها، وبعده أن يكون زمانا ميميًّا، ولا بأس بظرفيَّة عامٍّ لخاصٍّ، كأنَّه قيل أيُّ جزء من اليوم؟ أو أيُّ جزء من الشهر؟ كما تقول: أجيء ساعة كذا من الجمعة، ويبعد أن يكون مكانا ميميًّا، أي أين موضعها؟ على أنَّ أيَّان مكان. والجملة بدل من الساعة اشتماليٌّ علّق عنه «يَسْأَلُ» بالاستفهام.

﴿قُلِ اِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ علم وقت إرسائها ﴿عِندَ رَبِّي﴾ أخفاها عن كلِّ ملك وكلِّ نبيء وكلِّ أحد ليسارع إلى التوبة وأداء الواجب، ولو علم وقتها لَتُقُوصر فيهما إن لم يعرف زمان علامات قربها جدًّا ﴿لاَ يُجَلِّيهَا﴾ لا يظهر وقتها على التعيين ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ أي في قرب وقتها، أو عند وقتها، أي عند حضور قربها، كذا قيل وهو باطل، لأنَّه يقتضي أنَّه إذا قرب وقتها أظهره، وأمَّا بأمارة لا بالتعيين فوارد، وإنَّما المعنى: لا يظهرها بإيقاعها في وقتها فإظهارها: إيقاعها، وهو تجليتها لا الإخبار بها، نعم يعلمون بها عند حضورها وقبل فوتهم، لكن قد يعلمون بإحساسها إذا حضرت ولا يعلمون أنَّها هي ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ ﷻ.

﴿ثَقُلَتْ﴾ عظم شأنها ﴿فِي اِلسَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ على أهلهما لكراهة الفناء، ولو عند الملائكة، ولأنَّها تُؤَدِّي إلى الحساب والثواب والعقاب والأهوال وانكشاف الغطاء، أو على نفس السماوات والأرض للانشقاق والتزلزل والإفناء، وزوال الشمس والقمر والنجوم، وتبدُّل الأرض وإبطال البحار، أو حصل ثقلها وشدَّتها، أو المبالغة في إخفائها في السماوات والأرض ﴿لاَ تَاتِيكُمْ﴾ الخطاب لمجموع من يحضر الساعة ومن لا يحضرها، وغلّب الموجودين بالخطاب، أو الخطاب لمن يحضرها ولَمَّا يوجد، وفي الوجهين اعتبارَان: مَن وُجد ومن سيوجد كفرد واحد ﴿إِلاَّ بَغْتَةً﴾ فجأة على غفلة. روى الطبري في

مرسل قتادة وهو في البخاري ومسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ : «**أنَّ الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه** —ويروى: "**يلوط**"— **والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقوِّم سلعته في سوقه** —وفي رواية إسقاط "في سوقه"— **والرجل يخفِّض ميزانه ويرفعه** —ويروى: "**والرجل يرفع لقمته إلى فيه**"—»[1]. وجاء مرفوعا أيضا: «**أنَّها تقوم والرجلان ينشران ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، وقد انصرف الرجل بلبن ناقته فلا يطعمه**»، وجاء أيضا مرفوعا: «**إنَّما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الأمم من صلاة العصر إلى غروب الشمس**»[2]، وجاء أيضا: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[3] وأشار بالسبابة والوسطى.

﴿**يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا**﴾ أي كثير الاستقصاء عنها بالسؤال حتَّى أدركت معرفة وقتها، ويلزم من كثرة الاستقصاء عن الشيء إدراكه، ولذلك تراهم يفسِّرون ﴿حَفِيٌّ﴾ بعليم.

(**نحو**) و«عَنْ» على ظَاهِرِهَا، متعلِّقة بـ«حَفِيٌّ»، لأنَّ المعنى السؤال عنها، أو البحث عنها، أو الكشف عنها؛ أو متعلِّقة بـ«يَسْأَلُ»؛ أو بمعنى الباء، أي عليم بها، ويجوز تعليقها بـ«يَسْأَلُ»، ويقدَّر مثله لـ«حَفِيٌّ» على التنازع، وجاز هذا مع أنَّ المهمل يعمل في ضمير المتنازع فيه، والضمير لا يعود إلى الضمير، لأنَّ اتِّحاد معنى الضميرين يسيغ ذلك، كما تقول: أنا أقوم وأنت

١- ورواه **الطبراني** في تفسيره ج٩ ص٩٥.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الرقاق، (٤٠) باب طلوع الشمس من مغربها، رقم ٦١٤١، من حديث أبي هريرة. ورواه **مسلم** في كتاب الفتن، (٢٧) باب قرب الساعة، رقم ١٤٠ (٩٩٥٤).

٣- رواه **مسلم** في كتاب الفتن، (٢٧) باب قرب الساعة، رقم ١٣٣ (٢٩٥١)، من حديث أنس.

تقوم، فترتبط الخبر بضمير هو نفس المبتدأ، ثمَّ إنّه قد يقال بجواز عود الضمير لآخر مستحقٍّ للتقديم، أو متأخِّر كالتنازع إذا أعمل المتأخِّر؛ أو يعلّق بـ«يَسْأَلُ»، ويقدَّر: كأنّك حفيٌّ فيها.

وسؤالهم استهزاء، أو تعجيز، أو ظنٌّ منهم أنّه يعلمها، كما قيل إنّه من الحفاوة بمعنى الشفقة، وإنَّ قريشا قالوا: إنَّ بيننا وبينك قرابة، فقل لنا متى الساعة؟ أي كأنّك تشفق عليهم فتخصَّهم بالإخبار عنها لقرابتهم، ولكن مثل ذلك قد يقوله المستهزئ والمستعجز، فجاءت الآية على طبق كلامهم.

وقيل: ﴿حَفِيٌّ﴾ بمعنى فرح، و«عَنْهَا» متعلّق بـ«يَسْأَلُ»، أي كأنّك تفرح بالسؤال عنها مع أنّك تكرهه، لأنّه عن الغيب الذي لا يخبر ا لله أحدا به، أو كأنّك صديق لهم وهم أعداؤك وأنت عدوٌّ لهم لكفرهم. وجملة «كَأَنَّكَ حَفِيٌّ» في جميع الأوجه حال من الكاف، ولَمَّا كان المراد: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا، وفصل بما يناسب أعاد لفظ السؤال، ولذلك اكتفى بذكر الساعة هناك عن ذكرها هنا، وفي ذلك نوع إجمال فكرَّرَ الجواب مجملا بقوله:

﴿**قُلِ اِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اَ اللهِ**﴾ كرَّره متابعة لتكرُّر ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، وتأكيدًا، وإشعارًا بالعلّة. ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ اَلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ أنّه اختصَّ ا لله بعلمها، ولا يخبر بها أحدا على التعيين بأنّها عقب مائة عام، أو عقب ألف عام، أو عقب ألف وثلاثمائة، أو عقب ألف وخمسمائة عام، ونحو ذلك. والإخبار بعلامات قربها ليس إخبارًا بعينها، وذلك الإخفاء أَدْعَى إلى الانزجار. والإخبار بعلامة قربها أدعى لحاضر علامتها إلى التوبة.

﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا اِلاَّ مَا شَآءَ اَ اللهُ**﴾ أي جلب نفع ولا دفع ضرٍّ إلاَّ ما شاء ا لله منهما أن أجلبه أو أدفعه بالوحي أو الإلهام، واللام متعلّق

بـ«أَمْلِكُ»، ويجوز أن تكون في مفعول «نَفْعًا» للتقوية، ويقـدَّر مثلها لـ«ضَرًّا»، أي لا أملك أن أنفع نفسي أو أضرَّها، أي لا أملك أمر الضرِّ فأدفعه إذا جاء. و«مَا» اسمٌ، أو في وقت من الأوقات إلاَّ وقت مشيئة الله ﷻ أن أملكه.

(أصول الدين) وقدرة العبد مؤثِّرة بإذن الله ﷻ وتأثيرها مخلوق لله، فالمؤثِّر حقيقة هو الله ﷻ، والاستثناء متَّصل كما رأيت، و«مَا» حرف مصدر، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا أي لكن ما شاء الله كان، ووجه اتِّصَال هذا بما قبله أنَّه لو كان يعلم الغيب كالساعة لملك لنفسه نفعًا ودَفَعَ ضُرًّا يَطَّلع عليهما بعلمه الغيب.

(سيرة) وقيل: لَمَّا رجع رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق جاءت ريح على الطريق نفرت الدوابُّ منها، فأخبر ﷺ بموت رفاعة بالمدينة، وكان فيه غيظ المنافقين، فقال ﷺ: «**انظروا أين ناقتي**» فقال عبد الله بن أُبي بن سلول: ألا تعجبون من هذا الرجل؟ يخبر عن موت رجل بالمدينة، ولا يعرف أين ناقته؟ فقال ﷺ: «**إنَّ ناسا من المنافقين قالوا كيت وكيت، وناقتي في هذا الشعب، قد تعلَّق زمامها بشجرة**» فوجدوها كما قال، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا اِلاَّ مَا شَآءَ اَللَّهُ﴾.

﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ**﴾ بالذات أو بالتعلُّم، أو كلَّما شئت، وعلى أيِّ وجه شئت، ولا أعلم منه إلاَّ ما علَّمني ربِّي بحسب إرادته، فهذا غيب مستثنى بقرينة الأحوال والأخبار عنه، أو هذا غير غيب، وإنَّما الغيب ما أعلمه بلا إخبار من الله سبحانه، وقيل: الغيب قيام الساعة، وقيل: «الـ» للاستغراق، والنفيُ لسلب العموم، أي لا أعلمه كلَّه بل بعضه. ﴿**لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ اَلْخَيْرِ**﴾ الصحَّة والمال والفرح ﴿**وَمَا مَسَّنِيَ اَلسُّوءُ**﴾ مرض أو فقر أو حزن للتعرُّض للخير، والتجنُّب عن السوء، وفسَّر بعضهم الخير بالربح في التجارة والخصب، والسوء بضدِّ ذلك والفقر.

وليس في الآية وصفه ﷺ بالحرص في استكثار الخير، لأنَّ المراد بالاستكثار الكفاف حتّى لا يحتاج، أو المراد أنَّ الله تعالى يطلعه على الخير، بحيث لا يجوز له المحيد عنه، وهذا غير واقع.

والمراد أيضا: الغيب العامُّ، فلا ينافي أن يكون قد أطلعه على بعض الغيوب كما مرَّ آنفا، وكما جاءت أخبار في ذلك، والمراد ما مسني سوءٌ مَّا، فلا ينافي أنَّه قد يعلم فلا يقدر على التحوُّل، كما رأى عند أُحُدٍ فلولاً في سيفه وبقَرًا مَذْبُوحَةً، وذلك يدلُّ على موت في المسلمين، و لم يقدر على التحرُّز عن ذلك، أو هذه ملازمة عادية إقناعيَّة، إذ من يعلم مواضع الخير يستكثره عادة، ومن يعلم مواقع الشرِّ يجتنبه عادة، فلا يَرِدُ أنَّ العلم بالشيء لا يستلزم القدرة عليه، ولا يصحُّ أن يقال: هذه الآية قبل أن يعلم بعض الغيوب بإذن الله، وادَّعى بعض أنَّه قال ذلك تواضعا. وقيل: ﴿الْخَيْرِ﴾ دعوة من له السعادة، و﴿السُّوءُ﴾: دعوة من له الشقاوة، ويردُّه أنَّ ذلك لا يتبادر، وأنَّ دعاءه للسعيد إلى الإيمان ودعاءه للشقيِّ إلى الإيمان على حدٍّ سواء يثاب عليهما، وكلاهما عبادة، وقيل: ﴿الغَيْبَ﴾: الموتُ، و﴿الْخَيْرِ﴾: الأعمال الصالحة، و﴿السُّوءُ﴾: غير ذلك. وقدَّم الخير لمناسبة تقديم النفع.

﴿إِنَ اَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ للكافرين ﴿وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ با لله أو بي، أو النذارة والبشارة كلاهما للمؤمنين على التنازع، لأنَّهم المنتفعون بهما، وقيل: نذير للكافرين، وَحَذَفَهُم تطهيرًا للِّسان عنهم، وعلى كلِّ حال لا أتجاوز النذارة والبشارة إلى معرفة كلِّ ما أردت من الغيب.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا

لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

التذكير بالنشأة الأولى والأمر بالتوحيد واتِّباع القرآن والنهي عن الشرك

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ من ضلعها اليسرى، كان ضلعا وأخرجه عنه امرأة بقدرته ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء، أو ﴿مِنْهَا﴾: من جنسها و﴿زَوْجَهَا﴾: أزواج النفس وأولادها، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ انفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾(سورة الشورى: ١١) والخطاب في ﴿خَلَقَكُمْ﴾ لبني آدم، والمراد به المخلوق من هذه الأمَّة؛ وتعميم الأمم الماضية ليس مناسبا بل الخطاب لأهل مكَّة ونحوهم في الكفر، وهو رجوع إلى تقرير أمر التوحيد وإبطال الشرك، وتوبيخ للكفرة على جسارتهم على الكفر بتذكير مبادئ خلقهم ﴿لِيَسْكُنَ﴾ لتسكن النفس الواحدة، وهي آدم، وإنَّما لم يؤنِّث اعتبارًا للمراد بالنفس، ولو أنِّث لتوهِّم أنَّ الزوج ـ وهي حواء ـ هي المراد بأن تسكن إلى آدم، والمستوحش بالوحدة آدم، فتزول وحشته بها ﴿إِلَيْهَا﴾ يأنس، ويأوي إليها.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ جامعها، أنَّثَ النفس أوَّلاً والمراد آدم، وذكَّرها هنا لأنَّها عبارة عنه، فلم يقل: تغشَّته بتاء بعد الشين لأنَّ الجماع أنسب به، إذ هو الذي يسكن إلى الأنثى، ويكون لها كالغشاء، إذا علاها للجماع ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً

﴿خَفِيفًا﴾ هو النطفة، أو هي وما بعدها من الأطوار، قبل أن يكون ثقيلا، أو يراد بالخفّة عدم التأذّي به، بمعنى محمول فـ«حَمْلاً» مفعول به، ويجوز أن يكون باقيا على معنى المصدر، فيكون مفعولا مطلقا، والأوّل أنسب بقوله تعالى:

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ مشت به، و لم يعطّلها عن المشي ذهابا ورجوعا، وفي حركتها بلا مشقّة، وفسّر بعضهم ﴿مَرَّتْ﴾ باستمرّت، وَادَّعَى أنَّ مرور الشيء بالشيء ليس بصحيح هنا، وأنَّ الزوج ليست بمارّة بالحمل بل مستمرّة، وقيل: من القلب في الكلام، وأنَّ المعنى: فاستمرَّ بها ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَتْ﴾ بكبر الولد في بطنها، صارت ذات ثقل كـأَلْبَنَ وأَثْمَرَ: صارت ذات لبن وذا ثمر، أو دخلت في الثقل كـأَصْبَحَ دخل في الصباح، وأمسى دخل في المساء، وأَعْرَقَ دخل العراق؛ والمراد بالثقل التضرُّر، ضدُّ الخفّة التي بمعنى عدم التضرُّر ﴿دَعَوَا﴾ آدم وحواء ﴿ا۬للَّهَ رَبَّهُمَا﴾ وقد خافا أن يكون ما في بطنها حيوانا من غير جنسهما، كقرد أو كلب، وقال لها إبليس: ما هذا الذي في بطنك؟ فقالت: لا أدري، فقال: يحتمل أن يكون كلبا أو حمارا أو غير ذلك، ويحتمل أن يخرج من عينك أو فمك، أو يشقُّ بطنك لإخراجه، فعرضت الأمر على آدم فدعوا ربَّهما.

﴿لَئِنَ ـ اتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ ولدا صالح الجسم والشكل من جنسنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلشَّاكِرِينَ﴾ من جملة الشاكرين لنعمك الدِّينيّة والدنيويّة، فيكون شكري وشكر حواء على إيتاء الولد الصالح، وسائر النعم علينا، وكلُّ شاكر يشكرك على ماله من النعم، والقسم وجوابه مفعول لقول محذوف، أي قالا: ﴿لَئِنَ ـ اتَيْتَنَا...﴾ تفسير لـ﴿دَعَوَا﴾ على الاستئناف البياني، كأنّه قيل: ماذا قالا في دعائهما ؟ أو فقالا: ﴿لَئِنَ ـ اتَيْتَنَا...﴾ عطف مفصَّل على مجمل، أو محكيٌّ بـ«دَعَوَا» لتضمُّنه معنى القول، فينصب لفظ الجلالة على أصله، والجملة على تضمُّن معنى القول. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شِرْكًا فِيمَآ

ءَاتَاهُمَا﴾ ولفظ «مَا» لأنَّ الإنسان حال الولادة كالجماد وسائر غير العقلاء وسائر الحيوان. ومعنى ﴿شِرْكًا﴾: شريكا، بتسمية ولدهما عبد الحرث، والحرث اسم إبليس، والصواب أن يسمِّياه عبد الله، وليس إشراكا في العبادة، ولم يعلما أنَّ الحرث اسم لإبليس، فالإشراك باللفظ لا بالقصد، ويناسب هذا لفظة «لَمَّا» الموضوع للحضور، بخلاف ما إذا قيل الألِف لذرِّيَّتهما، والشرك في العبادة فإنَّها بعد مدَّة لا حاضرة، والقائل بذلك راعى مدَّة طويلة وقع في بعضها إشراك، كما تقول: وقع كذا يوم الجمعة، وإنَّما وقع في وسطه أو آخره مثلا، وتقول: لَمَّا دخل وقت الصلاة صَلَّى، مع أنَّه لم يصلِّ أوَّل الوقت، ويقال: لَمَّا ظهر الإسلام طهُرت البلاد من الشرك.

(قصص) وروي أنَّه لا يعيش لها ولد، ولدت عبد الله وعبيد الله، وعبيد الرحمن، وماتوا لَمَّا ولدت عبد الله، قال لآدم: أنصحك سمِّه عبد الحرث، فقال: أعوذ بالله من طاعتك أطعتك في الأكل من الشجرة فأخرجتني من الجنَّة، فمات وولدت عبيد الله، فقال: سمِّه بذلك، وإلاَّ مات، وولدت عبيد الرحمن فقال له ذلك، وقال: لا أزال أقتلهم حتَّى تسمي بذلك، فسمَّى الرابع عبد الحرث، وفي الحديث: «**خدعهما مرَّة في الجنَّة ومرَّة في الدنيا**» وروى الترمذي وقال: حسن غريب، والحاكم وقال: صحيح، عن سمرة عنه ﷺ: «**لَمَّا ولدت حواء وكانت أولادها تموت فقال لها إبليس سمِّيه عبد الحرث يعش، فسمَّته عبد الحرث**»[1]. وروي أنَّه قال لها: إنِّي من الله بمنزلة، فإن دعوت أن يجعله الله مثلك ويسهل خروجه فسميه عبد الحرث، فسمَّياه بذلك، ومثل هذا لا يبعد عن آدم عليه السلام وحوَّاء، مع عدم معرفة أنَّ ذلك اسم لإبليس،

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٨) باب: ومن سورة الأعراف، رقم ٣٠٧٧، من حديث سمرة.

ولا يبعد أن ينسى أنَّ ذلك اسم لإبليس، وأيضا لم يعلِّم أسماء الأعلام لكلِّ شخص كزيد وعمرو، بل أسماء الأجناس كرجل وضارب. وقيل: جعل الشرك أَوْلاَدُهُما لاَ هُمَا بتقدير مضاف، أي فلَمَّا آتى أولادهما من كان والدًا ووالدة من أهل الشرك ولدا صالحا، جعل هذان الأبوان لله شركا فيما آتاهما، بأن سمَّيا الأولاد عبد العزَّى وعبد اللات، ونحو ذلك. و«لَمَّا» للأزمان المتطاولة الآتية.

وناسب تقدير المضاف مع أنَّهما ليسا مِمَّن يشرك أنَّ المقام للإيجاز، والإيجاز في مقامه من البلاغة. وقيل: الخطاب في ﴿خَلَقَكُمْ﴾ لآل قصيٍّ من قريش، خلقوا من نفس واحدة هو قصيٌّ وزوجها من جنسها عَرَبِيَّة قريشيَّة، طلبا من الله الولد فأعطاهم أربعة بنين، ونسباهم للأصنام عبد مناف وعبد شمس وعبد قصي وعبد الدار، فيكون الضمير في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اَ۬للهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابهما المقتدين بهما، وقيل: "الدار" داره دار الندوة لا صنم، و"قصي" نفسه لا صنم سمِّي به، وكذا تكون الواو على التفسير السابق للأولاد المقدَّرة، مضافا في «ءَاتَاهُمَا»؛ أو تمَّ الكلام على آدم وحوَّاء فيما قبل هذا واستأنف هذا لأهل مكَّة، وأعاد لهم الواو وخاطبهم لعبادتهم الأصنام، والواو في «يُشْرِكُونَ» لأهل مكَّة، أو لأهل الأصنام كلِّهم، وقدَّر بعض مضافين، أي جعل نسلهما له شركا فيما آتى نسلهما، وهو النسل المذكور، وقيل: أَلِف «جَعَلاَ» للأولاد، والتثنية اعتبار للنوعين: الذكر والأنثى، والفاء سببيَّة عطف على «خَلَقَكُمْ».

﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ با لله في العبادة ﴿مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي الأصنام التي لا تخلق شيئا، أو أصناما لا تخلق شيئا ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي الأصنام التي لا تخلق شيئا ذكرها بضمير العقلاء لاعتقاد عُبَّادِها أنَّها عاقلة، أو واو يشركون أوَّلا وثانيا لمطلق من يشرك، فيشمل عابدي عيسى وعزير، والملائكة، فيكون ﴿مَا لاَ

يَخۡلُقُ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ للأصنام ومَنْ ذُكِر مِنَ العقلاء تغليبا لهم عليها. ويجوز عود قوله: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ للمشركين العابدين لا لِمَا عبدوا، وعلى كلٍّ لو تفكَّروا في الخلق لم يعبدوا غير الله ﷻ.

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي لا يستطيع هؤلاء الأصنام، أو كلُّ من يُعبَد ﴿لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾ أي للمشركين العابدين لها، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ تلك المعبودات، وكلُّ معبود لا تنصر نفسها عمَّا يصيبها من كسر أو توسيخ أو احتقار، أو عمَّا قضى الله عليهم، أو لا يستطيع المشركون العابدون نصرا لمن يعبدونه، ولا ينصرون أنفسهم.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ أي تدعوا أَيُّهَا المشركون الأصنام ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ إلى الاهتداء، لأمر دينيٍّ أو دنيويٍّ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡ﴾ إلى مرادكم، أو إن تدعوا أيُّها المشركون الأصنام إلى أن يهدوكم إلى أمر، أشكل عليكم لا يتبعوكم في بيانه، كما يهديكم الله ﷻ، إذا استهديتموه، أو إن تدع أَيُّهَا النبيء والمؤمنون المشركين إلى الإيمان لم يتبعوكم.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أَيُّهَا المشركون ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ أي أدعوتم الأصنام، أو سواء عليكم أَيُّهَا النبيء والمؤمنون أدعوتم المشركين، قيل أدعوتموهم أَيُّهَا النبيء، وجمع تعظيما ﴿أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ لم يقل أم صَمَتُّم كما قال: دعوتم ليدلَّ على الثبات والاستمرار للمقابلين للأحداث مع مناسبة الفاصلة، ولو قيل أم تصمتون لناسبها، لكن يخالف المضيَّ قبله، أي سواء عليكم إحداثكم الدعاء، أو استمراركم على الصمت، أو كما كنتم من قبل إن تصابوا صامتين عنها لا تدعون إلاَّ الله إذا أصبتم، أو كما كنتم أيُّها المؤمنون قبل أن تدعوا المشركين إلى الإيمان صامتين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾

واقع الأصنام والأوثان المعبودة

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ﴾ مملوكة ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ ليسوا بخالقين لكم، ولا برازقين فكيف تعبدونهم وهم عاجزون مخلوقون مثلكم؟ وأنتم أفضل منهم بالحركة والسكون والعقل والقامة والشكل وغير ذلك؟ والمراد هنا الأصنام فقط، وصيغ العقلاء لدَعْوَاهُم عقلَها، أو لتصويرهم إيَّاهَا بصور الإنسان، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي في دفع الضرر وجلب النفع ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أمر للأصنام على سبيل التعجيز ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ألوهيَّتها وقدرتها على ما عجزتم عنه.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ تقرير لكونها دونهم لا تستحقُّ أن تعبد ولو كانت مثلهم، فكيف وهي دونهم، والاستفهام إنكار وتوبيخ ليس لهم شيء من ذلك أُقِرُّه لكم فكيف تعبدونها؟ و«أَمْ» بمعنى بل، أو بل والهمزة التوبيخيَّة. والبطش: الضرب. وأفاد بنفي المشي والبطش والإبصار والسمع أنَّ جوارحها لَمَّا لم يكن لها ذلك كانت كالْعَدَم، فذلك نفيٌ للقيد وهو المشي وما

بعده، والمقيَّد وهو الأرجل وما بعدها.

والحقُّ أنَّ للمخلوق تأثيرا في فعله، وهو تأثير خلقه ا لله ﷻ. وقدَّم الأرجل والأيدي لأنَّ انتفاء المشي والبطش أظهر، وقدَّم الأعين لأنَّها أشهر من الآذان، وأظهر عينا وأثرا.

﴿قُل﴾ لهم يامحمَّد إذ قالوا: نخاف أن تصيبك آلهتنا بسوء إذ ذممتها وسفَّهت أحلامنا ﴿ادْعُواْ﴾ أطلبوا ونادوا ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ في إهلاكي وإضراري ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم بكلِّ ماقدرتم عليه من مكر ﴿فَلاَ تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلوني، فإنِّي لا أبالي بها ولا بكم لأنَّ ا لله حافظي.

﴿إِنَّ وَلِـيِّـي﴾ الذي يتولاَّني بالحفظ والنصر على الأعداء ﴿اَ للهُ﴾ لا غيره ﴿الذِي نَزَّلَ اَلْكِتَابَ﴾ القرآن عليَّ فضلا منه وإحسانا، لا أبالي بكم وبشركائكم وهو ناصري ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى اَلصَّالِحِينَ﴾ الأنبياء وغيرهم بالحفظ والنصر. والجملة تذييل، وهو أن يعقِّب الكلام بما يشتمل على معناه تأكيدا، وهو كالبرهان والحجَّة، أي: إنَّ ما أنا عليه صلاح، وا لله يتولىَّ أهل الصلاح فهو يتولاَّني.

﴿وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ تعبدونهم أو تنادونهم في مصالحكم، أو تسمُّونهم آلهة ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ ذكر هنا تعليلا لعدم مبالاته بهم وبشركائهم، وللفرق بين من يستحقُّ المبالاة به ومن لا يستحقُّها، وهنالك لتقريع عبدة الأصنام فلا تكرير، وكذا ذكر تتميما للتعليل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أَيُّهَا المؤمنون الأصنام، أو أَيُّهَا المشركون ﴿إِلَى اَلْهُدَىٰ لاَ يَسْمَعُواْ﴾ دعاءكم ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أي ترى الأصنام يا محمَّد، أو يامن

يصلح للرؤية ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ بصورة الناظر إليك، فهو استعارة تبعيَّة صوريـَّة ﴿وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾ أو إن تدعـوا المشـركين إلى الهـدى لا يسـمعوا دعـاءكم سمـاع قبـول، أو تفهُّـم، وتراهـم ينـظرون بأعينهم إليـك وهـم لا يـبصرونك بقلوبهم، أو لا يقبلون حجَّتك.

واشتدَّ عليه ﷺ خلافهم له فنزل قوله تعالى:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢ ﴾

أصول الأخلاق الاجتماعيَّة ومقاومة الشيطان

﴿ خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال ابن أبي الدنيا مرفوعـا: «**اقْبلْ مـا تيسَّـر مـن أخـلاق الناس**» ويقال: اقبل ما تيسَّر من أموال المسلمين والمشركين، وأخلاقهم وأفعالهم وأقوالهم التي لا تخالف الشرع واعذرهم، ولا تستقص ولا تـتجسَّس فيستـقصوا عليك ويتجسَّسوا وتـقع العداوة؛ أو خُذ العفو عـن المذنبين. شبَّه العفـو بشـيء محسوس يُطلب ويُؤخذ، ورَمَز لذلك بالأخذ.

قال ﷺ: «**ياجبريل ما أخْذُ العفو؟**» فقـال: لا أدري، حتَّـى أسأل العـالم، فرجع فقال: «**إنَّ الله تعالى أمرك أن تعفوا عَمَّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك**»[1]، وكان الرجل يمسك ما يكفيه ويتصـدَّق بالبـاقي، ولَمَّـا

١-أورده **الألوسي** في تـفسيره، ج٣، ص١٤٧، وقـال: أخرجـه ابـن جريـر وابـن المنـذر وغيرهما عن الشعبيِّ.

نزلت الزكاة وَجَبَ مقدارها وترك غيره، ولَمَّا نزل القتال وجب القتال وحلّ الغنائم، وقيل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: عن المذنبين، والتعبير به إغراء شديد ﴿وَامُرْ بِالْعُرْفِ﴾ المعروف، وهو كلُّ ما جاءك من الله، وما يعرف من الشرع حسنه من مكارم الأخلاق وترك مساوئها، وسواء في ذلك اعتقاد وقول وفعل، وفي البخاريِّ عن عبد الله بن الزبير: «**ما نزلت ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَامُرْ بِالْعُرْفِ﴾ إلاَّ في أخلاق الناس**»[1].

﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ لا تُجَازهم على جفائهم، سواء كانوا مشركين أو موحِّدين، وهذا مِمَّا لا ينسخ، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَمًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٣). قال جعفر الصادق: **ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.** وقد يصدر من ضعفاء الإسلام وأهل البدو جفاء، ولَمَّا نزلت الآية كما مرَّ سأل النبيء ﷺ جبريل عن معناها فقال: لا أدري حتَّى أسأل ربِّي فذهب ورجع فقال: «**إنَّ ربَّك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمَّن ظلمك**»[2].

ولَمَّا نزلت قال: ياربِّ كيف بالغضب ؟ فنزل قوله: ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ**﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للخطاب، وعلى الأوَّل يكون «الذِينَ اتَّقَوْا» بعد هذا المرسلين أولي العزم، والعموم في «الذِينَ اتَّقَوْا» أولى، ويجوز أن يراد بالخطاب العموم، كقوله تعالى: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾(سورة الطلاق: ٠١). ﴿**مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ**﴾ يدفعه عنك ﴿**إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾. «إِمَّا»: إن

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير، (١٣٩) باب ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَامُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، رقم ٤٣٦٧. من حديث ابن الزبير.

٢- رواه **أحمد** في مسند المكيِّين، رقم ١٥٠٦٥، عن أنس عن أبيه (م ح).

الشرطيَّة و«ما»، أبدلت نونها ميما وأدغمت، و«ما» صلة لتأكيد العموم، والنزغ: الطعن بما له حدَّة، استعير لوسوسة الشيطان وإغرائه، وعلاجُ صرفِه لك عن الحقِّ من الأمر بالعرف والإعراض عن الجاهل، ونحو ذلك.

(لغة) والمراد بالنزغ: أمر نازغ، أو ذو نزغ، أو نفس النزغ وفي هذا إسناد إلى المصدر، كقولك: صام الصومُ، برفع الصوم، وذلك مبالغة في كيد الشيطان على طريق العَرَض، كأن فعله فاعل، [قلت:] وإنَّما قلت: على طريق العَرَض لأنَّ الآية لم تُسَقْ أوَّلاً وبالذات لذكر مبالغة الشيطان بالوسوسة، بل سيقت لبيان أنَّه يوسوس، وللأمر بمخالفته. والاستعاذة با لله: الالتجاء إليه ليمنعه عن اتِّبَاعه، فا لله عالم بكلِّ قول وبكُلِّ فعل وكلِّ شيء، فيسهِّل لك مصالحك، وينتقم مِمَّن يؤذيك ولا يُحْوجُك إلى الانتقام.

قال رسول ا لله ﷺ: **«مامنكم من أحَد إلاَّ وقد وكِّل به قرينه من الجنِّ، وقرينه من الملائكة»** قالوا: وإيَّاك يارسول ا لله؟ قال: **«وإيَّاي، إلاَّ أنَّ ا لله تعالى غلَّبني على قريني من الجنِّ فأسلم، فلا يأمرني إلاَّ بالخير»**[1]. وقوله: «فأسلَمَ» بصيغة الماضي، والضمير للقرين، أي صار مؤمنا لا يأمرني إلاَّ بالخير، قال القاضي عياض وغيره: ذلك هو المختار، ويروى بصيغة مضارع المتكلِّم من السلامة، أي أسلم أنا من شرِّه واختاره الخطَّابيُّ، ويدلُّ لقول عياض قوله ﷺ: **«فلا يأمرني إلاَّ بخير»**. وقيل: إنَّ نزغ الشيطان بالنسبة إليه ﷺ مجاز عن اعتراء الغضب المقلق للنفس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ حذروا الشرك والمعاصي **﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾** ألـمَّ بهم أمر، كشيء يدور حول الشيء، والمراد: الوسوسة

١- رواه **أحمد** في مسنده، ج٢، ص٢٨، رقم ٣٦٤٨. وأورده **السيوطي** في الدر، ج٦، ص١٠٦، من حديث أبي الجعد عن أبيه عن عبد ا لله.

بترك طاعة أو فعل معصية، قيل: أو ما يخطر من ذلك في القلب وهو ضعيف، لأنَّ هذا الخاطر أيضا من الشيطان، وقيل: الطائف: الغضب والشيطان الجنس، كما جمع في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أي إخوان الشياطين ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ عقاب الله على ترك الواجب، أو على فعل المعصية، وكلا ذلك معصية، وتذكَّروا ثواب الواجب أو ثواب المستحبِّ فلا يتركوه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ مميِّزون ـ بالتذكُّر ـ الحقَّ من الباطل، والراجح من المرجوح كمن غشيه غيم أو دخان ثُمَّ زال عنه، وهكذا الوسوسة مع القلب، والآية مع عمومها تأكيد لِمَا قبلها في خصوص النبيء ﷺ، على أنَّ الخطاب في «يَنزَغَنَّكَ» له ﷺ، وإن جعل لكلٍّ من يصلح للخطاب ففيها أيضا العموم بَدَليًّا كما كان في هذه شُموليًّا.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ قيل: الإخوان الشياطين، والهاءان وواو الجماعة في «يُقْصِرُونَ» للجاهلين، أي إخوان الجاهلين، وهم الشياطين يمدُّون الجاهلين في الغيِّ، ولا يقصر الجاهلون عن اتِّبَاعهم، وقيل: المراد إخوان الشياطين، لأنَّ المراد في قوله: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ الجنس، فالهاء للشيطان بمعنى الشياطين، والإخوان: الآدميون الذين لم يتَّقوا الشرك والمعاصي، فالإخوان مذكورون في مقابلة الذين اتَّقوا ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ الواو للشياطين من عود الضمير على المضاف إليه، والخبر جارٍ على غير ما هو له سببيٌّ، والهاء للذين لم يتَّقوا الشرك والمعاصي المعبَّر عنهم بالإخوان، وهم آدميُّون، أي وإخوان الشياطين يمدُّهم الشياطين، والإمداد: الزيادة، أي يزيدونهم، وذلك أصحُّ، وقيل: الضمير الأوَّل للإخوان والثاني للشياطين، أي إخوان الشياطين يمدُّون الشياطين، فالخبر جارٍ على ما هو له، أي يمدُّون الشياطين إخوانهم الشياطين بالاتِّباع ﴿فِي الْغَيِّ﴾ في الضلال بالتحمُّل عليه والتزيين.

ويجوز أن يراد بالإخوان: الشياطين، والهاءان للجاهلين، أو غير المتّقين والواو للإخوان، والمراد: الشياطين الذين هم إخوان الجاهلين، أو غير المتّقين يمدُّون الجاهلين أو غير المتّقين، والإخوان: الشياطين، والخبر جارٍ على ما هو له حقيق لا سببيٌّ؛ ويجوز أن تعود الهاءان للشياطين، والواو للإخوان والإخوان: الآدميُّون الكفّار وهو كالوجه قبله ﴿ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ لا يقلعون عن الغيِّ بخلاف الإخوة في الله، فإنّهم يتمادون بالطاعة والقبول، وعن ابن عبَّاس: الواو للإخوان.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

اتِّباع النبيء ﷺ الوحي الإلهي وخصائص القرآن

﴿وَإِذَا لَمْ تَاتِهِم بِئَايَةٍ﴾ خارقة للعادة على وجه يقترحونه، بأن أبطأت أو آتيتهم بآية خارقة لا على وجه طلبوه ﴿قَالُواْ لَوْلاَ اَجْتَبَيْتَهَا﴾ تحضيض على اختراعها، أو جمعها، أو أخذها من الله، أو استخراجها، واللفظ ماض ومعناه المضارع، أو لوم له على عدم احتبائها في الماضي.

(لغة) يقال: اجتبى: اخترع، أو جمع، يقال: جبيت الماء في الحوض أي جمعته، والحوض جابية لأنّه جامع للماء، واجتبى الشيء استخرجه، وأيضا اجتباه: اختاره، وذلك تعنُّت كقولهم: ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُفَجِّرَ...﴾(سورة الإسراء: ٩٠) ، وقولهم: ابعث لنا قصيًّا وفلانا يشهدان لك، وقولهم: أزل جبال مكّة وأتِ بمياه، واجعل الصفا ذهبا.

﴿قُل﴾ يا مُحمَّد لهم ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ لا شيئا آتي به من عندي لم يأمرني به الله فأتَّبعه وآمر به، من معجزة ولا من غيرها، نَقلِيَّة

أو عَقلِيَّة، ليس عنـدي أن أقول: أنزل آية كذا مِمَّا يُتلى، أو معجزة كذا. ﴿هَذَا﴾ أي القرآن ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ جمع بصيرة بمعنى مبصرة، كلُّ آية أو حجَّة منه ترى بنفسها كما يرى الإنسان بعينَيْه.

أسند الرؤية إليها إسنادا مجازيًّا عقليًّا مبالغة، كأنَّها لمبالغة الإرشاد بها رَائِيَةٌ على التشبيه البليغ أو الاستعارة، **والقرآن بمنزلة البصائر للقلوب**؛ أو ذلك من إطلاق السبب على المسبَّب، فإنَّها أسباب لإدراك القلوب التوحيدَ وأمر الشرع والحجج؛ أو البصائر استعارة لإرشاد القرآن الخلق إلى إدراك الحقائق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾ سبقت لهم السعادة، وأنَّهم يؤمنون وهنا تمَّ القول.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

الاستماع للقرآن وطريقة الذكر

وأمَّا قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فهو أنسب بمن آمن ولو جاز أن يقصد به الكفرة وحدهم، أو مع غيرهم فيدخل في القول، ولا سيما أَنَّهُ قيل نزلت في السكوت في الصلاة، وهذا إنَّما هو لمن آمن ويصلّي لا للكفَّار، وكان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم كم صلّيتم؟ وكم بقي؟ وكانوا يتكلّمون في الصلاة لحوائجهم، ويسلّم بعض على بعض فيها فنزلت الآية؛ أو نزلت في استماع القرآن في الصلاة وفي الخطبة مطلقا، أو خطبة

الجمعة، وفيه أنَّ الآية مَكِّيَّة والجمعة مَدَنِيَّة، وإذا فسِّرت الآية بالخطبة مطلقا أو خطبة الجمعة فإنَّما سمِّيت قرآنا لأنَّها اشتملت على القرآن.

(فقه) والعمل بعموم اللفظ، فيجب الاستماع للقرآن إذا قرئ في الصلاة أو الخطبة أو في غيرهما، ما دام يفرز الكلام، ولا يجب إن كان لا يفرزه لبعد مثلا، وكأنْ يسمع همهمة إلاَّ إن كان في الصلاة ويستمع لقراءة الإمام، ولا يقرأ معه، وهذا داخل في الآية إلاَّ فاتحة الكتاب فلا صلاة للمأموم إلاَّ بها كالإمام والفذّ، كما جاء في الحديث[1] مُقَيِّدا لإطلاق الآية، وكان ناس يقرؤون مع الإمام غير الفاتحة، ولَمَّا سلَّم قال: «**أما آن لكم أن تفقهوا** ﴿**وَإِذَا قُرِئَ اَلْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ**﴾ **كما أمركم الله؟!**»[2] قال جابر بن عبد الله عنه ﷺ: «**من كان له إمام فقراءته له قراءة**»[3] ومثله عن عبادة بن الصامت وعائشة، وروى أبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت كنَّا خلف رسول الله ﷺ في صلاة الفجر، وقرأ رسول الله ﷺ فثقلت عليه القراءة، فلَمَّا فرغ قال: «**لعلَّكم تقرأون خلف إمامكم؟**» قلنا نعم، قال: «**لا تفعلوا إلاَّ بفاتحة الكتاب، فإنَّه لا صلاة لمن لم يقرأ بها**»[4]. والاستماع صرف قوَّة الأذن إلى إدراك الصوت، والإنصات ترك ما يشغل عن ذلك، فقد يستمع وهو غير

١- روى **الربيع** من طريق أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى صلاة لم يقرأ فيها بأمِّ القرآن فهي خداج»، الحديث رقم ٢٢٢، ورواه **الجماعة** إلاَّ البخاري عن أبي هريرة.

٢- رواه **البيهقي** في كتاب الصلاة، (٢٦٥) باب من لا يقرأ خلف الإمام على الإطلاق، رقم ٢٨٩٨، من حديث جابر.

٣- رواه **البيهقي** في كتاب الصلاة، (٢٦٤) باب من قال: يترك المأموم القراءة فيما جهر به الإمام بالقراءة، رقم ٢٨٨٩ بنفس المعنى من حديث أبي موسى.

٤- رواه **الربيع** في كتاب الصلاة، (٣٨) باب في القراءة في الصلاة، رقم ٢٦٦ من حديث عبادة بن الصامت. ورواه **أبوداود** في كتاب الصلاة باب من ترك القراءة في صلاته، رقم ٨٢٣.

منصت بأن اشتغل بكلام، أو قراءة أو فعل. واللام صلة للفعل، أو بمعنى إلى، أو للتعليل، ويقدَّر مثلها لـ«أَنصِتُوا».

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أي سرًّا بقراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك، لأنَّ السرَّ أَدْخَلُ في الإخلاص وأقرب إلى التفكُّر في الصلاة وغيرها.

(فقه) وعمل السرِّ من النفل يزيد على الجهر بسبعين، لكن لا بدَّ من تحريك اللسان في صلاة السرِّ وإسماع الأذن في صلاة الجهر عند أبي هريرة، ومن إسماع الأذن في صلاة السرِّ والغَيْرِ في صلاة الجهر عند غيره، واختار بعض العلماء في قراءة القرآن في غير الصلاة إسماع الأذن، لأنَّ فيه القراءة والسماع لها؛ ولا بدَّ من إسماع الإمام المأمومين في صلاة الجهر طاقته بلا تكلُّف. وقيل: الذكر في النفس إحضار المعنى، وفي الحديث القدسيِّ: «**من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير من ملئه**»[1] وقيل: الخطاب في «اذْكُرْ» لمستمع القرآن وعنه ﷺ : «**خير الذكر الخفيُّ**»[2].

﴿تَضَرُّعًا﴾ تذلُّلا لله ﷻ ﴿وَخِيفَةً﴾ نوع من الخوف عظيم، يعالجه الإنسان من نفسه قلبت الواو ياء للكسر قبلها، والمعنى: للتضرُّع والخيفة، أو ذوي تضرُّع وخيفة، أو متضرِّعين وخائفين، ذلك الخوف خوف العقاب، وخوف إجلال وخوف الخاتمة وخوف السابقة ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ عطف على «فِي نَفْسِكَ»، والظرف يعطف بالنصب على المجرور بحرف، اكتفاء بمعنى «في»، كقوله: ﴿وَمِنَ ءَانَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾(سورة طه: ١٣٠)

١- رواه أحمد في مسنده، ج٣، ص٢٧١، رقم ٨٦٥٥، من حديث أبي هريرة.

٢- رواه أحمد في مسنده، ج١، ص٣٦٤، رقم ١٤٧٧، من حديث سعد بن مالك.

بنصب «أَطْرَافَ»، أو يقدَّرُ: وذكرا دون الجهر، أي: واذكره ذكرا فوق السرِّ ودون الجهر. وعن ابن عبَّاس هو أن يسمع نفسه، وقدَّر بعض: ومتكلِّما كلاما ثابتا دون الجهر وفوق السرِّ، فيعطف متكلِّما على «تَضَرُّعًا وَخِيفَةً» بمعنى: متضرِّعا وخائفا ﴿مِنَ اَلْقَوْلِ﴾ أي بالقول، متعلِّق بالجهر ـ قيل ـ أو تبقى «مِنْ» على حالها، وتعلَّق بمحذوف حال من «دُونَ»، والمراد التوسُّط، فيسرُّ تارة ويتوسَّط أخرى.

﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أوَّل النَّهار، مصدر ناب عن الزمان، أو جمع غُدْوة بضمٍّ فإسكان، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وهو متعلِّق بـ«اذْكُرْ» ﴿وَالآصَالِ﴾ أواخره من العصر إلى الغروب، والمفرد أصيل كيمين وأيمان، أو جمع أُصُلٍ كعنق، والمراد: تعميم الأوقات، وأشار إليه بذكر الطرفين، وخصَّهما ليبتدئ يقظته بالذكر ولو تقدَّم من السحَر، ويختمها به ولو تطاول، ولصعود الأعمال أوَّل النهار وآخره، ولأنَّه لا صلاة بعد صلاتي الفجر والعصر، فيشتغل بالذكر ولا يبقى فارغا، أو لتغيُّر العالم فيهما بالنور والظلمة تغيُّرا عجيبا، وقيل: لأنَّهما وقت اجتماع ملائكة الليل والنهار بالتعاقب ﴿وَلاَ تَكُن مِّنَ اَلْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله ﷻ.

﴿إِنَّ اَلذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة مطلقا، لأنَّ المراد بالعنديَّة: الرتبة بالعبادة الخالصة المتتابعة، ولو في الأرض، وكلُّهم متَّصفون بمضمون خبر «إِنَّ» أو المراد: ملائكة الملإ الأعلى، كملائكة العرش وملائكة ما فوق سدرة المنتهى، متابعة للفظ «عِندَ» وهي أيضا عنديَّة رتبة، لتنزُّه الله ﷻ عن المكان، أو ملائكة السماوات وما فوقهنَّ، ونحو ذلك ممَّا لا ينفذ فيه إلاَّ أمر الله.

﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ ولا يغفلون ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ ينزِّهونه عن

صفات الخلق ﴿وَلَهُ﴾ لا لغيره ولا مع غيره ﴿يَسْجُدُونَ﴾ يخضعون بالجوارح والقلوب والألسنة، **فكونوا مثلهم بقدر ما استطعتم**، روى مسلم وابن ماجه عن النبيء ﷺ : «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، ويقول: أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنَّة، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار**»[1]. وعن عائشة رضي ا الله عنها أنّه ﷺ يقول في سجود القرآن بالليل مرارا: «**سَجَدَ وجهي للذي خلقه، وشقّ سَمعَه وبصَره بحوله وقوّته، فتبارك ا الله أحسن الخالقين**»[2] وعن عائشة رضي ا الله عنها مرفوعا: «**ما من مسلم يسجد لله تعالى سجدة إلاّ رفعه ا الله تعالى بها درجة، أو حطّ عنه بها خطيئة**»[3]، أو جمعهما له كلتيهما وا الله أعلم.

ولا حول ولا قوّة إلاّ با الله العليّ العظيم
وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم.

١-رواه **مسلم** في كتاب الإيمان، (٣٥) باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم ٨١. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الصلاة، (٧٠) باب سجود القرآن، رقم ١٠٥٢. من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **أحمد** في مسنده، ج٩، ص٢٧٠، رقم ٢٤٠٧٧، من حديث عائشة دون ذكر عبارة: «فتبارك ا الله أحسن الخالقين».

٣-رواه **أحمد** في مسنده، ج٨، ص٣٢٢، رقم ٢٢٤٣٣، من حديث ثوبان.

تفسير سورة الأنفال وآياتها ٧٥

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ① إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ③ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④﴾

السؤال عن الغنائم وبيان أوصاف المؤمنين

سورة الأنفال أي الغنائم.

(سبب النزول) اختلف المسلمون في غنائم بدر أي وهي قليلة، فقال الشبَّان: هي لنا لأنَّا باشرنا القتال، وقال الشيوخ: كنّا ردءا ـ أي عونا ـ لكم تحت الرايات، لو انكشفتم لفئتم ـ أي رجعتم ـ إلينا فهي بيننا وبينكم، واختلفوا أيقسمها بين أهلها المهاجرين أم الأنصار فنزل قوله تعالى:

﴿**يَسْأَلُونَكَ**﴾ أي الصحابة المعروفون في تلك القصَّة ﴿**عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ والسؤال سؤال استفهام، لأنَّ الشبَّان والشيوخ مع تنازعهم لم يخلوا عن استفهام رسول الله ﷺ، بل روي أنَّهم لَمَّا اختلفوا

قالوا: يارسول ا لله لمن هي؟ فنزل: إنّها لله ورسوله ﷺ، وقد روى هذا أحمد وابن حبَّان والحاكم عن عبادة بن الصامت وأنّهم[1] قالوا: لمن الحكم فيها أللمهاجرين أم للأنصار أم لهم جميعا؟ ويجوز أن يكون سؤال استعطاء، وعليه فـ«عَن» صلة، أو بمعنى «مِن» التبعيضيَّة.

والأصل عدم الزيادة ويناسب الزيادة قراءة ابن مسعود، وسعد بن أبي وقَّاص وعليٍّ بن الحسين، وجماعة من أهل البيت بإسقاط «عَن» ونصب «الأنفال»، قلت: قراءة إثباتها هي المشهورة وقراءة الجمهور، فيردُّ إليها قراءة الإسقاط والنصب بأن نقول: النصب على نزع الجارِّ، أي عن الأنفال، وقراءة الجمهور هي المتواترة والمناسبة لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ والرَّسُولِ﴾.

(سبب النزول) يقول الشبَّان: اعطنا الأنفال ويقول الشيوخ: اعطنا بعضها وهو النصف، ويقول سعد بن أبي وقَّاص يارسول ا لله قتل سعيد بن العاص أخي عميرا فقتلته فأخذت سيفه هذا فأعطنيه، فقال رسول ا لله ﷺ: «**ليس لي ولا لك فاطرحه في القَبَضِ**» بفتحتين أي في المقبوض من الغنيمة، وروي أنّه رجع فسأله السيف أيضا مرَّة أخرى فشدَّ عليه ونهره، وقال: «**اطرحه في القبض**» قال: فطرحته وبي ما لا يعلم إلاّ ا لله من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلاّ قليلا حتّى نزلت سورة الأنفال وناداني من ورائي مناد نزل قرآن، فقال رسول ا لله ﷺ: «**سألتني السيف وليس لي وإنّه قد صار لي فاذهب فخذه**». وروي أنّه ﷺ وعدهم أن يعطيهم ما سلبوا، فسارع الشبَّان فقتلوا سبعين، وأسروا سبعين، أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصحَّحه عن ابن عبَّاس رضي الله عنه، ولَمَّا نزلت الآية قسَّمها ﷺ بينهم سواء، رواه الحاكم،

١- في نسخة أ: «وإنّهُم عطف على هذا أي ورووا أنّهم قالوا»

فذلك هو قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ...﴾(سورة الأنفال: ٤١) لا كما قيل إنّه غيْرُه ثمَّ نسخ به، وهذا هو الصحيح، لا كما روي عن سعيد بن جبير أنَّ السيف وجده سعد بن أبي وقّاص وأنصاريٌّ فتنازعا فيه فنزلت الآية، ولعلَّ هذا سيف آخر نزلت الآية فيهما.

(فقه) وإذا قال الإمام: من سلب كافرا فله سلبه، ومن قتل كافرا فله سلبه، أو وَعَدَه لم يكن له الرجوع، وإنّما رجع النبيء ﷺ للوحي.

(لغة) والأنفال: جمع نَفَل بفتحتين كفرس وأفراس وسبب وأسباب، والنَّفل: الزيادة بفتحتين أو بسكون الفاء، سمِّيت الغنائم بذلك لأنّها زيادة لهذه الأمَّة، وفضل على غيرها، ومنه النافلة في الصلاة وغيرها لأنّها زيادة على الفريضة، قال الله عَزَّ وَعَلاَ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾(سورة الأنبياء: ٧٢) أي زيادة، وكذا ما يعطيه الإمام مقتحِمًا خطرا زيادة على سهمه، و﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحالة صاحبة بينكم[1]، والبين: بمعنى الفراق، أو الوصل، أو ظرف مجرور بالإضافة، أي أحوالا ذات افتراقكم، أو ذات وصلكم، أو ذات الكمال المتّصل بكم، وقال الزجّاج: «ذَاتَ» بمعنى حقيقة الشيء كما نستعمله في علم الكلام وهذا أضعف من الزُّجاج إذ لم يثبت في اللغة، فهي الحالة التي بينكم هكذا مجملة، اجعلوها صالحة بالودِّ وترك النزاع والتسابِّ والغلول، والخلاف المؤدّي إلى شقّ العصا، والمساعدة والعدل والإحسان، قالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال ﷺ: «**لِيَرُدَّ بعض إلى بعض**»[2]، أو الحالة الإسلامِيَّة التي

١- كذا في النسخ ولم يتّضح وجه العبارة. تأمَّل.

٢- رواه **البيهقي** في كتاب قسم الفيء والغنيمة، (١٤) باب كراهية النفل من هذا الوجه إذا لم تكن حاجة، رقم ١٢٨١٤. من حديث عبادة بن الصامت بلفظ: «ليردَّ قويُّ المؤمنين على ضعيفهم».

بينكم أصلحوها بذلك وإلاَّ فسدت. وذكر الإيمان لأنَّه يقتضي الإصلاح المذكور، والمشرك لا يعمل ذلك ولا يليه، أو المراد: الإيمان الكامل، لأنَّه الذي يستدعي الإصلاح، **فإنَّ الأعمال شرط في كمال الإيمان**، أو المراد: دوام الإيمان، أو ترتُّب ما ذكر عليه، وليس تشكيكا في إيمانهم.

﴿إِنَّمَا اَلْمُومِنُونَ﴾ كاملو الإيمان، مبتدأ، خبره قوله: **﴿الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اَ للَّهُ﴾** ذكر وعيده **﴿وَجِلَتْ﴾** خافت **﴿قُلُوبُهُمْ﴾** ذلك الوعيد، أو إذا ذكر ا لله بالوعد أو بالوعيد أو غير ذلك خافته قلوبهم خوف إجلال، فيفزعون إلى ذكره، وإذا همُّوا بمعصية فقيل لهم اتَّقوا ا لله خافوا وتركوها، ووجل القلب لا ينافي الاطمئنان في قوله تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ ا للهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(سورة الرعد: ٢٨) فإنَّها تطمئنُّ بتحقيق التوحيد، وتحقيقه لا ينافي الخوف من ا لله تعالى، والدعاء مجاب عند اقشعرار القلب خوفا، كما قالت أمُّ الدرداء رضي ا لله عنها.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمُ, ءَايَاتُهُ﴾ ما نزل من القرآن **﴿زَادَتْهُمُ, إِيمَانًا﴾** تصديقا بالقلب وعملا بالقول والجوارح، فإنَّ الإيمان بتلك المعاني يزداد قُوَّة ورسوخا بزيادة الأدلَّة وتداعي بعض لبعض والفكرِ، وينقص بإهمال الفكر والعمل على عكس التداعي، فكلَّما نزلت آية تقوَّوْا، والكافر بها يزداد كفرا بنزول أخرى، كما أنَّه إذا انكشف الغطاء صدَّق من كذَّب، وازداد يقينا من صدَّق إلاَّ قليلا، كما قيل عن الإمام عليٍّ: «لو انكشف الغطاء لم أزدد يقينا»، فهذا من الإمام عليٍّ ظاهر في أنَّ الإيمان يزداد وينقص، والمعنى: تَقَوِّيه بزيادة الأدلَّة والعمل بمقتضاه، وضعفه بعدم التفكُّر والعمل بغير مقتضاه.

(أصول الدين) كما يتفاوت بطلوع الشمس وبحدوث العالم، وذلك تحقيق لا خلاف لفظيٌّ، كما زعم بعض أنَّ ترك العمل هو نقصه، وقول البخاريِّ: «لقيت أكثر من ألف عالم في الأمصار يقولون: الإيمان قول وعمل،

ويزيد وينقص»[1] ليس نصًّا في أنَّ النقص بترك العمل، وإنّما هو إخبار بأنَّه يزيد وينقص، وتبادر من عبارته ليس بترك الأعمال، وحديث أَنَّهُ ﷺ قال لوفد ثقيف: «**الإيمان مُكْمَلٌ في القلوب، زيادته ونقصه كفرٌ**» لا يصحُّ لضعف سنده جدًّا، ولو صحَّ لكان المعنى: الزيادة فيه من غيره بما ليس شرعا، والنقص منه باختلاله كفر، وحديث البخاري حجَّة على من يدَّعي أنَّ القول قد يكفي عن العمل، أمَّا من تاب أو أسلم ومات قبل العمل فلا إشكال في قبوله.

﴿**وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ**﴾ لا على غيره ﴿**يَتَوَكَّلُونَ**﴾ ذكر للموصول ثلاث صِلاَتٍ: وجل القلوب عند ذكر الله ﷻ، وزيادة الإيمان إذا تليت آياته، والتوكُّلِ عليه؛ وذكر موصولا آخر بصلتين في قوله: ﴿**الذِينَ**﴾ نعت للمؤمنين ﴿**يُقِيمُونَ اَلصَّلاَةَ**﴾ الواجبة والنافلة ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ في الطاعة واجبا ونفلا، قرن الله تعالى الإيمان وعمل الصالحات كما في الآية قبل هذه، وقوله: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والزكاة والصلاة والإنفاق في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾(سورة المزمِّل: ٢٠) وطاعة الله وطاعة الرسول في قوله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾(سورة التغابن: ١٢) وطاعة الله والإحسان إلى الوالدين في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(سورة الإسراء: ٢٣) وأخبر عن هؤلاء الصفات بقوله: ﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿**هُمُ الْمُومِنُونَ حَقًّا**﴾ مصدر مؤكِّد لغيره، كقولك هو وليُّ الله حقًّا، أي حقَّ ذلك حقًّا، أو نعت مصدر، أي إيمانا حقًّا ﴿**لَهُمْ دَرَجَاتٌ**﴾ كثيرة لا قليلة، عظام حسِّيَّات ومعقولات، من علوِّ الشأن، قال ﷺ: «**في الجنَّة مائة درجة، لو أنَّ العالمين اجتمعوا في**

١-أنظر ابن حجر، **فتح الباري** ج١، ص٤٠

إحداهنَّ لوسعتهم»[1] رواه أبو هريرة، وعن أنس: «**سبعون درجة ما بين كلٍّ درجتين حصر الفرس المضمر سبعين سنة**»[2] ﴿**عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ في اللوح المحفوظ وفي علمه ﴿**وَمَغْفِرَةٌ**﴾ بسبب الصلاة ﴿**وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ في الجنّة بسبب الإنفاق، وكرمه بعظمه وكثرة أفراده ودوامه. ويجوز أن يكون «الذِينَ» مبتدأ خبره ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُومِنُونَ﴾ وجملة ﴿لَهُم دَرَجَاتٌ﴾ خبر ثان.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾

كراهية بعض المؤمنين قتال قريش في بدر

﴿**كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُومِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ**﴾ أسبابه. «مَا» مَصدَرِيَّة، والتشبيه عائد إلى الاستقرار في «لَهُمْ»، أي ثابتات لهم ثبوتا كثبوت إخراجك، أو مثل ثبوت إخراجك، أو إلى «حَقًّا»، أي حقًّا ثابتا كثبوت إخراجك، أو مثل ثبوت إخراجك، أو إلى قوله: ﴿الاَنفَالُ﴾ أي ثابتة لله ثبوتا كثبوت إخراجك، أو مثل ثبوت إخراجك

١- أورده **الألوسي** خبرا في تفسيره، انظر: ج٣، ص١٦٨.

٢- أورده **الألوسي** خبرا في تفسيره، انظر: ج٣، ص١٦٨.

أو إلى «أَصْلِحُوا»، أي صلاحا ثابتا كإخراجك... أو إلى «أَطِيعُواْ»، أي إطاعة ثابتة أو محقّقة كثبوت إخراجك، أو كتحقّق إخراجك، أو إلى «يَتَوَكَّلونَ»، أو حالهم في كراهة قسم الغنيمة ككراهة إخراجك...، أو قسمتك الأنفال حقّ كإخراجك ... إذ كرهوا المساواة فيها أو المشاركة، أو إخراجك من مكّة حقّ كإخراجك...، في أنّ الكلّ منفعة مكروهة عاقبتها الخير؛ وذلك كلّه من بلاغة الكلام بالاستشهاد بحال واقعة أو حاضرة، كما قال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ...﴾ (سورة العاديات: ١) حين قال المشركون: إنّ جند النبيء ﷺ مقتولون.

والبيت: المدينة، أو مكّة، أو بيته ﷺ في إحداهما، والأولى بيته في إحداهما وَأَنَّهُ الذي في المدينة، والواو في ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا...﴾ للحال. والكراهة كراهة القتال إذ لم يخرجوا له من المدينة، لأنّهم لم يستعدّوا له لا جبنا، فأحبّوا التعرّض لمال قريش الآتي من الشام لكثرته وقلّة الرجال معه، وكذلك كره الشبّان مقاسمة الشيوخ لهم في الأنفال، وكذلك كره الشيوخ أو بعضهم قوله ﷺ: «**من أخذ سلبا فهو له**» إذ قاله، أو إذ رأوا الشبّان سلبوا ما شاء ا لله.

والكراهات في ذلك كلّه كراهة طبع لا عصيان له ﷺ، وَمِمَّا روي في ذلك أنّ سعد بن عبادة قال: «يارسول ا لله إنّ جماعة من أصحابك وقوك بأنفسهم فلم يتقدّموا مع الشبّان، ومتى أخذ هؤلاء ما سلبوا بقوا بلا شيء» فنزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الاَنفَالِ...﴾. والحقّ: القتال؛ وجدالهم في شأنه: هو قولهم: لم نستعدّ له؛ وتبيّنه لهم: ظهوره لهم بأنه الصواب، وأنّه أنفع لهم، لأنّك أخبرتهم بأنّهم ينصرون أينما توجّهوا، و«كان» مكفوفة بـ«مَا».

وحاصل الشَّبَه أنّهم لقلّة عددهم وكثرة العدوّ وعدم الاستعداد له كانوا كأنّهم يساقون إلى الموت، وهم يشاهدون أسبابه كالحريق والإغراق وسلّ السيوف على رؤوسهم، وهم أسرى، وذلك رعب، لأنّهم ثلاثمائة ونحو ثلاثة

عشر، وفيهم فرسان للزبير بن العوَّام والمقداد بن عمرو، ويقال له: المقداد بن الأسود، وعن الإمام عليٍّ: ما معنا فارس إلاَّ المقداد، والعدوُّ ألف وسبعون فرسا، وقيل: ألف رجل إلاَّ خمسين في رواية. و«يُجَادِلُونَ» خبر ثان لـ«إنَّ»، أو حال من ضمير «كَارِهُونَ»، أو مستأنف؛ ويبعد كون الواو للمشركين، لأنَّ المقام ليس لذلك وعليه يتعيَّن الاستئناف.

﴿وَإِذْ﴾ واذكر إذ ﴿يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّآئِفَتَيْنِ﴾ بوحي جبريل إليه ﷺ إجمالا فيهما: أبي جهل ومن نفر معه من مكّة، والعير الآتية من الشام لقريش من تجارتهم، وما فيها إلاَّ أربعون رجلا، رئيسهم أبو سفيان ومعه عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل. ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل اشتمال من «إِحْدَى». ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ الشوكة: البأس والسلاح، مستعار من واحد الشوك، شَبَّه حدَّة الرمح ونصل السهم بحدَّة شوك النبات كشوك النخلة وشوك شجر الطلح، وذات الشوكة: أبو جهل وأصحابه النافرون من مكّة، وغيرها: عير الشام، ولم يذكر ذلك بحصر لأنَّهم ما قالوا: لا نقصد إلاَّ غير ذات الشوكة، بل قالوا: نقصدها، ولو كان المراد ترك ذات الشوكة، ولَمَّا قالوا ذلك غضب ﷺ.

(سيرة) وأيضا لَمَّا فرغوا من بدر قيل له: عليك بالعير، فناداه العَبَّاس وهو في وثاقه لا يصلح لك ذلك، فقال: لم؟ فقال: لأنَّ الله وعدك إحدى الطائفتين، سمعه من النبيء ﷺ، أو من الصحابة، وقد نجت إلى طريق الساحل روي أنَّه ﷺ خرج ليأخذ عير أبي سفيان وأصحابه القافلة من الشام فأخبر أبا سفيان بعض أهل البدو، أو المسافرون، فأخذ طريق الساحل واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ليذهب إلى أهل مكّة فجاءوا وقد نجت بأخذ طريق الساحل ساحل البحر، وترك الطريق المعهودة، فقيل لأبي جهل: ارجع إذ نجت،

فأبى، وقال له أبو سفيان: ارجع وعليَّ عيب الرجوع، فأبى، وكذا قال له غيره وأبى، وسار ليسمع الناس أنّه مضى إلى بدر ويشرب فيها، وليقاتل رسول الله ﷺ إن جاءه، وشاور رسول الله ﷺ أصحابه، وقال: إنَّ الله وعدني إحدى الطائفتين فوافقوه على قتال النفير وكره بعضهم ذلك، وقال: لم نستعدَّ له، وذلك بوادي "دَقْرَان" بفتح الدال فإسكان القاف قريب من الصفراء، وغضب ﷺ وقال: إنَّ العير مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فأحسن أبو بكر ثمَّ عمر القول بالإجابة إلى القتال، ثمَّ قال سعد بن عبادة: انظر أمرك فامض فيه، فوالله لو سرت إلى عدن ما تخلَّف عنك رجل من الأنصار، ثمَّ قال المقداد بن عمرو وهو المقداد بن الأسود: امض كما أمرك الله فإنّا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائل لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(سورة المائدة: ٢٤) ولكن اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فتبسَّم رسول الله ﷺ، ثمَّ قال: أشيروا عليَّ أيُّها الناس، يريد الأنصار، وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبة أنَّهم برءاء من ذمامه حتّى يصل إلى ديارهم فتخوَّف أن لا يروا نصرته إلاَّ على عدوٍّ هجم عليه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: كأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: إنّا قد آمنّا بك وصدَّقناك وشهدنا أنّما جئت به هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لِمَا أردت، فوالذي بعثك بالحقِّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلّف مِنّا أحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا، وإنّا لَصبرٌ عند اللقاء، ولعلَّ الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله تعالى، فنشَّطه قوله، ثمَّ قال ﷺ: **«سيروا على بركة الله، وأبشروا فإنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم»**. وبسطت الكلام على ذلك جدًّا في شرح نونيَّة

المديح بحول ا لله وقوَّته.

ولَمَّا نجت العير علم أنَّ الطائفة الموعود بها النفير. وخصَّ العرض لأنَّ عرض البحر أصعب من طوله. وسمِّي ذلك الموضع بدرا لأنَّ رجلا اسمه بدر حفر فيه بئرا، أو لأنَّ البدر يرى فيها لصفاء مائها، وفيه سوق للعرب، ولَمَّا بلغ الخبر أبا جهل أنَّ رسول ا لله ﷺ خرج من المدينة لأجل العير طلع فوق الكعبة فقال: يا أهل مكَّة النجاء النجاء! ـ أي السرعة ـ على كلِّ صعب وذلول! ـ أي على أيِّ دَابَّة صعبة أو سهلة ـ عيرَكم وأموالَكم! إن أصابها مُحَمَّد لن تفلحوا بعدها أبدا!. وقد أرسل إليهم أيضا أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاريَّ كما مرَّ.

(سيرة) ورأت عاتكة بنت عبد المطَّلب عمَّة النبيء ﷺ قبل قدوم ضمضم بثلاث ليال رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العَبَّاس رضي الله عنه، فقالت له: وا لله يا أخي لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت أن يدخل على قومك منها شرٌّ، فقالت له واستكتمته: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتَّى وقف بالأبطح، وصرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم في ثلاث، بعد ثلاث أيَّام، ودخل المسجد واتَّبعه الناس، ثُمَّ مثل به بعيره على ظهر الكعبة فصرخ كذلك، ثمَّ على أبي قبيس كذلك، ثمَّ أخذ صخرة فأرسلها تهوي حتَّى كانت بأسفل الجبل تفرَّقت ودخلت كلَّ دار فرقة منها، فاستكتمها كما استكتمته إلاَّ أنَّه لقي عتبة بن ربيعة وكان صديقه واستكتمه وذكرها عتبة لابنه ففشى في قريش، ودخل العَبَّاس المطاف فقال أبو جهل لعنه ا لله: يا أبا الفضل إذا فرغت من الطواف فأقبل إلينا، فطاف فأقبل إليه فقال له: يا ابن عبد المطَّلب متى حدثت هذه النبيئة فيكم؟ قال: ماذا؟ قال: رؤيا عاتكة، يابني عبد المطَّلب أما رضيتم أن تتنبَّأ رجالكم حتَّى تنبَّأت نساؤكم؟!، فإن مضت الثلاث و لم

يكن شيء كتبنا أنَّكم أكذب بيت في العرب، قال العَبَّاس: وأنكرت أن تكون رأت، ولَمَّا أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطَّلب إلاَّ أتـتني وقالت: أقررت لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ثمَّ قد تناول نساءكم، فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة إلى المسجد لأشتمه، وَإِنِّي لأمشي إليه لذلك وكان خفيفا حديد اللسان إذ سمع صوت ضمضم يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره، وقد جدع أنف بعيره، وحوَّل رحله وشقَّ قميصه، وهو يقول : يامعشر قريش! اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها مُحَمَّد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث ! ، فشغلني ذلك عنه وأسرع الناس و لم يتخلَّف أحد، إلاَّ أبو لهب أرسل رجلا مكانه.

﴿وَيُرِيدُ ا للهُ أَن يُحِقَّ اَلْحَقَّ﴾ أن يثبت الحقَّ ظاهرا عاليا على الدين كلِّه مشهورا، وإلاَّ فهو ثابت مطلقا ﴿بكَلِمَاتِهِ﴾ بمعلوماته من أسباب النصر، كنزول الملائكة وإلقاء الرعب بمثل إلقاء الحصى في الطست، وقتالهم إذا أراد ا لله قتال بعضهم بعضا، أو بآياته المتلوَّة المنزَّلة في هذا الشأن، أو بما قضى من الأسر والقتل والطرح في البئر، ولذلك أمركم بقتال النفير، وصرف عنكم العير، وما طَلَبُ العير إلاَّ سَفْسَافُ أمْر، وأين هي من إعلاء الحقِّ ؟ .

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ اَلْكَافِرِينَ﴾ يستأصلهم، فإذا قطعت ما لاقاك من الشيء حتَّى قطعت ما كان منه آخرا فقد عمَّمته بالقطع، ولا تصل إلى قطع آخر الشيء المستقبل إليك إلاَّ وقد قطعت أوَّله، وصَوِّره أيضا مدبرا فاتَّصلت بآخره وأهلكته فأوَّله هناك أيضا بفراره لأنَّه انهزام.

﴿لِيُحِقَّ اَلْحَقَّ﴾ الإسلام، المراد: إظهار حقِّيَّته ﴿وَيُبْطِلَ اَلْبَاطِلَ﴾ الكفر، يظهر إبطاله، ولا تكرير بين الآيتين لأنَّ الأولى في إرادة ا لله ﷻ ذات الشوكة وإرادتهم غير ذات الشوكة، والثانية بيان لعلَّة الأمر بذات الشوكة، وهو سبب إعزاز الدين؛ أو الأُولى إثبات الموعود من النصر،

والثانية إظهار الدين، ثمَّ إنَّ إظهار الدين إمَّا بإبراز الدلائل وإمَّا بتقوية رؤساء الحقّ، وفي الآية توبيخ بطلب سفساف الأمور، وهي العير وترك العالي، وهو قتال النفير، وهو خير لهم فقدَّره الله ﷻ لهم ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ إحقاق الحقّ وإبطال الباطل.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٣ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۝١٤﴾

الإمداد بالملائكة في معركة بدر وتوفير أسباب النصر للمسلمين

﴿إِذْ﴾ بدل من «إِذْ»، لأنَّ الوعد والاستغاثة وقعا في زمان متَّسع، أو مفعول لـ«اذْكُرْ» مستأنف لا متعلّق بـ«يُحِقَّ»، لأنَّ وقت الاستغاثة قبل وقت إحقاق الحقّ، ويجاب بأنَّ المضارع ليس للمضيّ ولا حَكْي الماضي به ليكون الأمر كالمشاهد، بل للاستقبال فهو مستقبل، و«إِذْ» كـ«إِذْ» في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الاَغْلاَلُ﴾(سورة غافر: ٧١)، أو إحقاق الحقّ والاستغاثة في وقت واحد، وإنَّما عبَّر عن زمان الاستغاثة بـ«إِذْ» نظرا إلى زمان النزول،

واستقبال الإحقاق إنَّما هو باعتبار زمان ما هو غاية له من الفعل المقدَّر، لا باعتبار زمان الاستغاثة.

﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ تطلبون منه الغوث لكم على المجرمين، تقولون: ياربَّنا انصرنا على عدوِّك، يدعون بذلك فرادى، أو يدعو النبيء ﷺ ويؤمِّنون. أو يراد النبيء ﷺ وجمع تعظيما له.

(سيرة)　روى مسلم عن ابن عَبَّاس: حدَّثني عمر بن الخطَّاب قال: لَمَّا كان يوم بدر نظر ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ثمَّ مدَّ يديه فجعل يهتف بربِّه، يقول: **«اللَّهمَّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللَّهمَّ إن تُهْلَك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»** فما زال يهتف بربِّه مادًّا يديه حتَّى سقط رداؤه من منكبيه، فردَّه أبو بكر ثمَّ التزمه من ورائه، فقال: يانبيء الله، كفاك مُنَاشَدَتُك ربَّك سيُنجزكَ ما وعدك ربُّك، فأنزل الله ﷻ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَآئِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ فقتلوا سبعين وأسروا سبعين، وروي أنَّه ﷺ نام في العريش ثمَّ انتبه فقال: **«يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع»** ولفظ البخاري: **«هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب»**.

وعطف «اسْتَجَابَ» على «تَسْتَغِيثُونَ» دليل على أنَّ «تَسْتَغِيثُونَ» للماضي كـ«إِذْ» لكنَّه بلفظ المضارع لحكاية الحال الماضية، لاستحضار صورتها العجيبة، أي: إذِ استغثتم ربَّكم فاستجاب لكم بأنِّي ممدُّكم: زائدكم ومعينكم، بخمسمائة من الملائكة.

(سيرة)　نزل بها جبريل على فرسه حيزوم، وقاتل بها ميمنة العسكر، وَرُبَّمَا كان فيها أبو بكر وأكثر مقامه مع النبيء ﷺ محافظة عليه، وبخمسمائة

نزل بها ميكائيل وقاتل بها، وكانت ميسرة الجيش، وفيها عليٌّ، ونزلت أيضا في غير بدر لتكثير لا لقتال، وقيل: قاتلت أيضا في حنين وفي الأحزاب، وبعد نزول الألف زاد ألفين كما في آية ﴿بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ﴾ وبعد الثلاثة زاد ألفين كما في آية ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ﴾(سورة آل عمران: ١٢٤، ١٢٥) وكلُّهم في ثياب صوف على هيئة الرجال، أو الألف على المقدِّمة أو الساقة، أو وجوههم وأعيانهم، أو من قاتل منهم، وقيل: لم يقاتلوا في بدر ولا غيرها، بل ثبَّتوا الذين آمنوا وكثَّروا السواد، [قلت:] والصحيح أنَّهم قاتلوا كما جاءت أحاديث أنَّ الصحابي يتبع الكافر فيرى رأسه مقطوعة ونحو ذلك، وبسطت المسألة في شرح النونيَّة، وكان الثواب للصحابة في قتلهم وقتل الملائكة. وروي أنَّ رسول الله ﷺ أخذ كفًّا من حصباء فرمى بها المشركين، وقال: «**شاهت الوجوه، اللهمَّ أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم**»[1]، فانهزموا فأخذ المسلمون يقتلون ويأسرون.

وعن عليٍّ: لَمَّا التقى الصفَّان جاءت ريح لم أر مثلها قطُّ شدَّة وذهبت، وجاءت أخرى مثلها وذهبت، وجاءت ثالثة، فكانت الأولى جبريل في ألف من الملائكة عليهم السلام، فكانوا مع رسول الله ﷺ، وكانت الثانية ميكائيل في ألف من الملائكة عليهم السلام فكانوا في ميمنة رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رضي الله عنه في الميمنة، وكانت الثالثة إسرافيل في ألف من الملائكة عليهم السلام ونزلوا في ميسرة رسول الله ﷺ، وأنا في الميسرة، وجمعنا الغنائم، وجعلناها ثلاثمائة وسبعة عشر سهما، والرجال ثلاثمائة وثلاثة عشر راجلا والفارس رجلان له

١-رواه **مسلم** في كتاب الجهاد، (٢٨) باب في غزوة حنين، رقم ٨١ (١٧٧٧). ورواه **التبريزي** في كتاب الفضائل، (٧) باب في المعجزات، رقم ٥٨٩١ (٢٤). من حديث سلمة بن الوكيع.

سهمان، وأمر بحفر القليب فطرح القتلى فيه، إلاَّ أميَّة بن خلف فإنَّه كان سمينا انتفخ من يومه، وتزايل لحمه حين جرُّوه، فقال ﷺ: اتركوه، فناداهم على القليب: «**يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أميَّة بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام، هل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًّا؟ فإنِّي وجدت ما وعدني ربِّي حقًّا، بئس القوم كنتم لنبيئكم، كذَّبتموني وصدَّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقتلتموني ونصرني الناس**» فقال الصحابة: يا رسول الله، أتنادي أقواما قد ماتوا ؟! فقال: «**والذي نفس مُحَمَّد بيده ما أنتم بأسمع لِمَا أقول منهم، ولكن لا يجيبون**» وبسطتُ ذلك في شرح نونيَّة المديح. ومعنى ﴿مُرْدَفِينَ﴾ أنَّ الله ﷻ أردفهم على الخيل على فرس ملكان، أو جعلهم خلف المؤمنين، أو أردفهم بالمؤمنين بأن جعلهم قدَّام المؤمنين، أو أتبع بعض الملائكة بعضا.

﴿**وَمَا جَعَلَهُ**﴾ أي الإمداد المعلوم من «مُمِدُّ» ﴿**ا للهُ إِلاَّ بُشْرَى**﴾ أي تبشيرا لكم بإعانتهم وبنصركم. والمَلَك الواحد لو أمره الله لأهلكهم في أقلَّ من ساعة، والآية دلَّت على أنَّ الملائكة لم تقاتل، وقيل: قاتل بعض، وأنَّ صحابيًّا هو أبو داود المازني تبع مشركا ليقتله فرأى رأسه مقطوعا قبل الوصول إليه، وتبع صحابيٌّ مشركا ليقتله فسمع ضربة سوط فوقه وقائلا أقدم حيزوم، فخرَّ المشرك مستلقيا محطوما مشقوقا وجهه، فحدَّث رسول الله ﷺ بذلك فقال: «**صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة**»[1] و"حيزوم": فرس جبريل منادى بحرف محذوف، أي يا حيزوم.

١-رواه **مسلم** في كتاب الجهاد، (١٨) باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم ٥٨ (١٧٦٣). من حديث ابن عَبَّاس.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ﴾ بذلك الإمداد: تسكن عن القلق وذلِّ القلّة وعدم الاستعداد، أي ولتسكن ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وتعلّق اللام بمحذوف، أي وأثبت الإمداد لتطمئنَّ، أو وأمدُّكم لتطمئنَّ، وإن عدِّيت جعل لواحد بمعنى أثبت كان التفريع للمفعول من أجله، فتعطف «وَلِتَطْمَئِنَّ» على «بُشْرَىٰ» فتكون اللام مذكورة لاختلاف الفاعل، لأنَّ فاعل الجعل ا لله، وفاعل الاطمئنان القلوب.

﴿وَمَا اَلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنـدِ اِ للهِ﴾ بلا توقُّف على استعداد أو كثرة، ولا مدخل فيه للملائكة، فثقوا به فإنَّه ينصر ولو مع قلّة وعدم الاستعداد ومع الضعف، ولا تثقوا بقوّتكم أو شجاعتكم. وقدَّم «بِهِ» على «قُلُوبُكُمْ» لأنَّ الأهمَّ لهم حصول الاطمئنان، وينكشف بذلك وجه تقديم «بُشْرَىٰ» على «تَطْمَئِنَّ»، ولا سيما إن رددت هاء «بِهِ» إلى «بُشْرَىٰ» بتذكيره لأنه بمعنى التبشير، ولا قائل من المؤمنين: النصر من الملائكة لا من ا لله فضلا أن يقال: الحصر قلبيٌّ، إلاَّ أن يعظهم بأن لا يعتقدوا ذلك، لا على أنَّهم اعتقدوه، أو يعتبر ما يخطر ببال ولا يثبت، أو اعتبر ضعف علم أحد منهم في ذلك وأخّر ﴿وَمَا اَلنَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اِ للهِ إِنَّ اَ للهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ لأنَّه كالفذلكة، ولأنَّه حكم كلِّيٌّ في ذلك القتال وغيره من القتال، وفي غير القتال.

﴿إِذْ﴾ اذكرْ إِذْ، وهو ظرف متعلّق بالنصر، ولا خلاف في جواز إعمال المصدر المعرَّف بـ«الـ» في الظرف، أو بدل ثان من «إِذْ» على جواز تعدُّد البدل، والمُبْدَل منه حينئذ لا يكون في حكم السقوط، أو يتعلّق بـ«جَعَلَ»، أو في قوله: ﴿مِنْ عِندِ﴾ لنيابته عن ثبت أو ثابت. ﴿يُغْشِيكُمُ النُّعَاسَ﴾ أي يجعل ا لله النعاس غاشيا لكم ومحيطا بكم ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ ثابتة منه، والنصب على التعليل على أنَّ «أَمَنَةً» مصدر حذفت زوائده، أو اسم مصدر والأصل: التأمين، أو الإيمان، بمعنى جعله إيَّاهُم آمنين غير خائفين، فقد اتَّحد فاعل الإغشاء

والإيمان أو التأمين؛ أو يضمَّن «يُغْشِيكُمُ النُّعَاسَ» معنى: يجعلكم تنعسون، فيكون «أَمَنَةً» على ظاهره مصدرا للثلاثيّ، فيتّحد فاعل النعاس وفاعل الأمن.

والمعنى أنَّ الله أنزل عليهم النعاس في وقت لا يعتاد، فإنَّ الخائف على نفسه في وقت حضور العدوّ وقتاله لا ينام، فإيقاع الله النوم عليهم إزالة للخوف، وذلك في حكم المعجزة إذ وقع النوم على عدد كثير في وقت واحد مع الخوف الشديد، ولم أقل معجزة لأنَّ ذلك لم يقع في معرض التحدّي، ويقال: خافوا وعطشوا فألقى الله عليهم نوما زال به عطشهم وخوفهم وتمكّنوا به من قتال عدوّهم، فهو نعمة لهم، وكان خفيفا بحيث لو قصدهم العدوُّ لعرفوا، وعن ابن عبَّاس ﷺ: **النعاس في القتال أمنة من الله ﷻ، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان.**

﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ**﴾ من الأنجاس والجنابة، والأحداث كمسّ العورة وريح الدبر ﴿**وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ**﴾ وسوسته: بأنّكم عطشتم وعدوُّكم على الماء، وأنّكم لا تغلبون عدوّكم إذ عطشتم، وغلبكم المشركون على الماء، وتصلُّون مجنبين محدثين وأنتم تزعمون أنَّكُم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد أنزل الله الاحتلام على أكثرهم، وعن قليل يقتلكم العدوُّ ويأسرون من أرادوا أسره لضعفكم بالعطش وقلّتكم، فأشفقوا، فأنزل الله الماء ليتطهَّروا به، ولتزول الوسوسة عليهم، فحفروا الأحواض من ماء المطر وتطهَّروا، وسقوا الركاب وشربوا وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدوّ، وكانت الأقدام تسوخ فيه قبل المطر. وقيل: ﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾: الجنابة، أضيفت إليه لأنّها من تخييله، ولذلك سمّيت رجزا، ولا يقال: يلزم في هذا القول التكرار لأنَّا نقول: الجملة الثانية تعليل للأولى، والمعنى: طهَّركم من الجنابة، لأنّها من رجز الشيطان وتخييله، ويبحث بأنَّ التعليل لا تفيده الثانية إذ لم تُسَقْ مساقه.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ يشدَّ عليها بتقويتها باليقين والصبر وانتفاء الوسواس، وجعل إنزال الماء سببا لذلك حتَّى قيل: يربط على قلوبكم بإنزال الماء، و«عَلَى» للإيذان بأنَّ القُوَّة بلغت في الكمال حتَّى كأنَّها استولت على القلوب، وارتفعت عليها، وهذا أولى من جعل «عَلَى» صلة وأنَّ المراد: وليربط قلوبكم. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ بالماء ﴿الاَقْدَامَ﴾ عن أن تسوخ في الرمل، فإنَّ المشي فيه مع دخول الأقدام فيه عسر، وأيضا في تلبيده إزالة الغبرة المشوِّشة؛ أو الهاء للربط على القلوب، فيكون المراد تثبيت القلوب في المعركة، على طريق الكناية، أو تثبيت الأرجل فيها فلا تخرج عنها.

﴿إِذْ﴾ متعلِّق بـ«يُثَبِّتَ»، أو بدل من البدل، أو بدل ثالث على القول بجواز تعدُّد البدل أو الإبدال من البدل؛ أو يقدَّر: اذكر إذ، وإذا عُلِّق بـ«يُثَبِّتَ» تعيَّن عود الهاء إلى الربط ﴿يُوحِي رَبُّكَ إِلَى اَلْمَلآَئِكَةِ﴾ الذين حضروا بدرا ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في تثبيت المسلمين وإعانتهم، والتزلزل بالكفَّار وترهيبهم، ومصدر الاستقرار مفعول «يُوحِي»، أي يوحي ربُّك إلى الملائكة ثبوته معكم.

﴿فَثَبِّتُواْ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بإلهام أنَّ الله ينصرهم، وبالظهور في جهة المسلمين في صور الرجال يأنس بكم المؤمنون، ويرعب منكم الكافرون، وبالكلام بأن يمشوا أمام الصفِّ ويقولوا: «أبشروا بنصر الله»، وبأن يقولوا ذلك في الصفِّ، ويقول القائل منهم: سمعت المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفنَّ، وهذا إلى قوله: ﴿بَنَانٍ﴾ من جملة ما أوحى، بعطف الإنشاء على الإخبار، فإنَّ «ثَبِّتُوا» و«اضْرِبُوا» إنشاء، وفسَّر قوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ أو قوله: ﴿ثَبِّتُوا﴾ بقوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ اِلذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾ الخوف من المسلمين، ولا دليل في ذلك على أنَّ الملائكة قاتلوا يوم بدر، بل الدليل في قوله: ﴿فَاضْرِبُواْ﴾ أَيُّهَا المؤمنون، خطاب من الملائكة لهم، ذكره الله تعالى لنا ﴿فَوْقَ

﴿الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ لأنَّ كون الله مع الملائكة لا يتعيَّن أنَّه معهم في قتال يكون منهم، لجواز أن يكون في سائر أسباب النصر المذكورة آنفا.

ويجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ للمؤمنين، فيكون مقتضى الظاهر: إذ يوحي ربُّك إلى الملائكة أنِّي مع المؤمنين فثبِّتوهم سَأُلقِي... ولَمَّا صرف الكلام لخطاب المؤمنين أظهر الذين آمنوا في قوله: ﴿فَثَبِّتُواْ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وعلى هذا التفسير يكون قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُواْ﴾ خطابا للملائكة أيضا كالتفسير الأَوَّل لا للمؤمنين، فيبعد دعوى أنَّه خطاب للمؤمنين، وأنَّ المعنى لقِّنوا أيُّها الملائكة المؤمنين أنِّيَ أُلقي الرعب وأن يَضربُوا فوق الأعناق... فيكون الضاربون المؤمنين لا الملائكة.

ولا تتقوَّى هذه الدعوى بقوله: ﴿مَعَكُمْ﴾ من حيث إنَّ المعيَّة للخائف، ولا خوف للملائكة، لأنَّ المعيَّة لا تختصُّ بالخوف ولا تترجَّح فيه، بل هي لمطلق الإعانة، وكذا دعوى أنَّه خاطب الله من شاء لأنَّه لا غائب عنه، وحقٌّ أنَّه لا غائب عنه ولكن لا تفسَّر الآية به.

و«فَوْقَ» إمَّا مفعول لـ«اضرب» ومعناه الرأس وما اتَّصَلَ من الأعناق بالرأس، وهو أعلاها على أنَّه لا يلزم الظرفيَّة، وإمَّا ظرف، أي أوقعوا الضرب فوق الأعناق، والذي فوقها هو الرؤوس، أو يقدَّر: اضربوهم فوق الأعناق، وهو أعلى العنق، والبنان: رؤوس الأصابع في اليد والرجل، أو المفاصل، والواحد: بنانة، وخصَّها بعض باليد، وقيل: نفس الأصابع، وأنَّها سمِّيت لأنَّ بها إصلاح الأحوال، مِنْ أبَنَّ بالمقام وبَنَّ به أي أقام[1]، ولذلك خصَّ بالذكر في

١- في اللسان: «ابن سيده: وَبَنَّ بالمكان يَبِنُّ بَنًّا، وأَبَنَّ: أقام به». ابن منظور: لسان العرب، ج١/ ص٢٦٩، مَادَّة «بنن».

قوله ﷻ: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾(سورة القيامة: ٤) وخصَّت هنا لأنَّ بها القتل، وقيل: المراد هنا: باقي الأطراف، قابل بها «فَوْقَ الأَعْنَاقِ»، فعن ابن عبَّاس: إنّها الجسد كلُّه في لغة هذيل.

(فقه) والآية توجب أن لا يضرب في الأدب والحدِّ والنكال والتعزير على القدمين، لأنَّ الله ﷻ أمر بضرب المشركين على البنان لأنّه أسرع في القتل، والمضروب للأدب أو نحوه لا يقصد إلى قتله. والبنان: أصابع القدمين واليدين، وهب أنّها المفاصل ففي القدمين اجتمعت مفاصل البدن كلّه، وكذا إن قلنا: إنَّهَا الأطراف، فأصابع القدمين مثلا من الأطراف، [قلت:] والقول بأنَّ البنان الجسد كلُّه غير مقبول وإن قيل إنَّهُ لغة هذيل، فلسنا نفسِّر القرآن بلغتهم ما وجدنا لغة قريش، وقد قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ أي أصابع يديه أو قدميه، فلا يضرب القدمان والمضرَّة في القدمين تصل الرأس والعينين، وكذا المنفعة فيهما.

(طب) فإذا اضطجعت وجعل إنسان يكبس قدميك أو بنانهما أسرع إليك النوم، وشهر عن الأطبَّاء أنَّ الحفاء يضعف البصر، ويسقط شهوة الجماع، والضرب أشدُّ من الحفاء، ورأى طبيب عجميٌّ لا يعرف العَرَبيَّة عربيًّا أكثر لباس الرأس وتهاون بالقدمين فنزع ما في رأسه وجعله تحت قدميه، يشير إلى أنَّ القدمين أحقُّ بتقوية اللباس. وأُتِيَ بطبيب لسلطان أصابه صداع فأمر بوضع قدميه في ماء حارٍّ، فقال: أين القدمان من الرأس؟ فقال الطبيب: وأين الخصيتان من الرأس؟. وتقرَّر عند الأطبَّاء أنَّ وضع القدمين في الماء الساخن يورث النوم، فبين القدمين والرأس اتِّصَال. قال ﷺ: «**غسل القدمين بالماء البارد بعد الخروج من الحمام أمان من الصداع**» رواه أبو هريرة. وأمَّا حديث الأمر بالمشي بحفاء فنهي عن أن يقتصر على الانتعال تلذُّذا دائما، وعروق

البدن كلُّها في القدمين، وتدفئة القدمين يؤثّر في الرأس بلا عكس، وتدفئة القدمين أو تسخينهما نافع للبدن. ومن ينزل الدم من أنفه لحرٍّ الشمس في رأسه ووضع قدميه في الماء البارد نفعه بإذن الله تعالى. ومن أتاه الجذريُّ فخضَّب قدميه بالحنَّاء لم يعم بصره بإذن الله تعالى، وبقي بصيرا. فَلْيَضْرِبْ -أي المؤدِّب- في المقعدتين والظهر والكتفين لا في القدمين، وحاجة الدين والدنيا إليهما أعظم منها إلى الظهر والمقعدين، كالقيام عليهما في الصلاة وكونهما من أعضاء الوضوء الكثير الدوران. وروي أنّه لَمَّا قال السلطان: أين القدمان من الرأس؟ قال الطبيب: فأين الرأس من الخصيتين؟ أو: أين القدمان من الخصيتين؟ وذلك أنّه يكوى في القدم والرأس معا لمداواة الخصيتين، ويسخّن القدمان في مداواة الزكام، ويسخّن القدمان في مداواة عياء البدن[1].

ويروى أنّه كانت الملائكة لا تعرف كيف يقتل الإنسان فعلّمهم الله الضرب فوق الأعناق وضرب البنان، وكانوا يعرفون قتيل الملائكة بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة نار قد احترق بها، وفي ضرب البنان من اليد قطع لهم عن حمل السلاح، والانتفاع به، وعقاب لهم إذ حملوا السلاح، على أهل دين الله تعالى. قال أبو داود المازني: إنّي لأتبع مشركا فيقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي أو سوطي، وقال سهل بن حنيف: يشير أحدنا لمشرك بالسيف فيقع رأسه قبل أن يصل إليه السيف. ورماهم ﷺ بكفٍّ من الحصباء فدخلت أعينهم وأنوفهم وأفواههم.

﴿ذَالِكَ﴾ المذكور من إلقاء الرعب وضرب فوق الأعناق وضرب كلّ بنان، ولا تعود الإشارة إلى الضرب والرعب لأنّهما لم يذكرا في الآية على

١-هذه الفوائد الطِّبِّيَّة وردت في نسخة (أ) دون بَقِيَّة النسخ المعتمدة.

طريق الحصول بل على طريق التحصيل، اللهمَّ إلاَّ باعتبار أنّهما لاَزِمَانِ وُقُوعًا، وأجاز بعضٌ الإشارة إلى ما ذكر مع ما لم يُذْكَر وَهو الأسر. والكاف خطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلٍّ من يصلح له ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي ثابت بأنّهم ﴿شَآقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ كانوا في شقٍّ ـ أي جانب ـ ودين الله ورسوله أو أولياء الله ورسوله في آخَر، كما سمِّي العدوُّ لأنّه في عدوة، أي جهة والآخر في أخرى، والمعنى: المخالفة، وقرَّر ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُّشَاقِقِ﴾ لم يدغم لأنَّ حركة الثاني كَلاَ حركة لأنّها للساكن ﴿اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ الجواب محذوف، أي يعاقبه، وما بعده تعليل، أو هو الجواب والرابط محذوف هكذا:

﴿فَإِنَّ اَللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لهم ولغيرهم من أهل العذاب في الدنيا والآخرة، أو هذا عذاب الآخرة، قابل به عذاب الدنيا بالإرعاب والضرب، وعلى الوجهين يكون هذا من المذهب الكلاميِّ، وهو الاحتجاج بالقياس المنطقيِّ، هكذا: هم شاقُّوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فله عقاب شديد فلهم عقاب شديد، من الشكل الأوَّل.

﴿ذَالِكُمْ﴾ أي العذاب الدنيويُّ بسبب المشاقَّة. والخطاب للمشركين على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، أي الأمر ذلكم أو ذلكم هو العذاب، أي الكامل؛ أو ذوقوا ذلكم ذوقوه، أو الخبر «ذُوقُوهُ»، وعلى الوجهين تكون الفاء صلة في قوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ على طريق زيادة الفاء في خبر المبتدأ ولو لم يكن كالشرط في العموم، وزيادتها في المشغول، أو عاطفة على قوله: الأمر ذلكم، أو ذلكم هو العذاب، أو قوله: باشروا ذلكم، أو عليكم ذلكم. وفي قوله: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تلويح بأنَّ عذاب الدنيا الذي أصابهم أو أصاب غيرهم كلا عذاب، إذا قلنا بأنّه عذاب الآخرة. ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ اَلنَّارِ﴾ عطف لمصدر الاستقرار على «ذَالِكُمْ» المخبر به عن محذوف، أي: الأمر ذلكم وثبوت عذاب النار للكافرين، أو الحكم ذلكم وأنَّ...

(نحو) وعلى إعراب ذلك بغير ذلك يجعل خبرا لمحذوف، أي والواجب أنَّ للكافرين عذاب النار، ويضعف أنَّ مصدر الاستقرار مبتدأ خبره محذوف، أي وثبوت عذاب النار حَتْمٌ، ويضعف أن يكون منصوبا على المعيَّة إذ لا تعهد المعيَّة بمصدر بتأويل، أي ذوقوه مع ثبوت عذاب النار لكم، ولكن التفت الكلام من الخطاب للغيبة بالاسم الظاهر، وهو لفظ الكافرين ليذكر أنَّ علَّة ذلك أو علَّة الجمع بين عذاب الدنيا والآخرة هو الكفر، وقدَّر بعض: واعلموا أنَّ للكافرين عذاب النار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

حرمة الفرار من الزحف والنصر من عند الله

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ حالٌ من «الذِينَ» أي: ذوي زحف، أو زاحفين شبيهين بمن يزحف زحفا، أي يمشي على مقعدته كالصبيِّ، أو يمشي على مهل لعياء، لأنَّهم كثروا، فيكونون في رأي العين كالزاحف ولو أسرعوا في مشيهم، فالآية في زجرهم عن الهَرَب للكفَّار ولو كَثُروا؛ أو حال من التاء أو منها ومن «الذِينَ»، وَعَدَدُ المسلمين ولو قلَّ لكنَّه

كُثِّرَ بالنسبة إلى ما دونه، بل هو كثير باعتبار مدد الملائكة.

﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الاَدْبَارَ﴾ لا تجعلوهم بفراركم تالين أدباركم كالقفا والظهر، فضلا عن أن تفرُّوا، أي لا تنهزموا ولا تفرُّوا واصبروا حتَّى يأتي أمر الله، ويلزم من الانهزام والفرار تولية الأدبار. والآية مقيَّدة بما إذا لم يكن الواحد بأكثر من عشرة من المشركين، ثمَّ كانت مقيَّدة بما إذا لم يكن لواحد ثلاثة أو أكثر، لا كما ادَّعَى بعض أنَّها عَامَّة نسخت بما فوق ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَّكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ...﴾ إِلَى: ﴿...وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ والآية تلويح بما في يوم حنين من انهزام المسلمين وهم اثنا عشر ألفا.

﴿وَمَن يُّوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ أي يوم إذ لقيتموهم، واللفظ للماضي والمراد: الاستقبال لتحقُّق الوقوع بَعْدُ، أو التقدير: يوم إذا لقيتموهم، بـإذا الاسْتِقْبَالِيَّة ﴿إِلاَّ مُتَحَرِّفًا﴾ منعطفا مستثنى من الضمير في «يُوَلِّ»، أو هو مع «إِلاَّ» حال منه، كما تنعت النكرة بـ«إلاَّ» ومدخولها، وكأنَّه قيل: ومن يولِّهم دبره حال كونه غير متحرِّف ﴿لِقِتَالٍ﴾ اللام للتعليل ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ أي: أو غير متحيِّز، أي مائلا إلى حوزة، أي جهة.

(صرف) فالأصل متحَيْوِز، بوزن مُتَفَيْعِل، أو مُتحَوْيِز بوزن مُتفَعْيِل اجتمعت الواو والياء وسكِّنت السابقة فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء، ولو كان مُتَفَعِّل وأصله: متحوِّز لم تقلب الواو ياء إذ لا داعي لذلك، وجاء في اللغة: تحوَّز وتحيَّز، قال ابن قتيبة: تحوَّز تَفَعَّل، وتحيَّز تَفَيْعَل، وأجاز غير واحد كون تحيَّز ومتحيِّز تَفَيْعَلَ مراعاة لكثرة ذكر الحيِّز، وكأنَّ أصله ياء مع أنَّه واو، ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ جماعة من المسلمين.

(فقه) أباح الله استدبار العدوِّ لأحد أمرين: أحدهما أن يتبعه العدوُّ منفصلا عن إخوانه فيتمكَّن منه لانفراده، أوْ لاستعداده في الهروب كتركيب

نصل في سهم أو سهم في قوس حال الاستدبار، أو لوقوع ضعفه في قلب العدوّ فيرجع عليه بغتة قويًّا، أو نحو ذلك، والآخر أن ينضمّ إلى فرقة من المسلمين قريبة منه، قيل: أو بعيدة،

(سيرة) لِمَا رواه ابن عمر أنّه كان في سريَّة بعثهم رسول الله ﷺ ففرُّوا إلى المدينة، وقلت: كيف نلقى رسول الله ﷺ وقد فررنا من الزحف وبوّأنا الغضب؟ فأتيناه ﷺ قبل صلاة الصبح فخرج، فقال: من القوم؟ فقلنا: يا رسول الله نحن الفرَّارون فقال: **«بل أنتم العكّارون، وأنا فئتكم وأنا فئتكم وأنا فئة المسلمين»** وقرأ الآية فقبَّلنا يده، والعكّار: الرجَّاع بعد الفرّ. وعن ابن عبَّاس: من فرَّ من ثلاثة لم يفرَّ، ومن فرَّ من اثنين فقد فرَّ. ويروى: **«بل أنتم الكرّارون»**. قال ابن سيرين: لَمَّا قتل أبو عبيدة بن الجرَّاح وجاء الخبر إلى عمر قال: لو انحاز إليَّ كنت له فئة، أنا فئة كلّ مسلم. قال بعض: حكم الآية عامٌّ، ولو كان سببها غزوة بدر، والعمل بعموم اللفظ ولو خصّ السبب، وقد جاء في الحديث: **«الفرار من الزحف كبيرة»**.

وعن عطاء أنَّ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿الاَنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾(سورة الأنفال: ٦٦) فليس لقوم أن يفرُّوا لمثليهم فنسخت بذلك إلاّ في هذه العدَّة، وعلى هذا أكثر أهل العلم، وإن كان العدوُّ أكثر من مثليهم جاز لهم الفرار، وقال يزيد بن حبيب: أوجب الله تعالى النار لمن فرَّ يوم بدر ولو كان يوم أحد، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ﴾(سورة آل عمران: ١٥٥)، ثمَّ كان يوم حنين فقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾(سورة التوبة: ٢٥)، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعْدِ ذَالِكَ عَلَىٰ مَن يَّشَآءُ﴾(سورة التوبة: ٢٧).

وعن أبي سعيد الخدريِّ: الآية في أهل بدر خاصَّة، لأنّه كان معهم النبيء

ﷺ و لم تكن لهم فئة يتحيَّزون إليها دون النبيء ﷺ، ولـو انحـازوا لانحـازوا إلى المشركين، ولأنّها أوّل غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه، والمؤمنون معه، وأمَّـا في غير بدر فالمؤمنون فئة فالفرار غير كبـيرة، وبه قال الحسن وقتادة والضحَّاك، وذكر الله عقاب من فرَّ لغير ما جاز الفرُّ له في قوله: ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ رجع في توليته تلك، وفي جميع أحواله إن لم يرجع و لم يتب ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اَ۬للَّهِ﴾ مع غضب منه وهو قضاؤه الأزليُّ بشقوته، أو عذابه الأخرويُّ ﴿وَمَأْوَاهُ﴾ مرجعه ﴿جَهَنَّمُ وَبِيسَ اَ۬لْمَصِيرُ﴾ هي، وقيل: الوعيد خاصٌّ بأهل البيت والحاضرين معه ﷺ، وقيل: بأهل بدر، لأنّه لا فئة لهم ينحازون إليها، فالوعيد لمن فرَّ فيه، وأمَّا في غير بدر فمن خاف الموت بلا فائدة لضعفه وكثرة المشركين فله الفرار، وقيل: الحكم خاصٌّ بمن ذكر وبجيش فيه النبيء ﷺ، ووقعة بدر أوَّل جهاد ولو لم يثبتوا لزم مفاسد عظيمة.

(فقه) وعن مُحَمَّد بن الحسن: إنَّ المسلمين إذا كانوا اثني عشر ألفا لم يجز الفرار، والظاهر أنّه لا يجوز أصلا مع هذا العدد ولو كان العدوُّ أضعافهم أضعافا كثيرة لأنّهم لا يغلبون من قلّة كما في الحديث، والصحيح تحريم الفرار إلى فئة بعيدة لم تستعدَّ معهم، وتحريم فرار الواحد من واحد ومن اثنين، واستدلَّ لجوازه مطلقا إذا كان يقتل بلا فائدة بما قال عمر بن الخطاب في أبي عبيدة ﷺ لَمَّا مات: «لو انحاز إليَّ كنت له فئة»، كما روي أنّه انهزم رجل من القادسيَّة فأتى المدينة، فقال لعمر ﷺ: يا أمير المؤمنين هَلَكْتُ فررت من الزحف، فقال: أنا فئتك.

وهذا والحديث السابق تسلية لا إباحة للفرار إلى غير المستعدِّين معه، وإلاَّ لم يوجد فارٌّ من الزحف إلاَّ من فرَّ ونوى أن لا يقاتل بعدُ.

روي أَنَّهُ ﷺ رماهم بكفٍّ من حصباء بأمر جبريل عن الله ﷻ، وقال:

«**شاهت الوجوه**» انهزموا فقتلهم المسلمون وأسروهم فكانوا يقولون قَتَلْتُ وَأَسَرت، فقال الله ﷻ: إن افتخرتم بقتلهم وأسرهم ﴿**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ**﴾ أي فأنتم لم تقتلوهم، ولم تأسروهم ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ**﴾ وأسرهم ﴿**وَمَا رَمَيْتَ**﴾ ما أوصلت التراب إلى عيونهم وأفواههم وأنوفهم ﴿**إِذْ رَمَيْتَ**﴾ إذ ألقيت التراب إلى جهتهم ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**﴾ أوصله إليها.

وحاصله: ما رميت به تلك الأعضاء إذ رميته إليها، أو إذا أردت رميها به ولكنَّ الله رماها به، أو ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكنَّ الله رمى بالرعب في قلوبهم، ويرجع هذا الذي ذكرته أوَّلاً إلى قولنا ما أثَّر رميُك إذ رميت ولكنَّ الله أثَّره، وأفعال العباد بخلقه تعالى وكسبهم لها ومباشرتها، فهو رمى كسبا، والله تعالى رمى خلقا وتأثيرا، ولو شاء الله لم يصلهم الرميُ أو يَصلهم ولا يؤثِّر فيهم.

(أصول الدين) وجميع أفعال العباد بخلق الله تعالى وكسبهم، وللعبد قدرة مؤثِّرة يخلقها الله، وإن شاء الله أبطلها فلم تؤثِّر، والمشهور أنَّه لا أثر له أي لا يؤثِّر إلاَّ بخلق الله ﷻ تأثيره، ومشهور الأَشعَرِيَّة أنَّ له قدرة غير مؤثِّرة، أي لا تُؤثِّر بذاتها، فالخلاف لفظيٌّ، أو لم يسمُّوا ما للعبد تأثيرا، وزعمت المعتزلة أنَّ له قدرة يفعل بها ما لا يشاء الله ﷻ، وقالت المجبرة: لا قدرة للعبد أصلا، ولتفسير الرمي المنفيِّ والمثبت بما مرَّ كان نظم القرآن كما هو، وإلاَّ فمناسِبُ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾: وما رميت ولكنَّ الله رمى، ومناسِبُ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾: فلم تقتلوهم إذ عالجتم قتلهم وظهر لكم أنَّكم قتلتموهم ولكنَّ الله قتلهم. ولا يناسب مقام قصَّة بدر أن يقال هذا في طعنه ﷺ يوم أحد أُبي بن خلف، فإنَّ ظاهر الطعن غير الرمي، ولا ما قيل هذا في رميه بسهم نحو الحصن يوم حنين وإصابته ابن أبي الحقيق في فراشه، لأنَّ في ذلك

دخول كلامٍ أجنبيٍّ في أثناء القصَّة، وَلَكِنَّ هذا حديث ضعيف.

(سيرة) والصحيح أنَّه مات بكسره ﷺ ضلعه أو بخدشه له، أتى أُبي بن خلف إلى النبيء ﷺ بعظم رميم فقال: يامحمَّد، من يحيي هذا؟ فقال ﷺ: «**يحييه الله الذي يُمِيتُكَ ثُمَّ يُحييك ثمَّ يُدخلك النار**» وأسر يوم بدر فلَمَّا افتدى قال لرسول الله ﷺ: إنَّ عندي فرسا أعلفها كلَّ يوم فَرَقًا من ذُرَة أقتلك عليها، فقال ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**»، ودنا يوم أحد من رسول الله ﷺ فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه، فقال ﷺ: تأخَّروا فرماه بحربة فكسر ضلعا من أضلاعه، وقيل: خدشه بها فكان يخور، أي يصوِّت كثور، أو يَضْعُف، فَحُمِلَ فقيل له: لا بأس عليك، فقال: قد وعدني فوالله لو بصق عليَّ لقتلني، ومات ببعض الطريق.

وفي الآية حذف علَّة عطف عليها أخرى مذكورة، هكذا: فعل ذلك ليقهر الكافرين ﴿**وَلِيُبْلِيَ الْمُومِنِينَ مِنْهُ بَلآءً حَسَنًا**﴾ أو يقدَّر: وفعل ذلك ليبلي المؤمنين. و«بَلآءً» اسم مصدر، أي بلاء حسنا، أي يَحْمِلُهم على الشدَّة فتحمَّلوها بالصبر عليها، كاختبار فيعقبها النصر، وذلك يوم أحد، وذلك حكاية للحال الماضية، أو المراد: ينعم عليهم بالغنيمة والنصر وإظهار الآيات، كاختبار هل يشكرون النعمة؟؛ أو «بَلآءً» اسم لِمَا بلاهم به من الغنيمة، فيكون من نيابة الذات عن المصدر؛ أو المراد: الغنيمة نفسها، على تضمين «يُبْلِيَ» معنى يعطي، والإبلاء والبلاء: المحنة في الشرِّ والخير كما قال الله ﷻ: ﴿**وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**﴾(سورة الأعراف: ١٦٨). ﴿**إِنَّ اَللَّهَ سَمِيعٌ**﴾ للأقوال ومنها أقوالهم ودعاؤهم ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بالأشياء كلِّها ومنها أحوالهم ونياتهم.

﴿**ذَالِكُمْ**﴾ أي ما ذكر من البلاء الحسن والقتل والصبر؛ والخطاب للمؤمنين، و«ذَلِك» فاعل، أو مفعول لمحذوف عطف عليه ما بعده، أي حقَّ

ذلك، أو قضى الله ذلكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ﴾ أي توهين الله كيد الكافرين، أو خبر لمحذوف، والعطف على ذلك، أي الأمر ذلكم وتوهين كيد الكافرين، أو عطف على «يُبْلِيَ»، أو يقدَّر: «اعلموا أنَّ الله».

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ الخطاب للكافرين، أي إن تطلبوا الفتح، أي القضاء لكم بالنصر على المؤمنين ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ القضاء بالنصر عليكم للمؤمنين، وذلك تهكُّم بهم في مجيء الفتح، إذ نصر الأعلى والأهدى من الفريقين وقد زعمتم أنَّكم أعلى وأهدى، أو المعنى: جاءكم الهلاك، فالتهكُّم في التعبير عنه بالفتح، والمألوف استعماله في الخير.

لَمَّا أراد أبو جهل وغيره الخروج إلى بدر تعلَّقوا بأستار الكعبة، وقالوا: اللهمَّ انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين عندك، اللهمَّ أيُّنا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحِنْه الغداة، بفتح الهمزة وكسر الحاء وإسكان النون أي أهلكه، مِنْ أَحَانه: أهلكه، يريدون أنَّ رسول الله ﷺ أخطأ وقطع رحمه عكس الواقع، وحين التقى الجمعان قال أبو جهل : «اللهمَّ ربَّنا ديننا القديم ودين محمَّد الحديث فأيُّ الدينين كان أحبَّ إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم».

(سيرة) قال عبد الرحمن بن عوف: إنِّي لواقف في الصفِّ يوم بدر بين غلامين، وقال لي كلٌّ واحد منهما: يا عمِّي هل تعرف أبا جهل؟ فقلت: ما حاجتكما؟ قالا: أخبرنا أنَّه يسبُّ رسول الله ﷺ فوالله لا نفارقه حتَّى نموت أو يموت، فلم أنشب أن نظرت إليه يجول في الناس، فقلت: ها هو ذاك، فابتدراه فقتلاه وهما معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء، وقال كلٌّ لرسول الله ﷺ: يارسول الله أنا قتلته، فقال ﷺ: «**أرياني سيفكما إن لم تمسحاهما**»، فأرياه فقال ﷺ: «**كلاكما قتله**» فأعطاهما سلبه، وروي أنَّه

ﷺ قال: من ينظر لنا ما صنع أبو جهل، فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء فأخذ بلحيته، وقال: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتلتموه، أو قال: قتله قومه، وروي: لو غيرك قتلني. وعن ابن مسعود ﷺ: وجدته وقد ضربت رجله فقلت: يا عدوَّ الله يا أبا جهل قد أخزاك الله وضربته بسيف، ولم يغن حتَّى سقط سيفه من يده فضربته حتَّى برد، أي ضربته بسيفه إذ سقط من يده، وفي ابن إسحاق أنَّ هاذين عمرو بن الجموح ضربه فطيَّر قدمه بنصف ساقه، ثمَّ مرَّ به معاذ بن عفراء فضربه حتَّى أثبته، فمرَّ به ابن مسعود وبه رمق ووضع رجله على عاتقه، فقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ فقال: لا، سوى رجل قتلتموه، أخبرني لمن الدبرة اليوم؟ قلت: لله ورسوله. وروي أنَّه لَمَّا وضع رجله على عاتقه قال: لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رُوَيْعِيَ الغنم، واحتزَّ رأسه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله هذا رأس أبي جهل، فقال: «**آا لله الذي لا إله غيره؟**» قال: نعم والذي لا إله غيره، وألقاه بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله ﷻ.

﴿**وَإِن تَنتَهُواْ**﴾ عن الكفر والحرب والعداوة ﴿**فَهُوَ**﴾ أي انتهاؤكم ﴿**خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ نفع لكم في الدارين، لنجاتكم بالانتهاء عن القتل والأسر والغنم ونار الآخرة، ولفوزكم بالجنَّة ورضى الله، أو أفضل مِمَّا تزعمون أنَّه حسن من البقاء على الكفر، وتمتُّعهم مع كفرهم؛ أو المراد: إن تنتهوا عن الحرب فهو نفع لكم، أو أنفع لكم لسلامتكم من القتل ونحوه، وهو أنسب بقوله: ﴿**وَإِن تَعُودُواْ**﴾ [إلى الحرب] فإنَّ العود إلى الحرب فقط، لأنَّهم لم يكونوا قد أسلموا فيقال لهم: إن تعودوا إلى الكفر، إلاَّ إن أريد: تعودوا إلى كفر آخر، أو أريد بالعود: البقاء على الكفر ﴿**نَعُدْ**﴾ لنصر رسول الله ﷺ، ولقتلكم وأسركم وغنمكم.

﴿**وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ**﴾ لن تدفع عنكم ﴿**شَيْئًا**﴾ ضرًّا، أو لن تغني

عنكم شيئا من الإغناء ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

(سيرة) وروي أنّه لَمَّا نزل رسول ا لله ﷺ في بدر أتى جماعة من الصحابة بغلامين لقريش: غلام أسود لبني الحجَّاج، وأبو يسار غلام لبني العاصي بن وائل، فقال رسول ا لله: أين قريش؟ قالا: وراء الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال ﷺ: كم هم؟ قالا: كثير، قال ﷺ: ما عددهم؟ قالا: لا ندري، قال ﷺ: كم ينحرون كلَّ يوم؟ قالا: يوم عشرة ويوم تسعة، قال ﷺ: القوم ما بين تسعمائة إلى ألف، قال ﷺ: من فيهم من أشراف قريش؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البحتري بن هشام، وحكيم بن حزيم، والحرث بن عامر، وطعمة بن عدي، والنضر بن الحرث، وأبو جهل بن هشام، وأميَّة بن خلف ونُبَيْه ومُنبه ابنا الحجَّاج، وسهيل بن عمرو، فقال ﷺ: «**هذه مكّة ألقت إليكم أفلاذ كبدها**»، ولَمَّا أقبلوا قال رسول ا لله ﷺ: «**اللهمَّ هذه قريش قد اقبلت بخيلائها وفخرها تُحَادُّك وتكذّب رسولك، اللهمَّ فنصرك الذي وعدتني**» فأتاه جبريل فقال له: خذ قبضة من تراب وارمهم بها، فلَمَّا التقى الجمعان تناول ﷺ كفًّا من حصباء عليه تراب فرمى به وجه القوم، وقال: «**شاهت الوجوه**»[1]، أي قبحت، فلم يبق مشرك إلاّ ودخل في عينيه وفمه ومنخريه من ذلك التراب شيء، فانهزموا وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم. وعن قتادة وابن زيد أنَّ رسول ا لله ﷺ أخذ ثلاث حصيَّات فرمى في ميمنة القوم بحصاة وفي ميسرتهم بحصاة وبين أظهرهم بحصاة، وقال: «**شاهت الوجوه**» فما كان إلاّ انهزامهم.

﴿وَأَنَّ ا للهَ مَعَ الْمُؤمِنِينَ﴾ بالنصر والتوفيق.

١- تقدَّم تخريجه، انظر صحيفة ٢٨٢ من هذا الكتاب.

(أصول الدين) ويجوز أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، بمعنى خوف أن يكون فيه شيء ناقض لإيمانه، وأمَّا على أن يشكَّ في إيمانه فلا، إلاَّ على التبرُّك، فيجوز، ولو لم يستثن إذا أراد تحقيق ما عنده، وأنَّه غير شاكٍّ، وأمَّا على معنى أنَّه مؤمن حقًّا عند الله بحيث يثيبه بالجنَّة، أو بحيث الجزم بأنَّه لا خلل فيه عند الله فلا إلاَّ بالاستثناء، قال ﷺ للحارث بن مالك: «**كيف أصبحت يا حارث؟**» قال: أصبحت مؤمنا حقًّا، فقال ﷺ: «**انظر ما تقول فإنَّ لكلِّ شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفَتْ نفسي عن الدنيا، وأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأنِّي أنظر إلى عرش ربِّي بارزا، وكأنِّي أنظر إلى أهل الجنَّة يتزاورون فيها، وكأنِّي أنظر إلى أهل النار يتصارخون فيها[1]. والعطف على «أَنَّ اللهَ مُوَهِّنٌ»، أو على مصدر «يُبْلِيَ»، أو يقدَّر: كان النصر للمؤمنين لأنَّ الله مع المؤمنين، وقيل: الخطاب في ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ...﴾ للمؤمنين، أي إن تطلبوا النصر فقد نصرتم فاحمدوا الله، وإن تنتهوا عن الكسل في القتال وعن الرغبة في الأنفال التي لله ورسوله كما كان منكم، وإن تعودوا لذلك نعد لكم بالإنكار، أو بتغليب العدوِّ عليكم، ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فكيف وقد قلَّت؟، أو ولو حَدَثَتْ لها كثرة بعدُ فإنَّ الله مع المؤمنين الكاملي الإيمان، ويضعف هذا القول بقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ مَعَ الْمُومِنِينَ﴾ فيمن كَسَرَ «إِنَّ»، [قلت:] ولا يقوى كما زعم بعض بقوله:

١- وتمامه: فقال: «ياحارث، عرفت فالزم» ثلاثا. رواه **الطبراني** في الكبير، ج٣، ص٢٦٦، من حديث الحارث، وقال: رواه **البيهقي** في الزهد، الكبير، (٩٧١) من طريق آخر ضعيف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣﴾

الأمر بطاعة الله ورسوله والتحذير من مخالفته

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُواْ ا للهَ وَرَسُولَهُ﴾ لأنَّ شأن القرآن ترتيب ذكر أمر المؤمنين بعد ذكر أمر الكافرين والعكس[1].

﴿وَلاَ تَوَلَّوْاْ﴾ لا تتولّوا: لا تُعرضوا ﴿عَنْهُ﴾ أي عن رسوله، لأنّه أقرب في الذكر، وذكر طاعة ا لله توطئة وتنبيه على أنَّ طاعته في طاعة رسول ا لله ﷺ، أو عن ا لله لأنَّ الدين وكلَّ شيء عنه، والرسول مبلّغ، وعلى الوجهين جعل التولّي عن أمر ا لله تولّيًا عن ا لله ورسوله، أو يقدَّر مضاف، أي: عن أمره والإعراض عن معاونته ﷺ، ومخالفتُه إعراض عنه، أو الهاء للجهاد، لأنَّ السياق له، أو للأمر المدلول عليه بـ«أَطِيعُوا» وهو أحد الأوامر، أو عن الأمر ضدَّ النهي كذلك ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما يتلو عليكم عن ا لله من الأحكام والمواعظ، سماع فهْمٍ وتصديق.

﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالذِينَ قَالُواْ﴾ كالكفرة الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ سماع فهم وتصديق، بل بعض يقول: سمعنا وكذّبنا، مجاهرا بالكفر فهو غير سامع، وبعض يقول: سمعنا سماع تصديق وفهم، وهو

١- تعليل لقوله رحمه ا لله: قلت ولا يقوى...

كاذب منافق، فهو غير سامع، وفي ذلك عموم المجاز؛ قدَّم الصمَّ لأنَّ وصفهم بالصمم أهمُّ لتقدُّم السمع في الذكر ثلاث مرَّات، ولذكره بعد ذلك مرَّتين، ولأنَّ صممهم متقدِّم على بكمهم، لأنَّ السكوت عن النطق بالحقِّ من فروع عدم سماعهم له، كما أنَّ النطق به فرع سماعه.

﴿إِنَّ شَرَّ اَلدَّوَآبِّ﴾ ما يدبُّ على الأرض من عاقل وغيره، أو المراد العقلاء ولو كان "فواعل" لأنَّ المفرد بالتاء وهو دَابَّة ﴿عِندَ اَ۬للَّهِ اِ۬لصُّمُّ﴾ القوم الذين لا يقبلون الحقَّ، كأنَّهم لا يسمعون بآذانهم ﴿اُ۬لْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطقون بالحقِّ قبولا بها، ولا إعانة ولا عملا بها كأنَّهم لا ينطقون، بَعُدوا عن الحقِّ بُعْد من لا تسمع أذنه ولا ينطق لسانه ﴿الذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم ولم يساووا سائر الدوابِّ، بل كانوا أخسَّ لأنَّهم ضيَّعوا ما به التمييز، وقد منَّ الله تعالى عليهم به ليستعملوه.

والأبكم الأخرس قد يعمل بعقله، وهُم كأنَّهم لا عقل لهم، وهم أو منهم نفر من بني عبد الدار بن قصي يقولون: نحن صمٌّ بكم عمي عمَّا جاء به محمَّد ﷺ، قتلوا جميعا يوم بدر، وكانوا أصحاب اللواء، ولم يسلم منهم إلاَّ رجلان مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة، وقيل: هم المنافقون، وقيل: أهل الكتاب، وقيل: من ذكر كلُّهم وغيرهم.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اَ۬للَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ صُلُوحًا بسماع التفهُّم والقبول ﴿لأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع التفهُّم والقبول والانقياد إلى السعادة، هذه قضيَّة شرطيَّة متَّصلة، وتمامها بالقياس الاستثنائي أن يرفع التالي، وهو جواب «لَوْ»، أي ينفي فينتفي المقدَّم، وهو شرطها هكذا لكنَّه لم يسمعهم، فتعلمون أنَّ الله لم يعلم فيهم خيرا، أي صُلُوحا للتفهُّم والقبول والانقياد إلى السعادة، حتَّى إنَّهُ لو أسمعهم والحال هذه لكان إجبارًا ولا وجه للإجبار في التكليف، وهنا تمَّ الكلام وبدأ آخر بقوله:

﴿وَلَوَ اَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهُّم وقبول دون سعادة ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ بعده عنادا ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه و لم يدوموا عليه لعدم صلوحهم، ولسوء الخاتمة.

(لغة) فـ«لَوْ» في الموضعين امتناعيَّة، بدليل اللام في الجواب، وليست «لَوْ» الامتناعيَّة منتفية الجواب لانتفاء الشرط، بل هذا غالب، فلو الثانية من غير الغالب فإنَّ التولّي عند عدم الإسماع أولى، وهذا التولّي مطلق عدم قصد الحقّ، ومن ذلك ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ مَا اسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾(سورة فاطر: ١٤) فإنَّ عدم الاستجابة عند عدم السماع أولى، ﴿قُل لَّوَ اَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيَ إِذًا لأَمْسَكْتُمْ...﴾ (سورة الإسراء: ١٠٠) فإنَّ الإمساك عند عدم ذلك أولى.

ويصحُّ أن يقال: المعنى لو علم الله فيهم سعادة لأسمعهم سماع تفهُّم، لكن لم يعلم فيهم فلم يسمعهم، وتمَّ الكلام هنا، واستأنف قَضيَّة أخرى شرطيَّة بمعنى ولو أسمعهم سماع تفهُّم وقد علم أن لا خير فيهم لَتولَّوا عن التصديق بعد أن صدَّقوا، وليست كبرى للأولى، ثمَّ إنَّ المراد من نفي العلم نفي المعلوم، وادَّعى بعض أنَّ المعنى: لأسمعهم كلام قُصيٍّ: «إنَّ محمَّدًا رسول الله» ولو أسمعهم هذا لم يقبلوه.

﴿يَآأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـَٔاوَيٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ

﴿تَشْكُرُونَ ٢٦﴾

الاستجابة لِمَا فيه الحياة الأبديَّة

﴿يَآ أَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ لم يقل: دعَوَاكم، لأنَّ طاعة الله في طاعة الرسول، فأفرد الضمير عائدا للرسول لبيان أنّه بمنزلة من الله، حتّى إنَّ دعوته دعوة الله، ولأنَّ دعوة الله لا تسمع بلا واسطة في المعتاد بل برسول، ولإجلال الله عن أن يقرن مع مخلوق في الضمير، قال رجل: من يطع الله ورسوله فقد اهتدى ومن يعصهما فقد غوى، فقال ﷺ: «**بئس الخطيب أنت، إذ قلت ومن يعصهما**»[1]، ومرَّ بحث في سورة المائدة[2]. ويجوز عود الضمير لله، لأنَّ الدعوة أصالة منه ﷻ. ﴿**لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ من العلومِ الدِّينيَّة والجهادِ ـ وقد أعزَّكم الله ﷻ به ـ والأعمالِ الصالحةِ والقرآنِ والحقِّ، **فإنَّ الإنسان بدونهما كميِّت وهي فيه كالروح.**

وذلك على الاستعارة التبعيَّة أو المجاز الإرساليِّ التبعيِّ لعلاقة التسبُّب، أو اللزوم، أو لِمَا يبقيكم أحياء حياة طيِّبة مُعتدًّا بها دائمة، وهي حياة الجنَّة في النعيم الدائم، وهي ما ذُكر من العلم والعمل والقرآن والحقِّ، أو لِمَا يبقيكم غير موتى وغير مشبَّهين بالموتى وهو الجهاد، إذ لو لم يجاهدوا لَقَتَلهم العدوُّ، أو كانوا في ذلٍّ وهوان كالموت، أو ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: حياة الشهداء، وهو الجهاد إن ماتوا به، فإنَّ الشهداء أحياء عند ربِّهم.

١- رواه **مسلم** في كتاب الجمعة (١٣) باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم ٤٨. ورواه **أبو داود** في كتاب الصلاة باب الرجل يخطب على قوس رقم ١٠٩٩. من حديث عديٍّ بن حاتم.

٢- انظر: ج٣ / ص٥٢٢، آية ٢٤.

(فقه) مرَّ رسول ا لله ﷺ على أبي سعيد الخدريِّ يصلّي، فدعاه فأوجز في صلاته، ثمَّ جاء فقال: ما منعك من إجابتي؟ فقال: كنت أصلّي، قال: «**ألم تخبر فيما أوحيَ إليَّ: ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾**؟» قال: بلى، ولا أعود إن شاء ا لله، فقال ﷺ: «**لأُعَلِّمَنَّكَ سورة أعظم سورة في القرآن: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هي السبع المثاني**»[١]، رواه الترمذيُّ، ومثله في البخاري عن أبي هريرة إلاَّ قوله: «لأعلّمنّك...» وهذا قبل أن يحرم الكلام في الصلاة، أو مطلقا من خصوصيَّاته ﷺ، وعليه لا تبطل صلاته كما لا تبطل في الأوَّل، وقيل: تبطل، وكذا ينتقل المصلّي عن محلِّ الصلاة للتنجية ساكتا ويبني على ما مضى إن لم يحدث ناقض، وقيل: ينقضها لذلك. وإسناد الإحياء إلى ضميرِ «مَا» مجاز عقليٌّ. [قلت:] ويجوز نقضها بالكلام في الأمر المهمِّ الذي لا يحتمل أن يؤخّر كالموت، ووقوع الطلاق، يتكلّم لئلاَّ يقع ذلك.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اَ للهَ يَحُولُ بَيْنَ اَلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يريد الكفر، فيحول بينهما، أو الإيمان فيحول بينهما، فليبادر الخير، وكذا غير الكفر والإيمان من المباحات وسائر الاعتقادات، والآية عامَّة، وكلُّ ما في القلب أو غيره من خير أو شرٍّ فمن ا لله.

قال ابن عبَّاس: سألت رسول ا لله ﷺ عن الآية فقال: «**يحول بين المؤمن والكُفر، ويحول بين الكافر والهدى**»[٢]، والمراد: العموم، ولكن خصَّ الإيمان والكفر لأنّهما العمدة سعادة وشقاوة، وكذا في قوله ﷺ لأمِّ سلمة رضي ا لله

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير، (١) باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم ٤٢٠٤. من حديث أبي سعيد بن المعلّى.

٢- أورده **السيوطي** في الدر: ج٣، ص١٩١.

عنها إذ سألته عن إكثاره الدعاء بـ«يامثبِّت القلوب ثبِّت قلبي على دينك»: **«يا أمَّ سلمة إنَّه ليس آدميٌّ إلاَّ وقلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن تعالى، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ»**[1].

وقيل: لَمَّا ضاقت قلوبهم بالقلَّة والضعف نزلت، بمعنى أنَّ الله يبدِّل خوفكم أمنا وجُبْنَكم جرأة. والآية كناية أريد لفظها، وهو تغيرها في القلب، ولا زمها وهو قربه تعالى من القلب، واطِّلاعه على ما فيه ولو لم ينتبه له صاحبه، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(سورة ق: ١٦) والمبادرة للإخلاص والتصفية.

(بلاغة) ولفظ «بَيْنَ» يمنع أن يكون «يَحُولُ» بمعنى: يقرب، على الاستعارة التبعيَّة أو المجاز المرسل، من حيث أنَّ فصل الشيء وحده بين شيئين يوجب القرب منهما، ولا تتصوَّر الاستعارة التمثيليَّة، وزعم بعض أنَّ ذلك استعارة تمثيليَّة لتمكُّنه من قلوب العباد فيصرفها عمَّا يريدون، وهذا لا يكفي في تقريرها.

﴿وَأَنَّهُ﴾ أي الله أو الشأن، والأوَّل أولى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء بحسب مراتب أعمالكم، ولا تخفى عنه، فلا تألوا جهدا في انتهاز الفرصة، ولا مهرب لكم عنه في الآخرة ولا عن حشره.

﴿وَاتَّقُواْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿فِتْنَةً﴾ صرفا عن الدين لأنفسكم بالكبائر كالبدع، وإقرار المشرك فيكم، والمداهنة وافتراق الكلمة، وعدم النهي، أو اتَّقوا عذابا دنيويًّا كالقحط، أي اتَّقوا موجبه من الذنوب، فعاد إلى التفسير الأوَّل

١- رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات رقم ٣٥٢٢، ورواه **الهندي** في الكنز، ج١، ص٢٣٣، رقم ١١٦٧. من حديث أمِّ سلمة.

﴿لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ﴾ فعلوا الكبائر. «لَا» نافية وأكّد الفعل بالنون بعدها على القلّة، والجملة نعت «فِتْنَةً»، أو جواب لـ«إنْ» محذوفة، أي: إن لا تتّقوها، أو إن أصابتكم لا تُصيبَنَّ.

(نحو) وأداة الشرط والشرط والجواب نعت أو جواب قسم، أي والله لا تصيبنَّ وذكر السمين[1] قولا بجواز توكيد المضارع المقرون بـ«لاَ» النافية إجراء لها مجرى النهي، أو «لاَ» ناهيةٌ مستأنفة، أو مقولة لنعت محذوف، أي: فتنة مقولا فيها: لاَ تُصِيبنَّ، والنهي في اللفظ للفتنة وفي المعنى للمكلّفين، أي لا تظلموا أنفسكم بالذنوب فتصيبكم الفتنة وحدكم خاصّة، إذ نهاكم غيرُكم كما هو وجه في قوله تعالى: ﴿لا يَحْطِمَنَّكُم سُلَيْمَانُ...﴾ (سورة النمل: ١٨) وعلى النفي يكون المعنى: لا تصيبكم وحدكم، بل تعمُّ من لم ينه عنها فتكون عليكم تَبَاعَتُهَا.

ووجه تأكيد النفي مع أنّه على طريق الترديد لكونه في جواب «إن» أنّه لا ترديد بحسب وقوع الشرط، بمعنى أنَّهُ إن وقع الشرط تحقّق الانتفاء وتأكّد، وقيل: إنَّهُ بمعنى النهي، وعلى كلِّ حال المراد: لا يصيبنَّ أثَرُها أو عقابها، أو الفتنة نفس العقاب. والخطاب للمؤمنين.

ومن اتّقاء الفتنة إنكار موجبها من الذنوب، قال ﷺ: **«إذا عُمِلَت الخَطِيئَةُ فِي الأَرْضِ كانَ من شَهِدَهَا فأنكرها كمن غاب عنها، ومن غاب**

١- السمين هو أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، نحويٌّ، مقرئ مفسّر من فقهاء الشّافعيّة، سكن القاهرة وولي نظر الأوقاف، من كتبه: الدرُّ المصون في علم الكتاب المكنون في إعراب القرآن، قال صاحب كشف الظنون: هو من أجلِّ ما صنّف في إعراب القرآن، وله كتب غير هذا التفسير، توفي سنة ٧٥٦هـ. عادل نويهض: **معجم المفسّرين**، ج١.

عنها فرضيها كمن شهدها»[١]. ولفظ ابن الأثير عنه ﷺ : **«إنَّ ا لله لا يعـذِّب العامَّة بعمل الخاصَّة حتّى يروا المنكر بـين ظهرانيهـم، وهـم قـادرون علـى أن ينكروه فلم ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذّب ا لله العَامَّة والخاصَّة»**[٢]. قال أبـو داود عن جرير بن عبد ا لله البجلي: سمعت رسـول ا لله ﷺ يقـول: **«مـا مـن رَجُلٍ يكون في قَوم يعمل فيهم بالمعاصي يَقْدِرُون أن يُغَـيِّروا عليـه ولم يغيِّروا إلاَّ أصابهم ا لله بعقاب قبل أن يموتـوا»**[٣]. وعـن ابـن عَبَّـاس: **«أمـر ا لله ﷻ المؤمنين أن لا يقرُّوا المنكر بين أظهرهم، فيعمُّهم ا لله تعـالى بعـذاب، يصيـب الظالم وغيره»**. قال أبو بكر ﷺ: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: **«إنَّ الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يَده أوشك أن يعمَّهم ا لله بعقـاب»** رواه الـترمذي وأبوداود[٤].

لَمَّـا وقعـت بنـو إسـرائيل في المعـاصي وجـالس بعـض بعضـا، وواكلوهـم وشاربوهم خَرِب قلوب بعض بـبعض، ولعنهـم علـى لسـان داود وعيسـى بـن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، رواه ابن مسعود، وعـن الزبـير: مـا نـدري أنَّـا معشر أهل بدر مُرَادون بالآيـة لحدَثِ يـوم الجمـل حتّـى كـان، وكـذا عـن السدِّيّ، وفي البخاري ومسلم عـن أبـي هريـرة قـال رسـول ا لله ﷺ: **«تكـون فـتـنة القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خير من الماشـي، والماشـي فيهـا**

١-رواه **التبريزي** في كتاب الآداب (٢٢) باب الأمر بـالمعروف رقـم ٤١٥١ ورواه **أبـو داود** في كتاب الملاحم باب الأمر والنهي رقم ٤٣٤٥. من حديث العرس بن عميرة الكندي.

٢-رواه **الطبراني** في الكبير، ج١٧، ص١٣٨، من حديث العرس بن عميرة.

٣-رواه **أبو داود** في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم ٤٣٣٩. من حديث جرير.

٤-رواه **أبو داود** في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم ٤٣٣٨. ورواه **الترمذي** في كتاب الفتن (٨) باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغيِّر المنكر رقم ٢١٦٨، من حديث أبي بكر.

خير من الساعي، ومن تشرّف لها تَسْتَشْرِفُهُ، ومن وجد ملجأ أو معاذ فلْيَعُذْ به»[1]. وذلك أنَّ الرضى وترك النهي وزرٌ فلا ينافي قوله تعالى: ﴿لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(سورة الأنعام: ١٦٤). ومن لم يتألّم بالمنكر كما يتألّم بماله أو ولده إذا أصيب، فهو راض يعمُّه العذاب. ﴿خَاصَّةً﴾ إصابةً خاصَّةً، أو حال من المستتر في «تُصِيب». ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اَللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على الظالمين، ومن أقرَّهم على الظلم.

﴿وَاذْكُرُوا إِذَ اَنتُمْ﴾ معشر المؤمنين والنبيء ﴿قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ﴾ خبر ثان أو نعت «قَلِيلٌ»، أي معدودون مع تلك القلّة ضعفاء، أو موجودون ضعفاء، أو مصيَّرون ضعفاء ﴿فِي اِلاَرْضِ﴾ أي أرض مكّة وغيرها، أو في أرض مكّة، على أنَّ الخطاب في «اذْكُرُواْ» و«أَنتُمْ» للمهاجرين، وعليه فأطلق الأرض مع أنَّ المراد أرض مكّة للعهد، أو لعظمها كأنّها الأرض كلُّها، ولأنَّ الأرض بسطت من تحت الكعبة، ولأنَّ حالهم في سائر الأرض كحالهم فيها من الاستضعاف كما قال: ﴿تخَافُونَ أَنْ يَّتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يأخذوكم بسرعة، فإنّهم يخافون في مكّة وغيرها أن يتخطّفهم الناس، إمَّا قريش في مكّة وإمَّا غيرهم في غيرها، أو الخطاب للعرب مطلقا، يخافون أن يتخطّفهم فارس والروم، فالأرض أرض مكّة وغيرها إلاَّ ما جعل ا لله لأهل مَكّة من الأمن، ولو طمع فيهم هؤلاء، إلاَّ أنَّ فارس لم يملكوا العرب كلّهم، وعن ابن عبَّاس: قيل: يارسول ا لله، مَنِ الناس؟ قال: «**فارس**».

﴿فَئَاوَيكُمْ﴾ ضمَّكم إلى حفظه وأزال عنكم الضعف وخوف التخطّف، وجَعَلَ المدينة مأوى لكم تَتَحَصَّنون فيها عن عدوّكم ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ قوَّاكم

١- رواه **البخاري** في كتاب الفتن (٩) باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، رقم ٦٦٧٠. ورواه **مسلم** في كتاب الفتن وأشراط الساعة، من حديث أبي هريرة. (م ح)

﴿بنَصْرِهِ﴾ إيَّاكم على الكفَّار، لمظاهرة الأنصار، وإمداد الملائكة في بدر وغير ذلك ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ما حَلَّ مِمَّا ينفعكم، سواء كان لذيذا جدًّا أو دون ذلك، ومنهنَّ الغنائم والزكاة، فإنَّهما لم يَطِبْنَ إلاَّ لهذه الأمَّة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على إنعامه عَلَيكم.

(سيرة) ويروى أنَّه ﷺ حاصر قريظة خمسا وعشرين ليلة عند البيهقي، أو إحدى وعشرين، أو خمس عشرة، فأَجْهَدَهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن ينقلهم إلى إخوانهم إلى أذْرِعَات، أو أرِيحاءَ من أرض الشام، فقال: «**لا، بل انزلوا على حكم سعد بن معاذ**» فقال رئيسهم كعب بن أسيد: آمنوا، فقد علمتم أنَّه رسول الله في كتابكم تنجوا من القتل والسبي، أو اقتلوا أبناءكم ونساءكم واخرجوا إليه بسيوف مجرَّدة، ولم تتركوا وراءكم ما تخافون عليه، فقالوا: أيّ عيش بعد أبنائنا ونسائنا، أو قاتلوهم الليلة لعلَّهم قد أمنوا منَّا لأنَّها سَبْت، قالوا: لا نفسد سبتنا لِئلاَّ يصيبنا ما أصاب من تعدَّى فيه من المسخ.

وأرسلوا إليه ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة ـ وهو رفاعة بن عبد المنذر ـ نستشيره في أمرنا، وكان يناصحهم وفيهم عياله وماله، فأرسله إليهم، وقد أبوا النزول على حكم سعد لأنَّه لا يناصحهم، فلَمَّا رأوه قام إليه الرجال والنساء والصبيان يبكون في وجهه فرقَّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة، أننزل على حكم مُحَمَّد؟ قال: نعم، لأنَّ فيهم عياله وماله، وأشار بيده إلى حلقه أنَّه الذبح، ويروى: أننزل على حكم سعد؟ قال: لا، إنَّه الذبح، قال: وعرفت في مقامي أنِّي خنت الله ورسوله، فربط نفسه إلى عمود في المسجد بحبل، أو سلسلة ثقيلة قبل أن يراه ﷺ، وحلف أن لا يفكّه حتّى يتوب الله عليه، وحلف أن لا يطأ أرض قريظة إذ خان فيها، وقال ﷺ: لو جاء لا ستغفرت له ولا أطلقه حتّى

يتوب الله عليه، وكانت زوجته أو ابنته ـ قولان ـ تحلُّه للصلاة وحاجة الإنسان، ثمَّ تربطه سِتَّة أيَّام أو بضعة عشر، قولان، وكاد يصمُّ ويعمى.

وسمعت أمُّ سلمة رسول الله ﷺ في بيتها يضحك، فقالت: ممَّ تضحك؟ أضحك الله سنَّك، قال: تاب الله ﷻ على أبي لبابة، قالت: أبشِّره؟ فقال: إن شئت، فنادته من باب حجرتها: أبشر! وقد تاب الله عليك، فأرادوا إطلاقه فقال: لا والله حتَّى يطلقني رسول الله ﷺ، فحلَّه في ذهابه إلى الصلاة. ولَمَّا اشتدَّ الحصار نزلوا على حكمه ﷺ، فحكَّم فيهم سعدًا فجيء به من بيت امرأة من أسلم في المسجد، تداوي الجرحى حِسْبة، على حمار بوطاء، وكان رجلا جسيما، ولَمَّا جاء قال ﷺ: «**قوموا إلى سيِّدكم**» فقاموا فقالوا: إنَّ رسول الله ﷺ حكَّمك في مواليك أي حلفائك، فقال: تُقتل رجالهم وتُقسَّم أموالهم وتُسبى ذراريهم ونساؤهم، فقال ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله، من فوق سبع أرقعة**» أي سماوات إذ رقِّعت بالنجوم، وقيل: الربط في غزوة تبوك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾

النهي عن خيانة الله والرسول والأمانة وفضل التقوى

(سبب النزول) ونزل في أبي لبابة مروان بن عبد المنذر ـ أو اسمه: رفاعة، وهو الصحيح، وقيل: هما رجلان ـ قولُه تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ ا للهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ فيما هو بينكم وبين ا لله، كالصلاة والصوم والوضوء ﴿وَتَخُونُواْ﴾ مجزوم عطفا على «تَخُونُوا»، أي: ولا تخونوا ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾، أو منصوب، أي مع أن تخونوا أماناتكم، [قلت:] والأوَّل أولى لأنّه نهي عن كلٍّ على حدة، والثاني نهي عن الجمع، و﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾: هي ما بينكم وبين الخلائق، كأمره ﷺ بالنزول على الحكم، والسِّر بينكم، **والأموال في المعاملة أعْلَى الأمانة.**

وفي إيقاع الخيانة على الأمانات مبالغة، كأنّها عاقلة معاهدة، خِينَت في عهدها؛ أو يقدَّر: وتخونوا أصحاب أماناتكم، ومن الخيانة إخبار المنافقين أبا سفيان ــ إذ خرج من مكّة هو وجماعة في أمر وأخبره ﷺ جبريل بخروجه ــ بأنَّ المؤمنين قصدوكم فخذوا حذركم، وقد أمر الصحابة أن يخرجوا إليه سرًّا، والأولى أن الآية أعمُّ من ذلك إذ اعتاد أهل النفاق إخبار المشركين بكلّ سرٍّ، ويفشونه حتّى يبلغهم ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنتم من أهل العلم تعلمون، أو أنَّ ذلك خيانة منكم وأنَّ الخيانة حرام، وتميِّزون القبيح العقليَّ من الحسن.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ سبب الفتنة، كما كانت سببا لفتنة أبي لبابة ولكن تاب ا لله عليه، وقد قيل: نزل هذا فيه، والفتنة: الصرف عن الدين بمعصية ا لله بالحميَّة الباطلة، على المال والولد ومنع الحقوق لحبِّ المال، والتوفير له للأولاد، وكسبه من الحرام لهم، أو الفتنة: الاختبار هل تراعون ا لله فيهما ؟ أو العقاب، وعليه «فِتْنَةٌ»: مجاز مرسل لعلاقة التسبُّب.

وميل النفس إلى المال أشدُّ من الميل إلى الأولاد ففتنته أعظم، ولذلك قدَّم الأموال، وعن ابن مسعود: «ما منكم من أحد إلاّ وفيه فتنة لهذه الآية فاستعيذوا با لله من مضلاّت الفتن». ﴿وَأَنَّ ا للهَ عِندَهُ, أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة لمن لم يفتنه ماله أو ولده وراعى حقَّ ا لله.

﴿يَآ أَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كرَّر الخطاب بوصف الإيمان تنشيطا وإيذانا بأنَّ ما بعده ممَّا يوجب الإيمان به ﴿إِن تَتَّقُواْ اُ للهَ﴾ في أحوالكم بإتباع العمل للقول ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ فصلا بينكم وبين ما تخافون من ضرِّ الدين أو الدنيا فلا تصيبكم، أو الفرقان: هدى ينوِّر به القلب، فيميل إلى الحقِّ ويجانب الباطل، أو نصرا وإذلالَ العدوِّ لكم يَتَبَيَّنُ به لكم المحقُّ من المبطل، أو برهانا يزيل عنكم الشبهة في الدين، أو ظهورا ينشره ذكر جميلكم، أو نجاة في الدارين، أو ذلك كلّه.

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ كبائر وصغائر يسترها ولا يفضحكم بها يوم القيامة بإظهارها لأهل الحشر، ولا يَشِينُكم بها في الدنيا.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي ذنوبكم كبائر وصغائر، بأن يعفو عنكم ولا يعاقبكم عليها؛ أو السيِّئات: الصغائر، والذنوب: الكبائر؛ أو السيِّئات: ما تقدَّم من الكبائر والصغائر، والذنوب: الكبائر المتأخِّرة، لأنَّها في أهل بدر وقد غُفِرَ لهم، [قلت:] وهذا ضعيف، لأنَّ فيه مراعاة الواقع دون لفظ الآية، وفي الحديث يرويه قومنا: «**لعلَّ ا لله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1].

﴿وَا للهُ ذُو الْفَضْلِ اِلْعَظِيمِ﴾ تفضَّل عليكم في رحمته ومغفرته، ولا واجب عليه، فلو شاء لم يثبكم على أعمالكم، وقد اقتضت حكمته أن لا يعذِّبكم في الآخرة وأنتم مطيعون، وذكره ليشكر بما أنعم عليه من التنجية من قريش حين كان بمكَّة في قوله:

١- رواه أبو داود في كتاب السنَّة، باب في الخلفاء، رقم ٤٦٥٤، من حديث أبي هريرة.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾

ألوان الكيد والمؤامرة من المشركين على النبيء ﷺ

﴿وَإِذْ﴾ اذكر إذ، أو اذكر الواقعَ إذ يمكر، أو إنعامه بالإنجاء إذ يمكر ﴿يَمْكُرُ بِكَ﴾ أيْ مَكَرَ، والمضارع لحكاية الحال الماضية ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ﴾ فلا تنتقل عن موضعك بالوثاق بالحديد أو الحبس في بيت، أو الضرب والجرح.

(سيرة) وذلك رأي أبي البختري بن هشام بفتح الموحَّدة وإسكان الخاء المعجمة وضمِّ المثنّاة أو بفتح الموحَّدة والمثنّاة، حين اجتمع في دار الندوة للمشاورة في أمر رسول الله ﷺ نفر من كبار قريش، هُوَ وعتبة وعتيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأبو سفيان، وطعمة بن عديٍّ، والنضر بن الحرث، وهشام بن عمرو، من بني عامر بن لؤي، وعن أبي البختريِّ: أوثقوه في بيت وسدُّوه عليه، إلاَّ كوَّة لطعامه وشرابه ومتاعه، حتّى يموت كما مات الشعراء قبله كزهير والنابغة، فقال إبليس في صورة شيخ جليل، وقال لهم: أنّه من أهل نجد حضر الباب، وقال: سمعت بشأنكم وأنا من أهل نجد ولن تعدموا منّي رأيا، فأدخَلوه، قال: بئس الرأي! يُخرجه أصحابه وقومه، فقالوا: صدقت، والدار بناها قصيٌّ للمشاورة لأمر يحدث ولا يجتمعون لمهمٍّ إلاَّ فيها، والندوة: الجماعة، وهي أوَّل دار بمكّة، لَمَّا حجَّ معاوية اشتراها بمائة ألف درهم، ثمَّ أدخلت في الجانب الشماليِّ من المسجد الحرام.

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ يقتلك متعدّدون من كلّ قبيلةٍ واحدٌ، فتشترك القبائل كلّهم في قتلك، تعطون من كلّ قبيلة شابًّا سيفا صارما فيضربونه بمرَّة، فيفترق دمه على قبائل، فلا يقدر بنو هاشم على حرب قريش كلّها، وتعطونهم الدِّية، قاله أبو جهل، فقال إبليس لعنهما الله: هذا هو الرأي لا أرى غيره، فقاموا عليه، ويسمَّى يوم اجتماعهم على المشاورة في الدار " يوم الزحمة "، اتَّفَقُوا من اليوم قبله أن يجتمعوا فيها ضحى.

(سيرة) ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكّة، قال هشام بن عمرو: أخرجوه على بعير فلا يضرُّكم ما فعل غائبا، فقال إبليس أعاذنا الله منه ومن أعوانه: يجمع الناس عليكم بحلاوة لسانه وطلاقته، فيجتمعون فيخرجونكم من بلادكم، بئس الرأي، وأخبر جبريل النبيء ﷺ بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأمره بالهجرة، وأبات ﷺ الإمام عليًّا في مضجعه ببردته، ويروى بثوب أخضر وقال: لا يصيبك ضرٌّ منهم، فخرج من الباب لا من الحائط كما قيل، وهم منتظرون عند الباب، وألقى الله عليهم نوما، أو أخذ بأبصارهم، ونثر على رؤوسهم ترابا وهو يتلو ﴿يَس...﴾ إلى ﴿...لاَ يُبْصِرُونَ﴾(سورة يس: ١-٩) وقال لهم رجل مرَّ عليهم: ما وقوفكم؟ فقالوا: ننتظر محَمَّدًا، فقال: خيَّبكم الله قد خرج في حاجته، وما منكم إلاّ وعلى رأسه تراب منه، والرجل أبصر التراب عليهم ليلا بقدرة الله ﷻ، فوجدوا ذلك، وما أصابت منهم أحدا حصاة إلا قتل يوم بدر على أنّه رماهم بالحصا، أو بتراب فيه الحصا. وروي أنّهم همُّوا بالدخول عليه، فصاحت امرأة من الدار، فقالوا: نعيَّر بتسوُّر الجدار على بنات العمّ، فأقاموا إلى الصبح عند الباب.

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ يحتالون على إهلاكه وإبطال دينه ﴿وَيَمْكُرُ اللهُ﴾ أي يبطل مكرهم، أو يجازيهم عليه، ويردُّ عليهم مثله مؤثّرًا فيهم، أو يعاملهم معاملة

من يريد إهلاك أحد باحتيال وخفية، بأن خيَّل لهم أنَّهم غالبون، وأنَّ المسلمين لقلَّتهم مغلوبون، فخرجوا إلى بدر بقضاء الله ﷻ، يُشَبِّه إيقاعه ذلك بالمكر على الاستعارة التمثيليَّة، أو المفردة التبعيَّة، أو المجاز الارسالي، فَقَتَلَهم المسلمون.

وسمَّى ذلك كلَّه مكرًا للمشاكلة، وقد قيل: لا يطلق عليه إلاَّ مع ذكر مكر الناس، واعترض بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ...﴾(سورة الأعراف: ٩٩) وأجيب بأنَّ التقدير: أمكروا فأمنوا مكر الله؟ ويجاب بأنَّ الأصل عدم التأويل، وبقول الإمام علي[1]: «من وُسِّع عليه في دنياه ولم يعلم أنَّه مكر به فهو مخدوع في عقله»، وأجيب بأنَّ "مخدوع" بمعنى: ممكور به.

﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ مكره أفضل من كلِّ مكر في القُوَّة والخفاء، أو في مكرهم حسن في زعمهم لَكِنَّ مكر الله تعالى أحسن، ولا مانع من كون مكر الله تمثيلا في الموضعين، بأن شبَّه تقليل المسلمين في أعينهم، وظنَّهم أنَّهم غالبون لهم، باستعداد أحد شيئا وظنِّه أنَّه نافع.

ولا يقال كما زعم بعض: إنَّ المعنى فعل الله مطلقا خير من كلِّ فعل، لأنَّ هذا صحَّ من جهة المعنى ولا يصحُّ تفسير الآية لذكره ﴿الْمَاكِرِينَ﴾، لا يقال: زيد أفضل القائمين ويراد أفضل القاعدين أيضا، ونحو ذلك، فإنَّه في شأن غير القيام، كقولك: زيد القائم خير من القاعدين، إلاَّ على ضَرْبٍ من التأويل كقولك: العسل في حلاوته أعظم من الخلِّ في حموضته، أو العكس.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ قرآننا ﴿قَالُواْ﴾ قال النضر بن الحرث، عند مجاهد وابن جبير والجمهور، وأبو جهل عند أنس، بلسانه وغيرُه برضاه، ففي

١- معطوف على قوله: «بِأنَّ الأصل».

ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز وزعم بعض أنَّ القول حقيقة في الاعتقاد، وبعض أنَّه حقيقة فيه وفي اللفظ، [قلت:] والصحيح أنَّه حقيقة في اللفظ فيجاب عن الجمع بينهما باستعماله في عموم المجاز، وهو المعنى الموجود في الحقيقة والمجاز، وذلك المعنى هو الرضى الموجود في قلب اللافظ وقلب المعتقد بلا تلفُّظ، أو أسند القول إليهم، لأنَّ النضر رئيسهم وقاضيهم وقاصُّهم، وكان يأتي الحيرة للتجر، ويشتري كتب أخبار العجم كالفرس والروم، ويمرُّ بأهل الكتاب ويحدِّث أهل مكَّة عنها، وكان معروفا فيهم بالفطنة.

أو القائلون المؤتمرون في أمره ﷺ، وعلى هذا فلا مجاز، إلاَّ إن أريد: المؤتمرون ومن رضي بقولهم: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما قلت، وليس ببدع مؤثِّر فينا، وقيل: سمعنا التوراة والإنجيل مثل كلامك، ويردُّه قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ القول ﴿لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَآ﴾ لأنَّا فصحاء بلغاء مثلك، وذلك عناد محض، إذ لو قدروا على مثل القرآن لقالوا ليستريحوا عن الجدال، وبعد الهجرة يستريحوا عن القتل والسبي والغنم، وقد لبث فيهم عشر سنين أو ثلاث عشرة وما أطاقوه.

﴿إِنْ هَذَآ﴾ أي القرآن ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ اَلاَوَّلِينَ﴾ جمع أسطورة وهو المسطور العجيب، أو جمع الجمع وهو أسطار، والمراد: ما سطر ـ أيْ كُتِبَ ـ في أخبار العجم.

﴿وَإِذْ قَالُواْ اُ۬للَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ اَلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ اَلسَّمَآءِ أَوِ ايتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اَللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اَللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمُ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اُ۬للَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ اِلْمَسْجِدِ اِلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنَ اَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلاَّ اَلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ اَلْبَيْتِ إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ اُ۬لْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

استعجال المشركين للعذاب، والتهكم بعبادتهم

﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا﴾ أي القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ جزموا بأنَّه غير الحقِّ، ولذلك رتَّبوا عليه إمطار الحجارة أو العذاب الأليم، لزعمهم أنَّهم لا يعاقبون على الكفر به، وإن جاءت بصورة الشكِّ فكفى الشكُّ الصوريُّ، وقيل: كفى في ذلك عدم الجزم بوقوع الشرط، إذ جزموا بنفيه، [قلت:] لا يكفي، لجزمهم بالنفي، والأولى ما مرَّ، أو أن يقال: نزَّلوا الفرض والتقدير منزلة الشكِّ في عدم الجزم.

و«الـ» في «ٱلْحَقَّ» للعهد الذهنيِّ المعلوم، وهو الحقُّ عند الله، وهو الحقُّ الذي يدَّعيه محمَّد أنَّه من الله ﷻ، ويجوز إطلاق العهد الخارجيِّ عليه، باعتبار أنَّه الموجود في كلامه على دعواه ﷺ.

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ شبَّه إلقاء الحجارة من السماء بإنزال المطر، فذلك استعارة، أو استعمل الإمطار في مطلق الإلقاء فهو مجاز مرسل ﴿حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من طين مطبوخ، كتب على كلِّ واحد اسم صاحبه، عَلِمَ بها الكفَّار فطلبوا مثلها، والطبخ بنار جهنَّم، أو أرادوا مطلق الحجارة من السماء* كحجارة أصحاب الفيل؛ نعتٌ لـ«حِجَارَةً»، أو متعلِّق بـ«أَمْطِرْ» على التأكيد، لأنَّ الإنزال لا يكون إلاَّ من فوق. ﴿أَوِ ٱيتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لكنَّه ليس بحقٍّ فلا يمطر علينا الحجارة على تكذيبناه، ولا نؤتى بالعذاب، لِمَا قال النضر: إن هذا إلاَّ أساطير الأوَّلين، أو قاله أبو جهل، أو قال قريش أكرم الله محمَّدًا من بيننا ؟! ما هذا من الله.

وعلى كلِّ حال قال مفرد أو متعدِّد ورضي الباقون، قال ﷺ: «**ويلكم إنَّه كلام الله**» فقال: اللهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا عقابا على

تكذيبنا حجارة...، والحصر تلويح إلى القلب أي الحقُّ ما عندنا لا ما يقول محمَّد، أو إلى نفي الأفراد في بعض الصور، أي ما نقول حقٌّ وما لا يخالفنا من محمَّد حقٌّ، وفي كلامهم تهكُّم، والمراد: عذاب أليم غير التعذيب بالحجارة كالصيحة والمسخ والخسف.

﴿**وَمَا كَانَ اَ للهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ**﴾ مضت حكمة ا لله ﷻ أن لا يعذِّب أمَّة عذاب الاستئصال الذي في ضمن الإمطار بالحجارة، أيًّا كان إلاَّ بعد إخراج نبيئها والمؤمنين تعظيما لهم ﴿**وَمَا كَانَ اَ للهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ كانوا يقولون: «اللهمَّ غفرانك»، ويقولون في الطواف: «غفرانك»، وقيل: ندموا على قولهم: «فأمطر علينا...» فقالوا: «اللهمَّ غفرانك»، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اَ للهُ مُعَذِّبَهُم...﴾ كذلك، وقيل المراد: استغفار المؤمنين الضعفاء المعذورين في إقامتهم معهم، من الرجال والنساء والولدان بعد هجرة النبيء ﷺ وغيره، وللجوار حرمة إذ جاوروا من آمن، وقيل المراد: استغفار من في أصلابهم إذا ولدوا وكبروا، وعليه مجاهد، وقيل: استغفار من سيؤمن كأبي سفيان بن الحرث بن عبد المطَّلب، وأبي سفيان بن حرب، والحرث بن هشام، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أميَّة، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، [قلت:] والأقوال الثلاثة ضعيفة تخالف ظاهر الآية، وكذا القول بأنَّ المراد: لا يعذِّبهم لو استغفروا حقيقة وآمنوا، وإذ لم يفعلوا فسيعذِّبهم كما سيأتي. ﴿**وَمَا لَهُمُ, أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ ا للهُ**﴾ أي في أن لا يهديهم، والعذاب لازم عدم الهداية ومسبَّبه، أو لا حظَّ لهم في انتفاء التعذيب، وهذا بحسب الظاهر مناقض لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اَ للهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اَ للهُ مُعَذِّبَهُم﴾ فيجاب بأنَّ المراد: وما لهم أن لا يعذِّبهم إذا زال الاستغفار، لا كما قيل: إنَّ هذا ناسخ، إذ لا نسخ في الأخبار، وإنَّما يكون في الأحكام، مع ما في

تضمُّن المنسوخ هنا من الخفاء، وإنَّما المعنى: أن لا يعذِّبهم لولا استغفارهم، أو هذا ردٌّ لقولهم: لا يعذِّبنا الله لأنَّا أهل بيته وحرمه، وقيل: هذا في عذاب الآخرة وما مرَّ في عذاب الدنيا، وهو غير متبادر. و«مَا» استفهاميَّة، أو نافية، أي ليس لهم انتفاء التعذيب.

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ اِلْمَسْجِدِ اِلْحَرَامِ﴾ من أراد الصلاة فيه والطواف، وقراءة القرآن والذكر والتوحيد ورفض الأصنام، حتَّى كان المؤمنون في دار الأرقم، وحتَّى هاجروا إلى الحبشة والمدينة، ومنعوهم عام الحديبيَّة من العمرة، هم أهل لأن يعذِّبهم الله، ولكن لم يعذِّبهم لكونك فيهم وللاستغفار، أو ما لهم أن لا يعذِّبهم الله بالسيف، إذا خرجت أنت والمستضعفون عذَّبهم في بدر ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا...﴾(سورة الفتح: ٢٥) ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾(سورة التوبة: ١٤) وهذا بالسيف، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ استئصال بغير السيف فلا منافاة.

وزعم بعض أنَّ هذا ناسخ للأوَّل، على أنَّ الأوَّل يعمُّ السيف وغيره، ويجوز ـ على بُعْدـ أن يكون معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اَللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ما كان معذِّبهم لو استغفروا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ اَلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(سورة هود: ١١٧) ووجه البعد منافاته للظاهر ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ اَللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لأنَّه يوهم أنَّهم إذ لم يستغفروا يعذَّبون ولو كان النبيء ﷺ فيهم، [قلت:] ومع ذلك البعد رجَّحه غير واحد.

وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت الحرام، وولاة أمر الله فيه، فنصدُّ من نشاء وندخل من نشاء، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَآءَهُ﴾ أولياء الله، أو أولياء المسجد الحرام، ويرجِّح الأوَّل قوله تعالى: ﴿إِنَ اَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ اَلْمُتَّقُونَ﴾

المتَّقون للشرك، أو لعذاب الله، فإنَّ وليَّ الله هو الموحِّد له، وعلى أنَّ الهاء للمسجد يكون المعنى: وما كانوا أولياء المسجد الحرام بالاستحقاق لشركهم، وللصدِّ عنه ومعاداة أولياء الله سبحانه، بل تولَّوه لحكمة الله وقضائه، وما أولياؤه بالاستحقاق إلاَّ المتَّقون ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّه لا ولاية لهم، وقليل علموا وجَحَدوا، أو الأكثر بمعنى الكلِّ.

﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ اَلْبَيْتِ﴾ دعاؤهم عند البيت هو المسجد الحرام، ذكره باسم البيت لزيادة تقبيح معصيتهم عند بيته تعالى، أو طوافهم، وكانوا يطوفون عراة رجالا ونساء، ومصفِّرون في أصابعهم مشبَّكة، أو صلاة شَرعِيَّة في زعمهم، وليست صلاةً لشركهم واختلال شروطها وأركانها، أو شيء يضعونه موضع الصلاة وليس صلاة شَرعِيَّة ولا لغويَّة، أي لا شيء ممَّا يعدُّونه صلاة وعبادة، وأولى من هذا أن يكون المعنى: لا عبادة لهم البتَّة عند البيت إلاَّ ما ذكره بقوله: ﴿إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ المكاء: التصفير أو البكاء أو الصراخ.

(لغة) قال الأصمعيُّ: قلت لواحد من أهل اللغة: ما المكاء؟ فشبَّك بين أصابعه ثمَّ وضعها على فيه ونفخ فيظهر من ذلك صوت، والتصدية: صوت التصفيق بإحدى اليدين على الأخرى، مصدر صدَّى ـ بالشدِّ ـ بمعنى: صفَّق، أو المراد نفس التصفيق باليد على الأخرى، وأصله من الصَّدَى وهو الصوت الذي يرجع من الهواء الصلب، أو مصدر صدَّد بالشدِّ قلبت الدال الثالثة ألفا كتقضَّى في تقضَّض البازي، فهي هذه الياء، وأمَّا الدال الثانية فعوض عن الياء التي تقلب إليها التاء آخر الكلمة، وهو الصياح والصراخ؛ أو من التصديد كذلك، وهو منع الناس عن الدين والمسجد الحرام.

وكان المشركون يصفّقون ويصفّرون ويصيحون ويصرخون ليخلطوا عليه ﷺ قراءته، ويُشغلوا المستمع، وذلك طبق قولهم: ﴿لاَ تَسْمَعُواْ لِهَـذَا اَلْقُرْءَانِ وَالْغَوْاْ فِيهِ﴾(سورة فصّلت: ٢٥). وكان إذا صلّى في المسجد الحرام قام من بني عبد الدار رجلان عن يمينه يصفّران وآخران عن يساره يصفّقان فقتلوا ببدر. والاستثناء منقطع، ويجوز أن يكون متّصلا باعتبار أنَّ ذلك صلاة أيضا.

﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ بالقتل والأسر في بدر، على أنَّ هذا نزل قبل بدر، وإن نزل بعد بدر فعلى طريق حكاية ما قيل لهم بالمعنى حال قتال بدر، والمعطوف عليه محذوف مع قول بعد الفاء، أي فعلوا ذلك فقيل لهم: ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ و«الـ» للعهد في قوله: ﴿اِيتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾، أُنجز لهم في بدر، وإذا قيل: عذاب الآخرة فالتقدير: فيقال لهم بذلك في الآخرة: ذوقوا العذاب، وهو عهد خارجيٌّ، وإن أريد به القتل والأسر ببدر هكذا كان العهد ذهنيًّا، وقيل: خارجيًّا، وإن أريد عذاب الآخرة، فالعهد جنسيٌّ والفاء للسببيَّة أي ذوقوا بسبب مكائدكم وتصديتكم.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقادا وقولا وفعلا، الباء سببيَّة، ولا يتدافع السببيَّان، لأنَّ الثانية منسحبة على مجموع ما قبله، أي إنّما كان مكاؤهم وتصديتهم سببا للعذاب لأنَّهما[1] كفر.

﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالذِينَ كَفَرُواْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اَللَّهُ

١- الضمير يعود إلى المكاء والتصدية.

ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

إهدار ثواب الإنفاق للصدّ عن سبيل الله

(سيرة) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المراد: أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ومنبه ونبيه ابنا الحجَّاج، وأبو البختري والنضر وحكيم بن حزام، وأبو زمعة والحرث وأبو سفيان وأُبي بن خلف، والعبَّاس وغيرهم، وأسلم العَبَّاس وأبو سفيان. والمراد بالآية العموم ولو نزلت الآية في هؤلاء المخصوصين، يطعم كلُّ واحد كلَّ يوم عشرة أبعرة حين خرجوا إلى بدر، وكانت وقعة بدر قبل تمام عددهم عند نوبة العَبَّاس ﷺ، فلم ينفق شيئا، وهم ثلاثة عشر رجلا وشهر اثنا عشر، وقيل: أنفق العَبَّاس أربعين أوقية والأوقية يومئذ أربعون مثقالا من الذهب.

وصحَّ إطلاق الآية على نحو العَبَّاس لأنَّه صدق عليه أنَّه أنفق وأنَّه مغلوب وأنَّه تحسَّر، وذلك كلُّه في الدنيا، وأمَّا خصوص المصريِّين ففي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(سورة الأنفال: ٢٦) ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ تلك الإبل وغيرها في عداوة رسول ا لله، وإبطال دين ا لله كما قال: ﴿لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقد قيل: نزلت في ذلك وفي إنفاق أبي سفيان حين استأجر ليوم أحد بعد بدر ألفين من سائر الناس الحاضرين حول مَكَّة، سوى من جيش مَكَّة ويسمَّون "الأحابيش" لحضورهم حول مَكَّة، وليسوا من جيشها، وأنفق عليهم أربعين أوقية، وفي إنفاق أصحاب العير الآتين من التجر بالشام، قالوا: أنفقوا هذا المال لعلَّنا نأخذ ثأرنا من محمَّد وأصحابه إذ قتلونا في بدر، فجمعوها لقتال أحد.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ تفصيل وبيان لثمرة إنفاقهم وعاقبتها، والفاء لذلك لا للترتيب وَالاِتِّصَال، وإن قلنا: نزل هذا قبل بدر فظاهر، أو بعدها فتنزيل

للماضي منزلة المستقبل، ليشاهد إذا حضر، أو الإنفاق الأوَّل في بدر ذكر قبلها وإن ذكر بعدها فللتنـزيل المذكور، والثاني للإنفاق ليوم أحد.

ويجوز حمل الأوَّل على الإرادة، أي إنَّ الذين كفروا يريدون إنفاق أموالهم فسينفقونها، أو الأوَّل إنفاق بعضها والثاني إنفاقها بتمامها، ويبعد أن يكون المعنى: فسيعلمون عاقبة إنفاقها من الخيبة مِمَّا قصدوا بإنفاقها. وكرَّر الإنفاق لزيادة تقبيح صنيعهم. وخبر «إِنَّ» هو قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ كما رأيت، أو هو حال من واو «كَفَرُوا» وخبر «إِنَّ» «سَيُنفِقُونَهَا» قرن بالفاء للعموم، فيدخل فيهم الثلاثة عشر بالأولى، ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندما وغمًّا في الدنيا كالآخرة، لأنَّهم أنفقوها ليغلبوا المسلمين، وغلبهم المسلمون، ووجه كونها حسرة في بدر بحسب الدنيا ظاهر، وأمَّا في أحد فلعدم نجاتهم من فتح مكَّة عليهم. وضمير «تَكُونُ» للأموال على حذف، أي يكون إنفاقها، وليس الأموال ولا إنفاقها نفس الحسرة ولكن سببها، فأخبر عنها باسم مسبَّبها مبالغة كأنَّها نفس الحسرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ يغلبهم المسلمون في الدنيا بالقتال، أمَّا في الآخرة ففي قوله: ﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ﴾ أصرُّوا على الكفر ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يُحمعون.

﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلِّق بـ«يُحْشَرُونَ» أو «يُغْلَبُونَ»، فإنَّ في حشرهم إلى النار ميز الخبيث من الطيِّب، وكذا في كونهم مغلوبين، أي ليَفْصِل ﴿ا للهُ الْخَبِيثَ مِنَ اَلطَّيِّبِ﴾ الخبيث: الكافر، والطيِّب: المؤمن، والمراد: جنسهما، أو الخبيث: الاعتقاد والقول والفعل الخبيثات، والطيِّب: الصوالح منهنَّ.

وإن جعلنا «الْخَبِيثَ»: النفقة في عداوة رسول ا لله ودينه، و«الطَّيِّب»: النفقة في إعلاء الدين فاللام متعلِّق بـ«تَكُونُ» لا بـ«تُحْشَرُونَ»، لأنَّه لا معنى لتعليل كون مالهم حسرة بتميز الكفَّار من المؤمنين، أو الفساد من الصلاح، أو يراد ذلك كلُّه في الجانبين.

﴿وَيَجْعَلَ اَلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يضع الكافر على الكافر، ويضع ما أنفقه في العداوة وقولَه وفعلَه واعتقادَه عليه ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ (سورة الفرقان: ١٣) فيزداد تحسُّرا بأخيه الكافر، وما أنفقه وما عمله من اعتقاد وقول وفعل مستحضرا له ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ يجمعه متلاقصا ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الهاء، أو توكيده، أي جميعه ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ﴾ على مواطن، تارة يجتمع أهل النار وتارة يفترقون ﴿أُوْلَئِكَ﴾ إشارة بلفظ الجماعة إلى الخبيث، لأنَّ المراد به الجنس الكفَّار وما أنفقوا وما عملوا، أو المنفقون. وإشارة البعد لبعد مرتبتهم في السوء ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الخسران الكامل، أو كأنَّه لا خاسر إلاَّ هم، أو خسروا أنفسهم وأموالهم، وإسناد الخسران إلى ما أنفقوا وإلى عملهم مجاز، وإلاَّ لم يتصوَّر، والجواب أنَّ المعنى أولئك المتَّصفون بتلك الصفات.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ اُلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ اَلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ اِنتَهَوْاْ فَإِنَّ اَللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اَللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ اَلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ اَلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾

المغفرة للكفَّار إذا أسلموا
وقتالهم إن أصرُّوا على الكفر وحاربوا

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أشركوا كأبي سفيان وأصحابه، واللام للتبليغ فالغيبة في قوله: ﴿إِن يَنتَهُواْ...﴾ على طريق الالتفات السكَّاكي، من الخطاب إليها، والأصل: إن تنتهوا بالتاء، أو بمعنى في، أي في شأن الذين كفروا، أو للتعليل، والأوَّل أولى، ويدلُّ له قراءة ابن مسعود: ﴿تَنتَهُواْ﴾ بالمثنَّاة فلا التفات، والمعنى: إن ينتهوا عن كفرهم وصدِّهم عن سبيل الله وعداوة

الرسول ﷺ إلى الإيمان والإعانة في الدين وحبِّ الرسول **﴿يَغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾** ولو كانوا كتابيِّين، أو في عهد، وذلك هو الصحيح.

وقيل: يلزم الذمِّي حقوق الله وحقوق العباد قبل الإسلام، وهو ضعيف ليس بشيء، لحديث: «**الإسلام جبٌّ لِمَا قبله**»[1]، وكذا من ارتدَّ ثمَّ أسلم لا يؤاخذ بما فعل في الردَّة، وقيل: يؤاخذ، والمراد في الآية: ما سلف من كفرهم وقتل الأنفس وأخذ الأموال ولو بقيت في أيديهم، وغير ذلك من الذنوب التي بينهم وبين الله والعباد.

(فقه) ويفرِّق بينه وبين محرمته إن تزوَّجها، وبينه وبين من جمع من المحرمتين فصاعدا، فيَقتصِر على واحدة، وبينه وبين الزائد على أربع، ويهريق ما عنده من خمر، ويَقتل خنزيره، وتدفن ميتته، فيخرجون من ذنوبهم كما ينسلُّ الشعر من العجين، والإسلام جبٌّ لِمَا قبله، وزعم بعض أنَّ ذلك في الحربيِّ ومن لم يكن في العهد، وأنَّ أهل الذمَّة يغفر لهم حقوق الله لا حقوق العباد، وقيل: يردُّ المشرك ما بقي في يده من مال الناس.

قال يحيى بن معاذ الرازي: في هذه الآية توحيد ساعة يهدم كفر سبعين سنة، وتوحيد سبعين سنة لا يقوى على هدم ذنب ساعة، [قلت:] وهذا قولنا **إنَّ الإصرار على ذنب يبطل الأعمال كلَّها.**

﴿وَإِنْ يَعُودُواْ﴾ إلى الكفر والقتال أي يبقوا عليه، شبَّه البقاء عليه بالرجوع إليه بعد التوبة، ففي الآية استعارة تبعيَّة، وإشارة إلى أنَّ الردَّة أشدُّ قبحا من الكفر الأوَّل، إذ جعلها المشبَّه به أو سمِّي مطلق استعمال الكفر عودا إليه تسمية للمطلق

١- رواه أحمد في مسند الشاميِّين، رقم ١٧١٠٩، من حديث عمرو بن العاص (م ح). ورواه الهندي في الكنز، ج١، ص٦٦، رقم ٢٤٣، من حديث جبير بن مطعم.

بالمقيَّد، أو المراد: يعودوا إلى الكفر بعد التوحيد، أو شبَّه توقُّعهم تمام قول الرسول لهم، أو إدراكهم أنَّ الحقَّ معه ثمَّ يعاندوه بتوقُّفهم عن الكفر، فيعودوا إليه.

﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الاَوَّلِينَ﴾ تعليل ناب عن الجواب، أي وإن يعودوا أُهلكوا، أو فليتوقَّعوا الإهلاك، لأنَّه قد مضت سنَّة الأوَّلين بالإهلاك إذ تحزَّبوا على أنبيائهم بالإيذاء والتكذيب، والأوَّلون هم الأمم السابقة أضيفت إليهم السنَّة لأنَّها وقعت عليهم، أو هم الرسل أضيفت إليهم لأنَّها على أيديهم، وبسببهم كما قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدَ اَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾(سورة الإسراء: ٧٧) والأوَّل أولى لأنَّه الكثير في القرآن.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ عطف على «قُلْ» ولكن جمع الخطاب هنا لأنَّه في تحريض المؤمنين على القتال، وأفرده في «قُلْ» لأنَّه في الرسول المفرد الفاتح للأحكام، ومن شأنه اللطف وغيره تبع له ﴿حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا يثبت شرك، ولا يفتن مؤمن عن دينه، والنكرة بعد النفي للعموم ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ الأحكام أو العبادة ﴿كُلُّهُ, لِلهِ﴾ ولا يثبت دين من أديان الشيطان، فإنَّه إذا كان دين من أديان الشيطان فقد صار بعض مطلق الدين لله وبعض لغيره، ولا يتحقَّق ظاهر الآية إلاَّ في زمان المهدي، قيل: لا يبقى فيه مشرك يؤمن المشركون كلُّهم إلاَّ ياجوج وماجوج.

والظاهر أنَّ المراد في الآية: أهل مكَّة وما حولها والمدينة وما حولها، أو المراد: أن لا يظهر مشرك الصدَّ عن الإسلام بل هم ما بين مغلوب ساكت ومؤمن، وهذا واقع بعد الصحابة ﴿فَإِنِ انتَهَوْاْ﴾ عن الكفر بأنواعه إلى الإسلام فلا وجه لقتالكم، بدليل الفاء الأولى ﴿فَإِنَّ اَ۬للهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم ﴿بَصِيرٌ﴾ أي جازاهم بالخير في الدنيا والآخرة، لأنَّه عليم بما يعملون، فأناب العلَّة عن الجواب، أو علمه بما يعملون كناية عن جزائهم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن الإسلام بعد قتالكم إيَّاهُم، فلا يكرَّر مع قوله: ﴿وَإِن يَّعُودُوا﴾. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اَ للهَ مَوْلاَكُمْ﴾ أي لا تخافوهم لأنَّ ا لله مولاكم، أي يَتَوَلَّى أمركم، أو كناية على أن لا يخافوهم، أو يبقى على ظاهره على أنَّ المولى بمعنى الناصر فثقوا به ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ هو، لا يَذَلُّ من تولاَّه ولا يَهُون ﴿وَنِعْمَ اَلنَّصِيرُ﴾ هو، لا يُغلب من نَصره وهو ينصركم فلا تغلبون.

ولَمَّا كان القتال يستدعي غنما قال:

﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾

كيفيَّة قسمة الغنائم

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ رابط الموصول محذوف أي غنمتموه ﴿مِن شَيْءٍ﴾ خيطا أو إبرة أو نعلا أو نحو ذلك أو أقلَّ أو أكثر ﴿فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ﴾ أي فواجب ثبوت خُمُسه لله تعالى، أو فالواجب ثبوت خمسه لله تعالى، أو فالحكم أنَّ لله خمسه أي ثبوت خمسه لله تعالى.

والفيء: ما كان بلا قتال، والغنيمة: ما بالقتال، وقيل: الفيء أعمُّ لأنَّ كلاًّ يرجع، و«فَاءَ»: رجع، وقيل: مترادفان. ذَكَرَ «ا لله» تعظيما لشأن الحكم والرسول، ولا يعزل لله ﷻ شيء بل يعزل لرسوله، وكلُّ ما في الدنيا والآخرة لله تعالى، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَا للهُ وَرَسُولُهُ, أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(سورة التوبة: ٦٢) ويؤيِّد ذلك قوله ﷺ: «**مالي مِمَّا أفاء ا لله عليكم إلاَّ خمس**

الخمس»[1]، فلو كان لله تعالى سهم على حدة لكان ذلك السهم سدس الخمس المغنوم لا خمسه، ولكان سهم رسول الله ﷺ السدس لا الخمس، وذلك مذهب الجمهور؛ وقال أبو العالية: لله نصيب.

(فقه) وذلك فيما غنم أي أخذ قهرا أو مجاهرة، وأمَّا ما أخذ من دار الحرب اختلاسا أو سرقة فهو لمن أخذه واحدا فصاعدا، ولا يخمَّس، وإن دخلوا للاختلاس بإذنه فالصحيح أن يخمَّس لأنَّ إذنه كالإمداد لهم، وقيل: يخمَّس ولو دخلوا بلا إذن منه، وسلب المقتول لقاتله إن قال الإمام: من قتل قتيلا فله سلبه، وقيل: له ولو لم يقل ولو كان القاتل صبيًّا أو عبدا أو امرأة، لعموم حديث: «**من قتل قتيلا فله سلبه**»[2]، على أنَّه للعموم والاستمرار، والصحيح أنَّ السلب غنيمة إلاَّ إن قال: من قتل قتيلا فله سلبه، قال ﷺ لحبيب بن أبي سلمة: «**ليس لك من سلب قتيلك إلاَّ ما أذن لك فيه إمامك**».

﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أعاد اللام لئلاَّ يتوهَّم اشتراك ذوي القربى في سهمه ﷺ، لمزيد اتِّصالهم به ﷺ **﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾** وأربعة الأخماس الباقية للغانمين، قال ﷺ: «**للفارس سهم ولفرسه سهمان**»[3]،

١- رواه **أبو داود** في كتاب الجهاد، باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه، رقم ٢٧٥٥، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه. ورواه **الحاكم** في كتاب المغازي والسرايا، ج٣، ص٤٢، رقم ٤٣٤٦ (٥٠) من حديث عليٍّ كرَّم الله وجهه.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الخمس، (١٨) باب من لم يخمِّس الأسلاب... رقم ٢٩٧٣، وفي كتاب المغازي (٥١) باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ رقم ٤٠٦٧، من حديث أبي قتادة.

٣- رواه **مسلم** في كتاب الجهاد (١٧) باب كيفية قسمة الغنيمة رقم ٥٧ (١٧٦٢) من حديث ابن عمر.

رواه ابن عمر، وعن أبي حنيفة: للفارس سهمان وأمَّا الراجل فله سهم، وعلى قول أبي العالية يصرف سهم الله للكعبة وهو سدس خمس المغنوم.

(سيرة) قيل: القسمة في الخمس على عهده ﷺ سهم له ﷺ، وسهم لذوي القربى، وسهم للثلاثة الباقين، وسقط سهمه بعده ﷺ، وسهم قرابته فيعطون بالفقر، وتقدَّم فقراؤهم ولا حقَّ لأغنيائهم، وإنَّما أعطاهم في حياته للنصرة لا للقرابة، وكان عمر بن عبد العزيز يخصُّ ولد فاطمة كلَّ عام باثني عشر ألف دينار، سوى ما يعطي غيرهم من ذوي القربى، وكان الصدِّيق يسوِّي وعمر بحسب ما يَرَى، وروي أنَّه ﷺ يأخذ قبضة ويجعلها للكعبة، وقيل: إن قربت وإلاَّ فللمسجد الأقرب، ثمَّ يقسِّم خمسة الأسداس الباقية على خمسة.

(فقه) وقيل: سهم الله لبيت المال، وقيل: مضموم إلى سهم رسول الله ﷺ، وسهم رسول الله ﷺ بعد وفاته يصرف إلى ما كان يصرفه في حياته من مصالح المسلمين، كما فعل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، لأنَّه لم يخلفه أحد في رسالته، وقيل: إلى الإمام لأنَّه نائبه، وقيل: إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وقال أبو حنيفة: سقط سهمه وسهم ذوي القربى بوفاته ﷺ، ورجعا إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، وقال مالك: يصرف الإمام سهم رسول الله حيث شاء.

والمراد بالقربى: قرابته ﷺ ، وذو قرابته بنو هاشم وبنو المطَّلب، وبنو نوفل، وبنو عبد شمس، أمَّا هاشم فولده هو عبد المطَّلب وأسد، ولعبد المطَّلب عشرة بنين، منهم عبد الله وأبو طالب وحمزة والعبَّاس وأبو لهب والحرث والزبير، والمراد بذوي القربى منهم: بنو هاشم وبنو المطَّلب، ولا شيء لبني نوفل ولا لبني عبد شمس، وكان عثمان بن عفَّان من بني عبد شمس، وجبير بن مطعم من بني نوفل.

وقسَّم ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطَّلب و لم يعط أحدا من بني عبد شمس ولا من بني نوفل شيئا، فقال له عثمان وجبير: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، ولكن أعطيت إخواننا بني المطَّلب دوننا ونحن وهم بمنزلة؟ فقال ﷺ: «**إنَّهم لن يفارقونا في جاهليَّة ولا إسلام**» وشبَّك أصابعه أي لم يفارقهم بنو هاشم في النصرة في الجَاهِلِيَّة ولا في الإسلام، وقيل: ذو القربى: بنو هاشم، وقيل: قريش كلُّهم.

والغنيُّ والفقير فيه سواء، لأنَّه ﷺ والخلفاء بعده يعطون العبَّاس مع أنَّه غنيٌّ، وقيل: مخصوص بفقرائهم كسهم ابن السبيل، وهو المسافر البعيد عن ماله، وقيل: الخمس كلُّه لهم على أنَّ اليتامى والمساكين وابن السبيل منهم، والعطف تخصيص، والآية نزلت ببدر، وقيل: الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيَّام، للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة، وكانت وقعة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان، وهو أوَّل مشهد شهده رسول الله ﷺ لإعلاء كلمة الحقِّ والدين.

﴿**إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ**﴾ فاعملوا بما علمتم من أنَّ لكم أربعة أخماس، واقنعوا بها، ولا تنقصوا من الخمس الذي لهؤلاء شيئا ﴿**وَمَآ أَنزَلْنَا**﴾ عطف على لفظ الجلالة أي وبما أنزلنا ﴿**عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾ محمَّد ﷺ من النصر والإمداد بالملائكة، والآيات من قوله: ﴿**يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ...**﴾ (سورة الأنفال: ١) إذ نزلت يوم بدر كما قال: ﴿**يَوْمَ الْفُرْقَانِ**﴾ يوم بدر، فرَّق فيه بين الحقِّ والباطل بإنجاز نصر المؤمنين وإخماد الكفَّار ﴿**يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**﴾ بدل من «يَوْمَ الْفُرْقَانِ»، أو بيان فهو يوم بدر، التقى فيه جمع المؤمنين وجمع الكُفَّار ﴿**وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ ومن قدرته إمدادكم بالملائكة، ونصر قلَّتكم على كثرتهم.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

تكثير المؤمنين ببدر في أعين المشركين وتقليل المشركين في أعين المؤمنين

﴿إذ﴾ بدل من «يَوْمَ» الأوَّل على جواز تعدُّد البدل، أو من الثاني على جواز الإبدال من البدل، أو عطف بيان كذلك، أو الأوَّل بيان والثاني بدل، وقدَّر بعض: اذكروا إذ أنتم، وأجاز بعض تعليقه بـ«قَدِيرٌ»، وليس حصرا لقدرته في ذلك الوقت ﴿أَنتُم بِالْعُدْوَةِ﴾ نازلون في العدوة، أو ثابتون في العدوة، وهي جانب الوادي، ويطلق أيضا على ساحل البحر سمِّي لأنَّه عدا أي جاوز ما في الوادي وخالف أن يكون منه ﴿الدُّنْيَا﴾ نعت، وهو مؤنَّث لاسم التفضيل الخارج عن التفضيل، لأنَّ المعنى العدوة الدانية، أي القريبة إلى جهة المدينة، لا العدوة التي زاد قربها وكذا في قوله: ﴿وَهُم﴾ أي المشركون نازلون أو ثابتون ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ نعت، أي البعدى أي البعيدة، لأنَّه ليس المراد التي زادت بعدا ولو كان الواقع ذلك نظرا إلى العدوة الدنيا.

(صرف) ولفظ «القُصْوَى» شاذٌّ قياسا، فصيح استعمالا، والقياس قلبُ واوه ياء، لأنَّ فُعْلَى الواوي اللام الذي هو وصف تقلب واوه ياء كالدنيا

والعليا، فإنّهنَّ من دنا يدنو، وعلا يعلو، وقصا يقصو، وتميم تقول: «القُصْيَا» بالياء، ولا يخفى أنَّ «الدُّنْيَا» و«الْقُصْوَى» صفتان لا اسمان كما رأيتهما نعتين، إلاّ أنّهما لحقتا بالأسماء في كثرة استعمالهما بلا موصوف، وفي عدم المطابقة كما هو شأن اسم التفضيل، لا يطابق إذا كان نكرة، وجاز أن لا يطابق إذا كان مضافا لمعرفة كذا قالوا، مع زيادة إيضاح مِنِّي، [قلت:] وفيه أنَّ الخارج عن التفضيل يطابق، وأنَّ القصوى قلَّ استعماله بلا موصوف بخلاف الدنيا، والصواب ما قاله الزمخشريُّ في المفصَّل: إنَّ فُعْلَى تقلب واوه في الاسم دون الصفة، وأنَّ «الْقُصْوَى» صفة ، أي جار على القياس. وقرأ زيد بن علي «الْقُصْيَا» بالياء.

﴿وَالرَّكْبُ﴾ الإبل ومن معها، أو الإبل، أو من معها، وهم أربعون رجلا من قريش، قفلوا من الشام بتجر، منهم أبو سفيان. ويطلق على عشرة فصاعدا ﴿أَسْفَلَ﴾ ماضون، أو حاصلون مع التنقُّل في موضع أسفل ﴿مِنكُمْ﴾ من موضعكم إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر.

وفائدة ذكر المواضع الثلاثة: العدوتين وموضع الركب عتابهم على أن لا يسلِّموا الخمس، وعدم القناعة بأربعة الأخماس مع ما أنعم الله به عليهم من النصر، في محلٍّ مظنّة عدم النصر لقلّتهم، وضعفهم واختلافهم وخروجهم للعير لا للقتال، وكثرة العدوِّ، وقوَّتهم واتّفاقهم، واستظهارهم بالركب، بحيث لو استغاثوا برجال الركب ومالهم لَحَضَرُوا، إذ قَرُبُوا، ولحرصهم على القتال عن الركب، كما أنَّ العرب يستحضرون أموالهم وأولادهم ونساءهم فيشتدُّ قتالهم عنها، غيرةً أن يُعيَّروا بغنمها فلا يزحزحون عن موضعهم، ولأنّهم في عدوة مع ماء، وعدم رمل يعطِّلهم، وأنتم في أرض رمل وعدم ماء، وكان الماء وتلبُّد الرمل بعدُ. والواو حاليّة، أو عاطفة.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أَيُّهَا المؤمنون مع عدوِّكم للقتال، ففيه تغليب الخطاب على الغيبة ﴿لاَخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم أيُّها المؤمنون خاصَّة ﴿فِي اِلْمِيعَادِ﴾ أي في شأن التواعد، فيخرج بعضكم دون بعض تخوُّفا من الضعف، والقلَّة وكثرة العدوِّ وقوَّته والإيَّاس من الظفر.

وأجيز رجوع الضميرين في الموضعين للمؤمنين والكافرين، أي لو تواعد المؤمنون والكفَّار لاختلف المؤمنون مع الكفَّار، والكفَّار مع المؤمنين، بأن يهابوكم كما تهابونهم، بل مع اختلاف كلٍّ فريق فيما بينهم أيضا، بعض الكفَّار يريد القتال وبعض يخاف، كما أنتم في اختلاف، وما مرَّ أولى لأنَّ المقام لبيان ضعف المسلمين.

﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ﴾ جمَعَكم على هذه الحالة ليقضي ﴿اَ للهُ أَمْرًا﴾ هو نصرُكم ﴿كَانَ مَفْعُولاً﴾ في علمه وحكمه، أو حقيقا بأن يفعل، أو بمعنى سيفعل. وقَلِقَ الكفَّارُ على عيرهم فنفروا لها، وأَخْبَر المؤمنين بها فرغبوا في أخذها، فخرجوا فكان النصر على الرجال لا على الركب ﴿لِيَهْلِكَ﴾ بدل من «لِيَقْضِيَ» أو متعلّق بـ«يَقْضِي» والمعنى: ليموت، ﴿مَنْ هَلَكَ﴾ من مات ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ صادرا، أو منتقلا إلى الآخرة، عن حجَّة واضحة لا تبقى معها شبهة في أنَّ دين الإسلام هو الحقُّ، فإنَّ وقعة بدر وأحوالها برهان عظيم ظاهر.

﴿وَيَحْيَى﴾ يعيش ﴿مَنْ حَيِيَ عَن بَيِّنَةٍ﴾ صادرا عنها بقبولها، والعمل بها، كمن ورد مشرعة ماء وأخذ منها وَصَدَر، أو أراد بالهلاك الكفر وبالحياة الإيمان على الاستعارة، أو التجوُّز الإرسالي.

والبيِّنة: ظهور كمال القدرة، وعلى الوجهين المراد: المشارفة أو الإرادة، أي ليهلك من شارف الهلاك، أو أراد الهلاك، ويحيى من أراد الحياة أو شارفها، أو من هلك في قضاء الله، وحيي في قضاء الله، أو

ليزداد الهلاك أي الكفر ويزداد الحياة أي الإيمان، وهذا على حمل الآية على عموم المؤمنين في جانب الحياة بمعنى الإيمان، كعموم الكفر. أو يعتبر المضيّ بالنظر إلى علم الله ﷻ وقضائه، والاستقبال بالنظر إلى الوجود خارجا، وذلك كلّه دفع لتحصيل الحاصل.

﴿وَإِنَّ اَ۬للَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ عليم بكفر اللسان من صاحبه، وبعقابه، وبإيمان اللسان وثوابه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكفر القلب والجوارح وعقابه، وإيمانهما وثوابه، وكلّ من الإيمان والكفر مشتمل على الاعتقاد والقول، وذلك على الإطلاق لا بخصوص القضاء بأحوال بدر، وإن أريد أحوالها اختصّ بكون الهلاك الكفر والحياة الإيمان، ولا يتصوّر هذا التفسير على أنّ الحياة التعيُّش والهلاك الموت.

﴿إِذْ﴾ اذكر إذ، أو بدل من «يَوْمَ اَلْفُرْقَانِ» ﴿يُرِيكَهُمُ اُ۬للَّهُ﴾ صيَّرك الله رائيهم، أي المشركين ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ في نومك، أو زمانه أو مكانه، والأوّل أولى، ويليه الثاني ﴿قَلِيلاً﴾ مع كثرتهم، تجرئة للمؤمنين عليهم، والمراد أنّه أراه عدد بعضهم، أو حشرهم في المنام كلّهم، وستر بعضا خلف بعض، أو أحضرهم كلّهم وكفَّ الله بصره عنهم إلاّ قليلا، ولم يقل له الله: لم يكن إلاّ هؤلاء، فأخبر النبيء ﷺ المؤمنين بقلّتهم حسب ما رأى، ولم تُكذّب رؤياه، ورؤيا الأنبياء حقٌّ لا تكذّب، وإنّما يكون التناقض لو قال: لم يكونوا إلاّ هؤلاء الذين أريتك، ففرحوا ونشطوا للقتال.

﴿وَلَوَ اَرَاكَهُمْ﴾ في المنام ﴿كَثِيرًا﴾ كما هم في الواقع كثير، وأخبرت المؤمنين بالكثرة، ولا بدَّ من الإخبار إذ لا يكتم رؤياه، لأنّها وحي إلاّ ما أباح الله له كتمه ﴿لَفَشِلْتُمْ﴾ كسلتم للجبن عن قتالهم، ولم يقل: لفشلت، لأنّه ﷺ لا يفشل، والخطاب في «فَشِلْتُمْ» لا يشمله، أو شمله بطريق الحكم على المجموع ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي اِلاَمْرِ﴾ القتال يجيب

بعضكم ثقة با لله، ويأبى بعضكم لكثرتهم، والتنازع سبب للفشل، فعطفه عطف سبب على مسبَّب، ويفصح بذلك فاء السَّبَبِيَّة في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾(سورة الأنفال: ٤٦) .

﴿وَلَكِنَّ اَ للهَ سَلَّمَ﴾ سلَّمكم من الفشل والتنازع بإراءته نبيئه إيَّاهُم قليلا، وإخباره إيَّاكُم ﴿إِنَّهُ, عَلِيمٌ بِذَاتِ﴾ صاحبة ﴿اِلصُّدُورِ﴾ بالخطرة ذات الصدور، أو بالخطرات ذات الصدور، لتأويل الجماعة، يعلم ما في القلوب وما يكون وما يغيِّر ما فيها من الجبن والجرأة والصبر والجزع، وعبارة بعض أنَّه جعل الخواطر كأنَّها مالكة للصدور.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ في اليقظة حين التقيتم قبل التحام القتال، أي واذكروا إذ ﴿إِذِ اِلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ الإراءة بصريَّة تعدَّت لاثنين للهمزة، و«قَلِيلاً» حال من الهاء، بخلاف ما تقدَّم فإنَّها عِلميَّة تتعدَّى إلى ثلاثة للهمزة.

رآهم قليلا لينشطوا، ولتصديق رؤياه ﷺ حتَّى قال ابن مسعود لمن يليه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة، وهم في نفس الأمر ألف، كفَّ ا لله بصرهم عن رؤية أكثرهم، أو رأوا من معهم فظهر لهم أنَّ المشركين وهم ألف قليل بالنسبة، والمشركون لم يروا الملائكة، فقالوا: إنَّ المؤمنين قليل، قيل: أو كان الكثير قليلا بمحض خلق ا لله، والقليل كثيرا بمحض خلقه، كما خلق في عين الأحول رؤية الواحد اثنين.

وَمِمَّا قوَّاهم ا لله به أنَّ ا لله تعالى أراه في منامه المذكور مصارع القوم، هذا مصرع أبي جهل، هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، فأخبر المؤمنين. والمضارع لحكاية الحال الماضية لتشاهد، والمشاهدة أقوى، وكذا في قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ عطفا على «يُرِيكُم» أو على «اِلْتَقَيْتُمْ». قلَّل

المسلمين في أعين الكفّار ليجيئوا فيقتلوهم، حتّى قال أبو جهل: إنَّ هـؤلاء أَكَلة جزور ـ بفتح الهمزة والكاف ـ أي عدد يكفيهم في الأكل بعير لقلّتهم.

﴿لِيَقْضِيَ اَ للهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ هذا علّة للتقليل، فما تقدَّم علّة للجمع بين الفريقين، أو الأمر هنالك التقاء الفريقين، على وجه كون نصر المؤمنين معجزة له ﷺ، وهنا إعزاز الإسلام على الشرك، فلا تكرير، وذلك قبل التحام القتال، وأمَّا بعده فرأوا المسلمين مثليهم ثمَّ رأوهم تسعة آلاف وثلاث مائة وثلاثة عشر بالملائكة الذين أمدَّهم ا لله.

﴿وَإِلَى اَ للهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ﴾ تردُّ ﴿الأُمُورُ﴾ الأحوال قليلها وجليلها من تغليب القليل على الكثير، وتكثير القليل وتقليل الكثير، والثواب والعقاب وغير ذلك، كما ترجع إليه الأجسام. [قلت:] وفي ذلك تنبيه على أنّه لا يجوز قصد أحوال الدنيا لذاتها بل يجب أن تقصد زادًا لدار المعاد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٤٧﴾

ذكر الله أمام العدوّ والطاعة وعدم التنازع

﴿يَآ أَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ﴾ أي للقتال فحذف للعلم به، أو لقاء معهود في القتال عند العرب حتّى لو ذكر قولك: للقتال كان ذلك من التجريد ﴿فِئَةً﴾ جماعة كافرة، ولم يقل: كافرة، لأنَّ المؤمنين يومئذ لا يقاتلون إلاَّ المشركين، أو المراد فئة تستحقُّ القتال لشرك أو بغي عموما لِمَا بعدُ، كما قال

ا لله ﷻ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُومِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾(سورة الحجرات: ٩).

(صرف) ووزن «فِئَة» فِعَة، حذفت لامه، أصله: فأو فحذفت الواو وعوِّض عنها التاء ففتحت الهمزة للتاء، كما في عدَة وزنة يقال: فأوت رأسه، أي شققته، أو وزنه فِلَة من فاء يفيء بمعنى رجع، وأصله فِيء بفاء مكسورة فمثنّاة ساكنة فهمزة، حذفت المثنّاة وعوِّض عنها التاء.

﴿فَاثْبُتُواْ﴾ وقت لقائهم وقتالهم وجوبا، إلاّ إن كانوا أكثر من ضِعْفَيْكُم فيجوز لكم الفرار ﴿وَاذْكُرُواْ ا للهَ كَثِيرًا﴾ ذكرا كثيرا، أو زمانا كثيرا، حال اللقاء وغيره، بقلوبكم أو مع ألسنتكم، بالدعاء بالنصر والمغفرة والتكبير وسائر الأذكار، ومنها: «اللهمَّ أنت ربُّنا وربُّهم، نواصيهم ونواصينا بيدك فاقتلهم واهزمهم». وقيل: المراد إحضار ا لله تعالى في القلب وتوقُّع نصره، وقيل: استحضار وعد ا لله بالنصر في الدنيا والثواب في الآخرة، وذلك استحباب لا وجوب، واستُحِبَّ الإخفاء، والآية **دليل على الترغيب في ذكر ا لله ﷻ إذ أمر به ولو في هذه الحال.** ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالنصر والثواب والسلامة.

﴿وَأَطِيعُواْ ا للهَ وَرَسُولَهُ﴾ في اللقاء كغيره، ولا تفعلوا ما يكون عونا لأعدائكم عليكم ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ﴾ لا تختلفوا فيما بينكم من أمر الحرب، كبدر وأحد، **وأمَّا المنازعة في بيان الحقِّ فمأمور بها مع الإخلاص**، وعلامته: الفرح بظهور الحقِّ ولو على لسان خصمه، وسواء في ذلك ما يرجع لشأن الحرب وغير ذلك ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ تكسلوا جبنا، أو اغتياظا، منصوب في جواب النهي، أو مجزوم بالعطف، أي فلا تفشلوا، وَيَدُلُّ له أَنَّهُ قرئ [به] ﴿وَتَذْهَبَ﴾ بالجزم، والمشهور هو قراءة نافع بالنصب على أنَّ «تَفْشَلُوا» منصوب، وعلى جزمه يكون نصب «تَذْهَبَ» على المعيَّة في جواب النهي ﴿رِيحُكُمْ﴾ دولتكم الشبيهة بالريح لجامع النفاذ، أو الريح الحقيقة فإنَّه لا نصر للمؤمنين إلا بريح

تهبُّ من الله إلى جهة المؤمنين، فتذهب منهم إلى العدوّ وتضرب وجهه، وعنه ﷺ: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**»[1]، فلا يختصُّ بالقتال، وتكون نصرة للمؤمنين وهلاكا للكافرين، فنصر ﷺ بالصبا وهلك بها أعداؤه، وأهلكت عاد بالدبور ونصر بها هود في غير قتال.

(سيرة) قال النعمان بن مقرن: شهدت القتال مع رسول الله ﷺ، وكان إذا لم يقاتل أوّل النهار انتظر حتّى تميل الشمس، وتهبَّ الرياح.

(نقد أوضاع المسلمين في زمانه) والنزاع الآن فشا في أهل التوحيد فملكهم أهل الشرك، ولو رجعوا إلى مذهبنا في الأصول، وغضُّوا عن مسائل الخلاف كأن لم تكن، وكانوا يدًا واحدة لغلبوا على أهل الشرك، وأهل الشرك الآن مشتغلون بالاحتيال فيما يملكون به غيرهم، وأهل التوحيد بعضهم معين لهؤلاء، وبعضهم بطّال معرض، وبعضهم يعبد الله ﷻ ولا يشتغل بالدعاء عليهم، وبعضهم مكبٌّ على التأليف، ولا يحسن إلاّ ما كان على طريق تأليف الشيخ عبده والشيخ مصطفى بن إسماعيل والشيخ قاسم بن سعيد[2]، ولذلك قلت أكبُّ على التأليف، إذ لم نجد لنا بنا غازيا يوما ولا مَن بهم نغزو.

١- رواه **مسلم** في كتاب صلاة الاستسقاء (٤) باب في ريح الصبا والدبور، رقم١٧ (٩٠٠)، ورواه **البيهقي** (الكبرى) في كتاب صلاة الاستسقاء (٣٥) باب أي ريح يكون بها المطر، رقم ٦٤٨٤. من حديث ابن عبَّاس.

٢- قاسم بن سعيد الشماخي الليبي ومصطفى إسماعيل المصري عالمان جليلان إباضيان وكاتبان إصلاحيان سخّرا قلمهما في الدعوة إلى النهضة الفكرية والإصلاح الاجتماعي، وعلاج الأوضاع الإسلامية المتدهورة على نهج الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني في أوائل هذا القرن.
لقاسم سعيد مجلّة نبراس المشارقة والمغاربة وغيرها توفي سنة ١٩١٦. ولمصطفى إسماعيل الهدية الإسلامية للملوك والأمراء في الداء والدواء وغيرها. **معجم المؤلّفين الليبيين**، ج٢، ص٢٤٤؛ وج٨، ص١٠٠.

(نقد أوضاع الصحابة) وقد كان هذا الخلاف والزلل في زمان الصحابة، كما أعطى عثمان بن عفان ابن الطريد مروان بن الحكم خمس إفريقيَّة ستَّمائة ألف دينار، وكما كان يعزل عمَّال عمر، ويستخلف أقاربه كسعد بن أبي وقَّاص أبدل به الوليد بن عقبة، وكان أخا عثمان لأمِّه، وكعمرو بن العاص أبدل به عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان أخاه من الرضاع، وكأبي موسى الأشعريِّ أبدل به عبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن خاله، واستكتب مروان بن الحكم بن أبي العاصي وهو ابن عمه، واجتماع أمثال هذه الأمور ونحوها مسقطة لأن يقال فيه: فعل ذلك لمصلحة شَرعِيَّة اقتضاها الحال، وقد ندم عليٌّ بن أبي طالب على قتل من قتل، وقال: إنَّهم أصحاب القرآن والتوراة والإنجيل، إلاَّ أنَّه لم يكمل ندمه، وقد قالوا: لا ننزع منك اسم الإمامة وقد تبثت لك، ولو كره معاوية، وقد ارتضاهم الإمام عمر بن عبد العزيز وأثبت الإمامة لعلي، وفي المسعودي: ارتقى الأمر بأصحاب معاوية إلى أن جعلوا لعن عليٍّ سنَّة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير ويلعنونه على المنابر.

﴿وَاصْبِرُواْ﴾ على شدَّة الحرب ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالحفظ والنصر، بمعنى أَنَّ من أسبابهما الصبر، أو من قتل في الله محفوظ الدين منصور أيضا بالجنَّة والحجَّة.

﴿وَلاَ تَكُونُواْ﴾ بعد بدر، أو هذا قبل خروج الكفرة ﴿كَالذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم﴾ بمكَّة فيصيبكم مثل ما أصابهم، كأبي جهل ومن معه ﴿بَطَرًا﴾ ذوي بطرٍ، أو بمعنى: بَطِرين بكسر الطاء، أو يبطرون بطرا، أو لأجل البطر، وكذا في قوله: ﴿وَرِئَآءَ النَّاسِ﴾ والحال مقارنة، وقيل: مقدَّرة، والتعليل للحصول، أو للتحصيل. والبطر: كفر النعمة، أو الفخر، والفخر أيضا كفرها. والخروج لمنع

العير لا ينافي أنَّهم قرنوا به الفجرَ والرياءَ بإراءة الناس أنَّهم مِمَّن لا يجبن، وأنَّهم مِمَّن لا يترك ماله لعدوِّه، وأنَّهم مِمَّن لا تعجزه النفقة على العدد الكثير، فلا حاجة إلى أن يقال: إنَّهم خرجوا للعير فقط، وحدث لهم البطر والرئاء حين سلمت العير، وقبل وقوع القتال، وأنَّ التقدير و لم يرجعوا بعد سلامة العير بطرا ورئاء الناس.

وافاهم رسول أبي سفيان من الركب وهم بالجحفة، وقال: ارجعوا فقد سلمت عيركم، فقال أبو جهل لعنه ا لله وكان سفيهًا يعجل حَديدًا: لا وا لله، حتَّى نقدم بدرا ونشرب الخمور وننحر الجزور، وتضرب علينا القينات، ويشهر ذلك، قال ﷺ: «**اللهمَّ إنَّ قريشا أقبلت بفخرها وخيلائها لمعارضة دينك، ومحاربة رسولك، اللهمَّ فنصرك الذي وعدتني**» وقال لأبي جهل بعض من معه: ارجعوا فقد سلمت عيركم واجعلوا عَلَيَّ جُبنها فأبى، والقينة الأمة مغنِّية وغيرها، لا كما قيل يختصُّ بالمغنِّية.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس، أو يعرضون أنفسهم ﴿عَن سَبِيلِ ا للهِ﴾ عطف على «خَرَجُوا»، أو حال من واو «خَرَجُوا»، أي وهم يصدُّون؛ وكان بالمضارع للتكرُّر، من عادتهم الصدُّ للناس، أو الصدود عن سبيل ا لله بخلاف الخروج المذكور فإنَّه مرَّة، وبخلاف بطرهم ورئائهم فإنَّهما دأبهم قبل الإسلام وبعده.

(نحو) ولا حاجة إلى عطفه على «بَطَرًا»، أو على «رِئَاءَ» بتقدير أنَّ الأصل: وأن يصدُّوا فحذفت أن ورفع المضارع، ولا إلى دعوى العطف بلا تقدير حرف المصدر شذوذا، وتنزيلا للمضارع منزلة الاسم، ولا إلى عطفه على «بَطَرًا وَرِئَاءَ» بتأويلهما باسم الفاعل أي بَطِرِين بكسر الطاء ومُرائين على الحاليَّة.

وفي الآية الأمر بالشكر والاتّضاع لله بدل البطر، والإخلاص بدل الرئاء، والدعاء إلى سبيل الله والإقبال إليه بدل الصدّ عنه والصدود، فذلك النهي أمر بالضدّ ﴿وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ علما به كلّه قليله وكثيره، فهو يعاقبهم عقابا عظيما، وقد بدلهم الله بشرب الخمور شرب كأس الموت، وبدل ضرب القينات بنوح النائحات، ونحر الجزور بقتل سبعين، وبدل تعاظمهم بأسر سبعين منهم، وبدل إنفاق أموالهم بغنم ما بقي منها.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

تبرُّؤ الشيطان من الكفّار في بدر وتهكُّم المنافقين بالمؤمنين

﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ واذْكروا بواو الجمع، ليطابق قوله: ﴿وَلاَ تَكُونُوا﴾، أو اذكر يا محمَّد، وتذكيره تذكير لهم ، والتزيين بالوسوسة في الصدور كما هو المتبادر، والغالب من الشياطين ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ إبليس ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ في إبطال دين الله، وإهلاك رسول الله ﷺ والمؤمنين، وذلك التزيين تشجيعهم على قتال المسلمين، بأنَّ المسلمين ضعاف قليل، فاستعدُّوا لهم بالرجال والنفقة، وذلك لَمَّا خافوا أن يجيئهم أعداؤهم بنو بكر من كنانة، فيخلفوهم في مكّة على أولادهم ونسائهم وأموالهم، أو يقاتلوهم من خلفهم إذا نشب القتال بينهم وبين المسلمين ﴿وَقَالَ﴾ بالوسوسة أو بلسانه في صورة رجل، وهو أولى هنا، ويجوز صرف التزيين إلى هذا بحمله على اللسان.

(نحو) ﴿لاَ غَالِبَ لَكُمُ﴾ خبر «لاَ»، وليس متعلّقا بقوله: «غَالِبَ»، ولا حال من الضمير فيه إذْ لو كان ذلك لنوَّن «غَالِبَ» لشبهه بالمضاف، كما في قولك: «لا حولا عن معاصي ا لله إلاَّ بعصمة من ا لله، ولا قوَّة على طاعة ا لله إلاَّ بعون من ا لله» بتنوين حول وقوَّة لتعلُّق عن وعلى بهما، وقيل بالتعليق باسم «لاَ» في مثل ذلك، وعدمُ التنوين ليس للبناء بل تشبيه بالمضاف، وعليه البغدَادِيُّون. ويجوز كون التزيين والقول واحدا فيكون العطف تفسيرًا كما قيل في: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى ا للهِ﴾ (سورة يوسف: ٨٦).

﴿الْيَوْمَ﴾ متعلّق بـ«لَكُمْ»، أو بمتعلّقه ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ لقوَّتكم وكثرتكم، فلا يغلبكم المؤمنون ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ مانع أن تجيئكم بنو بكر، وكافل لكم أن لا يأتوكم، وإن أتوا يأتوا لكم لا عليكم، أتاهم في صورة سراقة بن مالك من تلك الجهة، جهة بني بكر في جند من الشياطين، ومعه راية، وكانوا يقولون: اللهمَّ انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ رأت كلٌّ من فئة المسلمين وفئة المشركين الأخرى وحضرتا للقتال، ومعناه تلاقت، لأنَّه نكص عند التلاقي لا عند رؤية كلٍّ واحدة الأخرى، وقيل: عند الرؤية، على أَنَّهُ رأى الملائكة في جهة المؤمنين على وجه الإعانة قبل التلاقي، ولا خفاء في هذا. ﴿نَكَصَ﴾ رجع ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ في عقبيه، أي خلفه، وإن قلنا: إنَّ أصل النكوص الرجوع خلف لا مطلق الرجوع واستعمل على أصله كان قوله: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ تجريدا، وهو أن يجرَّد اللفظ عن بعض معناه فيعبَّر عن ذلك البعض بلفظ آخر، أو يبقى على أصله فيكون ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ توكيدا.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُم﴾ مخالف لكم، لا تطمعوا أن أنفعكم، وكانت يده في يد الحرث بن هشام وهو في صورة سراقة رضي ا لله عن سراقة

وإسلامه بعدُ، ولَمَّا رأى الملائكة تنزل على صورة إمداد المؤمنين نزع يده ونكص، فقال له: إلى أين أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إنّي بريء منكم ﴿**إِنِّيَ أَرَىٰ مَا لاَ تَرَوْنَ**﴾ من نزول الملائكة لقتالكم، ودفع في صدر الحرث وانطلق، ولَمَّا انهزموا ودخلوا مكّة قالوا: هزم الناس سراقة، وبلغ ذلك سراقة فقال: وا لله ما علمت بمسيركم حتّى سمعت بهزيمتكم، ولَمَّا أسلم من أسلم أيقنوا أنَّ الشيطان تصوَّر بصورته.

﴿**إِنِّيَ أَخَافُ ا للهَ**﴾ عليكم أن يبطش بكم ويبطش بي بطشة في الدنيا قبل بطشة الآخرة الآتية إذا قامت القيامة، مثل أن يقبضه جبريل فيعذّبه، قال بعض: وليس يقول لهم: إنّي أخاف على نفسي، لأنّهم لا يعذرونه بذلك، [قلت:] وليس كذلك، فإنّه يقوله بطريق أن يقول: الأمر شديد لا أطيقه إلاّ بالفرار، فكيف أنتم؟. روى مالك في الموطّإ بسنده: «**ما رئيَ الشيطان يوما [هوفيه] أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، [وما ذاك إلاّ] لِمَا يرى من تنزُّل الرحمة وتجاوز ا لله تعالى عن الذنوب العظام، إلاّ ما أرِيَ يوم بدر، [قيل: وما رأى يوم بدر يارسول ا لله ﷺ قال: أما إنّه] قد رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة**[1]»[2]. وأمَّا أن يقال: المعنى أخاف أن تقوم الساعة وأنَّ هذا الوقت هو الوقت الموعود لي وهو يوم البعث فَيُمنع، لعلمه أنَّ يوم بدر ليس يوم القيامة، ويبعد أن يقال: أخاف أن أعصيَ ا لله لأنّه لا يخافها[3]، ولأنّه لا يليق

١-أي ينظّم الجيش من قولهم: «رأيته يزع الجيش» أي يرتّبهم ويسوّيهم ويعدُّهم للحرب. **أقرب الموارد**.

٢-رواه **مالك** في كتاب الحجِّ (٨١) باب جامع الحجِّ رقم ٢٤٥، من حديث طلحة بن عبيد ا لله.

٣-الضمير يعود إلى المعصية المفهومة من «أعصي ا لله».

أن يقوله للكفرة ولو أجاز ذلك قتادة، وكان والعياذ بـا لله منـه متلـذّذا بالمعصية وإغواء الناس كتلذُّذ الملائكة بالطاعة، فهو يغويهم ولا يمـلُّ، ولـو في آخـر الدنيا المتّصل بقيام الساعة مع قرب عذابـه جـدًّا ﴿وَا للهُ شَـدِيدُ العِقَـابِ﴾ هـذا آخـر كلامه، والعياذ با لله منه، معتذرا به إليهـم، أو هـو مـن كـلام ا لله ﷻ بـيَّن بـه سبب خوف اللعين حيث أنّه علم ذلك.

﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل من «إِذْ زَيـَّنَ». ﴿الْمُنَـافِقُونَ﴾ بالمدينـة ﴿وَالذِيـنَ فِـي قُلُوبِهِـم مَّرَضٌ﴾ شـكٌّ في ديـن ا لله لضعـف إيمـانهم فيهـا أو في مكّـة، أو هـم المشركون. والمرضُ: الشركُ. ويجوز أن يكونوا المنافقين، فـالعطف لتـنزُّل تغـاير الصفتين منزلة تغاير الذوات، وكأنّـه قيـل: إذ يقـول المتّصفـون بالنفـاق وبثبـوت المرض في قلوبهم، ﴿غَـرَّ هَـؤُلآءِ﴾ المؤمنـين ﴿دِينُهُـم﴾ ظنّـوا أن تَغلِـب قلّـتُهم وضعفهم كثرةَ قريش وقوّتهم بدينهم، أو ظنُّوا به الحياة بعد الموت وأن يثابوا.

وارتدَّ بعض من ضعف إيمانـه لَمَّـا رأى قِلّتهـم وضعفهـم، وقـد خـرج مـع الكفرة قهرا، كمـا قيـل: الذيـن في قلوبهـم مـرض فئـة أسـلموا بمكّـة وحبسـهم آباؤهم فخرجوا معهم إلى بدر، كقيس بن الوليد بن المغيرة، والعاصي بن منبه بن الحجّاج، والحرث بن زمعة، وأبي قيس بن الفاكه، لَمَّـا رأوا قلّـة المسلمين قـالوا ذلك، والحقُّ أنَّ المنافقين لم يحضروا بدرا، وقال ذلك وأجـابهم ا لله ﷻ بقولـه: ﴿وَمَنْ يـَّتَوَكَّلْ عَلَى ا للهِ﴾ ينصره لا يذلُّ من اعتزَّ به، ولا يكشف مـن استـتر به ﴿فَإِنَّ ا للهَ﴾ لأنَّ ا لله ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه أحد عمَّا أراد ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه لا يعبث ولا يسفه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ

وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

إهلاك الكفَّار لسوء أعمالهم

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمَّد ويامن يصلح لخطاب المقام بعينك حال الكفَّار، أو لو ترى الكفَّار، وجواب «لَوْ» محذوف تقديره: لرأيت أمرا فظيعا، وتقديره بعد قوله: ﴿لِلْعَبِيدِ﴾ أولى من تقديره بعدَ ﴿الْحَرِيقِ﴾، والحذف في مثل هذا أولى ليستحضر كلُّ ممكن؛ ويجوز أن تكون «لَوْ» للتمنية فلا جواب لها، وحكمتها التشفِّي، والمضارع إذا كان بعدَ «لَوْ» يكون بمعنى الماضي ﴿إِذْ﴾ متعلِّق بـ«تَرَى» ﴿يَتَوَفَّى الذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ﴾ فاعل «يَتوفَّى»، يأخذون عددهم وافيا بالنزع لأرواحهم با لله ﷻ.

(نحو) و«يَتوفَّى» بمعنى الماضي لدخول «إِذْ»، ولفظ المضارع لتكرُّر التوفِّي فيما مضى، أو فاعل «يَتَوَفَّى» ا لله، و«الْمَلاَئِكَةُ» مبتدأ خبره ما بعده، والجملة حال من «الذِينَ»، والرَّابط ضميرهم، وإذا جعلنا «الْمَلاَئِكَةُ» فاعلا فـ«يَضْرِبُونَ...» حال من «الْمَلاَئِكَةُ» أو من «الذِينَ». وقدَّم «الذِينَ» على طريق الاهتمام.

﴿يَضْرِبُونَ﴾ بسيوف أو بمقامع، أو بسياط من نار ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ ما استقبل منهم من أعلى الرأس إلى أسفل الرجلين ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ما استدبر

من أعلى الرأس خلفه إلى العقب من وراء، وذلك يوم بدر، لَمَّا قتلوا ضربت الملائكة وجوههم وظهورهم وما فوقها وما تحتها عند قبض أرواحهم، أو المراد التعميم، ويجوز أن يراد خصوص المقاعد والوجوه، وعن ابن عبَّاس: «إذا أقبلوا في القتال ضرب الملائكة وجوههم بالسيوف، وإذا أدبروا ضربوا أدبارهم بها فضربوا أدبارهم ووجوهم عند نزع أرواحهم أيضا». وعن الحسن: إنَّ رجلا قال: يارسول ا لله رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك، فقال ﷺ: «**ذلك ضرب الملائكة**».

ويجوز أن يكون ذلك في الآخرة، في أهل بدر الذين لم يقتلوا فيه، أو في الكفَّار مطلقا، ويلوِّح بذلك إلى أنَّه قد فعل مثل ذلك بمن قتل بها. و«تَرَى» بمعنى رأيت، على أنَّها في بدر، أي مضى ذلك و لم تره ولو رأيته لرأيت أمرا فظيعا، فمدخول «لَوْ» هنا ماض تقديرا، مستقبل تحقيقا.

﴿**وَذُوقُواْ**﴾ ويقولون لهم ذوقوا وستشبعون، وذلك تبشير لهم بالعذاب تهكُّما، وهذا كذوق أوَّل الطعام، وعنوان لِمَا يتضاعف بعدُ، ويجوز أن يقدَّر: ونقول ذوقوا، كما في آية أخرى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾(سورة آل عمران: ١٨١) ﴿**عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ**﴾ تضربهم الملائكة بسيوف وسياط أو مقامع، فتلتهب نارا كلَّما ضربوهم، وهي نار قبل جهنَّم، أو يضربونهم بلا نار، ويقولون ذوقوا عن قريب نار جهنَّم، والحريق: النار.

﴿**ذَالِكَ**﴾ العذاب، أو الضرب، أو ما ذكر منهما معا، وإشارة البعد للتعظيم ﴿**بِمَا قَدَّمَتْ**﴾ كسبت قبل هذا في الدنيا ﴿**أَيْدِيكُمْ**﴾ أي بما قدَّمتم، لكن نسب التقديم للأيدي لأنَّ أكثر الأعمال بها، وذلك تعبير بالجزء عن الكلِّ ﴿**وَأَنَّ ا للهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ هنا انتهى كلام الملائكة. والعطف على «مَا»، كأنَّه قيل: ذلك بما قدَّمت أيديكم وبانتفاء ظلم ا لله عباده، ولولا

انتفاؤه لأمكن أن يعذّبهم بما لم يقدّموه، وكأنّه قيل: ما ساغ تعذيبكم إلاّ بما قدّمتم، وأمَّا أن يعذّبكم بدونه فلا.

(أصول الدين) واقتضت حكمته أن لا يهمل العاصي إلاّ بالتوبة، ولا حرام على الله ولا واجب على الله، وهلكت المعتزلة بقولهم: يجب عليه الأصلح. ولنفي الظلم معنيان: إثابة المحسن وعدم التعذيب بلا ذنب، وكلٌّ منهما عدل فلا منافاة، كما ادَّعى بعض أنَّ ما هنا يخالف ما في آل عمران من أنَّ سببيَّته العذاب من حيث إنَّ نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن وعقاب المسيء، وأَمَّا جعله هناك سببا وهنا قيدًا للسبب فوجهه أنَّ التسبُّب الوسيلة المحضة اعتبرت سببا مستقلاًّ، أو قيدا للسبب.

و«ظَلاَّمٌ» للنسب، أي ليس بذي ظلم، فلا يوهم أنَّ له ظلما قليلا، وكذا إن قلنا: إنَّهُ للمبالغة بكثرة الأفراد، إذ لو كان له أصل الظلم ولو بلا كثرة ظلم لكان ظلمه كثيرا، لكثرة عباده الذين يظلمهم **حاشاه**، فنفى أصل الظلم عن نفسه، ونفى أن يصل ظلم منه عبدا مًّا من عبيده، ومأصَدَقُهُ مبالغة، كأنّه قيل: انتفى الظلم عنه انتفاء بليغا.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ دأبهم كدأب آل فرعون، أي معتادهم الذي يدأبون عليه ـ أي يدومون ـ كمعتاد آل فرعون، أو شأنهم كشأن آل فرعون، أو عملهم كعملهم، أو ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم...﴾ ضربا ثابتا كدأب آل فرعون في الضرب، أو ﴿ذُوقُواْ...﴾ ذوقا ثابتا كدأب آل فرعون في الذوق، فذلك ما فعل آل فرعون وما فُعل بهم، أو ما فعلوا أو ما فعل بهم، والأوَّل أولى ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿كَفَرُواْ بِئَايَاتِ اِ للهِ فَأَخَذَهُمُ ا للهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾(سورة الأنفال: ٥٢). قال ابن عبَّاس ﵄: «آل فرعون أيقنوا بأنَّ موسى نبيء الله ﵇ فكذّبوه، كذلك هؤلاء جاءهم محمَّد ﷺ بالصدق فكذّبوه فعاقبهم كما عاقب آل فرعون».

﴿وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل آل فرعون، عطف على «آل». ﴿كَفَرُواْ بِئَايَاتِ اِ۬للهِ﴾ تفسير لـ«دَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» بأنّه الكفر بآيات الله، وإذا أَعَدْنا التشبيه إلى الضرب أو الذوق فهذا بيان لموجب الضرب أو الذوق. ﴿فَأَخَذَهُمُ اُ۬للهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كفر قريش برسول الله ﷺ فأهلكهم الله عاجلا ولهم عذاب آخر في قبورهم وبعدها، كما كفر آل فرعون بموسى فأهلكوا وعذّبوا بعد موتهم، ويجوز عود الضمير لكفّار قريش. ﴿إِنَّ اَ۬للهَ قَوِيٌّ﴾ لا يعجز عمّا أراد، ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يطاق عذابه ولا يدفع، وكلّ أمره شديد، خيره وشرُّه، حتّى إنّهُ لو كان له أصل الظلم لكان ظلاّما، كما أنّه لمّا كان عالما كان علاّما، فنفى اللازم وهو المبالغة في الظلم إذ قال: ﴿لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ليتوصّل به إلى نفي الملزوم وهو أصل الظلم على وجه الكناية.

﴿ذَالِكَ﴾ العذاب النازل بكفّار قريش وقوم فرعون ومَن قبلهم المنوط بكفرهم ﴿بِأَنَّ اَ۬للهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ بنقمة ﴿نِّعْمَةً اَنْعَمَهَا﴾ أي شيئا نافعا أثبته، أو إنعاما ـ بكسر الهمزة ـ أنعمَه ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ متعلّق بـ«أَنْعَمَهَا»، وهو أولى من تعليقه بـ«مُغَيِّرًا». ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ في أنفسهم، من خير دينيّ أو مباح بمعصية، أو من شرّ بما هو أقبح منه.

كانت قريش في أمن من خوف وإطعام من جوع، وكانوا في شرك وعبادة الأصنام، ثمَّ كانوا في أقبح وهو زيادة الإشراك بالكفر بالقرآن والنبيء ﷺ، والسعي في إهلاكه وإهلاك المؤمنين وقطع الرحم فغيّرهم الله بالقحط ثم قتل بدر، أو كانوا متمكّنين من الإيمان ثمّ زادوا حائلا آخر عنه، وهو تشديد العناد، أو كأنّهم قد اهتدوا لقوّة الأدلّة وعدم المانع وتركوا الاهتداء، كما هو وجه في قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ اَلذِينَ اَشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ (سورة البقرة: ١٦) كأنّهم اهتدوا وبدّلوا اهتداءهم بالضلالة ﴿وَأَنَّ اَ۬للهَ سَمِيعٌ﴾ عليم بما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾

بما يفعلون. والعطف على «أَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا»، أي ذلك بأنَّ الله لم يك مغيِّرا... وبأنَّ الله سميع عليم، فهو يعذِّبهم بكلِّ ما فعلوا من صغير وكبير.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تقدَّم أنَّ الدأب العمل المعتاد، ويعبَّر عنه بالطريق، وأنَّه الشأن، وفي ذلك كلِّه مُداومة ﴿كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم﴾ بعضا بالصيحة وبعضا بالرجفة، وبعضا بالخسف، وبعضا بالحجارة، وبعضا بذلك أو بمتعدِّد منه، وبعضا بالمسخ، وبعضا بالريح، وبعضا بالنار كما أهلك كفّار قريش بالسيف ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ غيَّروا فَغَيَّرناهم.

(نحو) قال بعض: إذا فسَّرنا الدأب بالعمل الدائم فـ«كَفَرُواْ» و«كَذَّبُواْ» تفسير له، وإذا فسَّرناه بالشأن فـ«كَفَرُواْ» و«كَذَّبُواْ» حال بتقدير قدْ، أو مستأنف لتفسير حالهم المؤدِّية إلى العقاب، أي دأبهم كدأب آل فرعون، أو عائد إلى «يُغَيِّرُ»، أي حتَّى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم كتغيير دأب آل فرعون عن حال قبله.

كانوا قبل هذا الدأب على حال سوء، وزادوا عليها شرًّا وداموا عليه، وهذا تكرير لِمَا قبله للتأكيد في تفظيع حال كفرة قريش، لأنَّ كفرهم أعظم من كلِّ كفر، لأنَّهم كذَّبوا أفضل الرسل وأفضل الكتب الخاتمين، ولأنَّ الأوَّل إخبار عمَّا لا يفعله إنسان، وهو ضرب الأدبار والوجوه عند الموت، والثاني عَمَّا يُعتاد من الناس وهو الإهلاك والإغراق، ولأنَّ في الأوَّل إجمالا والثاني فيه تفصيل بالإغراق كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ ولأنَّ في الأولى الكفر بالآيات وفي الثانية التكذيب زيادة على ما في الأولى بحسب المفهوم، ولأنَّ في الثانية ذكر الربِّ بمعنى المنعم، أي كذَّبوا مع إنعامه عليهم.

وقيل التشبيه: الكفر والأخذ به، لأنَّ قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ وجه الشبه، والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغيير ما بأنفسهم، وفيه أنَّ

«كَذَّبُواْ...» وجه الشبه أيضا. وخصَّ آل فرعون بالتنصيص ـ وا لله أعلم ـ لأنَّهم يعذَّبون غدوًّا وعشيًّا فكذلك كفَّار قريش، والمراد: أغرقنا آل فرعون مع فرعون، وكذا يستلحق بقومه في غير هذا.

﴿وَكُلٌّ﴾ كلُّ أمَّة من الأمم المكذِّبة، أو كلُّ واحد من هؤلاء ﴿كَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر، ولأنبيائهم وخلائفهم بالتكذيب، فإنَّ الأنبياء وخلائفهم يتضرَّرون بالتكذيب، وظالمون الناسَ بألسنتهم وجوارحهم، وخلقَ ا للهِ بالقحط.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

معاملة من نقض العهد والإعداد لذلك

﴿إِنَّ شَرَّ اَلدَّوَآبِّ عِندَ اَ للهِ﴾ في حكم ا لله وقضائه، أو في اللوح المحفوظ ﴿الذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُومِنُونَ﴾ أي الأشقياء الذين كفروا فلا يؤمنون لسبق الشقاء عليهم، فالفاء لتفرُّع عدم الإيمان على كفرهم الذي يصرُّون عليه، فقوله:

﴿هُمْ لاَ يُومِنُونَ﴾ من جملة الصلة بواسطة العطف، لا اعتراض بتفريع كما قيل، أي كفروا وسبق القضاء عليهم أنَّهُم لا يؤمنون، وقيل: المعنى إذا علمت أنَّ هؤلاء شرُّ الدواب فاعلم أنَّهم لا يؤمنون، فلا تأس عليهم ولا تطمع في إيمانهم، ولا يهمُّك كفرهم، فلا يلزمك زيادة التعب فيهم، على ما مرَّ منه، وهؤلاء شرٌّ وغيرهم خير، لأنَّه إمَّا سعيد وإمَّا غير مكلَّف، وذلك غير تفضيل بل كما يقال: هذا قبيح وهذا حسن، أو مضرَّة ونفع، أو اسم تفضيل أي أقبح الدوابِّ هؤلاء، وقبيحها من أشرك ثمَّ أسلم، فإنَّه لا يخفى قبح الشرك ولو من سعيد، وقبيحها أيضا البهائم وقبحها من مجرَّد عدم العقل.

﴿الذِينَ﴾ خبر ثان، أو بدل، أو بيان، أو هم الذين، أو أذمُّ الذين، أو نعت، أو مبتدأ خبره ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ...﴾ ﴿عَاهَدْتَ﴾ أي عاهدتهم، فـ«مِنْ» في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ للبيان، فهم هؤلاء المصرُّون، أو «مِنْ» للتبعيض فتكون الهاء للمشركين مطلقا، أو «مِنْ» للابتداء، أي أخذت منهم العهد، لتضمين العهد معنى الأخذ، ومن أجاز زيادة «مِنْ» في الإيجاب والمعرفة أجازها هنا، فتكون الهاء مفعول «عَاهَد».

(سيرة) أخذ العهد من قريظة على أيدي ستَّة منهم رؤساء وأرْأسهم في ذلك ابن تابوت أن لا يحاربوه ولا يعاونوا عليه العدوَّ، وأعانوا أهل مكَّة بالسلاح على قتاله ﷺ، وقالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم ثانيا، وأعانوا الكفَّار عليه ﷺ يوم الأحزاب، وركب منهم كعب بن الأشرف إلى أهل مكَّة وحالفهم كما قال: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ عاهدوا فيها أو حاربوا فيها، والأوَّل أولى، لأنَّ المعاهدة هي التي يقع فيها النقض أو الوفاء، لأنَّ المحاربة رجوع إلى العهد بالإبطال ﴿وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾ الله في غدرهم بنقض العهد عليه، ولا تغليبه المؤمنين عليهم،

أو لا يتّقون عيب الغدر ولا عاقبته.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ «مَا» صلة لتأكيد الارتباط بين الشرط والجواب، أدغمت فيها نون «إِنْ»، وتثقفُ: تَجدُ، أو تدرك، أو تحبس، أو تأخذ ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾ فرِّق بقتلهم ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ من المشركين عن قتالك، فإنّك إذا قتلتهم أبعدت وأنفرت غيرهم عن قتالك، والتشريد التفريق باضطراب للخوف منك ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعلَّ الذين خلفهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بقتلك المشرَّد لهم، فيسلمون خوف أن يصيبهم القتل، وهذا خضوع ومجرَّد إذعان للخوف، أو يفهمون أنّك نصرت لأنّك على الحقّ فيؤمنون، أو يتركون النقض.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ تفريع أيضا، لأنّه عطف على ما عطف بالفاء التفريعيَّة، و«إمَّا» هذه كـ«إمَّا» الأولى، وتخاف: تظنُّ، وقيل: تعلم، على الاستعارة، والعلاقة: أخذ الحزم في كلٍّ ﴿مِن قَوْمٍ﴾ بينك وبينهم عهدا أن لا يقاتلوك ولا يعاونوا عدوَّك ﴿خِيَانَةً﴾ بأمارة تدلُّ على نقض عهد، كما بانت لك أمارة النقض من قريظة والنضير، والآية فيهم وفي غيرهم.

﴿فَانبِذِ اِلَيْهِمْ﴾ عهدَهم، اطرحه، شبَّه العهد ـ وهو معنى ـ بجسم حقير يُطرح، فرمز لذلك بالنبذ، فهنا استعارة بالكناية، وإثبات النبذ تخييليَّة، والنبذ على حقيقته عند الجمهور، أو أمر موهوم يناسب العهد، فالنبذ تخييليَّة عند السكّاكي، [قلت:] وعندي يجوز أنّه تصريحيَّة للإبطال ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ حال من الضمير في «انبذْ»، أو من الهاء في «إِلَيهِمْ»، أو منها مقدَّرة، أي ناوين أنت وهم الاستواء في العلم، قيل: أو الخوف بإبطال العهد السابق، فتقول: إنّي قد أبطلت العهد، ولا يلزم أن يقول لأنّه بانت لي منكم أمارة الخيانة.

وإن علم بالنقض منهم لم يلزمه أن يصرِّح لهم بإبطاله كما مضى ﷺ إلى مكّة بلا إعلام لأهلها حين نقضوا العهد، وقتلوا خزاعة الذين في ذمَّة رسول الله

ﷺ، حتّى بلغ "مرَّ الظهران" على أربعة فراسخ من مكّة، ولا يلزم أن يعلمهم بالحرب إن خاف خيانة كما قيل، بل بالإبطال، فله قتالهم بلا إعلام بالقتال بعد إعلام بالإبطال.

﴿إِنَّ اَ للهَ لاَ يُحِبُّ الْخَآئِنِينَ﴾ تعليل جمليٌّ لقوله: ﴿فَانبِذِ اِلَيْهِمْ﴾ من حيث إنَّهُ نهي عن الإبطال بلا إعلام والقتال بدونه، فإن قاتلتهم بلا إعلام بالإبطال كان ذلك خيانة عند ا لله وعندهم، لا لئلاّ يتّهموه فقط كما يتوهَّم، إذ وجب الوفاء بالعهد لمشرك كما يجب لموحِّد، وفي هذا إغراء على قتالهم بعد النبذ على سواء، لأنَّ الخيانة تكون بالقتال بلا نبذ، فألزمه أن يكون بالنبذ وَيَدُلُّ لهذا ما بعده، فإن حسبهم أنّهم سبقوا هو حسبهم أنّك لا تقاتلهم، وكذا يَدُلُّ له ﴿إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ وأَعِدُّواْ لَهُم...﴾.

﴿وَلاَ تَحْسِبَنَّ﴾ يا محمَّد أو من يصلح للخطاب مطلقا ﴿اَلذِينَ كَفَرُواْ﴾ من كفّار بدر الذين لم يقتلوا، أو لم يؤسروا أو المشركين مطلقا، وهو أولى لشموله الأوَّل بالذات ﴿سَبَقُواْ﴾ مفعول ثان، لاَ تحسبنّهم سابقين ا لله وفائتينه، بل منهم من يؤمن بعد ومنهم من يقتل أو يموت فيعاقب بالنار، وعلّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ ا لله، لا يفوتونه، أو هو مضارع "أعجز" الذي بمعنى وُجد عاجزًا، فإنَّ من معاني أفعل الوجود، أي لا يجدون طالبهم عاجزا فلا تأيس من قتلهم وإيمانهم، ولا تحذر النبذ إليهم ظانًّا أَنَّهُ إذا أعلمتهم بالنبذ أخذوا حذرهم، وتقَوَّوْا عليك، وقيل: لا يعجزونك، ثمَّ إنَّ عدم الإعجاز يفيد أنّهم يعاقبون في الدنيا بالقتل، وهكذا يتبادرُ، ولا سيَما إذا قدَّرنا: لا يفوتونك.

وعن الحسن: لا يفوتون بعدم البعث. [قلت:] الآية ليست على هذا المعنى، وأولى من هذا إن أريد أن يقال بالعموم، أي لا يفوتون عذاب الدنيا، ولا

البعث، تسليةً له ﷺ، أو أن يقال: لا يفوتون إمَّا أن يُقتلوا وهم النار، وإمَّا أن يعذَّبُوا في الآخرة، وهذا تسلية أيضا، ولا سيما إن قيل: إنَّها نزلت فيمن فاته و لم ينقم منه.

﴿وَأَعِدُّواْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿لَهُم﴾ للمشركين مطلقا، المعلومين من المقام، الشاملين لمن نقضوا العهد ومن نجا من بدر، وإن أريد خصوص هؤلاء استلحقوا غيرهم، والمعنى: هَيِّئُوا لقتالهم ﴿مَا اَسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أيِّ قُوَّة كانت، مِمَّا يُتَقَوَّى به في الحرب، و«مِنْ» للابتداء متعلِّق بـ«أَعِدُّوا»، أو للبيان متعلِّق بمحذوف حال من «مَا»، أو من رابطه المحذوف.

قال عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «**﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾! ألا إنَّ القُوَّة الرميُ**»[1] ثلاثا. رواه مسلم، وقال ﷺ: «**انتضِلُوا أو اركبوا، وأن تنتضلوا أحبُّ إليَّ**»[2]. والراكب لا يقاتل بالنشاب بل بالسيف والرمح، وهذا تمثيل للقوَّة منه ﷺ لا حصر منه للقوَّة في الرمي، فيلتحق منه التحصُّن بالبناء، وبالدروع وبالترس والسيف والرمح، وبكلِّ ما يتقوَّى به على العدوِّ، إلاَّ أنَّه أيضا فضَّل الرمي، كقوله ﷺ: «**الحجُّ عرفة**»[3] مع أنَّه أيضا الإحرام

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير، (٩) باب: ومن سورة الأنفال، رقم ٣٠٨٣. **وأبو داود** في الجهاد، باب الرمي، رقم ٢٥١٣. ورواه **مسلم** في كتاب الإمارة، رقم ٣٥٤١. من حديث عقبة بن عامر.

٢- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣، ص٢٠٨.

٣- رواه **الترمذي** في كتاب الحجِّ، (٥٧) باب ما جاء فيمن أدرك الإمام... رقم ٨٨٩. ورواه **أبو داود** في كتاب المناسك، باب: من لم يدرك عرفة، رقم ١٩٤٩. من حديث ابن يعمر أنَّ ناسا من أهل نجد...

والطواف والسعي وأفعال منًى.

[قلت:] **والآن يجب على عامَّة الموحِّدين** ولا سيما السلاطين وأتباعهم أن يستعدُّوا بالرصاص والبارود والمدافع، ويتعلَّموا ذلك تعلُّما كُلِّيًّا مُحَقَّقًا، ويعَلِّموه الأجناد لعلَّهم يزيلون بعض غلبة أهل الشرك، والآية شاملة لهذا بالمعنى والإلحاق والقياس، وكأنَّها نصٌّ فيه. وقيل القُوَّة: الحصون، ويناسبه ذكر الخيل، والعرب تسمِّي الخيل حصونا، وهي حصون لا تحاصر، قال شاعر:

ولقد علمت على توقِّي الردى أنَّ الحصون الخيلُ، لا مدر القرى(1)

وهو قول ضعيف في التفسير بعيد عنه، وَالقُوَّة التي في الكهف [آية ٩٥] قُوَّة البدن لا كالتي هنا.

﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ حبسها لسبيل ا الله عَجَلَ، من إضافة المصدر لمفعوله، والفِعال على غير بابه، أو من الخيل الرباط أي ذوات الرباط، أو جمع ربيط، أي الخيل الربيطات، أي المربوطات، من إضافة الصفة للموصوف، كفصيل وفصال، أو جمع رَبْط ككعب وكعاب، ويجوز أن تكون الإضافة للتبعيض، أي المربوط الذي هو بعض الخيل.

﴿تُرْهِبُونَ﴾ تخيفون، حال مقدَّرة من واو «وَأَعِدُّوا»، أو من «مَا» أو من عائد «مَا». ﴿بِهِ﴾ أي بما استطعتموه، وهو أولى من ردِّ الضمير لِلإِعْدَاد المعلوم من «أَعِدُّوا».

وكانت الصحابة يستحبُّون ذكور الخيل عند الصفوف لكونها أقوى على الكرِّ والفرِّ، ولكون صهيلها إرهابا للعدوِّ، وإناثها عند البيات والغارات لقلَّة

١- البيت للجعفي كما في اللسان.

صهيلها. قال ﷺ: «من حبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله، وتصديقا بوعده، فإنّ شبعه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[1]. وعنه ﷺ «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[2]. وقال: «التمسوا الحوائج على الفرس الكُمَيْتِ الأرثم المحجَّل الثلاث، المطلق اليد اليمنى»[3].

(سيرة) وكان ﷺ يكره الشّكال من الخيل، وهو الذي ثلاث قوائمه محجَّلة، وواحدة مطلقة شبيه بالشكال الذي يشكل به الخيل، لأنّه يكون في ثلاث قوائم غالبا، وقيل: الذي واحدته محجَّلة وثلاث مطلقة، وقيل: الذي إحدى يديه وإحدى رجليه محجَّلين من خلاف، وكرهه لأنّه كالمشكول، أو جرِّب ذلك فلم توجد فيه نجابة.

﴿عَدُوَّ اَللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي المتّصفين بعداوة الله وعداوتكم، عادوا الله وعادوكم، وهم كفّار مكّة وحواليها، لأنَّ الكلام فيهم، وكفرهم أشدُّ قبحا لأنَّ القرآن بلغتهم، و[نزل] على رجل منهم ومن نسبهم، قائما فيهم لم يجرِّبوا عليه ريبة أو كذبا، وقد اتّضح لهم الحقُّ كالشمس في نصف النهار من يوم الصحو، وقيل: هم وسائر كفّار العرب ويلتحق بهم سائر الكفّار إلى آخر الدهر من العرب والعجم.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ هم المنافقون لأنَّ المراد الإرهاب ولو بلا قتال فهو يرهبهم بِالقُوَّةِ والخيل، فتنكسر شوكتهم وتنقص إعانتهم الأعداء سرًّا، وهو لا يقاتلهم لئلاّ يقال: يقتل أصحابه. وقد يقال:

١- روى الربيع في كتاب الجهاد، حديثا بمعناه، (١٦) باب في الخيل، رقم٤٦٣، من حديث أبي هريرة في حديث طويل.

٢- أورده السيوطي في الدر، ج٣، ص٢١٢. من حديث أبي كبيشة.

٣- أورده السيوطي في الدر، ج٣، ص٢١٤. من حديث الشعبي.

تشمل الآية اليهود لأنّهم يخمدون فيظنُّهم المؤمنون أنّهم سِلْمٌ ولا يعلمونهم يحاربون، وهم ينافقون أيضا كمنافقي المدينة، فلا يعلمون بواطنهم. ويعلم: بمعنى يعرف، فلا مفعول ثانيا له، ولا حاجة إلى قول: مشاكلة لِمَا قبله، أي لا يعرفونهم في أنفسهم والله يعرفهم، ثمَّ رأيت أنَّ مجاهدا قال: هم قريظة، والسدِّيُّ قال: هم أهل فارس، وعنه ﷺ: «**هم الجنُّ**». ولا يخبِّل الشيطان إنسانا في داره فرس عتيق، فذلك إرهاب للجنِّ، روي عن ابن عبَّاس واختاره الطبريُّ، ويحتمل أنَّ صهيلها في الجهاد إرهاب للجنِّ المشركين.

(أصول الدين) ويجوز وصف الله بالمعرفة كما قال عمرو بن جميع رحمه الله والسَّعْد، أو يقدَّر مفعول ثان، أي لا تعلمونهم ناصبين لكم الحيلة للإهلاك، والله يعلمهم ناصبين، وقدَّر بعض: لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة، وهو راجع في الحقيقة إلى تقدير الثاني ناصبين كما مرَّ، أو محاربين، أو معادين، [قلت:] والحقُّ أنَّ الخلاف في وصف الله بالمعرفة إذا كان بمادَّة ع.ر.ف أمَّا بلفظ علم بمعنى علم ذاته فلا قائل بأنّه تعالى لا يعلم نفس ذوات الأشياء، **وشهر أنَّ الله ﷻ لا يوصف بالمعرفة وأنّها تختصُّ بتقدُّم الجهل.**

﴿**وَمَا تُنفِقُواْ**﴾ أيُّها المؤمنون ﴿**مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اِ للهِ**﴾ في التقرُّب إلى الله جهادا أو غيره ﴿**يُوفَّ إِلَيْكُمْ**﴾ يحضر لكم ثوابه بالخلف في الدنيا والآخرة، وهذا استخدام، لأنَّ ضمير «يُوَفَّ» لِمَا أنفقوا، مُرادٌ به الجزاء، أو يقدَّر مضاف، أي يوفَّ جزاؤُه ﴿**وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**﴾ لا يجور عليكم الله بترك الثواب أو بعضه، وفي هذا مبالغة في وعد الله بالثواب والوفاء به، حتّى كأنّه لو تركه كان ظالما، وكأنّه واجب عليه مع أنّه لا واجب عليه، فلو شاء لم يثب المطيع كما لا يعذّبه، أو ﴿لاَ تُظْلَمُونَ﴾: لا يُنقَص من ثوابكم شيء، أو من أعمالكم بالإحباط.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

إيثار السلم والاتحاد والتحريض على القتال

(فقه) ﴿وَإِن جَنَحُواْ﴾ مالوا، أي الكفّار مطلقا، أهل الكتاب كقريظة والنضير، وغير أهل الكتاب من سائر المشركين، لأنّه يجوز عقد الصلح والهدنة والأمان مع أهل الكتاب بلا جزية عليهم، أو مع غيرهم لمصلحة في ذلك، كاشتغال الإمام بغيرهم، ويتفرَّغ لهم بعد ذلك إن شاء ا الله ﷻ، وكتحصيل القوَّة إن كان ضعف في المؤمنين، وإن أريد مطلق المتاركة فمنسوخ بآية السيف في غير أهل الكتاب وفيهم بالجزية، وقيل: كان يأخذ الجزية من غيرهم ثمَّ نسخت بالسيف وخصَّت بهم، وقيل: المراد بنو قريظة والنضير، وورود الآية فيهم لا يمنع من عموم الحكم بظاهرها.

ووجه الحمل لأهل الكتاب كلّهم عليهما أنَّ الآية متّصلة بهما، إذ قال: ﴿الذينَ عَاهَدتَّ مِنْهُم...﴾، وصُحِّح أنَّ الأمر فيمن تقبَّل منهم الجزية وهم أهل الكتاب والمجوس، وادَّعى بعض أنّه لا يهادن الإمامُ أهل الشرك بلا جزية

أكثر من عشر سنين لأنّه ﷺ صالح أهل مكّة عشر ثمَّ إنّهم نقضوا.

﴿لِلسَّلْمِ﴾ الصلح، أي إلى السلم ﴿فَاجْنَحْ﴾ مِلْ ﴿لَهَا﴾ إليهـا بمعاهدتهم عليها، والسلم يذكّر ويؤنّث، وأصله التذكير، وأمَّا التأنيث فحمل على ضدّه المؤنّث وهو الحرب.

(فقه) قال السمرقنديُّ: لا ينبغي مصالحة المشركين إذا قوي الإسلام، ولا توضع الجزية على العرب لأنّه ﷺ منهم، وهي نقص والشرك نقص، فيقاتلون حتّى يسلموا كلُّهم، وقيل: الجزية على أهل الكتاب وغيرهم إلاَّ العرب. وإنّما أمر بالصلح حين ضعف الإسلام، [قلت:] والظاهر المصالحة ولو قوي الإسلام لمصلحة نافعة في الإسلام.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اَ۬للَّهِ﴾ في أمرك كلّه فلا تخف أن يخدعوك إذا سالمتهم، فإنَّ الله ناصرك ومُهْلكهم ﴿إِنَّهُ﴾ لأنه ﴿هُوَ اَ۬لسَّمِيعُ﴾ العليم بأقوالهم ﴿اَلْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم ونياتهم وأحوالهم.

﴿وَإِن يُّرِيدُواْ﴾ أي قريظة ﴿أَن يَّخْدَعُوكَ﴾ بعد الصلح، والجواب قوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾ كافيك خَدْعَهم ﴿اَ۬للَّهُ﴾ فصالحهم، ولا تخف أن يتقوَّوا في مدَّة الصلح، ويستعدُّوا لقتالك فيفاجئوك بالقتال، أو يظهروه لك وقد تقوَّوا، أو الجواب محذوف، أي فصالحهم، ولا تخش منهم لأنَّ حسبك الله.

﴿هُوَ اَ۬لذِي أَيَّدَكَ﴾ قوَّاك فيما مضى فثق به لِمَا بعده وفي الحال ﴿بِنَصْرِهِ﴾ عليهم بأسباب باطنة غير معلومة للخلق، وهي بلا وسائط أو بوسائط لا تعلَم، كإلقاء الرهبة في قلوبهم، فإنّها لا تعلم إلاَّ بالأخبار ﴿وَبِالْمُومِنِينَ﴾ المهاجرين والأنصار، وقيل: الأوس والخزرج، وهم الأسباب الظاهرة، أو النصر: جعل المؤمنين أسبابا وتأثير تسبُّبهم، فإنَّ الله تعالى خالق

الأسباب ومؤثّرها، ولو شاء لتَسَبَّبوا و لم ينفع تسبُّبهم.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ هم الأوس والخزرج. كانوا في حروب بينهما مائة وعشرين سنة، وفي حميَّة عظيمة، والحميَّة في العرب عظيمة، وهي في الأوس والخزرج أعظم، لَوْ لطم أوسيٌّ خزرجيًّا أو خزرجيٌّ أوسيًّا لسعى قوم المظلوم في الأخذ بالثأر حتّى يكون القتال، وإن أخذ به سعى قوم المأخوذ منه وهكذا، ولَمَّا دخلهم الإسلام أبدلوا بتلك الحميَّة المحابَّة العظيمة، وكانوا كلُّهم يَدًا على الكفّار، حتّى إنَّ الرجل منهم يقتل أباه وأخاه في الله إلاّ إن منعه رسول الله ﷺ، ولا يخفى أنَّ شدَّة تحابِّهم بعد شدَّة ذلك الحقد والحميَّة حتّى لا يكاد يتألّف قلبان معجزة له ﷺ، إذ صاروا كنفس واحدة.

﴿لَوَ اَنفَقْتَ مَا فِي الاَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الأموال في التأليف بينهم ﴿مَآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لبلوغهم غاية الحقد، حتّى إنّهم لا يرضون بمال مًّا بدل أخذ الثأر والنصرة، ولا غرض لهم في سوى ذلك ﴿وَلَكِنَّ اَ للهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته، وكونِ القلوب بيده يصرفها حيث شاء، وأثّر فيها الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «**يامعشر الأنصار، ألم أجدكم ضلاّلا فهداكم الله بي، وكنتم متفرّقين فجمعكم الله بي، وكنتم فقراء فأغناكم الله بي؟**» فقال: «**ألا تقولون جئتنا طريدا فآويناك وأصحابك، ومحتاجا فواسيناك، وكذّبك قومك فصدَّقناك؟**» فقالوا: لا نقول ذلك، المِنّة لله ولرسوله علينا[1]، ﴿إِنَّهُ, عَزِيزٌ﴾ لا يكون مغلوبا على ما أراد و لم يرد ولا يعجز، لأنّه تامُّ القدرة

١- رواه **البخاري** في كتاب المغازي، (٥٣) باب غزوة الطائف رقم ٤٠٧٥. ورواه **مسلم** في كتاب الزكاة، (٤٦) باب إعطاء المؤلّفة قلوبهم... رقم ١٣٩ (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم.

﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج شيء عن حكمته، ولا عبث له ولا سفه، ويفعل ما أراد بإتقان، ومن ذلك أنّه زيّن في قلوبهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر، حتّى كان من وافقهم على ذلك حبيبهم، قريبا كبعضهم لبعض، أو أجنبيًّا كالمهاجرين، واستبدلوا أغراض الدنيا بأغراض الآخرة لدوامها.

﴿يَآ أَيُّهَا اَلنَّبِيءُ حَسْبُكَ اَ للهُ وَمَنِ اِتَّبَعَكَ مِنَ اَلْمُومِنِينَ﴾ نزلت في البيداء في غزوة بدر قبل القتال، ومن معه هم ثلا ثمائة وثلاثة عشر المهاجرون والأنصار، أمره ا لله ﷻ أن يكتفي بهم، ويلقى قريشا كائنين ما كانوا بهم، والبيداء هنا اسم مخصوص قرب المدينة، أو الصحراء، والآية مَدَنِيَّة، وما نزل بعد الهجرة مدنيٌّ ولو نزل في غير المدينة، وقيل: واسطة.

(سيرة) وعن ابن عبّاس أنّها مكّيّة، أمر النبيء ﷺ أن توضع في هذه السورة المَدَنِيَّة. وَأَنَّهُ أسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وستٌّ نسوة، وكانوا يجتمعون في دار الأرقم عند الصفا خفية، وأسلم عمر ونزلت الآية في إسلامه تابعا لمن قبله وجهر بالإسلام، وقال: لا نعبد ا لله سرًّا.

(نحو) و«مَنْ» معطوف على لفظ الجلالة، فالمعنى: كافيك ا لله وكافيك من اتّبعك من المؤمنين في أمر القتال وإقامة الدين. أو على الكاف بلا إعادة للجارّ، لأنّه قد ورد العطف على المجرور المتّصل بلا إعادة جارٍّ، وهو مذهب الكوفيّين، وذكر بعض أنَّ الفصل كاف عن الإعادة كما يكفي في العطف على المتّصل المرفوع، وفي الآية فصل، ولو أعيد لقيل: وحسب من اتّبعك. ويجوز كون «حَسْبُ» اسم فعل، والكاف مفعول، والعطف عليه، والمعنى على الوجهين: يكفيك ا لله ويكفي من اتّبعك من المؤمنين، وهو مخالف بكونه اسم فعل بحسب الواقع اسما لـ«إنَّ»، ولا يتكرّر هذا مع ما تقدّم، فإنَّ هذا في أنَّ ا لله يكفيه ويكفي المسلمين أمر القتال بالنصر، إن نزلت في بدر، أو

يكفيك الله والمؤمنون في ذلك، وإن نزلت في مَكّة فالمعنى: يكفيك الله ويكفيك المؤمنون، أو يكفي لك الله ويكفي المؤمنين في الجهر بالدين، أو هذه أمور الدين والدنيا كلِّها، وما تقدَّم بمعنى يكفيك خِداعُهم.

﴿يَآ أَيُّهَا اَلنَّبِيءُ حَرِّضِ اِلْمُومِنِينَ﴾ حُثّهم ﴿عَلَى اَلْقِتَالِ﴾ قتال الكفرة، أي أزل حَرَضَهم وهو الإشراف على الهلاك بالقتال، إذ لو لم يقاتلوا لأَشْرفوا عليه، قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا اَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾(سورة يوسف: ٨٥) والإزالة من معاني التفعيل كما يقال: قذّيته أي أزلت قذاه، بتشديد ذال قَذّيته.

﴿إِن يَّكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ بِقُوَّةٍ وشجاعة ﴿يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ من الذين كفروا، الواحد بعشرة، ذكر هنا قوله: ﴿صَابِرُونَ﴾ ولم يذكره في قوله: ﴿وَإِن تَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ﴾ أي صابرة، ولم يذكر الذين كفروا وذكره في قوله: ﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ اَلذِينَ كَفَرُواْ﴾ وذلك احتباك وهو فصاحة عظيمة، وهي أن يذكر في كلٍّ من الكلامين ما حذف من الآخر.

(فقه) ولا يحلُّ للواحد الفرار من عشرة رجال كافرين يصبر فيغلبهم، وله الفرار من أحد عشر، واللفظ إخبار، والمراد: أمرٌ، أي اثْبُتْ يا واحد لعشرة، أو إخبار لفظا ومعنى، أي حكم الشرع لزوم ثبوت الواحد للعشرة، وعلى الوجهين تكون الآية حكما، والحكم ينسخ فينسخ كون ذلك شرعا بما بعد، فكان الشرع أن لا يلزم ثبوت المسلم لثلاثة من الكفّار، وإنّما الخبر الذي لا ينسخ هو ما لا حكم فيه، كما لو كان المعنى أنَّ الله ﷻ أعطى المؤمن قُوَّة عشرة من الكفّار، فلا وجه لنسخه إلاّ على معنى أنَّ الله أزال بعد ذلك تلك القُوَّة، وردَّها إلى قوَّة رجلين من الكفّار.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ لأنّهم قوم لا يفقهون أمر الدنيا والآخرة، فليسوا يقاتلون لدين ا لله، ولا رجاء لثواب الآخرة الدائم فيرغبوا، ولا يرجون البعث، فشحُّوا على الحياة الدنيا إذ ليس لهم عندهم إلاّ هي ونعيمها، فلا يبالغون في القتال، بخلاف من اعتقد أنَّ السعادة في الآخرة ويقاتل رغبة في ا لله ﷻ، فتكون الآية إخبارا بضعف المشركين فلا يخافهم المؤمنون. واختير أنَّ المعنى: استحقاق الكفرة للقتل لأنّهم لا يفقهون فاقهروهم بالقتل، وهو متعلّق بـ«يَغْلِبُواْ».

(فقه) ونسخ لزوم ثبوت الواحد للعشرة لَمَّا كثر المؤمنون، وقيل: نسخ بعد مدَّة قبل كثرتهم، وتضرَّعوا إلى ا لله فنسخ، واختار مكّي[1] أنَّ ذلك تخفيف لا نسخ ـ وهو رجل أندلسيٌّ جاور بمكّة فنسب إليها ـ وعلى النسخ إن قاتل واحد عشرة فقتل فلا إثم عليه لأنّه نسخ الوجوب، وعلى أنّه تخفيف غير نسخ يأثم كذا قيل، قلت: لا إثم لأنّه خفّف له عن الوجوب ولم يحرّم عليه مقابلتها، فإنّه إذا ترك الوجوب بقي الجواز بقوله:

﴿الاَنَ خَفَّفَ اَ للهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ﴾ لعلم ا لله، [وهو] تعلُّق بالشيء بلا أوَّل قبل وجوده، وحال وجوده وبعد عدمه ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضُعْفًا﴾ حادثا لاعتماد كلٍّ على الآخر، فالضعف قلبيٌّ، وقيل: ضعفاء في الأبدان، وقيل: ضعف البصيرة إذ حدث قوم في الإسلام ولم يحسنوه، وقيل: ضعف في رأي الحرب، ولم يكن الضعف من قبل، فلا يتّصف بأنّه علم أنّه موجود بل علم أنّه سيوجد.

١- مكّي بن أبي طالب حمُّوش بن محمَّد الأندلسي القيسي (٣٥٥ هـ-٤٣٧هـ)، عالم بالتفسير والعربيَّة، مقرئ من أهل القيروان، وبها نشأ وتعلّم وحجَّ فسمع بمصر ومكّة وعاد إلى بلده بعد فترة طويلة. دخل قرطبة أيَّام أبي عامر وأقرأ بجامعها، فَعَلاَ ذِكرُه ورحل الناس إليه. له مجلّدات في مختلف علوم القرآن من تفسير وإعراب وأحكام وقراءات غالبها مخطوط. عادل نويهض: **معجم المفسّرين**، ج٢، ص٦٨٤.

﴿فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الواحد باثنين، ويجوز له الفرار لثلاثة، وإن زال سلاحه فرَّ ولو لواحد ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ صابرون ﴿يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته، وذلك أيضا إخبار بمعنى الأمر، أو حقيقة كما مرَّ، وقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ وقوله: ﴿فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ يغني عن قوله: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ ووجه ذكرهما أنَّه واقعة حال، فإنَّه ﷺ يبعث السريَّة وما ينقص عددها عن العشرين ولا تزيد على المائة، وإنَّ ذلك دلالة على عدم تفاوت القلَّة والكثرة، فإنَّ العشرين قد لا تغلب المائتين، ولم يذكر في جملتي التخفيف قيدَ الكُفر اكتفاءً بذكره قبل، وذكر في التخفيف: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو قيد لهما. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ عن الشهوات والمعاصي، وعلى الشدائد في دين الله بالنصر والتوفيق والثواب.

(سيرة) روي أنَّ المسلمين ثلاثة آلاف في غزوة مؤتة، صبروا لمائتي ألف من المشركين، مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة، لخم وجدام. والأفضل: صبر الواحد لأحد عشر فصاعدا، وصبر الواحد لثلاثة فصاعدا، ولزوم ثبوت الواحد للعشرة يوم بدر ونسخ بعده، قال المهاجرون: ياربَّنا نحن جياع وعدوُّنا شِباع، ونحن في غربة وعدوُّنا في أهليهم، وأخرجنا من ديارنا وأموالنا وعدوُّنا في ديارهم وأموالهم، وقال الأنصار: شُغلنا بعدوِّنا وأنسينا إخواننا، فنزل التخفيف. والصبر قبل التخفيف وبعده واجب على الحرِّ والعبد.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا

ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

شرط اتخاذ الأسرى وقبول الفداء منهم

(سبب النزول) ولَمَّا أخذوا الفداء من أسارى بدر بلا إذن من ا لله، وإنَّما أمرهم ا لله ﷻ بالقتال والقتل لكلٍّ من قدروا عليه لا بالأسر ولا بالفداء، نزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيءٍ﴾ من الأنبياء، ويجوز أن يراد نبيئنا ﷺ فنكّر للتعظيم، ولئلاّ يواجه بالعتاب، ويدلُّ له قراءة أبي الدرداء وأبي حيْوة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبيءِ﴾ بـ«الـ»، إلاّ أنَّه يحتمل أن تكون للاستغراق على وجه الكُلِّيَّة أو للجنس، والعموم أولى كما هو ظاهر قراءة الجمهور، وقدَّر بعضٌ: لأصحاب نبيء، أو لأصحاب النبيء، لأنَّ ذلك المنفيَّ لا يصدر عن نبيء، فيجاب بأنَّه يخاطب النبيء بما فعل قومه كأنَّه منهم.

﴿أَن يَّكُونَ لَهُ﴾ من أعدائه ﴿أَسْرَىٰ﴾ فضلا عن أن يطلب الفداء أو يقبله، جمع أسير، أي مسلوب القوَّة، والأسر: القوة، أو مربوط بالأسر وهو الحبل، ومن شأن المأخوذ أن يربط به ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي اِلاَرْضِ﴾ يوقع الثخانة فيها، عليها بكثرة القتلى، كأنَّها لكثرتها ثقلت على الأرض.

(لغة) أثخنه المرض: أثقله، وأيضا الثخين الغليظ الصلب ومن شأنه الثقل، أو المعنى: حتَّى يقوى ويشتدَّ ويغلب عدوَّه، فيعزُّ الإسلام ويذلُّ الكفر وأهله، فأثخن للصيرورة، أي صار ثخينا أي غليظا بالمبالغة في قتل الأعداء، أو كثرة القتل توجب قُوَّة الرهبة، فعبَّر عنها بسببها وهو الإثخان، أو استعمل

الثخن في لازم الغلظة وهو القُوَّة، أو شبَّه المبالغة في القتل بالثخانة لجامع الشدَّة في كلٍّ، وذكر الأرض للتعظيم، وفي الأصول قول بأنَّ تعميم الأمكنة تعميم للأزمنة، أو مفعول «يُثْخِنَ» محذوف، أي يثخن الكفَّارَ، كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾(سورة محمد: ٤) أي أكثرتم فيهم الجراح فضعفوا بالقتل.

شدَّد الله على آخذي الفداء عن الأسرى بالاستشهاد بغيره ﷺ من الأنبياء، بأنَّهم أمروا بإكثار القتل وترك الأسر وبعد ذلك يجمعون ما حصل فتنزل نار من السماء وتحرقُه غير بني آدم والحيوان، وزاد تشديدًا بقوله تعالى: **﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ اَلدُّنْيَا﴾** قال ﷺ: «**الدنيا عرض حاضر**»[1]. **﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الاَخِرَةَ﴾** تريدون أيُّها المؤمنون مال الدنيا العارض الذي لا يثبت بل يسرع زواله، فأخذتم الفداء والله يرضى لكم ثواب الآخرة الذي لا يزول، وهو يحصل بقتلهم، أو يرضى لكم سبب نيل ثواب الآخرة وهو إعزاز دينه بقتل الكفرة، فعبَّر عن الرضى بالإرادة للمشاكلة، فلا يشكل علينا بأنَّ إرادة الله لا تتخلَّف، فإنَّ الإرادة التي لا تتخلَّف هي التي بمعنى القضاء، وإن أراد في الخطاب السعداء فالإرادة على أصلها من عدم التخلُّف، وَلَكِنَّ الظاهر التعميم لا بقيد السعادة. **﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** فهو يعزُّ أولياءه ويذلُّ أعدائه ويحكم بما يليق من تحريم الفداء قبل الإثخان.

قيل: ولَمَّا قوي الإسلام وضعف الكفر نسخ تحريم الفداء بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾(سورة محمد: ٤) وبقوله: ﴿ لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اَللَّهِ سَبَقَ﴾ وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ قلت: لا نسخ في ذلك لأنَّ معنى

١- أورده **الشافعيُّ** في مسنده، ص٦٧. وتمام الحديث عنده هو: «يأكل منها البرُّ والفاجر». وأورده أيضا **القرطبيُّ** في تفسيره، ج٥، ص٣٣٩.

قوله ﷻ: ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اَ للهِ...﴾ أنه ﷻ قضى أن لا يمسَّكم عذاب عظيم في ذلك الفداء، مع أنَّكم أخطاتم فيه، ومعنى ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾: كلوا من سائر المغانم ولا تقصدوا الأسر والفداء، ولو سامحكم ا لله تعالى في ذلك الفداء الواقع، وفي قوله: ﴿حَتَّى يُثْخِنَ﴾ وقوله: ﴿حَتَّى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُم﴾(سورة محمَّد: ٤) جواز الأسر والفداء بقيد الإثخان.

﴿**لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اَ للهِ سَبَقَ**﴾ نعتان لـ«كِتَابٌ»، ويجوز على الصحيح كون «سَبَقَ» خبرًا لأنَّه كون خاصٌّ، و«مِنَ ا للهِ» متعلِّق به، أي: سبق بأن لا يمسَّكم عذاب في هذا الفداء والأسر وغيرهما، والكتاب: الحكم، سبق في علم ا لله وفي اللوح المحفوظ، أو سبق أن لا يؤاخذ المجتهد في خطئه، أو أن لا يعذِّب أهل بدر بمعنى التوفيق إلى التوبة لا بمعنى إسقاط التكليف عنهم، أو أن لا يعذِّبكم لأنَّه لم يصرِّح لكم بالنهي عن الفداء، أو أن لا يعذِّبهم وأنت فيهم، قيل: أو أنَّ الفداء سيحلُّ لهم، [قلت:] وفيه أنَّ ما سيحلُّ لهم باق على التحريم حتَّى يحلَّ، وأمَّا من وطئ زوجه يظنُّها غيرها فليس كذلك، لأنَّها حلال في حينه ولو عصى، أو كفر بنيَّته، وأمَّا الفداء فحرام في حينهم حتَّى ينزل حلُّه بعد، وفيه أيضا أنَّه معطِّل للتخويف في الآية، وقد يجاب بأنَّ المعنى: سبق من ا لله العفو عنكم فضلا لسبب أنَّه سيحلُّه، وقد تجمع تلك الأوجه كلُّها، أو أنَّ رحمتي سبقت غضبي.

﴿**لَمَسَّكُمْ فِيمَا**﴾ بسبب ما ﴿**أَخَذْتُمْ**﴾ من الفداء ﴿**عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ في الدنيا عقابا وتكفيرا، قال ﷺ: «**لو نزل العذاب لَمَا نجا منه إلاَّ عمر وسعد بن معاذ**» أي لأنَّهما لم يقبلا الفداء وغيرهما قابل.

(سيرة) أتي ﷺ بسبعين أسيرا، فاستشار فيهم، فقال الصديق ﷺ: «قومك وأهلك لعلَّهم يتوبون وخذ منهم فدية تقوِّي بها أصحابك على العدوِّ»

أي هم قومك، أو ارحم قومك، وقال عمر ﷺ: «اقتلهم فإنـّهم أيمّة الكفر كذّبوك وأخرجوك وقد أغناك ا لله عن فدائهم، ومكّني من نسيبي فلان ومكّن عليًّا من أخيه عقيل، وحمزة من أخيه العبّاس». وقال ابن رواحة: «أضرم عليهم نارا في واد كثير الحطب»، فقال العبّاس: قطعت رحمك، وكره ﷺ قوله، فدخل، فقيل: يأخذ بقول الصديق، وقيل: يأخذ بقول عمر، وقيل: بقول ابن رواحة، فخرج ﷺ فقال: «**إنّ ا لله ليليّن قلوب رجال حتّى تكون ألين من اللبن، ويشدُّ قلوب رجال حتّى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ, مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**(سورة إبراهيم: ٣٦) **ومثل عيسى قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾**(سورة المائدة: ١١٨) **ومثلك ياعمر مثل نوح قال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الاَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾**(سورة نوح: ٢٦) **أو مثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...﴾**(سورة يونس: ٨٨) » ولم يمثّل لابن رواحة ولا يليق به مثال عمر لأنَّ قتلهم بالنار غير جائز البتّة وبعيد عن أمر الشرع رضي ا لله عن ابن رواحة، وقال ﷺ: «**لا يفلتنَّ أحدكم إلاَّ بفداء أو قتل**». قال ابن مسعود: «إلاَّ سَهْلَ بن بَيْضَاء سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ الإسلام» فسكت ﷺ، قال ابن مسعود: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليَّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتّى قال ﷺ: «**إلاَّ سهل بن بيضاء**» فأخذ عن كلِّ واحد أربعين أوقيَّة من الذهب، ألفا وستمائة درهم، إلاَّ العبّاس فثمانين أوقية، وقيل: قال: اعط عنك أربعين وعن ابن أخيك أربعين، وهو عقيل، وعن ابن أخيك نوفل بن الحرث أربعين.

وروي أنَّ فداء العبّاس أربعون أوقيّة، وفداء سائرهم عشرون وعن ابن سيرين فداؤهم مائة أوقيّة، والأوقيّة أربعون درهما، وقد أخذت منه عشرون

أوقيَّة خرج بها ليطعم الناس يوم بدر، فوقع القتال فلم يطعم، وقال: احسبها من فدائي يا رسول الله، فقال: «**لا أترك لك شيئا خرجت تستعين به علينا**» ولم يعط عن عقيل ولا عن نوفل، قيل: وقال أيضا: «**فَادِ حليفك عتبة بن عمرو**» وكأنَّه ﷺ أراد أن يفديهم لأنَّهم لا مال لهم لصغرهم، وله مال، وقيل: قال له: اعط عن عقيل عشرين أوقيَّة، وقال: يارسول الله تركتني أتكفَّف الناس، فقال: «**فأين الذهب الذي دفنت عند أمِّ الفضل، وقلت إن متُّ فهو لك ولأولادك عبد الله وعبيد الله وقتم، وإن رجعت أر فيه رأيي**» قال: من أخبرك؟ قال: «**أخبرني ربِّي**» فقال: أشهد أنَّك رسول الله، قد كان ذلك في جوف الليل وما معنا أحد.

ودخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله أخبرني فإن وجدت بكاء بكيت وإلاَّ تباكيت؟ فقال: «**أبك على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة**» لشجرة قريبة وذكرهم بالعذاب لأنَّهم الراضون بالفداء الآمرون به حيث استشارهم، وعنه ﷺ: «**لو نزل عذاب ما نجا منه إلاَّ عمر وسعد بن معاذ**» يعني أنَّه حضر وقال كعمر، أو قال: الإثخان أحبُّ إليَّ، وروي أنَّه خيَّرهم أن يأخذوا الفداء فيقتل منهم سبعون فاختاره وقتل منهم سبعون في أحد.

(أصول الدين) والآية دليل على أنَّ الأنبياء يجتهدون إلاَّ أنَّهم إن أخطأوا أخبرهم الله فيرجعوا إلى الصواب وإن قدِّر ما كان لأصحاب نبيء فلا دلالة، بَقِيَ أنَّ الآية تفيد أنَّ المجتهد يعاقب على خطئه، والمروي أنَّ له أجرًا وله على إصابته أجران إلى عشرة، الجواب: أنَّ المراد ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ﴾: أن لا عقاب على مجتهد.

﴿فَكُلوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً﴾ حال من «مَا»، أو من العائد، أو أكلاً حَلاَلاً ﴿طَيِّبًا﴾ وخرج بالطيِّب ما غُلَّ، المراد: سائر الغنائم، أمرهم أن يكتفوا بها عن الفداء، وزعم بعض أنَّ المراد ذلك الفداء الذي أخذوه أحلّه ا لله لهم، وبعض أنَّ المراد أنَّه داخل في الغنائم، وفيه بُعْدٌ، لأنَّ الفداء لا يسمَّى غَنِيمَة، والظاهر أنَّ المراد: اكتفوا بالغنائم ما حضر وما يأتي، واتركوا الخوض بمثل ما فعلتم من طلب الفداء مع أنَّه أحلّه ا لله لهم إذ خاضوا فيه، وقيل: المراد مثل ما غنمه عبد ا لله بن جحش مع ثمانية من المهاجرين، بعثهم ﷺ فأخذوا عيرًا لقريش فقسَّمها ﷺ، وهذه أوَّل غنيمة في الإسلام. وروى أنَّهم أمسكوا عن الأكل من الفداء حتَّى نزل: ﴿فَكُلُوا﴾. وقدَّر بعض: قد أبحت لكم الغنائم فكلوا، وقدَّر بعض: دعوا ما اتَّخذتم فكُلُوا، وقيل: أمسكوا عن الغنائم، فنزل هذا إزاحة بما في نفوسكم من تلك المعاينة ﴿وَاتَّقُوا ا للهَ إِنَّ ا للهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبكم، ومنها استباحة الفداء قبل ورود الإذن من ا لله ﷻ ﴿رَحِيمٌ﴾ مبيح لكم ما أخذْتُم من الفداء.

﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم﴾ في قبضكم وحكمكم ﴿مِنَ الاَسْرَىٰ إِنْ يَّعْلَمِ ا للهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيمانا خالصا ﴿يُوتِكُمْ خَيْرًا﴾ أفضل ﴿مِمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾.

(سبب النزول) نزلت في العبَّاس إذ أخذت منه عشرون أوقية في بدر وفدى نفسه بثمانين، وقيل: أعطى عن ابن أخيه عقيل أربعين وعن ابن أخيه نوفل بن الحرث أربعين، فذلك مائة وثمانون أوقية. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَا للهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال العَبَّاس: «لي الآن عشرون عبدا أدناهم يضرب في عشرين ألفا، وأعطي لي زمزم ما أحبُّ أنَّ لي بها جميع أموال مكَّة وأنا أنتظر المغفرة».

(سيرة) وجاءه ﷺ من البحرين ثمانون ألفا فتوضَّأ وما صلَّى حتَّى فرَّقها، وأمر العَبَّاس أن يأخذ فأخذ ما قدر على حمله، وقال: هذا خير مِمَّا أخذ

منّي وأنا أرجو المغفرة. وإنّما كانت زمزم بيده بعد موت النبيء ﷺ لأنّـه سـأله في حياته ولم يعطه إيَّاهَا، وكذا تلك الأموال كانت بعده ﷺ.

(أصول الدين) وفي أخذه ﷺ الفداء دلالـة على أنَّه يجتهد، وكـذا الأنبياء يجتهدون، ولكن إذا لم يصيبوا الحقَّ أخبرهم الله، قال بعض: أمره الله بانتظار الوحي ثمَّ العمل بالرأي، ومدَّة الانتظار ثلاثة أيَّام، وقيل: تقدَّر بخوف فوت الغرض.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض العهد بقتالك وقتال المؤمنين، وبإعانة أعدائك، والجواب محذوف تقديره: قتلوا وأسروا، أو فليتوقَّعُوا القتل والأسر لأنَّهم خانوا قبل ذلك فقتلوا وأسروا، كما قال: ﴿فَقَدْ خَانُواْ﴾ لأنّهم تحقَّقَ خيانتهم ﴿اللهَ مِن قَبْلُ﴾ قبل بدر بقتال وإعانة العدوِّ ﴿فَأَمْكَنَ﴾ أمكنك والمؤمنين ﴿مِنْهُمْ﴾ في بدر بالقتل والأسر فهو يمكنك منهم بعد ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه وأحوالهم وجزائهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يصنع بهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ

﴿وَأُوْلُواْ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧٥﴾

أصناف المؤمنين في عهد النبيء ﷺ بمقتضى الإيمان والهجرة

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ با لله ورسوله ودينه ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ بلاد الشرك مَكَّة وغيرها، قبل فتح مَكَّة ﴿وَجَاهَدُواْ﴾ مَن كَفَر با لله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ الجهاد بالمال: إنفاقه في شراء الخيل والحمولة وعلفها وما يحتاج إليه، وفي السلاح وما يناسبه، والإنفاق على المحتاج في الجهاد، والقيام بأهل المجاهدين، والجهاد بالنفس: مباشرة القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تنازعه «هَاجَرُوا و«جَاهَدُوا»، لأنَّ المعنى: هاجروا لأجل ا لله لا لغرض دنيويٍّ ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ رسول ا لله ﷺ والمهاجرين: ضمُّوهم إلى أنفسهم فيما لهم من منافع الدنيا والإيمان، وهم الأنصار المؤثرون على أنفسهم، حتَّى إنَّهُم لينزلون عن أزواجهم ومساكنهم لهم ﴿وَنَصَرُواْ﴾ نصروا النبيء ﷺ والمؤمنين، قال ا لله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُواْ الدَّارَ وَالاِيمَانَ﴾(سورة الحشر: ٩) وهم الأنصار المؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المهاجرون والأنصار ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ المهاجر وليُّ الأنصاريِّ، والأنصاريُّ وليُّ المهاجريِّ، والمهاجريُّ وليُّ المهاجريِّ، والأنصاريُّ وليُّ الأنصاريِّ في دين ا لله ونصره والموارثة، ولو كانوا أجانب، فيرث المهاجريُّ الأنصاريَّ والعكس بالأخوَّة في الدين، مع العقدة التي عقدها ﷺ بالمؤاخاة بينهم، واستمرُّوا على ذلك إلى فتح مَكَّة، فكان الميراث بالنسب إذ نسخت الهجرة، وإن كان للمهاجر قريب بالنسب مهاجر فهما يتوارثان، ولا يجعل له أخ من الأنصار بالميراث.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ بل بقوا في بلد الشرك بلا إذن منه ﷺ،

في البدو أو في الحضر ﴿مَا لَكُم مِّنْ وَّلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ من ميراثهم ونصرتهم ومحبَّتهم أيـها المؤمنون، ولو كانوا قرباء وعصبة لكم، إلاَّ إن قاتلهم مشرك لا عهد له فانصروا ﴿حَتَّى يُهَاجِرُواْ﴾ بلاد الشرك، ولا حظٌّ لهم في الغنيمة ولو جاهدوا معكم، وإن جاهدوا وحدهم فلهم ما غنموا، وإن هاجروا فهم مثلكم.

﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ طلبوا نصركم إيَّاهُم في شأن دين ا لله، أو لأجل دين ا لله، بأن قاتلهم المشركون لإيمانهم، أو لأمر آخر ظلما فانصروهم عليهم، كما قال: ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ لهم على المشركين المقاتلين لهم ﴿إلاَّ عَلَى قَوْمٍ﴾ مشركين ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد فخلُّوا بينهم وبين الذين آمنوا ولم يهاجروا، ولا تنقضوا الميثاق، وسواء كان الميثاق عهد الحديبيَّة أو غيرها، ثمَّ نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿وأُوْلُواْ الاَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ فيرث بعد النسخ من آمن ولم يهاجر ويورث، ويأخذ سهمه من الغنيمة إن جاهد، وتقاتلون من قاتلهم من المشركين، وتنصرونهم عليهم، ولو كان للمشركين ميثاق، وقيل: لا نسخ، وإنَّما المراد الموالاة بالنصر، ويعترض بذكر النصر في قوله: ﴿فَعَلَيكُمُ النَّصْرُ﴾.

﴿وَا للهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خيانة من خان ولا صدق من صدق، ولا الأصدق من الصادق، والأخون من الخائن، فهو يعلم الفضل للمهاجرين الأوَّلِينَ، وهم المراد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِم وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ا للهِ﴾ وقال: ﴿هَاجَرُوا﴾ بصيغة المفاعلة للمبالغة، إذ تركوا بلادهم لله ما دام الحكم فيها لأهل الشرك.

وقدَّم الجهاد بالأموال لأنَّه أقوى سَبَبِيَّة في الجهاد، إذ لا يمكن الجهاد بدون المال، ويمكن بدون الأنفس بأن يكون للمسلم عذر في عدم الخروج للجهاد ويجهِّز غازيا بماله، أو يحمله على فرس أو غير فرس، أو يعطيه السلاح،

قيل: ولأنَّ الجهاد بالمال أكثر وقوعا وأتمّ دفعا للحاجة حيث لا يتصوَّر الجهاد بالنفس بلا جهاد بمال ولكن يكون بالحجارة.

وقيل: قدَّم الإيمان لتقدُّمه وقوعا ولأنّه الأصل والعمدة والسبب، ثمَّ الهجرة لأنّها الإيمان في الوقوع، ثمَّ المال لأنّه يهيّأ للجهاد ثمَّ يجاهد به، والمهاجرون الآخرون بالغوا في الهجرة كالأوَّلين، إلاّ أنّهم دون الأوَّلين لتأخُّرهم، ولهم التوارث بالنسب وينصرون، ولهم سهامهم في الغنائم ولهم مالكم وعليهم ما عليكم.

﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يتوارثون بالنسب ولا توارث بينكم وبينهم، ولا تنصروهم ولا تحبُّوهم وتجب مصارمتهم ولو أقارب، ولا يجاهدون معكم، وإن وقع جهاد فلا حظّ لهم في الغنيمة، ولا يتركون أن يجاهدوا مع المسلمين، وقيل: المراد إنّهم بعضهم أولياء بعض بالنصرة في الباطل.

﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ﴾ إن لا تفعلوا ما ذكر من تولّي المسلمين بعضهم بعضا، وتواصلهم وتوارثهم، ومصارمة الذين كفروا وحفظ الميثاق والإرث والنصر ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ دائمة عامَّة، ونُكّر تعظيما ﴿فِي الاَرْضِ﴾ أرض مكّة والمدينة وغيرهما، ومكّة ولو كان فيها فتنة إلاّ أنّها تدوم إذا لم تفعلوه وتعمُّ، وكذا غيرها مِمَّا فيه شرك، ويجوز أن تراد أرض المدينة، والفتنة: ضعف الإيمان وَقُوَّة الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بسائر المعاصي كالجور، ومخالفة الأحكام الشَّرعِيَّة.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اِللهِ﴾ هم المهاجرون الآخرون بعد الحديبيَّة وقبل الفتح، إذ وضعت الحرب أوزارها عامين بالصلح الواقع في الحديبيَّة، وكان –قيل– على عشر سنين، ومات ﷺ قبل تمامها، وانتقض ببعض أهل مَكّة بقتل خزاعة وهم في ذمَّته ﷺ فكان الفتح، وقيل:

المراد: مَن هاجروا بعد هذه الآية، وقيل: من هاجر بعد غزوة بدر، وفي الصحيحين عنه ﷺ : «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيَّة**»[١]، فمن أسلم في موضع ولو في بريش[٢] جاز له المقام فيه إن عرف دينه ولم يمنع من إظهاره، وقيل: ولو منع من إظهاره إن كان يفعله سرًّا.

والهجرة طبقات: هجرة إلى المدينة وأهلها المهاجرون الأوَّلون، وهجرة إلى الحبشة ثمَّ منها إلى المدينة وأهلها أصحاب الهجرتين، وهجرة بعد صلح الحديبيَّة وقبل الفتح. ويجوز أن يراد هنا: المهاجرون الأوَّلون المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اَلذِينَ...﴾ لأنَّ ما هنالك لبيان أنَّ بعضهم وبعض الأنصار أولياء بعض، وما هنا في بيان أنَّهم كاملوا الإيمان وأنَّ لهم مغفرة ورزقا كريما، كما قال: **﴿وَالذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُومِنُونَ حَقًّا﴾** أي إيمانا كاملا إلاَّ أنَّه لم يقل بأموالهم وأنفسهم اكتفاء بذكره أوَّلاً **﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾** عظيمة لذنوبهم **﴿وَرِزْقٌ﴾** عظيم في الجنَّة **﴿كَرِيمٌ﴾** لا نقص فيه ولا زوال ولا تكدُّرا بشيء، وإن أريد بهذه الآية المهاجرون الأوَّلون فالمهاجرون الآخرون في قوله ﷻ:

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ بعد المهاجرين الأوَّلين أو بعد الحديبيَّة وبيعة الرضوان، والمأصدق واحد. **﴿وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ﴾** بأموالهم وأنفسهم **﴿فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ﴾** أيُّها المهاجرون الأوَّلون والأنصار، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم من التوارث والمغانم والنصر وغير ذلك، وفي قوله: **﴿مِنكُمْ﴾** تفضيل للأوَّلين والأنصار عليهم لأنَّه استلحاق، فالخلاف في فضل المهاجرين على

١- تقدَّم تخريجه في ج٣، ص٢٩٥.

٢- يعني به باريس، ولكن لم نعرف هذه المدينة بالشين المعجمة.

الأنصار أو الأنصار على المهاجرين إنّما يتمُّ في المهاجرين الأوّلين، وأمّا المتأخّرون فالأنصار أفضل منهم.

وإن أريد بقوله ﷻ: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المهاجرون الآخرون كان المراد في قوله ﷻ: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ﴾ من هاجر بعد الهجرة الثانية قبل الفتح، فيفسَّرُ قوله ﷻ: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ بما بعد الهجرة الثانية، أو المهاجرين ثانيا. وقيل: المراد من بعد نزول الآية، فيكون المعنى: والذين يؤمنون من بعد ويهاجرون ويجاهدون وهم أهل الهجرة الثالثة، وقيل: من بعد بدر.

﴿وَأُوْلُواْ الاَرْحَامِ بَعْضُهُمُ, أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الميراث والنصرة، أي الإرث بالنسب أولى من الإرث بالإسلام والهجرة، فهذا ناسخ للإرث بالإسلام والهجرة، ونسخ للإرث بالمحالفة، فقيل: أولوا الأرحام هم من ذكر الله من الورثة بالنسب في سورة النساء.

(فقه) وقيل: أولوا الأرحام: القرابة الذين لا ذكر لهم فيها ولم يوجد واحد منهم، كالخال والخالة، وبنت الأخ وبنت العمّ، لمجيء الحديث بـ«**إنّ الخال وارث من لا وارث له**»[1]، وبه نقول نحن وأبو حنيفة، وعن ابن عَبَّاس كانوا يتوارثون بالهجرة والإخاء، حتّى نزلت ﴿وَأُوْلُواْ الاَرْحَامِ بَعْضُهُمُ, أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي في الإرث، وبالأوّل قال الشافعيُّ، وهو أنَّ المراد من في سورة النساء غير الأزواج، وعنه: إنَّ المراد العصبة الذين يرثون ما بقي عمَّن ذكر في

١- رواه **الترمذي** في كتاب الفرائض، (١٢) باب ما جاء في ميراث الخال، رقم ٢١٠٣. ورواه **البيهقي** (الكبرى) في كتاب الفرائض، (٤) باب من قال بتوريث ذوي الأرحام، رقم ١٢٢٠٨. من حديث أبي أمامة.

سورة النساء، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اِ للهِ﴾ وفسَّره بحكم ا لله الذي حكم به في سورة النساء[1].

[قلت:] ويشكل عليه أنَّه لم يذكر هنا ولا في سورة النساء أنَّ الباقي بعد الفروض للعصبة، وإنّما يصلح بلا إشكال إذا فسِّر أولوا الأرحام بما في النساء غير الأزواج لا بخصوص العصبة، مع أنَّه لا مانع من كون كتاب ا لله اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو حكم ا لله لا بخصوص كونه ما في النساء، وعلى كلِّ حال لنا حجَّة على إرث ذوي الأرحام كالخال والعمِّ للأمِّ وهو الحديث. ويقدَّم المعتق على نحو الخال والخالة، وعكس ابن مسعود وخالفه ابن عَبَّاس وسائر الصحابة.

وهو متعلّق بـ«أُوْلُوا»، أو خبر لمحذوف، أي ما ذكر ثابت في كتاب ا لله، وكان المهاجر يرثه أخوه الأنصاريُّ إذا لم يكن للمهاجر وارث في المدينة، ولا يرثه وليُّه الذي لم يهاجر ولو أسلم إلى أن فتحت مَكَّة، فكان التوارث بالنسب لنسخ الهجرة، والمهاجر يرث الأنصاريَّ وحده قبل النسخ، ولو كان للأنصاريِّ وارث مسلم في المدينة لأنّه هو الذي التزم لوجه ا لله بالتناصر للمهاجر.

﴿إِنَّ اَ للهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من تفصيل الموارث وغيرها.

(فقه) وفي الآية إشارة إلى الإغراء بصلة الرحم، وإلى ضعف القول بأنّه يكفي أنّك نويت الاتّصَال بينك وبينهم و لم تنو قطعهم، والحديث يحضُّ على وصلهم بالمال والبدن والجاه، ونيَّة النفع إن لم يجد، ثمَّ إن كان ذهابك

١- آيتي ١٢ و١٧٥.

إليهم يثقل عليهم فاقتصر على النفع بلا ذهاب، ولا سيما إن كانوا فقراء، ففي ذهابك إليهم جمع مؤونة نزولك مع ما هم فيه من الفقر. وقد قيل: إنَّه لا يكرم الإنسان بما يكرهه لأنَّ فيه مضرَّة الكره، وإفسادًا لِمَا يُكْرِمُ به حتَّى إنَّهُ إن كانت لك رغبة في طعام وكان عظيما في الحسن فلا تكرم به رحمك إن كرهه، وكذا غيره، فإن يكره مجيئك فلا تجئه، وإن كره كلاما فلا تقله له إلاَّ ما أمر به الشرع كالسلام فقله، وا لله أعلم.

ولا حول ولا قوَّة إلاَّ با لله العليِّ العظيم.

تفسير سورة التوبة وآياتها ١٢٩

أنزل الله ﷻ أوّل كلّ سورة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إلاّ هذه السورة فلم ينزل ذلك فيها، لأنّها نزلت بالسيف والعذاب، وكشف الستر على المنافقين، و﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أمان. وروي عن عاصم القارئ التسمية أوّلها، وروي أنّها مكتوبة في مصحف ابن مسعود ﷺ، وذهب ابن مناذر إلى قراءتها، وفي الإقناع لأبي عمرو الداني جواز قراءتها.

[قلت:] والحقّ تحريم قراءتها وكتابتها، ثمّ رأيته لبعض الشّافِعِيّة، وعليه أطبقت المَالِكِيّة، وهو مذهبنا، قال الإمام الأندلسيّ الشاطبيّ:

ومَهْمَا تَصِلْهَا أَوْ بَدَأْتَ بَرَاءَةً لِتَنزِيلِهَا بِالسَّيفِ لَسْتَ مُبَسْمِلاً

وإنّما كتب ﷺ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في كتب إلى الكفّار لأنّه يدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم فيه ولا يرفع عنهم الأمان فيها، وأكثر ما في السورة التغليظ، وهو المراد فيها بالذات، فلا يشكل عليها أنّها ذكرت التوبة فيها.

وسمّيت أيضا سورة التوبة، ألا ترى إلى كثرة أسمائها والتغليظ، كالمقشقشة أي المبرّئة من النفاق، أي تبرّئ هي المتّعظَ بها منه، وكالبَحُوث بفتح الباء، والمبعثرة والمنقّرة والمثيرة والحافرة بمعنى البحث عمّا ستر وإظهاره، وكالمخزية والفاضحة، والمنكّلة أي المعذّبة، والمشرّدة أي المفرّقة بعنف واضطراب، وسورة العذاب والمدمدمة أي المعذبة عذابا مطبقا.

وأيضا في سورة الأنفال العهود وموالاة المؤمنين وانقطاعهم عن الكفّار، وفي براءة نبذ عهودهم وذكر الموالاة والانقطاع، فكأنّهما سورة واحدة فلم

تنزل البسملة، وتركوا فسحة ليتبيَّن أنَّ كلَّ سورة على حدة، وقد قيل: إنّهما سورة، ولا يصحُّ ما عن ابن عَبَّاس عن عثمان أنَّه ﷺ مات ولم يُبَيِّن لهم موضع هذه السورة فوضعوها بعد الأنفال لشبهها بها، بل كلٌّ من كونها بلا بسملة وتلوها للأنفال بالوحي.

قيل: هي آخر سورة نزلت، وقيل: المائدة. عن البراء بن عازب آخر سورة نزلت كاملة براءة، وعنه ﷺ: **«المائدة آخر القرآن نزولا فأحلُّوا حلالها وحرِّموا حرامها»**[1]. وآخر آية نزلت في الأحكام: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ا للهُ يُفْتِيكُمْ﴾(سورة النساء: ١٧٦). وآخر آية على الإطلاق: ﴿واتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ا للهِ﴾(سورة البقرة: ٢٨١) وما يروى من اختلاف أصحابنا هما سورة فلا تكتب البسملة فلا يصحُّ، لأنّه مبنيٌّ على أنَّ البسملة ليست من القرآن بل يكتبونها فرقا بين السورتين، وليس كذلك، بل تنزل من ا لله أوَّل السورة إلاّ هذه فلم ينزلها أوَّلها، وقيل: نزلت أوَّلها فنسخ أوَّلها فرفعت معه، وكانت كسورة البقرة قبل النسخ، وروي هذا عن عثمان أيضا، وروي: **«أنّه ما نزل عليَّ سورة بمرَّة إلاَّ سورة الأنعام وسورة براءة وسورة الإخلاص، مع كلِّ واحدة سبعون ألف ملك»**. نزلت السورة في نقض العهد وأمر عليًّا أن يقرأ أوَّلها في منىً إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ اَلْمُشْرِكُونَ﴾(سورة التوبة: ٣٣) وذلك أربعون آية، وقبل الإسلام إذا أرادوا إبطال العهد لم يكتبوا اسم ا لله أوَّل الكتاب، وهو «باسمك اللهمَّ»، فقرأها عليٌّ كما نزلت بلا بسملة، أو كما رفع أوَّلها ولم يقرأها.

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير، (١٠) باب ومن سورة التوبة، رقم ٣٠٨٦، من حديث ابن عَبَّاس في حديث طويل.

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾

نقض عهود المشركين وإعلان الحرب عليهم والبراءة منهم

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ا للهِ﴾ بفتح النون لا بكسرها تخفيفا لكثرة دخولها على «الـ»، وقرأ أهل نجد بكسرها مع «الـ» أيضا، وهو ضعيف لاجتماع الكسرتين مع كثرتها، وأما مع ساكن غير «الـ» فالراجح الأفصح الكسر، نحو منِ ابنك، وشقَّ له منِ اسمه ليجلّه، والفتح ضعيف، قاله الجاربردي. ﴿وَرَسُولِهِ﴾ من عهد المشركين متعلّق بـ«بَرَاءَةٌ»، وأمَّا «مِن» في الآية فمتعلّق بمحذوف نعت، و«بَرَاءَةٌ» خبر لمحذوف، أي هذه برآءة، أي تخلُّص وانقطاع عن العهد، و«مِنَ ا للهِ» نعت، وقوله: ﴿إِلَى اَلذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ اَلْمُشْرِكِينَ﴾ متعلّق بـ«بَرَاءَةٌ»، أو هو خبر، أو يقدَّر خاصًّا، أي واصلة، و«بَرَاءَةٌ» مبتدأ.

(بلاغة) والأوَّل أولى لأنَّه أفاد أنَّ هذه براءة بخلاف الثاني فإنَّ المخاطبين لا عهد لهم ببراءة صادرة من ا لله ، يخبرهم ا لله بأنَّها قد وصلتهم، قال السعد: يجب علم المخاطب بالنسبة التقييديَّة، أي بالنعت مثلا، اللهمَّ إلاَّ أن يدَّعى أنَّهم علموا بها أو نُزِّلوا منزلة العالم، وكلاهما بعيد، نعم لا مانع من التوسُّع فيها ولو بلا علم من المخاطب.

والمعاهِد رسول ا لله ﷺ ، ونسبت إلى الصحابة معه لرضاهم بها واتّفاقهم، ونسبت البراءة من العهد إلى ا لله ورسوله، و لم تنسب إليهم مع أنّهم عاقدون له، والناقض هو الذي يعهد لأنَّ عقده بإذن ا لله ورسوله، فتبرّأ ا لله ورسوله منه بالنقض، ولأنَّ العهد مباح بخلاف البراءة فإنّها واجبة، فنسبت للشارع سبحانه. وذكر بعض أنَّ نسبة العهد إلى ا لله تعالى ورسوله ﷺ في مقام نسب فيه النبذ من المشركين لا يحسن أدبا، كما قال ﷺ لأمراء السرايا: «**إذا نزلتم على حصن فطلبوا النزول على حكم ا لله أو على ذمّة ا لله ﷻ فأنزلوهم على حكمكم وذمّتكم، فإنّكم لا تدرون أصادفتم حكم ا لله فيهم أم لا ؟ ولأن تخفر ذمَّتكم خير من أن تخفر ذمّة ا لله تعالى**»[1]، فانظر كيف أدَّبهم، فتوقير عهد ا لله تعالى ــ وقد نكثه المشركون ــ أحرى بأن لا ينسب العهد المنكوث إليه، فنسب العهد إلى المسلمين لا إليه.

وقيل: نسب العهد إلى المسلمين لعلمه تعالى أنّه ينكث، وقيل: ذكر ا لله للتمهيد كقوله تعالى: ﴿لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَي ا للهِ وَرَسُولِهِ﴾(سورة الحجرات: ١) وناسبه أنّه لم تعد «مِن» كما أعيد عند قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾. وقوله ﷻ: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ا للهِ...﴾ خبر لفظا أمر معنى.

(سيرة) نقض الكفرة العهد إلاّ بني ضمرة وبني كنانة فوقهم نسبا، فأمر ا لله بنبذ العهد إلى الناكثين، وأمهل غيرهم أربعة أشهر، وسبب نقضهم له إرجاف المنافقين حين خرج ﷺ إلى تبوك، وإنّما يسوغ له ﷺ لخيانة ظهرت منهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبِذِ اِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾(سورة الأنفال: ٥٧) أو لتغيّي العهد بنقض ا لله أو بتمام مدّة جعلت له.

١- رواه **مسلم** في كتاب الجهاد السير رقم ٣٢٦١ من حديث بريدة.

﴿فَسِيحُواْ فِي اِلاَرْضِ﴾ قل لهم سيحوا، والأولى أن يحكى ما بعده بـ«بَرَاءَةٌ» لأنَّ فيها معنى القول. وأصل السيح: جريان الماء وانبساطه، والأمر بالسياحة إباحة بإزالة الخوف من القتل والأسر، وهو في معنى الإطلاق بعد الحصر، لأنَّهم كانوا خائفين وإخافتهم كالمنع من السير، والسياحة: السير حيث شاءوا ولَوْ بِبُعدٍ عن العمران ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ تسمَّى أشهر المدَّة في أمن، وبعدها الحرب والقتل والأسر والسبي إلاَّ إن أسلمتم، والمدَّة لأن يتفكَّروا ويراعوا الأصلح إذ لم يبق إلاَّ التشديد، ولئلاَّ ينسبوا المسلمين إلى الغدر، لو كانت البراءة متَّصلة بالحرب بعدها يتوهَّمون الغدر قبلها بالاستعداد، وليعلموا أنَّ المؤمنين غير مكترثين بهم وباستعدادهم في الأشهر.

(سيرة) نزلت براءة في شوال، وبلغت البراءة والنقض في اليوم العاشر من ذي الحجَّة، وابتداء الأشهر منه وتمامها العاشر من ربيع الثاني، فيكون سمَّى عدد الأيَّام شهرا ولو لم تكن من شهر واحد. بعث ﷺ عليًّا أن يؤدِّي فقيل هلاَّ أمرت الصدِّيق وهو أمير الحجِّ في ذلك العام، فقال: «**لا يؤدِّي عنِّي إلاَّ رجل منِّي**»، ويروى: «**لا ينبغي لأحد أن يبلِّغ هذا إلاَّ رجل من أهلي**» يعني العهد ونقضه على عادة العرب فيهما أن يتولاَّهما لرجل هو من أهله، وأمَّا غيرهما فكثيرا ما يرسل ﷺ فيه من ليس من أهله، وقيل: نزلت في عاشر ذي القعدة وبلغت في عاشر ذي الحجَّة، وابتداء الأشهر من عاشر ذي الحجَّة.

(سيرة) سافر عليٌّ إلى مَكَّة للتبليغ على العضباء ناقة له ﷺ، وليست عضباء أي مشقوقة الأذن، ولكن لقِّبت بذلك، ولَمَّا سمع الصدِّيق رغاءها وقف، فقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ، وقال لعليٍّ: أمير أو مأمور؟ فقال: مأمور، وخطب الصدِّيق اليوم الثامن وعلَّمهم المناسك، وفي ذلك تلويح إلى خلافته لعظم شأن الحجِّ ولا سيما في هذه الواقعة، وأنَّه استخلفه ﷺ في صلوات آخر

أمره، وقال عليٌّ يوم النحر عند جمرة العقبة: «يا أيُّها الناس، إنّي رسول رسول الله إليكم» فقالوا: بماذا؟ فقرأ أربعين أو ثلاثين آية من أوّل السورة، ثمَّ قال: «أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنّة إلاّ كلُّ نفس مؤمنة، وأن يتمَّ إلى كلِّ ذي عهد عهده» وذكر الأمر بالأربع في مَكّة وعرفة أيضا بأمره ﷺ في صوت عال، ولو بلّغ عنه أجنبيٌّ لربَّما لم يقبلوا ولَمَّا بلّغ عليٌّ قالوا: أبلغ ابن عمّك أنّا قد نبذنا العهد وراء ظهرنا، وأنّه ليس بيننا وبينه إلاّ طعن بالرماح وضرب بالسيوف. فتح مَكّة عام ثمانية وكان التبليغ عام تسعة، أراد الحجَّ عام تسعة فقيل له: إنَّ المشركين يطوفون عراة، فأمَّر الصدّيق على الحجِّ وألحقه عليـًّا للتبليغ، وذكرت الفتح وسببه مبسوطا في "شرح النونيَّة".

(سيرة) وفي سنة تسع عاد الحجُّ إلى ذي الحجَّة بالنسيء، وقال: «**ألا إنَّ الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض**» وعاهد يوم الحديبيَّة قريشا على وضع الحرب عشر سنين، ودخلت خزاعة في عهده ﷺ وبنو بكر في عهد قريش، فغدرت بنو بكر وأعانتهم قريش بالسلاح، فقال عمرو بن سالم الخزاعي على باب المسجد ورسول الله ﷺ مع الصحابة في المسجد:

يا ربُّ إنّي ناشد محمَّدا حلف أبينَا وأبيه الأَتلدا
كنت لنا أبا وكنَّا ولدا تُمَّت أَسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أبدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرَّدا إن سيم خسفا وجهه تربَّدا
إنَّ قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكّدا
وجعلوا لي في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعوا أحدا

وهم أذلُّ وأقــــلُّ عـــددا هم بَيَّتونا بالحطـيم هجَّدا
وقتلونا ركَّعا وسجَّدا

فقال له رسول الله ﷺ: «**نصرت ياعمرو بن سالم**» وعرضت لـه سـحابة وقال: «**إنَّ هذه السحابة لتستهلُّ بنصر بني كعب**»، وأمر أن يتجهَّزوا لفتح مَكَّة، وقال: «**لا نصرت إن لم أنصرك**» ففتح مَكَّة في عامه عام ثمانية، وحجَّ في العاشر حجَّة الوداع، لَمَّا قيل له عـام تسع: إنَّ المشركين يطوفون عراة فترك الحجَّ إلى العاشر، ولحق عليٌّ الصدِّيق قريبا من المدينة فرجع الصدِّيق، فقال: يارسول الله بأبي أنت وأمِّي هل نزل فيَّ شيء؟ قال ﷺ: «**لا ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلِّغ هذا إلاَّ رجل من أهلي، أما ترضى يا أبا بكر أنَّك معي في الغار وأنَّك معي على الحوض؟**» فقال: بلى يارسول الله، وقيل: لحقه عليٌّ في العَرِج ـ بفتح فكسر: قرية جامعة بينها وبين المدينة ستَّة وسبعون ميلا ـ ويبعد أن يرجع الصديق منها، فلعلَّه قال: هل نزل فيَّ شيء؟ بعد الرجوع من الحجِّ.

وبلَّغ عليٌّ فقال: أمرني رسول الله ﷺ بأنَّه من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدَّته، أي ولو كانت أقلَّ من أربعة أو أكثر، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، رواه يزيد بن تبيع عن عليٍّ، وهذا ردٌّ لقول مجاهد أنَّه من كان عهده أقلَّ أو أكثر وبلا مدَّة أو لا عهد له فأربعة كمن له أربعة، ويناسب قوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾.

والسنَّة أن لا يجاوز المسلمون الأربعة الأشهر لهذه الآية، وإذا ضعفوا فلا يجاوزوا عشرة أعوام لقصَّة الحديبيَّة، وأجيب بأنَّ لهم عهدهم المذكور في الآية، وقال الكلبيُّ: من له أقلُّ من الأربعة فأربعة ومن له ما فوق فله ما فوق، وقيل: ابتداء الأشهر من شوال وآخرها آخر المحرَّم، ويدلُّ له: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الاَشْهُرُ

الْحُرُمُ﴾، وجعل شوال من الحرُم تغليبا، وقيل: من عاشر القعدة فآخرها عشرة ربيع الأوَّل.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اِ۬للَّهِ﴾ غير فائتيه بعذاب الدنيا بالأسر والقتل وغيره، ولا عذاب الآخرة، فلا تغترُّوا بإمهاله وبسياحتكم واستعدادكم ﴿وَأَنَّ اَ۬للَّهَ مُخْزِي اِ۬لْكَافِرِينَ﴾ مذلُّهم في قلوبهم، فلا يعتقدون عزَّة لأنفسهم، أو هذه في القتل والأسر وما قبله في عذاب الآخرة. وأعاد لفظ الجلالة ولم يضمر لتربية المهابة، ولم يضمر للكافرين للفاصلة، وتعليق الحكم بالكفر وإن أريد بالكافرين الجنس لا المعهودين فالإظهار هو مقتضى الظاهر، ويدخل المعهودون بالأولى ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اَ۬للَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى اَ۬لنَّاسِ﴾ المشركين مطلقا، والمؤمنين ﴿يَوْمَ اَ۬لْحَجِّ اِ۬لْاَكْبَرِ﴾ أي وهذا أذان، أو هؤلاء الآيات أذان، وجعله مبتدأ مخبرا عنه بـ«إِلَى النَّاسِ» ضعيف كضعف الإخبار عن براءة بـ«إِلَى الذِينَ»، ويجوز عطفه على «بَرَاءَةٌ» إذا جعلنا «بَرَاءَةٌ» خبرا لمحذوف، أي هذه الآيات براءة وأذان، لا إذا جعلنا «بَرَاءَةٌ» مبتدأ خبره «إِلَى الذِينَ» لِئَلاَّ يلزم الإخبار عن المبتدإ قبل العطف عليه. و«يَوْمَ» منصوب بـ«أَذَانٌ»، وليس «إِلَى النَّاسِ» خبرا.

والحجُّ الأكبر: يوم النحر في رواية عن عليٍّ وابن عبَّاس، لأنَّ فيه أكثر أعمال الحجِّ، والحجُّ الأصغر: عرفة، أو العمرة لأنَّها أقلُّ أفعالا من الحجِّ، وقيل: الحجُّ الأكبر: عرفة، لحديث: «**الحجُّ عرفة**»[1]، ولحديث المسور عن رسول الله ﷺ: «**يوم الحجِّ الأكبر يوم عرفة**»، وهو رواية أخرى عن عليٍّ وابن عبَّاس، ولأنَّه من فاته عرفة فاته الحجُّ، مع أنَّه مبدأه بعد الإحرام، وأمَّا طواف الزيارة

١- تقدَّم تخريجه، انظر ج٥، ص٣٥٥.

فإنَّه مع وجوبه مبنيٌّ على الإحرام وعرفة، والفضل في هـذا القـول بـالكيف وفي الأوَّل بالكمِّ، ورجَّح بعضهم الأوَّل لأنَّ الإعلام كان في العيد، فـإنَّ الأذان ولـو كان أيضا في مَكَّة لكنَّه في العيد أعظـم، وكـذا كـان أيضـا في عرفـة لكـن هـذا أعظم لتفرُّغ الناس له أعظم من تفرُّغهم في عرفة، ولأنَّه ﷺ وقف عند الجمرة، ويروى بـين الجمرات، فقال: «**هذا يوم الحجِّ الأكبر**»[1].

وقيل: وصف بالأكبر سواء قلنا إِنَّهُ عرفة أو العيد لظهور عـزِّ الإسـلام فيـه عن الشرك، قيـل: ولاتـِّفاقه أيضـا عيـدًا لأهـل الكتـاب، ولاجتمـاع المشـركين والمسلمين فيه، [قلت:] وهو ضعيف، إذ لا يعتـبر عيـد أهـل الكتـاب واجتمـاع المشركين بعد الإسلام، ولم يتـَّفق عيد المسلمين واليهود والنصارى قبل ذلـك، ولم يتـَّفق إلى الآن، ولعلَّه لا يتـَّفق بعد. وعن مجاهد: يوم الحـجِّ الأكـبر أيـَّام الحجِّ كلُّها. فاليوم بمعنى الوقت كما يقال: يوم الخصب وليس يوما واحدا.

و«مِن» متعلِّق بـ«أَذَانٌ»، أو بمحذوف نعت لـ«أَذَانٌ»، ولكن إذا جعل نعتـا تعلَّق «يَوْمَ» باستقرار النعت لا بـ«أَذَانٌ»، و«أَذَانٌ» بمعنى إعـلام اسـم للإيـذان، كالأمان اسم للإيمان، والعطاء اسم للإعطاء. ﴿**أَنَّ اَ للهَ بَرِيءٌ مِّنَ اَلْمُشْـرِكِينَ**﴾ أي بـأنَّ ا لله، أو لا تقـدَّر البـاء لِتَعَدِّيهِ، لأنـَّه بمعنـى الإعـلام، والمفعـول الأوَّل محذوف، أي إعلام الناس أنَّ ا لله بريء من عهد المشركين ﴿**وَرَسُولُهُ**﴾ عطـف على المستتر في «بَرِيءٌ» للفصل بـينهما.

(نحو) أو يقدَّر: ورسوله بريء، أو ورسوله كذلـك، أو عطـف على محلِّ اسم «أَنَّ»، فيكون في «بَرِيءٌ» ضمير ا لله ورسوله، وأفرد لشبهه بالمصدر،

١-رواه **البخاري** في كتاب الحـجِّ، (١٣١) بـاب الخطبـة أيـَّام منًى، رقـم ١٦٥٥، مـن حديث ابن عمر.

وقال ابن الحاجب: لا يجوز العطف على محلِّ اسم «أَنَّ» بالفتح لأنَّ الكلام مُؤَوَّل بالمصدر بحسب العامل، بخلاف المكسورة فاسمها كأنَّه مرفوع على الابتداء، لاعتبار حدوث «أَنَّ» و لم يقل: أنَّ ا لله ورسوله بريئان ليحتمل تلك المعاني وليذكر براءة ا لله وبراءة رسوله إذا قدَّرنا: ورسوله بريء، أو ورسوله كذلك، وليس قوله: ﴿أَنَّ اَ للهَ بَرِيءٌ مِّنَ اَلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ تكريرا لقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ اَ للهِ وَرَسُولِهِ...﴾ لأنَّ تلك إخبار لفظا بثبوت البراءة للناكثين، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بالبراءة للناس المعاهدين وغيرهم والمسلمين.

روي أنَّ بعض العَامَّة قرأ بجرِّ ﴿رَسُولُهُ﴾ وسمعه أعرابيٌّ فقال: أنا بريء من رسول ا لله إن برئ ا لله منه، فلبَّبه القارئ إلى عمر فحكى له الأعرابيُّ الجرَّ، فقال له عمر: إنَّما التلاوة: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فرفع، فقال الأعرابيُّ: أنا بريء مِمَّن برئ ا لله ورسوله منه قبَّح ا لله ذلك القارئ لا تجعلوه إماما بعدُ، وأمر عمر الناس بتعلُّم العَرَبِيَّة، وروي هذا في الأعرابيِّ مع أبي الأسود وعليٍّ، فوضع عليٌّ بعض النحو كما شهر. وروي أنَّ الحسن البصري قرأ عمدا بالجرِّ، فإن صحَّ فقسم أو على الجِوار ولو فصل العاطف، لا على العطف على المشركين فإنَّ القصد له إشراك كما أنكر الأعرابيُّ.

﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ من الشرك ونقض العهد، والخطاب بعد الغيبة للتهديد، وذلك مترتِّب على الأذان، ولذلك قرن بالفاء، وكذا ترتَّب عليه «إِن تَوَلَّيْتُمْ...» لأنَّه عطف على «إِن تُبْتُمْ...» ﴿فَهُوَ﴾ أي التوب المعلوم من «تُبْتُمْ»، وإن رجعنا الضمير إلى التوبة جاز، لأنَّ الخير مذكَّر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من البقاء على الشرك، فإنَّ البقاء عليه حسن عندهم؛ أو ﴿خَيْرٌ﴾ بمعنى نفع، أو هو باق على صيغة التفضيل خارج عن معناه، فمعناه: فهو حسن والشرك قبيح.

﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن التوبة، أو بقيتم على التولّي عن الإيمان، فإنَّ التولّي موجود، فلا بدَّ في شرط التولّي من مجاز وهو الثبات عليه، والإلزام تحصيل الحاصل، وإيضاح المجاز أنَّ الثبات عليه مسبَّب ولازم بياني له ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اِ للهِ﴾ بهرب عنه، ولا بمقاومة له، ولا بقدرة على عذابه، وعدم توجُّع به في الدنيا لمن قُتلَ أو أُسر، وأمَّا عذاب الآخرة ففي قوله: ﴿وَبَشِّرِ اِلذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ موجع، على أنَّ المراد بـ«الذِينَ كَفَرُوا» مَن تقدَّم ذكرهم، وإن أريد العموم دخل المذكورون أوَّلاً، وإن أريد الأوَّلون فالتعبير بالظاهر ليذكر علَّة العذاب وهو الكفر، أو يطلق نفي الإعجاز ويراد بالعذاب الأليم عذاب الدنيا والآخرة، وذكر التبشير في السوء تهكُّم، وفي قوله: ﴿تُبْتُمْ﴾ طريق التفات من الغيبة إلى الخطاب بالترغيب في التوبة، وذلك أنَّ في الخطاب لذَّة للمخاطب ـ بفتح الطاء ـ وتحبُّبا إليه، أو وجه الالتفات تهديدهم على عدم التوبة والتولّي عنها، وعلى جواز استعمال الكلمة في معان يفسَّر بالتلذيذ والتحبُّب والتهديد جملة، أو توزيعا بحسب الصلوح.

﴿إِلاَّ اَلذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ اَلْمُشْرِكِينَ﴾ هم بنو ضمرة وحيٌّ من كنانة، لم ينقصوا شرطا، ولم يظاهروا أحدا عليكم من الكفَّار، كما قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهد، ولم يقتلوا أحدا منكم أو مِمَّن في عهدكم، فهو مفعول أوَّل مؤخَّر، فإنَّ «يَنقُصُ» يكون لازما ومتعدِّيا لواحد ومتعدِّيا لاثنين، أو مفعول مطلق، أي لم ينقصوكم نقصا، وإنَّما قلت: مفعول أوَّل مؤخَّر لأنَّه فاعل في المعنى إذ هو الذي يسقط وينقص ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُواْ﴾ يعينوا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أو على من في عهدكم كخزاعة ﴿أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى انقضاء مدَّتهم.

بقي من مدَّة بني ضمرة وكنانة تسعة أشهر، وهم باقون على العهد، فأمر بالوفاء لهم، ولا يجعل الوافي كالغادر، وقيل: بنو ضمرة وبنو مدلج هما المراد، وأنّهما حيَّان من كنانة، وأخرج ابن أبي حاتم أنَّه قال: هؤلاء قريش عاهدوا نبيء الله ﷺ زمان الحديبيَّة وبقي لهم من مدَّتهم أربعة أشهر بعد يوم النحر، فأمر ﷺ أن يوفِّي لهم ما بقي، وهو خلاف ما شهر.

والاستثناء إمَّا منقطع، أي لكنَّ الذين عاهدتم من المشركين ليس حكمهم حكما بأربعة أشهر، وبيَّن هذا بقوله: ﴿فَأَتِمُّوا...﴾، ولا يلزم من كونه منقطعا أن يكون منصوبا على الاشتغال، أي صونوا الذين عاهدتم، أو راعوهم، أو مبتدأ مخبرا عنه بالأمر، وإمَّا متّصل من قوله: ﴿الذِينَ عَاهَدْتُّم مِّنَ اَلْمُشْرِكِينَ﴾ وفي هذا فصل كثير، وعليه فهو كأنّه قيل هذا المعنى: براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين الذين ليسوا بني ضمرة.

﴿إِنَّ اَللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وإتمام مدَّتهم من التقوى، وهو واجب وعدمه فسق، ولذلك ناسب ذكر التقوى هنا.

(فقه) وأيضا ذكرها إشارة إلى أنَّ وفاء العهد مع إتمام المدَّة لهم لا يحبُّهم الله به، لأنّهم لم يتّقوا الشرك، والله ﷻ يحبُّ إتمام الوعد حتّى إنَّهُ من حلف على غير معصية فإنَّ الله ﷻ اختار له أن لا يحنث إلا لغرض مهمّ، وحتّى إنَّهُ من رأى ميِّتا في منامه وأخبره بشيء أو أمره به أو نهاه واستكتمه الميِّت فأنعم له بالكتم لم يجز له الإخبار به لحديث: «**حرمة موتانا كحرمة أحيائنا**».

﴿فَإِذَا اَنسَلَخَ اَلْأَشْهُرُ اُلْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ اُلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ اُلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ اُلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اَللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ اَحَدٌ مِّنَ اَلْمُشْرِكِينَ اَسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

فرضيَّة قتال مشركي العرب في أيِّ مكان ومشروعيَّة الأمان

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الاَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ انقضت، وأصل الانسلاخ: انتزاع الشيء عمَّا لابسه، كانسلاخ الجلد عن الشاة، شبَّه تكون الناس من أوَّل الشهر إلى تمام نصف الشهر شيئا فشيئا بالدخول في اللباس حتَّى يتمَّ لبسه، وكنَّى عن ذلك بلازمه وهو الانسلاخ الموضوع للانتزاع، وهو هنا مستعار للتجرُّد عن الشهر شيئا فشيئا حتَّى يتمَّ، والمراد بالأشهر الحرم: شوال وذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم، وسمَّى شوالا شهرا حراما تغليبا، وسهل التخريج على ذلك أنَّ الانسلاخ جاء على آخر الثلاثة التي هي شهور حرم، أو المراد: عشرون من ذي القعدة إلى تمام عشرة من ربيع الأوَّل، أو عشرون من ذي الحجَّة إلى تمام عشرة من ربيع الثاني، وسمَّى الكلَّ حرما تغليبا، أو لحرمة القتال فيها في ذلك العام فقط. و«الـ» على ذلك كلِّه للعهد منظورا فيه إلى قوله: ﴿أَشْهُرٍ﴾ مع زيادة أنَّها حرم.

وقيل المراد: رجب وذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم، وهو الأنسب بحسب الظاهر، لأنَّهنَّ المشهورة بالأشهر الحرم، ولأنَّ لفظ النكرة إذا أعيد بقيد آخر كان غير الأولى، وقد زيد هنا قيد الحرم فهنَّ غير المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي الاَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لكن يقتضي بقاء تحريم القتال في رجب وذي القعدة وذي الحجَّة والمحرَّم بلا نسخ، لأنَّ المفهوم إذا لم ينسلخن فلا قتل، كلَّما كنَّ فلا قتل، وكلَّما انسلخن كان القتل، وذلك أنَّه لا ناسخ لهذا الاستمرار لو ثبت، مع أنَّهم اتَّفقوا إلاَّ قولا ضعيفا على أنَّه يحلُّ القتال فيهنَّ.

فالصواب أنَّ الأشهر الحرم هي قوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وهنَّ شوال وذو

القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم على ما اختاره بعض، أو ذو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم ورجب، فإذا انسلخن حلَّ القتال أبدا فيهن وفي غيرهنَّ بعدُ، [قلت:] ولا يخفى أنَّ المراد هذه الأشهر من هذه السنة خاصَّة لا هذه الأشهر في كلِّ سنة، لأنَّ الآية بعيدة عن هذا، ولا يتبادر منها هذا، والترتيب بالفاء يأبى هذا أيضا، ولأنَّه مخالف للسياق الذي يقتضي توالي هذه الأشهر، حتَّى قيل: إنَّه مخالف للإجماع على أنَّ هذه الأشهر يحلَّ فيها القتال رجب وذو العقدة وذو الحجَّة والمحرَّم.

[قلت:] والحقُّ أنَّه لا إجماع على حلِّ القتال فيها، بل قد قيل ببقاء حرمته إلاَّ إن قاتلوا. وعلى النسخ يكون النسخُ آيةَ السيف التي نسخت العفوَ والصفحَ والإعراضَ والمسالمةَ، قال ابن حجر: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ (سورة التوبة: ٣٦)، وقيل: هما، وقيل: الناسخ الإجماع، ووجهه أنَّ الاجماع إنَّما يحصل بحجَّة من القرآن أو الحديث ولا نعلم بها، إلاَّ أنَّك قد علمت أنَّه لا إجماع.

﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في حلٍّ أو حرم وفي كلِّ زمان أيضا أبدا، لأنَّ عموم المكان يوجب عموم الزمان، وبعكس ذلك عند الإطلاق ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي أسروهم للاسترقاق، أو لِتَرَوْا فيهم رأيكم، وأمَّا الفداء فجاء بعد الإثخان، وقيل: لا تسترقُّ العرب كما لا تؤخذ منهم جزية، وللإمام قتل الأسرى ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ عن أن يتصرَّفوا في البلاد لتجر أو غيره، وعن المسجد الحرام، وفي قرية إن تحصَّنوا فيها ﴿وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ في كلِّ موضع رَصْد، أي موضع مراقبة، وهو موضع سلوكهم، لئلاَّ ينبسطوا في البلاد فتضيق صدورهم فيسلموا.

(نحو) ونصب «كُلَّ» على الظرفية لـ«اقْعُدُواْ»، وفيه دليل جواز نصب اسم المكان الميميِّ بغير ما يوافقه لفظا ومعنى، لأنَّ نصب «كُلَّ» على الظرفية فرع نصب «مَرْصَد» الذي هو اسم مكان ميميّ عليها، وقال الأخفش:

منصوب على تقدير «على» وضعَّفوه، ومثل «على» «في»، وهي أولى من «عَلَى»، إذ هي للظرفية؛ ولعلَّ داعيه لذلك عدم الموافقة المذكورة، وقيل: يجوز لموافقة المعنى ولو اختلف اللفظ، فإنَّ القعود والرصد من معنى واحد، وهو قول حسن تدلُّ له الآية، نح:و قعدت مجلس عمرو.

وتلك الأوامر للإباحة، ولا يجوز الخروج عن جميعها، اللهمَّ إلاَّ بالفداء أو الإطلاق بحسب نظر الإمام بعد نزول جوازهما ﴿**فَإِن تَابُواْ**﴾ من الإشراك إلى التوحيد ﴿**وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ**﴾ وصاموا رمضان وأدَّوا الفرائض، واقتصر على الصلاة والزكاة لكونهما رأسي العبادة البدنيَّة والماليَّة، فلو وحَّدوا وقالوا: لا نصلِّي ولا نؤتي الزكاة ولا نصوم رمضان أو نحو ذلك لم يُخَلَّ سبيلهم، بل يبقون على القتل والأخذ والحصر والتضييق عليهم، فقد جاء حديث بقتل تارك الصلاة ولو بلا إنكار لها، واحتاطوا له بالاستتابة أوَّلاً، وأمَّا قوله ﷺ: «**فإذا قالوها فقد حقنوا منِّي دماءهم**»[1] فمعنى «قالوها»: دانوا بها، والضمير لكلمة الشهادة والصلاة والزكاة، لأنَّ في بعض الروايات: «**أمرت أن أقاتل الناس حتَّى يقولوا لا إله إلاَّ ا لله، وأنِّي رسول ا لله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**»[2]، ويلتحق بهما غيرهما، واقتصر عليهما لأنَّ الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام.

١- رواه **الربيع** في كتاب الجهاد، (١٧) باب جامع الغزو في سبيل ا لله، رقم ٤٦٤. من حديث ابن عبَّاس. رواه **البخاري** في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بدون رقم، من حديث عمر.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الإيمان، (١٥) باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة... رقم ٢٥. من حديث ابن عمر. ورواه **مسلم** في كتاب الإيمان، (٨) باب الأمر بقتال الناس حتَّى يقولوا لا إله إلاَّ ا لله، رقم٣٦ (٢٢).

(فقه) وزعم أبو حنيفة أنَّه يحبس الموحِّد التارك للصلاة فلا يقتل، وقد قال الصدِّيق بقتل مانعي الزكاة وكذا يقتل تارك الصلاة، قال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتَّى يقولوا لا إله إلاَّ ا لله، وأنِّي رسول ا لله، ويقيموا الصلاة ويوتوا الزكاة**» والقتل على ترك الصلاة أمكن وكذا الصوم، بخلاف الزكاة فقد يمكن للإمام أخذها قهرا، فإذا قال: لا أصلِّي قتل وإذا قال: لا أقضي الفائتة أو لا أصوم أو لا أقضيه قتل، وقيل: إذا قال: لا أصلِّي فلا يقتل حتَّى يخرج وقتها، وقيل: حتَّى يبقى أقلُّ مِمَّا يدركها فيه، ومن ترك الصلاة أو الزكاة أو نحوهما إنكارا فهو مشرك يقتل.

﴿**فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ**﴾ لا تفعلوا بهم شيئا من ذلك ﴿**إِنَّ اَ للهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ تعليل جمليٌّ، أي لأنَّ ا لله غفور لشركهم بالتوبة، ويغفر ذنوب كلِّ تائب، ومنعم لهم بالجنَّة إذا تابوا، ولكلِّ تائب.

﴿**وَإِنَ اَحَدٌ مِّنَ اَلْمُشْرِكِينَ**﴾ فاعل لـ«اسْتَجَارَكَ» محذوف، أو مبتدأ لكون الخبر فِعْلِيًّا عند بعض، فساغ كون الشرط جملة اِسمِيَّة، وهو قول عن سيبويه، وأجيز ولو كان الخبر اسما أو فاعل مقدَّم، والصحيح الأوَّل ﴿**اَسْتَجَارَكَ**﴾ طلب أن يكون لك جارا أي مجاورا، أو طلب منك أن تجيره من القتل ونحوه ليقضي حاجة، أو ليسمع كلام ا لله ﴿**فَأَجِرْهُ**﴾ اجعله جارا أي مجاورا، أو امنعه من القتل ﴿**حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اَ للهِ**﴾ القرآن فيعرف أنَّه من ا لله، ويعرف الثواب والعقاب، قيل: كلُّه، وقيل: ما نزل منه، وقيل: سورة التوبة، وقيل: الآيات المشتملة على التوحيد وهو الصحيح.

(فقه) ومدَّة اللبث أربعة أشهر، وصحَّحه بعض الشَّافِعِيَّة، والصحيح أنَّها إلى رأي الإمام، وسواء في ذلك كلِّه أنَّه جاء لسماعه أو لحاجة، فإذا خالط المسلمين لم يخطئه السماع، و«حَتَّى» للتعليل، أي ليسمع كلام ا لله ولو جاء

لغير سماعه، متعلّقة بـ«أَجِرْهُ» لا بـ«اسْتَجَارَ» على التنازع، لأنَّ عمل «حتّى» في الضمير ضرورة فلا يقدَّر للأوَّل حتّاه، بل تقدَّر للأوَّل على الحذف لدليل، أي: استجارك حتّى يسمع كلام الله ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ...﴾ بل لا يقدر للأوَّل لأنَّ المراد: استجارك مطلقا لا بقيد السماع، وليست للغاية، ولا يُنافيها كما قال بعض، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ موضع أمنه وهو دار قومه، أو دار شرك ولو غير دار قومه، وإن أسلم فهو منكم لا يرجع لدار شرك إلاَّ لضرورة، ثمَّ يرجع إليكم.

قال مشرك لعليٍّ: إن أراد رجل مِنَّا أن يأتي محمَّدا ﷺ بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أو لحاجة، فهل يقتله؟ فقال: لا إذ قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾ والآية بيَّنت أنَّه لم ينحصر الشرع بعد انسلاخ الأشهر في القتل وما بعده، بل لهم توسعة أن يجيئوا للسماع مطلقا، أو لحاجة بشرط الإذن، أو بإخبار مريده بذلك، وإذا استأمن للتجر أعطوه الأمن عند الفجر، والصحيح أنَّه لا يعطاه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إجارة المستجير وإبلاغه مأمنه، وأولى من ذلك عود الإشارة إلى مفرد بلا تأويل، وهو الأمر، أي ذلك الأمر بإجارة المستجير وبإبلاغه مأمنه ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ لأنَّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ دين الله، وهو بعيد عن أفهامهم لعدم نَظَرهم في دلائل الله ﷻ، فيُنظَرُون قَدْرَ ما يعلمون، وهم في ذلك القدر مشركون مقطوعو العذر، والاستجارة غير منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾(سورة التوبة: ٣٦) خلافا لسعيد بن أبي عروبة[١] والسدِّيِّ والضحَّاك في أنَّها منسوخة بذلك.

١- سعيد بن أبي عروبة مهران العدوي مولاهم أبو النضر البصري، تابعي محدِّث حافظ، روى عن الحسن وابن سيرين وغيرهم، وروى عنه الأعمش وشعبة والثوري وغيرهم، =

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۞ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۞ اشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۞ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَإِن نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۞﴾

أسباب البراءة من عهود المشركين وقتالهم

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين ﴿عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾؟ والاستفهام إنكاريٌّ بمعنى النفي، ولو كان حقيقيًّا لم تكن لفظة إلاّ بعدَه، ولا يكون الاستفهام الحقيقيُّ إلاّ مِمَّن جهل وا لله بكلِّ شيء عليم، والمعنى لا يثبت لهم عند ا لله ورسوله دون أن ينقضوه، بل لا بدَّ من أن ينقضوه لوغْرِ صدورهم، فالعهد فعل لهم، أو لا يثبت ا لله لهم عهده، وقد نقضوه، فالعهد فعل ا لله ورسوله.

قال أحمد: «لم يكن له كتاب إنّما كان يحفظ ذلك كلّه»، وقال أبو حاتم: «قبل أن يخلط ثقة، وكان أعلم الناس بحديث قتادة»، توفي رحمه ا لله سنة ١٥٦ هـ. السيوطي: **طبقات الحفّاظ**، ص٨٥.

﴿إِلاَّ اَلذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ اَلْمَسْـجِدِ اِلْحَـرَامِ﴾ الاستثناء إمَّا منقطع أي لكن الذين عاهدتم حكمهم ليس كذلك.

(نحو) وقد علمت أنَّه لا يلزم في المستثنى المنقطع أن يكون مبتدأ، أو منصوبا على الاشتغال، وجاز أن يكون مبتدأ خبره ﴿فَمَا اَسْتَقَامُواْ لَكُمْ...﴾، أو منصوب على الاشتغال استقيموا مع أنَّه كجواب شرط، أو أنَّه جوابه وما لا يعمل فيما قبله لا يفسِّر عاملا فيه، [قلت:] والتحقيق الجواز لأنَّه مجرَّد حذف لدليل لمنقطع هو منصوب، وإمَّا متَّصل بدل من «اَلْمُشْرِكِينَ» مجرور، ويجوز النصب.

والمراد بالمسجد الحرام: قربه، أو سُمِّيَ الحرم مسجدا لأنَّ المعاهدة في الحديبيَّة، وهي قريبة من الحرم ومن المسجد، والمعاهدون عند المسجد الحرام قبائل من بني بكر وهم خزيمة، وبنو مدلج من ضميرة، وبنو دُبَل وهم بنو ضميرة، والآية نزلت بعد نقض قريش العهد، وذلك قبل فتح مَكَّة لا قبل النقض لقوله تعالى: ﴿فَمَا اَسْتَقَامُواْ لَكُمْ﴾ أي أقاموا على العهد لكم ﴿فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾ إذ لا يقال لاستقامة مضت ﴿فَمَا اَسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ﴾، فإنَّما المعاهدون عند المسجد الحرام هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ اَلذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ اَلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ وذلك أنَّ هذه الآيات نزلت في شوَّال سنة تسع وقريش نقضت في السابعة والفتح في الثامنة.

(نحو) و«مَا» شرطيَّة واقعة على الزمان، قيل: هي مبتدأ، ويقدَّر: فما استقاموا فيه فاستقيموا لهم فيه، لأنَّ «مَا» لا تضاف ولو كانت بمعنى زمان، أو زمانيَّة شرطيَّة، والمعنى: استقيموا لهم في زمان استقاموا لكم فيه، ويجوز أن تكون مَصدَرِيَّة ظرفيَّة، وزيدت الفاء بعدها لشبهها بالشرط في التعليق، والمصدر معلَّق بـ«استقيموا لهم استقامتَهم لكم»، أي مدَّة استقامتهم لكم، أو

المصدر مفعول مطلق، أي: استقيموا لهم استقامتهم لكم، أي مثل استقامتهم، وأجاز ابن مالك الجزم بـ«مَا» المَصدَرِيَّة الظرفيَّة.

وقوله: ﴿إِلاَّ اَلذِينَ عَاهَدتُّم عِند اَلْمَسْجِدِ اِلْحَرَامِ...﴾ مثل قوله: ﴿إِلاَّ اَلذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ اَلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا...﴾، قيَّد الأوَّل بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ...﴾ والثاني بقوله: ﴿فَمَا اسْتَقَامُواْ﴾ فكلاهما فيه تقييد، وكذا قيَّد الأوَّل بوجوب إتمام العهد مرتَّبا على عدم النقض، ومظاهرة عليهم، وقيَّد الثاني بوجوب الاستقامة مرتَّبا على استقامتهم بإتمام العهد ﴿إِنَّ اَ للهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ومن الاتِّقاء الاستقامة لهم ما داموا مستقيمين، وقد استقام ﷺ والمؤمنون لقريش حتَّى نقضوا العهد بإعانة بني بكر الذين في عهدهم على خزاعة الذين في عهده ﷺ.

﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهد... أو كيف يثبتون على العهد أو يبقيه لهم ا لله والحال أنَّه ﴿إِنْ يَّظْهَرُوا عَلَيْكُمْ...﴾ الآية، فذلك تكرير للإنكار وتنبيه على أنَّ في قلوبهم غيظا عليكم، وقصدا لإهلاككم، فَحُذِفَ الفعل للعلم به، كقول كعب الغنوي من قصيدته التي يرثي بها أخاه أبا المغوار التي منها: لعلَّ أبا المغوار منك قريب، ما نصُّه:

وخبرتماني إنَّمَا الموت بالقرى فكيف وهاتا هضبة وقليب؟

ويروى هضبة وكثيب، أي فكيف مات أخي أبو المغوار في البدو، وحيث الجبل المنبسط والبئر التي لم تُطْوَ أو التَّل من الرمل؟ وأنتما تقولان إنَّما الموت في القرى بالوباء أو الطاعون! وقيل: الهضبة والقليب جبلان، وعلى كلٍّ هما في البدو، والصحيح كثيب بدل قريب لأنَّ قبل البيت:

لعمركما إنَّ البعيد الذي مضى وإنَّ الذي ياتي غدًا لقريبُ

وأراد بغدٍ مُطلق يوم بعد يومك ولو كان بعد أيَّام أو سنين.

ويجوز أن يقدَّر كيف لا تقتلونهم ولا تأخذونهم ولا تحصرونهم ولا تقعدوا لهم كلَّ مرصدٍ والحال ماذكره الله ﷻ بقوله: ﴿وَإِنْ يَّظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يعلوا عليكم بالغلبة والظفر بكم ﴿لاَ يَرْقُبُواْ﴾ لا يُراعوا ﴿فِيكُمُ إِلاًّ﴾ يمينا بأنَّا لا نضرُّكم، وفسِّر الإلُّ بالميثاق وماصَدَقُ ذلك واحد، وبالقرابة وهو مروي عن ابن عَبَّاس، قال حسَّان بن ثابت:

لَعمرك إن إلَّكَ من قريش كإِلِّ السَّقْبِ من رَأَلِ النَّعام

وبا لله على أنَّ من أسماء الله الإل، وبالرُّبُوبيَّة، وبالتربية، وباللمعان، وكلٌّ منهما لا يخلو من معنى الظهور، وبرفع الصوت الواقع منهم حين الحلف عهدًا، وبالظهور والقوَّة، وبالأمان على أنَّه لفظ عبريٌّ، ، وبالحِدَّة وفي اليمين حدَّة على الوفاء، وكذا القرابة فيها حدَّة على المحافظة، [قلت:] والأوَّل أولى، ويناسب التفسير با لله قراءة: «إيلاً» كجبرائيل وإسرائيل وعزرائيل ومكائيل، ولَمَّا قرئ على الصدِّيق رضي الله عنه كلام مسيلمة لعنه الله، قال: إنَّه كلام لم يخرج من إلٍّ، أي إله، وقيل: هو العهد. والعطف تفسير، والأصل التأسيس.

﴿وَلاَ ذِمَّةً﴾ عهدا، لأنَّه يذمُّ على إضاعته، وكلُّ ما يذم على إضاعته فهو ذمَّة، وفسَّر أبو عبيدة وابن زيد والسدِّيُّ إلاًّ بعهد، فيكون الذمَّة بمعنى العهد معطوفا للتأكيد، كما هو وجه في قوله: ﴿صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾(سورة البقرة: ١٥٧) وفي قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي﴾(سورة يوسف: ٨٦). وقيل: الذمَّة: الضمان، ومن ذلك: فلان في ذمَّتي، أي ضماني، وأهل الذمَّة لأنَّهم في ضمان المسلمين بالحفظ لهم، ولا يحسن التفسير به لأنَّ قريشا ليسوا في ذمَّة المسلمين ولا المسلمون في ذمَّتهم، اللهمَّ إلاَّ بمراعاة العهود، أو الذمَّة: الأمان

كقوله ﷺ: «**المسلمون يد على من سواهم يسعى بذمَّتهم أدناهم**»[1]، أي أمانِهم، فإذا أعطى العبد أمانا لكافر ثبت، وكذا إن أعطته المرأة أو الطفل، وقد أجاز عمر أمان العبد لكافر وقدَّمه على جميع العسكر، فيكون تأكيدا لـ«إِلاًّ» إذا فسَّر «إِلاًّ» بأمان، أو الذمَّة: كلُّ حقٍّ يعاب على تركه.

﴿**يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ**﴾ إذا لم يظهروا عليكم، وما قبل هذا في ظهورهم وهذا في عدمه، فهم مشركون من قريش ينافقون إذا خافوا بِإِلاَنَةِ القول وباليمين الفاجرة، فيخدعون المؤمنين «**المؤمن غِرٌّ كريم والكافر خَبٌّ لَئِيمٌ**». ﴿**وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ**﴾ تمتنع قلوبهم من الوفاء أشدَّ الامتناع، وإنَّما يستعمل أبى في الامتناع الشديد لا في الامتناع مطلقا، فكلُّ إباء امتناع ولا عكس بالمعنى اللغويِّ. والجملة الأولى مستأنفة لا حال من واو «يَرْقُبُوا»، لأنَّهم في حالة انتفاء رقوبهم لا يُرضُون المسلمين بل يضرُّونهم غاية ما قدروا، ولأنَّ المراد إثبات إرضائهم المؤمنين بالوفاء بالعهد، أو بوعد الإيمان ﴿**وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ أي كلُّهم، والمراد: الأشقياء، وصحَّ الكلام فيهم، وإن أريد ذمُّ فعلهم من شقي ومن سعد فـ«أَكْثَرُ» على ظاهره.

[قلت:] وذمُّ الفعل إذا صدر من سعيد ليس براءة له من الله ﷻ، فهو في ولاية الله إلاَّ أنَّه ذُمَّ فعله ولا بدَّ. أو تحرَّز بـ«أَكْثَرُ» عن بعض المشركين الذين يبعدون عن نقض العهد لدنس النقض ولمروءتهم، فالفسق على هذا خصوص الخروج عن العهد، فمن المشركين من لم يفسق بالعهد، أي لم يخرج عنه.

١- رواه **ابن ماجة** في كتاب الديات، (٣١) باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، رقم ٢٦٨٣. ورواه **الهندي** في الكنز، ج١، ص٩٣، رقم٤٠٣، مع زيادة في آخره. من حديث ابن عمر.

﴿اشْتَرَوْا بِئَايَاتِ اِللهِ﴾ التي في وجوب الاستقامة والوفاء بالعهد كما يقتضي المقام، أو جميع الآيات فيدخل ذلك بالأولى ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ مثمَّنا قليلا، أو ضمَّن «اشْتَرَوْا» معنى استبدلوا على طريق الاستعارة التبعيَّة لجامع التعاوض، أو شبَّه الآيات بما يبتاع ورمز إليه بالشراء فهي مكنيَّة، و«اشْتَرَوْا» تخْييل، أو عبَّر بالمقيَّد وهو الشراء عن المطلق وهو الاستبدال، على طريق المجاز المرسل، وعلى كلٍّ حال المعنى: تركوا آيات ا لله ليحصلوا [على] ما يشتهون، ومن ذلك أنَّ أبا سفيان أطعمهم طعاما و لم يطعم حلفاء رسول ا لله ﷺ، ونكثوا العهد للإطعام ﴿فَصَدُّواْ﴾ أعرضوا أو منعوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ دينه والحجِّ والعمرة، أو السبيل حقيقة، وهو الطريق إلى البيت ومواضع الحجِّ والعمرة. والفاء لترتيب الصدِّ على الاشتراء. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ساء عملهم أو ما يعملونه، والمخصوص محذوف أي عملهم هذا، أو ما ينكثونه هذا، أو انتفاء رقوب الإلِّ والذمَّة المذكورة في قوله: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُومِنٍ اِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ فهذا تفسير للمخصوص بالذمِّ لا تكرير، بخلاف ما إذا جعلنا المخصوص عملهم أو ما عملوه فإنَّه تكرير، ولا يخرج عن التكرير بذكر ﴿مُومِنٍ﴾ هنا دون ما تقدَّم، لأنَّ قوله: ﴿فِيكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين، فقد ذُكِر المؤمنون في كُلٍّ ومؤمن عامٌّ لأنَّه في سياق النفي، ولا يقال: المراد هنا: تقبيحهم بعدم مراعاة حقوق المؤمنين على الإطلاق فلا تكرير لأنَّا نقول: هذا مخلٌّ بانتظام هذا بما قبله.

وقيل: الأوَّل عامٌّ في المنافقين، وهذا خاصٌّ باليهود الذين أعانوا على نقض العهد، والأعراب الذين أطعمهم أبو سفيان يوم أحد، أو أطعمهم لنقض العهد، فالآيات: القرآن والتوراة، [قلت:] وهو ضعيف لتخصيص الضمائر بلا دلائل، والضمائر قبل هذا للمشركين الناقضين، فينبغي أنَّ الكلام فيهم، أو ذُكرا معًا

لأنَّ الأوَّل جواب لـ«إنْ» والثاني تقبيح حالهم. ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ في الشرِّ بنقضهم العهد، وتعدِّي حدود الله.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن الشرك والنقض ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وهو متعلّق بـ«إِخْوَانُ»، لأنَّ المعنى حصول الأخوَّة في الدين، عاملوهم معاملة الإخوان ولا تعدُّوا عليهم ما مضى قبل الإسلام، فإن تابوا عن الشرك وقالوا: لا نقيم الصلاة ولا نؤتي الزكاة فهم باقون على الشرك، بخلاف من هو موحِّد على الإطلاق، وترك الصلاة أو الزكاة تشهِّيًا لا إنكارا فإنّه غير مشرك إلاّ أنّه في النار إن لم يتب.

﴿وَنُفَصِّلُ الاَيَاتِ﴾ نُبيِّنها، أي نجيء بها من أوَّل الأمر مبيَّنة في شأن المشركين الناكثين وأحكامهم، أو الآيات مطلقا، فيدخل فيها آيات ذلك الشأن ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتدبَّرون فيعلمون، فعبَّر عن السبب بلفظ المسبَّب، وعن الملزوم بالازم، وقوله: ﴿وَنُفَصِّلُ الاَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ معترض بين كلامين متناسبين للحثّ على تفهُّم أحكام المعاهدين وخصال التائبين[1].

﴿وَإِن نَّكَثُواْ﴾ نقضوا، وهو والجواب معطوفان على قوله: ﴿إِن تَابُواْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾، قابَلَ الشرطَ والجوابَ بالشرط والجواب. ﴿أَيْمَانَهُم﴾ جمع يمين بمعنى الحلف ﴿مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ يتقدَّم العهد ويعقبه الحلف على أن يستمرَّ العهد، ونقض اليمين نقض للعهد، فـ«مِنْ» متعلّقة بـ«نَكَثُوا» أو بمحذوف حال من «أَيْمَانَهُمْ»، ويجوز أن يفسَّر الأيمان بالتوثقات مطلقا، أي توثيق ـ ولو غير حلف ـ مِمَّا يؤكّد به العهد، والكلام على ظاهره

١- في نسخة (أ): لَعَلَّهُ تفهم أحكام الناكثين وخصال التائبين.

فإنّهم إنّما يسمَّون ناكثين إذا نقضوا العهد بالنطق أو بالقتال أو الإعانة عليه، ولا يعدُّ بقاؤهم على الكفر نكثا، ولا حاجة إلى قول بعض: أخرجوا ما في ضمائرهم من القُوَّة إلى الفعل، ولا إلى قوله: استمرُّوا على ما هم عليه من النكث، إلاَّ إن كانت الآية نزلت بعد النكث وقيل: ﴿نكثُواْ﴾: ارتدُّوا.

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بصريح الكلام، مثل أن يقولوا: محمَّد كاذب، وبتقبيح الأحكام، فمن هذا تعلم أنَّهم عاهدوا على أن لا يصرِّحوا بالطعن كما عاهدوا على أن لا يقاتلوا ولا يعينوا مقاتلا، وذكر الطعن بعد ذكر النكث مع أنَّ النكث كاف في إباحة القتل وإيجابه تحريضا للمؤمنين على قتالهم، ويجوز أن يكون «طَعَنُوا» تفسيرا لـ«نَكَثُوا».

وكذلك يُقاتَل الخارجون عن الإمام العادل كما قاتل عليٌّ معاوية إلى أن احتال داهية العرب عمرو بن العاصي لمعاوية بأن ينادى: "كتاب الله بيننا" وترفع المصاحف على الرماح، فإمَّا أن يترك الناس القتال وإمَّا أن يفترقوا فنجد الراحة في افتراقهم، ولم يفارق الإبَاضِيَّة الوهبيَّة الإمام عليًّا وما زالوا يحضُّونه على قتال معاوية حتَّى أسقط اسم خلافته، فأيسوا منه فاعتزلوا عنه، فقال: لا بأس عليكم لستم لي ولا عليَّ، وما زال به الأشعث بن قيس حتَّى قاتلهم، [قلت:] ومن نسب إلى الإبَاضِيَّة الوهبيَّة أنَّهم قالوا: أجب إلى التحاكم بينك وبين معاوية وإلاَّ كنَّا معه عليك، **فقد أخطأ فيهم وبهَتَهُم**[1].

﴿فَقَاتِلُواْ أَيِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ مقتضى الظاهر: فقاتلوهم، ووضع الظاهر موضع المضمر ليصف كفَّار قريش بأنَّهم أَيمَّة في الكفر، خاصَّتهم وعامَّتهم، لأنَّهم

١- وهذا ما يؤيِّده أصحاب الكتابات المقارنة، واستنطاق النقول، بخلاف من لا يهمُّه من التاريخ إلاَّ النقل عن غيره، (راجع كِتَاب الفتنة الكبرى وغيره).

ابتدأوا الكفر قبل اليهود وسائر المشركين، وهم أقبح كفرا، لأنّه ﷺ فيهم ومنهم، يشاهدون صدقه في سائر أحواله قبل النبوءة وبعدها، ويشاهدون معجزاته. ويجوز أن يكون أيمّة الكفر: رؤساء المشركين كأبي سفيان قبل أن يسلم، والحرث بن هشام، ويبعد ما قيل: فارس والروم فإنَّ الكلام في غيرهم، لأنّه لا عهد لهم نكثوه قبل الآية.

وعن حذيفة: ما قوتل أهل هذه الآية بَعْدُ، لا تُؤخّروا قتالهم أو تتركوه طمعا في أن يسلموا فتسلم العامَّة، كما لاين رسول الله ﷺ رؤساءهم بالتقديم طمعا في ذلك، فنهاه الله ﷻ بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ الأَعْمَىٰ...﴾(سورة عبس: ٠١) وقوله: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الذِينَ...﴾(سورة الأنعام: ٥٢) بل هم أهمُّ في القتل وأحقُّ به، وأيضا قتلهم قتل لرعيَّتهم، وأدعى لها إلى الإذعان. ﴿إِنَّهُمْ لآ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أيمانهم محقّقة لكنّها كَلاَ أَيمان، لأنّهم يحنثون بالنقض وما دخلوها إلاّ على الغدر بحسب ما يمكنهم، ولا يفون بها وكأنّها لم تكن.

(فقه) وإذا حلف مشرك وحنث بعد إسلامه لزمته الكفّارة، لأنَّ أيمانهم محقّقة، كما يدلُّ قوله ﷻ: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ فإنّه إنّما ينكث ما عقد أو أبرم، لا كما قالت الحَنَفِيَّة: ليست يمينا محقّقة، تمسُّكا بقوله: ﴿لآ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ حتّى إِنَّهُ لا كفّارة بالحنث بعد الإسلام، [قلت:] الجواب أنَّ المعنى أنَّه لا أيمان معتبرة لهم، لأنّهم لا دين لهم صحيح يردُّهم عن نقضها، وإن حنثوا قبل الإسلام فلا كفّارة، وقيل: الآية إخبار عن قوم لا يحلفون لكم لشدَّة قسوة قلوبهم، وقد قيل محقّقة ولا حنث على أنَّ الإسلام يقطعها، ومعنى ﴿لآ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ كلُّ واحد لا يمين له.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ عائد إلى قوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَيِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ وكأنّه تعليل، أي قاتلوهم لينتهوا عمَّا هم عليه لا للانتصار لأنفسكم، أو لمطلق الإضرار بهم.

(فقه) والآية دليل على أنَّ الذمِّيَّ إذا طعن في الإسلام فقد نقض العهد فيقتل، وإن شتم النبيء ﷺ قتل على الصحيح، وهو مذهبنا ومذهب مالك والشافعي والليث، وقال الحَنَفِيَّة: إنَّه يعزَّر ولا يقتل، وكذا قال النوويُّ من الشَّافِعِيَّة، وإن شتمه موحِّد قتل وإن تاب عزِّر عندنا، وقال الحَنَفِيَّة: يقتل حدًّا ولو تاب، كالزاني يرجم ولو تاب.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٦﴾

التحريض على قتال المشركين الناكثين أيمانهم وعهودهم

وزاد حضًّا على القتال بقوله: **﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾** حلفاتهم أو عهودهم، و«أَلاَ» للتحضيض على قتالهم، والتوبيخ على تركه، وترك ما قد يكون فيهم أو في بعضهم من كسل، كيف لا تقاتلونهم وقد نقضوا العهد، وقتلوا الحلفاء الآن، وهمُّهم بإخراج الرسول من قبل، وتضييقهم عليه حتَّى خرج إخراج له، وذلك ثلاثة أفعال، كلُّ فعل يستوجب قتالهم وحده، فكيف وقد اجتمعن؟ وضعف القول أنَّهم آمنوا ثمَّ نكثوا بالرِّدة، وقيل: الآية ترغيب في فتح مكَّة، واعترض بأنَّ السورة نزلت بعد الفتح، وأجيب بأنَّ أوَّلها بعد الفتح وهذه قبله.

﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة لَمَّا تشاوروا في دار الندوة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾(سورة الأنفال: ٣٠) ودار الندوة دار الاجتماع للتحدُّث، بناها قصي، وهي مقام الحَنَفِيَّة الآن[1]، ولم يذكر هنا الإثبات وهو الحبس مثلا، ولا القتل بل ذكر الإخراج فقط لأنَّه الواقع ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالنقض، وبقتال حلفائكم وهم خزاعة قاتلهم بنو بكر وأعانهم بالسلاح قريش، والإعانة على القتال قتال مجازا، أو قاتل بعض منهم أيضا، وذلك قول الأكثرين أنَّهم بدءوا بقتال خزاعة، أو ﴿بَدَءُوكُمْ﴾: يوم بدر لَمَّا بلغهم سلامة العير، قالوا: لا نبرح حتَّى نقتل محمَّدًا وأصحابه، أو ﴿بَدَءُوكُمْ﴾: بإنكار ما جاء به رسول الله ﷺ وبالعداوة عليه، وذلك حين كان بمَكَّةَ وبعد ذلك. والمأمور بقتالهم الناكثون وقريش، واعترض بأنَّ ما وقع في دار الندوة هو الهمُّ بالإخراج أو الحبس أو القتل، والذي استقرُّوا عليه القتل، وأجيب بأنَّ الإخراج مترتِّبٌ على اهتمامهم من الله تعالى وما عداه لغو، فخصَّ بالذكر لأنَّه المقتضى للتحريض، ولم يظهر لغيره أثر، وقيل: تنبيه بالأدنى على الأعلى، ولا يقال: إنَّ الحبس أدنى منه لأنَّ بقاءه في يد عدوِّه أشدُّ، وقيل: الآية في اليهود إذ همُّوا بإخراج الرسول ﷺ من المدينة، وقد خرجوا مع الأحزاب ونقضوا العهد وهما ضعيفان.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أتخافون أن ينالوكم بسوء فتتركون قتالهم؟ وهو إنكار للياقة ذلك، وتوبيخ على ما كان منه إن كان، والحاصل انتفاء صحَّة ذلك شرعا وهو أيضا متضمِّن للنهي عن الخشية، ولذلك صحَّ تعليله بقوله: ﴿فَاللهُ

١- يشير رحمه الله إلى ما كان قديما في المسجد الحرام من مقامات لكلِّ مذهب مقام بني له خاصٌّ به، تقدَّم الكلام على ذلك في الجزء الأوَّل، ص٢٥٣.

أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ كأنَّه قيل لا تجوز خشيتهم، لأنَّ ا لله أحقُّ أن تخشوه أو لا تخشوهم لأنَّ ا لله أحقُّ أن تخشوه، أي ا لله أحقُّ بالخشية فاقتصروا على ما هو الأحقُّ ولو ظهر لكم أنَّهم حقيقون بأن تخشوهم.

(بلاغة) والمقام للاختصاص فهو حصر، وقد يقال: الحصر من حذف المتعلّق للعموم، وكأنّه قيل: أحقُّ من كلِّ شيء فيختصُّ به، لأنّه أحقُّ فلا خشية لسواه، وهذا ضعيف، لأنَّ المقام للتفضيل على المشركين المتكلّم فيهم، وَلَكِنَّ معنى الحصر لابدَّ معتبر، أو المعنى: فا لله وحده حقيق بالخشية، وذلك بابتغاء إعلاء دينه وعبادته، وقتال أعدائه وبالخوف من بأسه، وعن ابن عَبَّاس: الآية ترغيب في فتح مَكَّة، وهو مشكل، لأنَّ براءة بعد فتحها، والجواب بأنَّ أوَّلها نزل قبل الفتح تكلُّف يحتاج إلى صحَّة.

(نحو) ومصدر «تَخْشَوْهُ» بدل اشتمال من لفظ الجلالة، أو مبتدأ ثان و«أَحَقُّ» خبره، والجملة خبر الأوَّل أو فاعل لـ«أَحَقُّ» بناء على جواز رفع اسم التفضيل الظاهر، ولو في غير مسألة الكحل[١] إذا خرج عن التفضيل، وعلى لغة جوازه بلا شرط، أو يقدَّر بالباء أي أحقُّ بالخشية، وتقدير الباء أولى لظهور المعنى. وحذف الجارِّ قبل «أَنْ» و«أَنَّ» كثير شائع إذا أمن اللبس، وفي غير هذا الوجه ضعف، والحقُّ أنَّ «أَحَقُّ» و«أَن تَخْشَوهُ» على تقدير الباء متعلّقة به، أي أحقُّ بالخشية كما مرَّ أوَّلاً **﴿إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾** به، فإنّه لا ضارَّ ولا نافع سواه، **ومن خاف ا لله ﷻ خاف منه كلُّ شيء، ومن خاف غيره خاف كلَّ شيء وسُلِّط عليه**، وإن لم تقاتلوهم فلستم بمؤمنين فإنَّ الإيمان يقتضي قتالهم.

١- يريد بمسئلة الكحل اختلاف النحاة في جواز رفع اسم التفضيل للاسم الظاهر إذا سبقه نفي وكان مرفوعا أجنبيًّا مفضّلا على نفسه باعتبارين، ويمثّلون لذلك بقولهم: «ما رأيت رجلا أحسن في عينه الكحلُ منه في عين زيد».

﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ تأكيد في القتال بعد بيان موجبه من النكث والطعن والهمّ بإخراج الرسول، وبعد التوبيخ على تركه والإيعاد على الترك والخشية من الله فقط. وجزم في جواب هذا الأمر خمسة أفعال يتضمّن معانيهنّ الترتّب على القتال: تعذيبهم بأيديكم، وخزيهم، ونصركم، وشفاء صدور قوم مؤمنين، وإذهاب غيظ قلوبهم، وأمَّا التوبة على من يشاء فليست مترتّبة على قتالهم، فرفع «يَتُوبُ» لذلك، إذ ليس المعنى: إن قاتلتموهم يتب الله على من يشاء، بل عطف قصَّة على أخرى، والإخبار على الأمر ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ جزاء لضرّهم إيَّاكُم، تعذّبوهم بالقتل كما ضرُّوكم، فاشكروا الله على هذه النعمة ولا تراعوا حظّ النفوس، وفي تعذيبهم بأيديكم زيادة إيلام لهم، لأنّه أشدُّ عليهم كما قالت: الزبّاء «بيدي لا بيد عمرو». وإسناد التعذيب إلى الله المؤذن بالشدَّة مجاز عقليٌّ، لأنَّ الكاسب المخلوق والله خالق للكسب.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يجعلهم أذلاَّء في قلوبهم بالأسر والقهر، ويظهر أثر ذلك على أبدانهم ووجوههم، أو يعذّبهم بالقتل والأسر ويخزهم بهما، أي يذلُّهم بهما ﴿وَيَنصُرْكُمْ﴾ كلّكم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ كلّهم للأبد، أو بالقتل على أنَّ التعذيب ليس بالقتل ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّومِنِينَ﴾ أي ويشف صدوركم، فوضع الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالإيمان، وبطيب قلوبهم، أو القوم المؤمنون: خزاعة على أنّهم أسلموا، أو المراد قوم منهم أسلموا، أو جزاهم الله بالنصر على بني بكر الذين غدروهم، أو بطون من سبَأ واليمن قدموا مَكّة وأسلموا، فلقوا من أهل مَكّة أذى شديدا، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «**أبشروا فإنَّ الفرج قريب**» أو هؤلاء وخزاعة.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ اغتاضت لِمَا لقيها من أذاهم، أو لمخالفتهم حقَّ الله ﷻ، وخصَّ الشفاء بهم لأنّهم لم يحضروا القتال، كما أنَّ النصر بالنظر

للحاضرين، ولذلك خوطب في التعذيب والنصر واغتيب في شفاء الصدور، وإلاَّ فكلُّهم شُفِي ونُصِر من الشدَّة، من بني بكر الناكثين ومن أهل مكَّة، إذ غَدَرت بنو بكر خزاعة، وعذَّب أهل مكَّة بطونا من سبأ واليمن.

وقيل: الشفاء بقتلهم وخزيهم، وإذهاب الغيظ بالنصر عليهم كلِّهم، وقيل: إذهاب الغيظ تأكيد لشفاء الصدر، قيل: وإذهاب الغيظ أبلغ من شفاء الصدر، وتعذيبهم وخزيهم، فذلك من الترقِّي، قلت: بل شفاؤه أبلغ من إذهاب الغيظ ويضعف ما قيل: إنَّ الشفاء بوعد الفتح، وإذهاب الغيظ بوقوعه ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَن يَّشَآءُ﴾ من المشركين بالتوفيق إلى الإسلام وكلُّ ذلك واقع. والشفاء وإذهاب الغيظ متَّحدان مأصدقًا مختلفان مفهوما، وذلك مسوِّغ للعطف، وَأَمَّا الصدور جيء أوَّلاً والقلوب ثانيا مع أنَّ القلوب في الصدور فمن البلاغة، وقد تاب قوم من أهل مَكَّة وحسن إسلامهم. والتقدير: يغضب الله على من يشاء ويتوب على من يشاء، فالآية من المعجزات بالإخبار بالغيوب الواقعة على طبق الإخبار كما قال: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيء ما كان وما يكون ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يعبث ولا يسفه.

﴿أَمْ حَسِبْتُم﴾ بل حسبتم، أو أحسبتم، أو بل أحسبتم، والأولى هنا كونه بمعنى أحسبتم بهمزة الإنكار والتوبيخ فقط، دون بل، لأنَّ المحلَّ ليس للإضراب لا كما قيل إنَّها بمعنى بل والهمزة. والخطاب للمؤمنين إذ كره بعضهم القتال، وقيل: للمنافقين وقيل: للمؤمنين والمنافقين، وعلى كلِّ حال هو ترغيب في الجهاد، لأنَّه يأمرهم كما يأمر المؤمنين، قيل: ما بعد هذا لا يناسبهم وإنَّما يناسب المؤمنين، وإنَّما كره بعض المؤمنين القتال كراهة طبع والمنافقون بالطبع والتكذيب، والمؤمنون الكارهون يعالجون حبَّ القتال دون المنافقين، ثمَّ ظهر أنَّه لا مانع من كون «أَمْ» للإضراب والإنكار لأنَّ قوله: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ...﴾ قد

يتضمَّن أنَّهم كسلوا عن القتال، فيكون هذا توبيخا ثانيا ضرب إليه عن الأوَّل من قوله: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ...﴾، علَّق الأوَّل بفعل الكفَّار ما فعلوا من النكث وما بعده، والثاني بوجوب الإخلاص.

﴿أَن تُتْرَكُواْ﴾ عن الأمر بالقتال الذي سئمتموه وعن الإخلاص، والواو في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اِللهُ الذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ﴾ واو الحال وصاحب الحال هو واو «تُتْرَكُوا»، والربط بواو الحال وكاف «مِنكُمْ»، والواو في قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اِللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ اَلْمُومِنِينَ وَلِيجَةً﴾ حالية من واو «جَاهَدُوا»، أو عاطفة على «جَاهَدُوا»، أي ولَمَّا يعلم ا لله الذين جمعوا بين الجهاد والإخلاص عن اتِّخاذ البطانة من المشركين.

(أصول الدين) ومعنى ﴿لَمَّا يَعْلَمِ...﴾ أنَّه لم يكن جهاد وإخلاص، فضلا عن أن يقال: إنَّ ا لله عالم بالمجاهدين المخلصين، فإنَّ وصف ا لله بعلم ما لم يقع أنَّه واقع كفر لأنه جهالة مركَّبة، فاللفظ نفي للعلم والمراد نفي المعلوم، وذلك نفي للملزوم وهو المعلوم بنفي اللازم وهو العلم، فإنَّه إذا انتفى شيء لزم أنَّ ا لله غير عالم به لأنَّه غير موجود، لأنَّه لا يصحُّ أن يقال: علم ا لله شيئا أنَّه موجود وهو غير موجود أو نفي الملزوم وهو العلم بنفي اللازم وهو المعلوم فإنَّه يلزم من قولك: لم يعلم ا لله كذا أنَّه لم يقع كذا، وفي الوجه الأوَّل نفي المعلوم ببرهان وهو انتفاء علمه به، وإيراد الشيء ببرهانه أبلغ من إيراده بلا برهان، فإنَّه لو وجد القتال والإخلاص لتعلَّق علمه به قطعا، لأنَّ علمه تعالى يتعلَّق بالشيء قبل وجوده وفي حال وجوده وبعد عدمه.

وقيل: العلم عبارة عن التَّبْيِينِ المسبَّب به، فإنَّ العلم سبب لتبيينه وملزوم له لزوما بيانيًّا، وكفر من قال: لا يعلم ا لله شيئا حتَّى يقع، ومسوِّغ العطف على «جَاهَدُوا» اجتماع انتفاء اتِّخاذ الوليجة مع ثبوت الجهاد في

سبيل الله في الخيال. و«مِنْ» للتبعيض، فإنَّ متَّخذي الوليجة بعضٌ لا كلٌّ. والخطاب في «حَسِبْتُمْ» للمجموع.

وفي الآية تلويح بأنّه سيظهر الخلّص من غيرهم كأنّه قيل: لَمَّا يظهر المخلصون، والغالب أنَّ ما نفته «لَمَّا» سيقع أو يترجَّح وقوعه، والوليجة من تفشي إليه سرَّك، من الولوج وهو الدخول، فهو من يداخلك في أمورك، وقيل: من ليس أهلا لذلك وأُدخِل.

﴿وَا للهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من جهاد بلا إخلاص ومن جهاد بإخلاص، والخطاب للكلِّ، ويجوز أن يكون في هذا وفي «حَسِبْتُمْ» لغير المخلصين، فيكون «مِنْ» في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ للبيان، وذكر الثلاثة بحرف النفي تلويحا بأنَّ كلاًّ مستقلٌّ بالتحريم، وتلويحا بزيادة قبح من اتّخذ وليجة، بأنّه قد اتّخذها عن الله والرسول والمؤمنين، فنهى الله أن تتّخذ عن واحد كما اتَّخَذَها هؤلاء عن الثلاثة، وتلويحا بأنَّ من اتّخذها عن المؤمنين فقد اتّخذها عن الرسول، ومن اتّخذها عن الرسول فقد اتّخذها عنهم، ومن اتّخذها عن الرسول فقد اتّخذها عن الله ولا يخفى عنه شيء.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

عمارة المساجد

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ ا للهِ﴾ ما ثبت لهم شرعا أن

يعمروها بالدخول والقعود والمكث فيها على أيِّ حال، وبعبادة الله أو غيره، والمراد بمساجد الله: مساجد الإسلام، ما وجد منها في زمان رسول الله ﷺ، كالمسجد الحرام، والمسجد النبويِّ، ومسجد قباء ومساجد اليمن، وما يوجد بعد زمانه ﷺ، أو المراد: المسجد الحرام، وجمع تعظيما كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾(سورة آل عمران: ٤٢و٤٥) ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ﴾(سورة آل عمران: ٤٩) و﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾(سورة المؤمنون: ٩٩)، أو أنَّ كلَّ بقعة منه مسجدٌ أيْ موضع سجود، أو لأنَّه قبلة المساجد كلِّها، وكأنَّه كلُّ المساجد وعامره كعامر المساجد.

﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ بالشرك، شهادتهم على أنفسهم بالكفر إظهارهم الشرك، كعبادة الأصنام وتكذيب الرسول، وقولهم: إنَّا كافرون بما جئت، وقولهم: نعبد اللات والعزَّى، وقولهم: لبَّيك لا شريك لك إلاَّ شريكا تملكه وما ملك.

(فقه) ولا يجوز أن يأذن المسلمون لمشرك في دخول مسجد من مساجد الإسلام وأجاز قومنا أن يأذن لهم مسلم في دخوله لحاجة، فإن دخل بلا إذن أو بلا حاجة عُزِّرَ، يدلُّ لهم أنَّه ﷺ شدَّ ثمامة بن أثال إلى سارية في مسجده وهو كافر، قلنا: فعل ذلك لضرورة، وأنَّه نهى بعد ذلك، وقبله عن دخوله، لَمَّا أسر جماعة من رؤساء قريش يوم بدر.

(سبب النزول) ومنهم العَبَّاس أقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يعيِّرونهم بالشرك، وغلظ عليٌّ على عمِّه العَبَّاس يوبِّخه بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العَبَّاس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ إنَّا لنعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفكُّ العاني، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَّعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اَ للهِ شَاهِدِينَ

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾.

أي لا يستقيم الجمع بين متنافيين: عمارة متعبَّداته مع الكفر به وعبادة غيره، والكفر بعبادته. وكانت لهم أصنام تحت جدار الكعبة كلّما طافوا طوفة سجدوا للأصنام، وكانوا يطوفون عراة كراهة أن يطوفوا في ثياب عصوا الله فيها، فالآية إبطال لافتخارهم بما فعلوا من العمارة ونحوها، كما افتخر العبَّاس عند التغليظ عليه، وبيان لأنَّ ذلك كلا عمارة لاقترانه بما يناقضه، وبيان لكونهم على أخبث حال إذ قابلوا أعزَّ موضع بأقبح المعاصي.

﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَتَ اَعْمَالُهُمْ﴾ بطلت، لا ثواب لها لعدم شرطها وهو التوحيد، فلا يعتدُّ بفكِّهم الأسير وإلباس الكعبة، والمحافظة عليها في الأبواب، وسقي الحجيج ماء فيه زبيب، والطواف، فبطل افتخارهم بتلك الأعمال ﴿وَفِي اِلنَّارِ﴾ قدِّم عن متعلّقه وهو «خَالِدُونَ» للفاصلة وعلى طريق الاهتمام، ويبعد الحصر على معنى أنَّ لهم خلودا لا يكون إلاَّ في النار، لأنَّه لم يجر للخلود ذكر قبلُ، وقوله: ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ معطوف على «أُوْلَئِكَ حَبِطَت» عطف اِسمِيَّة على اِسمِيَّة أولى من عطفها على فِعلِيَّة هي ﴿حَبِطَتَ اَعْمَالُهُمْ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اَ للهِ﴾ المسجد الحرام، أو هو وغيره، وذلك بالصلاة والقراءة والعلم والتفريش بالحصير أو الحصباء والمصابيح، وترك الكلام الدنيويِّ، وما لم تبن له، وغير ذلك مِمَّا لم يكن على عهد رسول الله ﷺ كالمصابيح والحصير وما كان على عهده، فالآية إذن في كلِّ ما هو عمارة شَرعِيَّة، ومن ذلك تفريشه بما أخرجت الأرض كالحصر وثياب القطن، ولا يجوز الصوف وكرهته الحَنَفِيَّة، ومن عمارته: إخراج القمامة، قال ﷺ:

«إخراج القمامة من المسجد مهور الحور العين»[١]، وقال: **«من بنى لله مسجدا ولو كمساجد الطرق بنى الله له بيتا في الجنّة»**[٢]، وقال: **«الغدوُّ والرواح إلى المسجد جهاد في سبيل الله»**[٣]، وقال: **«إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان»**[٤]، وقرأ الآية، وقال: **«من أسرج مصباحا في المسجد لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له مادام ضوؤه»**[٥].

﴿مَنَ ـامَنَ بِا للهِ وَالْيَوْمِ اِلاَخِرِ وَأَقَامَ اَلصَّلاَةَ وَءَاتَى اَلزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اَ للهَ﴾ والمراد: الخوف في أمر الدين، وأمَّا الخوف من المضارِّ كالعقرب مثلا فطبيعيٌّ لا كفر به، إنّما يليق بعمارتها من اتّصف بتلك الصفات ويؤذن له شرعا، وأمَّا المشركون فلا، حتّى يوحّدوا الله ﷻ، أو إنّما تعتبر عمارة من اتَّصف بها وعمارة غيره كأنّها لم تكن بل تخريب لم يأذن الله به.

(فقه) وأجازت الحَنَفِيَّة دخول المشرك المسجد، وكرهته المَالِكِيَّة والحنابلة وحرَّمه أصحابنا، ولو أوصى مشرك لمسجد لم تقبل وصيَّته عند الحَنَفِيَّة وتنفّذ عندنا، وباقي الصفات داخل في قوله: **﴿مَنَ ـامَنَ بِا للهِ وَالْيَوْمِ اِلاَخِرِ﴾** لأنَّ الإيمان به يستدعي ترك المحرَّمات وفعل الطاعات، وخصَّ الإيمان

١- أورده **الهندي** في كتاب الترغيب، باب في تنظيف المساجد، ج١، ص١٩٧، رقم٥.

٢- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٤، ص٦٦ بهذا اللفظ. ولأصحاب السنن أحاديث في الموضوع مع تقديم وتأخير وزيادة ونقصان.

٣- رواه **الطبراني** في الكبير، ج٨، ص١٧٧، رقم ٧٧٣٩. و**الهيثمي** في المجمع، ج٢، ص٢٩. من حديث أبي أمامة.

٤- رواه **ابن ماجه** في كتاب المساجد، (١٩) باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، رقم ٨٠٢. ورواه **البيهقي** في كتاب الصلاة، (٦٧٥) باب فضل المساجد وفضل عمارتها... رقم٤٩٨٨. من حديث أبي سعيد الخدري.

٥- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣، ص٢٣٦، من حديث أنس.

باليوم الآخر بالذكر لأنَّ قريشا أنكروا البعث، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأنَّهما من الأعمال البدنيَّة والمالية، ويشير بهما إلى باقي الأعمال، ولأنَّهما قد يراد بهما جميع العبادات، ولم يُذكر رسول الله ﷺ لأنَّ ذكر الله ﷻ يستتبعه، حتَّى إنَّهُ يُذكر حيث ذُكر الله، كما في الأذان والإقامة والشهادة، وأيضا الصلاة تكون بالأذان والإقامة والتشهُّد، فذكرها ذكر له لأنَّه ﷺ يذكر فيهنَّ، وأيضا الصلاة والزكاة أتى بهما ﷺ فإنَّما يُتعَلَّمان من جهته.

قال سلمان ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**من توضَّأ في بيته فأحسن الوضوء، ثمَّ أتى إلى المسجد فهو زائر الله تعالى، وحقَّ على المزور أن يُكرم زائره**»[1]، رواه الطبراني، وهو من الحديث القدسي «**إنَّ بيوتي في الأرض المساجد، وإنَّ زواري فيها عمَّارُها، فطوبى لعبد تطهَّر في بيته ثمَّ زارني في بيتي، فحقٌّ على المزور أن يكرم زائره**»[2]. ومن عمارته قراءة القرآن فيه **جماعة**، وهو أفضل ما يعمَّر به، وتعليم العلم والتعلُّم فيه، ويُطَهَّر عن شِعر الكذب والفحش، ويجوز قراءة دواوين الشعراء بقصد تعلُّم العَرَبيَّة لا بغناء، وينبغي تجنُّب شعر الفحش إلاَّ بإظهار تقبيحه وخفض الصوت به. ولا إشكال في ذكر الزكاة في مقام عمارة المساجد، لأنَّ المراد بذكرها بيان أنَّ من لا يؤتيها لا تعتبر عمارته، إذْ تَرَكَ رُكنا من أركان الإسلام.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى الجنَّة ذكره بلفظ الترجِّي المصروف للخلق، لأنَّهم لا يدرون بم يختم لهم، وزجرا لأن يقطعوا بتحقيق أعمالهم وتوحيدهم لإمكان أن يختلَّ بما لم يتفطَّن له، وقطعا لأطماع المشركين

١- رواه **الطبراني** في الكبير، ج٦، ص٢٥٣، رقم ٦١٣٩. ورواه **المنذري** في الترغيب، باب في المشي إلى المساجد، ج١، ص٢١٤، رقم٣١. من حديث سلمان.

٢- رواه **المناوي** في الإتحافات السنيَّة، ص٢٣، رقم ٣٦. من حديث أبي سعيد.

عن كون ما هم عليه اهتداء، وعن الانتفاع بأعمالهم، وزجرا للمؤمنين أن يأمنوا مكر الله بأعمالهم، وقد كان حالهم عند الله دائرًا بيْن ﴿عَسَىٰ﴾ كهذه الآية و﴿لَعَلَّ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(سورة النور: ٣١) مع أنَّ مثلهما من الأكابر جزم، وجيء بهما إثباتا للخوف والرجاء.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

فضل الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله

﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ توبيخ وإنكار للياقة الجعل ولصحَّته شرعا، والخطاب على الصحيح ـ وهو مذهب الجمهور ـ للمشركين، التفات من غيبتهم في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ...﴾ إذ قالوا: عمارة المسجد الحرام والسقاية خير من الإيمان والجهاد، كما مرَّ في محاورة العَبَّاس وعليٍّ.

وفي رواية أنَّه قال له: ياعمُّ لو هاجرت إلى المدينة؟ فقال: أولست في أفضل من الهجرة؟ أو لست أسقي الحاجَّ وأعمُر البيت؟ وهذا ظاهر في أنَّه كان مسلما، وقيل: الخطاب لجماعة من المؤمنين اختلفوا عند المنبر عند الجمعة، قال بعض: أفضل الأعمال بعد الإسلام سقي الحاجِّ، وقال بعض: عمارة البيت، وقال بعض: الجهاد، فقال عمر: إذا صلَّيتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فأسأله، فنزلت الآية إلى قوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ﴾. ومقتضى الظاهر: أجعَلُوا،

بفتح الجيم ولكن خوطبوا تغليظا عليهم.

﴿سِقَايَةَ﴾ سقْيَ، فهو مصدر ﴿الْحَآجِّ﴾ اسم جنس جمعي، و«الـ» فيه للجنس، كانوا يشترون الزبيب من الشام إذا سافروا إليه أو من الطائف أو غيرهما، وينبذوه في ماء زمزم في جلود يحفر لها، وتبسط في أيَّام الموسم، ويشرب منها الحجَّاج، وكان العَبَّاس يلي هذا السقي في الجَاهِلِيَّة والإسلام، وأقرَّها ﷺ للعبَّاس، وكانت لآل العَبَّاس ما دام منهم أحد، وجاءت رواية مشهورة أنَّه ﷺ طلبها والحجابة فمنعهما عنه.

ولم يقل: وإيمانه، لأنَّ إيمان الكافر بمجرَّد ذكر ا لله كَلاَ إيمان، بل يقال: هو غير مؤمن، وعلى أنَّ الخطاب للمؤمنين فلم يقل وإيمانه، لأنَّ نزاع المسلمين إنَّما هو في غير الإيمان وللعلم به، وذكره في المشبَّه به مع العلم به تقوية للإنكار، وتذكيرا لأسباب الرجحان ومبادئ الأفضليَّة، وإيذانا بكمال التلازم بين الإيمان والجهاد. ﴿وَعِمَارَةَ اَلْمَسْجِدِ اِلْحَرَامِ﴾ بالأبدان مع المعصية فيه بالعري وعبادة الأصنام، أو بعبادة لله باطلة بالشرك وغير ذلك.

﴿كَمَنَ ـ امَـنَ بـا للهِ﴾ إيمانا مستلحقا للإيمان برسوله والإخلاص، أي كإيمان من آمن با لله ﴿وَالْيَـوْمِ اِلاَخِرِ وَجَـاهَدَ فِـي سَبِـيلِ اِ للهِ﴾، أو يُؤوَّل ﴿سِقَايَةَ﴾ بالساقين، استعمالا للمصدر في معنى اسم الفاعل، أو يقدَّر: أجعلتم أهل سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن با لله، ويدلُّ لهذين الوجهين قراءة ﴿أَجَعَلْتُمْ سُقَاةَ الْحَاجِّ وعَمَرَةَ الْمَسِجدِ الْحَرَامِ﴾ بِضَمِّ السين وفتح العين والميم وإسقاط الألف بعدها، جمع ساق، كقاض وقضاة، وجمع عامر، كسافر وسَفَرَة، وبارٍّ وبَرَرَة، وكافر وكَفَرَةً، ويدلُّ لهما أيضا قراءة: «سُقَاية الحاجِّ وعَمَرة» بضمِّ السين وفتح العين والميم، جمع ساق بوزن فُعال بالضمِّ، جمعٌ أُنِّث بالتاء فصار بوزن فُعالة كحُجارة بالضمِّ، وفي هذا الوجه

مقابلة كلٌّ بكلٍّ، إلاَّ أنَّ الحذف من الآخر أولى، وفي الوجه الأوَّل مقابلة السقاية والعمارة بالإيمان فقط، مقيَّدا بالجهاد، والمعنى: كيف يكون المشركون بأعمالهم المبطلة وأعمالهم المعاقب عليها كالمؤمنين في أعمالهم المثبتة المثاب عليها؟ أو كيف تكون أعمالهم كأعمال المؤمنين في الاعتبار؟ وإذ لم يستووا تبيَّن ولو للمشركين أنَّ المؤمنين أفضل، فلا يبقى أنَّهم دون أهل الشرك، وهم في هذا المقام لا يطلبون إلاَّ أن يساووا المؤمنين.

أو نفي المساواة نفي لأن يكونوا أفضل من المؤمنين من باب أولى، ومعلوم أنَّه إذا قال خصم: لا نستوي، إنَّما أراد أنِّي أفضل، وقد قال الله ﷻ عن المسلمين: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ﴾ وأكَّد ذلك بقوله:

﴿لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اَللهِ﴾ لأنَّ نفي الاستواء مستفاد من الإنكار والتوبيخ في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾.

وعلَّل نفي الاستواء بقوله: **﴿وَاَللهُ لاَ يَهْدِي اِلْقَوْمَ اَلظَّالِمِينَ﴾** وبقوله: **﴿اَلذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اِللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ, أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اَللهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ، خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا اِنَّ اَللهَ عِندَهُ, أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾**

وقوله: ﴿وَاَللهُ لاَ يَهْدِي اِلْقَوْمَ اَلظَّالِمِينَ﴾ نزلت فيمن قال بالجعل والاستواء، والظالمون: المشركون، نزلت ردًّا على من قال بهما كالعبَّاس وغيره، والعبَّاس ﷺ كان مشركا لا هُدَى له، وكان أمره مختلطا بين شرك وإيمان ثمَّ خلص، فإن أريد بالكافرين ما يعمُّ من يتوب فالمعنى أنَّ كفرك شاغل لك عن الهدى ما دام فيه، وإن أريد كافرون أشقياء فقد خوفه بهم، أو الظَّالِمُونَ: بمعنى ظلموا أنفسهم والمؤمنين بدعوى الاستواء، ومعنى ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾: أنَّ من جمع بين الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس أعظم كرامة

ورتبة مِمَّن آمن وهاجر و لم يجاهد، أو جـاهد بنفسـه دون مالـه، أو بماله دون نفسه، أو إنَّ الجامعين بين تلـك الصفـات أعظـم درجـة مـن المشـركين علـى زعمهم أنَّ لهم درجة عند ا لله في الدنيا، وهم لا يقرُّون بالبعث، أو ﴿أَعْظَمُ﴾ خارج عن التفضيل، أي عظيمون درجـةً، قـابل بـه أنَّ المشـركين خسيسـون، كما قابل بالفائزين المشركين الهالكين الخاسرين.

وفي ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمُ﴾ من التعظيم ما ليس في بَشِّرْهم يامحمَّد، ولا سيما مع لفظ الربِّ المشعر بالإنعام والرحمة في الدنيا والرحمة عند المـوت، وفي القـبر والبعث والمحشر، والرِّضْوَان قضاؤه الأزليُّ بأنَّهم سعداء، وأنَّه لا يسخط عليهم أبدا، كما جاء أنَّ ا لله ﷻ يقول لأهل الجنَّة: «**أرضيتم؟**» فيقولـون: «مـا لنـا لا نرضـى وقـد أنجيتـنا مـن النـار وأعطيتـنا مـا لم تعـط أحـدا؟» فيقـول: «**أعطيتكم أكبر من ذلكم**» فيقولون ما هو؟ فيقول: «**أحلُّ عليكم رضوانـي فلا أسخط عليكم أبدا**»[1]. ونعمة الآخرة في قوله: ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ والرضوان نعيم الآخرة ولا يتكرَّر مع قوله: ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ لأنَّ فيه زيـادة الإقامـة، بمعنـى الدوام وعدم الارتحال.

(بلاغة) قيـل: استعار مـا هــو لمطلـق الحصـول والمكـث للمكـث والحصول الدائمـين، استعارة المطلق للمقيَّـد، كمـا إذا تعمَّـد إطـلاق الرجـل مختصًّا برجل مخصوص، والأولى أنَّ ذلك مجاز مرسل من إطلاق المطلـق علـى المقيَّد، ولا بأس بالإطناب في هذا المقام، حتَّى إِنَّهُ لو جعلت الرحمة والرضـوان واحدا لكان حسنا.

١-أورده المنذري في الترغيب، باب الترغيب في الجنّة، ج٤، ص٥٥٧، رقم ١٣٢.

أو الرحمة: رحمة الدنيا والآخرة كلّها، والرضوان عطف خاصٍ على عامٍ، [قلت:] ولا يحسن تفسير الرحمة بكون العبد راضيا بقضاء الله، والرضوان بكونه مرضيًّا عند الله، على أن يطابق قوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾(سورة الفجر: ٢٨) لأنَّ الرحمة فعل الله، والمقام ليس مقاما لأن يذكر أنَّه يبشِّرهم بأنَّكم راضون بقضائي، وأنَّ كونكم راضين به رحمة منّي.

وقابل الإيمان بالرحمة وبدأ بها لتوقُّفها عليه، ولأنَّها أعمُّ النعم وأسبقها، وقد قال الله ﷻ: «رحمتي سبقت غضبي»[1]. وقابل الجهاد الذي فيه بذل الأنفس والأموال، وهو الغاية بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان، وقابل الهجرة عن الوطن بالجنّة العظمى الدائمة لا هجرة عنها. و«خَالِدِينَ» حال مقدَّرة، لأنَّ الخلود لم يقارن ثبوت النعيم، بل يقارن المكث في النعيم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

النهي عن محبَّة الأقارب مع الكفر وفضل الإيمان والجهاد

ولَمَّا أمر الله بالتبرّي من المشركين ولو كانوا آباءً وإخوانا، ومثلهم الأبناء والبنات ومن دونهم، قالوا: كيف نتركهم ولا بدَّ منهم؟ نزل قوله تعالى:

١- تقدَّم تخريجه، انظر تفسير آية رقم ١٥٦ من سورة الأعراف، صفحة ٢٠٠ من هذا الجزء.

﴿يَآ أَيُّهَا اَلذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُوا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الآية تلويح إلى غيرهم أيضا كالابن، ودخلت الأمُّ والأجداد والجدَّات في الآباء، وفسَّر بعضهم الإخوان بالأقرباء ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أصدقاء، لئلاَّ يردُّوكم عن الإسلام، وتفشوا إليهم أسرار المسلمين، والمراد بالإخوان: الجنس، لا مقابلة فرد بفرد، لأنَّه قد يكون للواحد أب أو جدٌّ أو أجداد، وأمٌّ وجدَّة أو جدَّات، أو أخوان اثنان فصاعدا، إلاَّ أن يقال: الفرد حصَّة كلٍّ واحد من ذلك، ولو تعدَّدت أفرادها.

﴿إِنِ اِسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى اَلاِيمَانِ﴾ بقوا عليه حبًّا له، أو ارتدُّوا إليه كما ارتدَّ طائفة وهربوا إلى مكَّة، وذلك كلُّه بعد فتح مَكَّة، لأنَّ السورة بعد الفتح، ويروى أنَّهم تسعة، والآية في ذمِّ الكافرين والنهي عن أن يجعلهم أحدٌ أولياء لا في شأن الهجرة ﴿وَمَنْ يَّتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ راعى لفظ «مَنْ» في «يَتَوَلَّ» فأفرد، ومعناه في قوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وذكر بعضٌ أنَّ الآية في العَبَّاس وطلحة أسلما وامتنعا.

(سبب النزول) وعن ابن عَبَّاس لَمَّا أمر النبيء ﷺ الناس بالهجرة تعلَّق بمن أرادوا الهجرة أهلهم وأولادهم، وقالوا: إلى من تكلوننا؟ فتركوا الهجرة رقَّة لهم، وقيل: الآية في قوم أسلموا وامتنعوا من الهجرة وقد أمروا بها، وقالوا: إن هاجرنا ضاعت أموالنا وخربت ديارنا، وتعطَّل تجرنا، وفيه أنَّ السورة بعد الفتح ولا هجرة بعده، إلاَّ أن يقال: الآية قبله، كما أنَّ قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾(سورة التوبة: ١٢٨) قبله، ومرَّ أنَّ بعضهم زعم أن أوَّلها قبله. والظلم: وضع الموالاة في غير موضعها، أو ظلم أنفسهم بالذنب، أو ظلم المسلمين بالموالاة لأنَّها مضرَّة لهم، وأنَّهم يغتاظون بذلك.

﴿قُلِ اِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقرباؤكم، مأخوذ من العشرة، لأنَّها جماعة ترجع إلى العقد عشرة فصاعدا،

وهي كاملة، والعشرة عقد كامل، ويجوز أن يكون من معنى المعاشرة، فيصدق ولو على أقلَّ من عشرة، وقيل: العشيرة: الأهل الأدنون، وقيل: القرابة الذين يكثر بهم ولو أقلَّ من عشرة. ﴿**وَأَمْوَالٌ اِقْتَرَفْتُمُوهَا**﴾ اكتسبتموها ﴿**وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا**﴾ عدم أن تسام أو تساوم ببخس ﴿**وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ**﴾ حسنة معجبة لكم، لم تسمح نفوسكم بفراقها ﴿**أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اَ۬للَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ فلم تتركوهم لأجل الله، أو رجعتم إلى مَكَّة مرتدِّين ﴿**وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ**﴾ قال ﷺ: «**لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتَّى يحبَّ في الله تعالى، ويبغض في الله تعالى**»[1]، حتَّى يحبَّ في الله سبحانه أبعد الناس، ويبغض في الله ﷻ أقرب الناس.

﴿**فَتَرَبَّصُواْ**﴾ تمهَّلوا، وهو أمر تهديد كقوله ﷻ: ﴿وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(سورة الكهف: ٢٩) أي: ابقوا على الكفر، ولا حاجة إلى تضمين معنى انتظر وتقدير المفعول، أي: انتظروا عذاب الله، وقد أغنى عن ذلك قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ يَاتِيَ اَ۬للَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ أي عذابه آجلا أو عاجلا، دنيويًّا أو أخرويًّا، أو فتح مَكَّة كما هو رواية عن ابن عَبَّاس ومجاهد، وفيه أنَّ السورة بعد فتحها إلاَّ على ما مرَّ من أنَّ أوَّلها قبله، أو الآية قبله، وقلَّ من لا يختار هؤلاء عن الله ورسوله، وقلَّ من يختار ما لله عمَّا له.

﴿**وَاَ۬للَّهُ لاَ يَهْدِي اِلْقَوْمَ اَلْفَاسِقِينَ**﴾ هذا وعيد ثان لمن استمرَّ على اختيار ذلك عن الله ورسوله وجهاد في سبيله، وَالأَوَّل ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَاتِيَ اَ۬للَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فتبيَّن أنَّ المراد بالحبِّ الحبُّ الذي يتسبَّبُ في حصوله، أو الاسترسال فيما كان منه بالطبع دون علاج انتفائه ومطلق الحبِّ طبيعيٌّ، وإنَّما يعاقب على الكسبيِّ بتعاطي أسباب حصوله، أو الاسترسال في الطبيعيِّ.

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٤، ص٧١، بدون إسناد.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

نصر المؤمنين يوم حنين وفي مواطن كثيرة

(سيرة) وسلاّهم عن مفارقة من صعبت عليهم مفارقته، وذكّرهم نعمه بقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ﴾ على أعدائكم ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ في ثمانين غزوة حضر ﷺ بعضا دون بعض، ومن عد أقلَّ من الثمانين اقتصر على المشاهير، كغزوة بدر وغزوة أحد وغزوة قريظة وغزوة النضير وغزوة خيبر وفتح مكّة.

نذر المتوكّل بمال كثير إن شفاه الله تعالى فشفاه، فسأل العلماء عن الكثير فاختلفوا عليه، فقيل: اسأل أبا الحسن عليَّ بن محمَّد بن علي بن محمَّد بن عليٍّ بن موسى الكاظم، وهو من ذرِّيَّة عليٍّ وفاطمة، وهو محبوس في داره، فكتب إليه فأجابه في كتاب بأن يتصدَّق بثمانين درهما، ثمَّ سألوه عن وجه ذلك فقال: عددنا تلك المواطن فبلغت ثمانين، والمراد ما يشمل السرايا والبعوث، وقيل: جميع ذلك سبعون، وفي البخاري ومسلم من حديث زيد بن أرقم: كانت غزواته ﷺ تسع عشرة غزوة، زاد بريدة في حديثه: قاتل في ثمان منهنَّ. والمواطن: اسم مكان الإقامة أو زمانها، أو مصدر، وضعَّف الزمان بعض، فالمعنى: في أماكن الحرب، أو أزمنة الحرب، أو إقامات الحرب التي أقمتموها

للحرب، والأوَّل أولى، ويدلُّ على أنَّ المواطن للحرب قوله: ﴿نَصَرَكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِذَ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ...﴾.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ ذكر للخاصِّ بعد العامِّ، وهو منصوب بـ«نَصَرَكُم» محذوف، أو عطف على «مَوَاطِنَ» إن جعلناه بمعنى أزمنة الحرب.

(نحو) وإن جعلناه أمكنة قدَّرنا: اذكُرْ يوم حنين، إذ لا يعطف الزمان على المكان، ولا المكان على الزمان، لا يقال: جلست في المسجد ويوم الجمعة، ولا جلست يوم الجمعة وفي المسجد، بل يسقط العاطف لأنَّ المتعلّق يصلهما بلا عطف، وأجاز أبو عليٍّ الفارسيُّ العطف فيها، وكرهه بعض، والأقوال في عطف الزمان أو المكان على المصدر أيضا، وكذا غير المصدر، ولا يصحُّ تقدير مضاف هكذا: وموطِنَ يومِ حنين، على قصد المكان في الموضعين، لأنَّه إن قدَّر «موطن» منصوب على الظرفيَّة فكيف ينصب على الظرفيَّة وعامله من غير لفظه ومعناه؟ وهذا على المشهور ممنوع، وإن قدَّر: في موطن يوم، فكيف حذف المضاف المجرور مع الجارِّ وينصب المضاف إليه؟ وإن قدَّر المضاف أوَّلاً، أي: في أزمنة مواطن، صرنا في التقدير قبل الحاجة.

وحنين: واد إلى جنب ذي المجاز، على ثمانية عشر ميلا بين مكَّة والطائف، وعبارة بعض: بضع عشر ميلا، ومن قال: ثلاثة أميال اعتبر طرفه التالي لمكَّة. ﴿إِذَ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ «إِذْ» بدل من «يَوْمَ» بدل شيء من شيء، لا بدل اشتمال كما قيل، ولا مانع من عطف مقيَّد على مطلق، وذلك أنَّ «يَوْمَ» معطوف على ما قبله، وهو مقيَّد بالكثرة والإعجاب، ولا كثرة وإعجابا في المواطن الكثيرة، نحو: أكرم عمرا وزيدا إذا جاع، أو عمرا وزيدا الجائع.

(سيرة) ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ تدفع ﴿عَنكُمْ شَيْئًا﴾ من الضرِّ، أو لم تغن عنكم غناء، روي أنَّ صحابيًّا وهو سلمة بن سلاَّمة بن رقيش أرسله ﷺ جاسوسا،

فسمع أميرهم مالك بن غوث يقول: «ما اجتمع اليوم أربعة في شيء إلاَّ فرج الله» فأخبر رسول الله ﷺ بذلك وقال: والله لن يغلبنا عدوُّنا من قلَّة، وإن غلبونا فلغير القلَّة لأنَّا كثيرون، وكره النبيء ﷺ قوله وخاف منه إذ فيه الاعتماد على الكثرة، وقال سعيد بن جبير: قاله الصدِّيق، وأبعد منه قول من قال: إنَّه قاله النبيء ﷺ، لأنَّه أبعد الناس عن هذا، لكن ربَّما يخطر بباله أو ببال الصدِّيق كما هو شأن البشر لحظة فيغفل عن نفيه، فكان العقاب بالانهزام، ولله أن يفعل ما يشاء، كما له أن يفعل ذلك بقول سلمة، بل لعلَّ في قلوب الصحابة ذلك ولو لم ينطقوا به، أو في قلوب أكثرهم أو قليل، فأراد الله ﷻ أن يُبَيِّنَ لهم بالمشاهدة أنَّ الغلبة بالله لا بالكثرة.

(سيرة) وروي أنَّه ﷺ قال: «**خير الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربع مائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلَّة**»[1]، وإنَّما قال ذلك لأنَّ قوله لا ينافي توكُّله وكانوا اثني عشر ألفا، ألفان من أهل مَكَّة وما يليها الذين أسلموا، وعشرة آلاف من المهاجرين والأنصار من المدينة وما يليها ومن التحق بهم في الطريق، وقيل: سِتَّة عشر ألفا، وعليه عطاء، وقال الكلبيُّ: عشرة آلاف، ويجمع بأنَّهم أوَّلاً عشرة آلاف ثمَّ تلاحق الناس. فتح مَكَّة في رمضان عام ثمانية وغزا غزوة حنين في أواخر رمضان وأوائل شوَّال المتَّصل به، والمشركون أربعة آلاف، وقيل: أكثر من عشرين ألفا، وقتل منهم سبعون ومن المسلمين أربعة.

﴿**وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الاَرْضُ**﴾ أرض القتال كأنَّكم لم تجدوا منها موقفا، فهربتم لشدَّة الرعب إلى غيرها حتَّى وصل بعض منهزمكم مَكَّة ﴿**بِمَا رَحُبَتْ**﴾

١- رواه **البيهقي** في كتاب السير، (١٤٧) باب ما يستحبُّ من الجيش والسرايا، رقم ١٨٤٨١. ورواه **أحمد** في مسنده، كتاب مسند بني هاشم، رقم ٢٥٨٣. من حديث ابن عَبَّاس (م ح).

«مَا» مَصدَرِيَّة، والباء بمعنى مع، أي ضاقت مع سعتها، وذلك كناية عن كونهم مغلوبين، أو شبَّه أرض الغلبة عليهم بأرض الضيق بجامع عدم انشراح الصدر فيها بالوسع وبوقوع الهمِّ.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي تولَّيتم، فهو لازم، بمعنى: أعرضتم، ولا حاجة إلى إبقائه على التعدية، وعليها يقدَّر: وَلَّيْتُمُوهُم أدباركم، فالهاء مفعول أوَّل أو ثان، أي جعلتم أدباركم تالية لهم، أو جعلتموهم تالين أدباركم، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الاَدْبَارَ﴾(سورة الأنفال: ١٥).

(سيرة) وذلك أنَّ أخفَّاء من الناس لَمَّا رأوا كثرة المسلمين سارعوا وهم شبَّان لا لباس لهم مِمَّا يمنع النبل فرشقهم قوم حذَّاق بالنبل، فانهزموا و لم يبق معه ﷺ إلاَّ عمُّه العَبَّاس وابن عمِّه أبو سفيان بن الحرث، والحرث قيل هو أكبر أعمامه، وأبو سفيان هذا آخذ بلجام بغلته، وقيل: العَبَّاس، وقيل: بقي معه العَبَّاس وأبو سفيان بن الحرث وعليٌّ بن أبي طالب، وفي مسلم عن العَبَّاس بن عبد المطلب: «شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه» ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له ﷺ فروة بن نفاثة الجذامي، وليس هذا في البخاري. ويروى أنَّ معه عمَّه العَبَّاس وابن عمِّه أبا سفيان بن الحرث وابنه جعفر، وعليٌّ بن أبي طالب، وربيعة بن الحرث، والفضل بن العَبَّاس وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد، وقتل ﷺ عنه بين يديه ﷺ، وهؤلاء كلُّهم من أهل بيته، وهذه مكرمة عظيمة:

تلك المكارم لا قَعْبَانِ من لَبَنٍ   شِيبَا بماء فَصَارَا بَعْدُ أبْوَالا

وثبت معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فهم عشرة، قال العَبَّاس:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقدْ فَرَّ من قَدْ فَرَّ منهم وأَقْشَعُوا
وعاشرنا لاَقَى الحمَامَ بنفسه بما مَسَّه في الله لا يتوجَّع

وقيل: مائة وثلاثة وثلاثون من المهاجرين، وسبعة وستُّون من الأنصار، ويجمع بأنَّ العَبَّاس وأبا سفيان وعليًّا ثبتوا معه والباقين بَعُدُوا عَنْهُ، قليلا و لم يفرُّوا، وإنَّما أسلم أبو سفيان وخلص إسلام العَبَّاس يوم الفتح.

(سيرة) وحضر ﷺ ببغلته لشجاعته إذ لا تصلح للكرِّ والفرِّ، وكان يواجهها إلى جهة العدوِّ، وتزول الجبال ولا يزول، وقال للعبَّاس: «**صِحْ بالناس**» وكان يُسمع من ثمانية أميال، فنادى: «ياعباد الله يا أصحاب الشجرة! يا أصحاب سورة البقرة!» وأراد بأصحاب الشجرة أهل الحديبيَّة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُومِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾(سورة الفتح: ١٨) وبأصحاب البقرة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُومِنُونَ﴾(سورة البقرة: ٢٨٥) وقيل: الحافظين لسورة البقرة وكانوا رؤساء الصحابة قليلين، وهو الصحيح، نادى هؤلاء تذكيرًا للنعمة، وتلويحا إلى أنَّه مَن هذه صفتُه لا يليق به الفرار، والدعوة في الأنصار: «يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار!» ثمَّ خصَّت الدعوة في بني الحرث بن الخزرج: «يابني الحرث بن الخزرج! يا بني الحرث بن الخزرج!» ولَمَّا نادى أقبلوا مسرعين بمرَّة قائلين لبَّيك لبَّيك، فنزلت الملائكة والتقوا مع المشركين، فقال رسول الله ﷺ: «**الآن حين حمي الوطيس**» أو «**هذا حين حمي الوطيس**» وهو التنُّور أو المقلى، كناية عن شدَّة الحرب، ولم يقله أحد قبله، وفيه تلويح إلى أوطاس، وهو الوادي الذي هو فيه، والمعنى: شدَّة الحرب، جمع وطيس كأيمان ويمين، واستعار لشدَّة الحرب حمي الوطيس، وكان يقول: «**أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطَّلب!**» «**اللهمَّ أنزل نصرك!**» وأخذ ﷺ كفًّا من حصباء أو من تراب فرماهم بها، وقال:

«**انهزَموا وربِّ الكعبة**» بفتح الزاي، فما من أحد منهم إلاّ ملأ عينيه من التراب، أخذ القبضة واستقبل وجوههم وقال: «**شاهت الوجوه**» فرماهم.

﴿**ثُمَّ أَنزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ**﴾ رحمته طمأنينة بمشاهدة أمارة النصر في شأن من لم يهرب، ومشاهدة الملائكة في شأنه ﷺ، واستحضار أنَّ وعد الله حقٌّ في حقِّ المنهزمين، سمَّاها سكينته لأنّهم يسكنون بها ويأمنون، وهي سبب للسكون وزوال الاضطراب والخوف عن المؤمنين، وبالنسبة إليه ﷺ السكينة: منع عروض الخوف ﴿**عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُومِنِينَ**﴾ أعاد «عَلَى» بيانا للفرق بين حال رسول الله ﷺ وحال المؤمنين، فإنّه لم يضطرب و لم يقلق فإنزال السكينة عليه إبقاؤه على أمنه، وعلى المؤمنين إزالة خوفهم واضطرابهم، ورجوعهم من الانهزام، والمؤمنون: من بقوا معه ومن بعد عنه ومن فرَّ، وقيل: المراد بالمؤمنين: الذين بقوا معه، وإعادة «عَلَى» لِمَا فيهم من خوف، أو لتقوية إنزال السكينة فيهما، والمراد: إنزالها على المؤمنين، وذكر الرسول للتبرُّك.

ولَمَّا رجعوا للقتال أعانتهم الملائكة كما قال ﷻ: ﴿**وَأَنزَلَ جُنُودًا**﴾ ملائكة ﴿**لَمْ تَرَوْهَا**﴾ بأبصاركم ورآها المشركون ليذلُّوا، وحجب الله عنها أبصاركم لِئَلاَّ تتّكلوا عليها، وهي خمسة آلاف ﴿يُمْدِدْكُم رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلاَفٍ﴾(سورة آل عمران: ١٢٥) قاله سعيد بن جبير، ولعلّه قياس على يوم بدر، وقيل: ثمانية آلاف ﴿أَلَنْ يَّكْفِيَكُمْ, أَنْ يُّمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ ءَالاَفٍ﴾(سورة آل عمران: ١٢٥) فالخمسة والثلاثة ثمانية، وقيل: ستّة عشر ألفا.

(**سيرة**) قال سعيد بن المسيب: حدَّثني رجل من المشركين أسلم: إنَّا سقنا المسلمين و لم يمكثوا حلب شاة ولَمَّا انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء تلقّانا رجال بيض الوجوه، فقالوا: شاهت الوجوه ارجعوا، فرجعنا فركبوا أكتافنا، قال البراء بن عازب: «عدد العسكرين عسكر المؤمنين اثنا عشر

ألفا وعدد الكفّار أربعة آلاف، والذي لا إله إلاّ هو ما ولّى رسول الله ﷺ قطُّ، ورأيته وأبو سفيان آخذ بركابه، والعَبَّاس آخذ بلجام بغلته دلدول، ويقول: "**أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب!**"، ويركض نحو العدوِّ».

وما مرَّ آنفا عن سعيد بن المسيب يَدُلُّ على أنَّ الملائكة قاتلوا يوم حنين، بل روي عنهم أنّهم قاتلوا، وقيل: ما قاتلوا بل أرعبوا المشركين وألقوا في قلوب المؤمنين الخواطر المحسنة.

(سيرة) وصحَّحوا أنَّ الملائكة لم تقاتل إلاّ يوم بدر، وعن شيبة بن عثمان: استدبرت رسول الله ﷺ يوم حنين أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن أبي طلحة قتلا يوم أحد، فأطلعه الله ﷻ على ما في نفسي، فالتفت إليَّ فضرب في صدري فقال: «أعيذك بالله يا شيبة» فأرعدت فرائصي فنظرت إليه وهو أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنّك رسول الله قد أطلعك الله تعالى على ما في نفسي، ولَمَّا انهزم المشركون بوادي حنين أدبروا ونزلوا بأوطاس، وبها عيالهم وأموالهم، قد ساقوها معهم ليشتدُّوا في القتال، أرسل أبا عامر الأشعري على جيش إليهم وقاتلوهم، وهرب أميرهم مالك بن غوث إلى الطائف، وتحصَّن فيه، وأخذوا ماله ومال غيره، وأسروا ستّة آلاف وقتل في ذلك أمير المؤمنين[1] أبو عامر رضي الله عنه، وحاصر ﷺ الطائف بقيَّة شوَّال، ولَمَّا دخل ذو القعدة ارتحل عنهم. وعمائم الملائكة يوم حنين عمائم حمر مرخاة بين أكتافهم.

﴿وَعَذَّبَ اَلذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقتل من المسلمين، قيل: ومن الملائكة، قال رجل من بني نضر يقال له شجرة للمؤمنين: «أين الرجال البيض وعليهم

١- كذا في النسخ ولعلّه يريد أمير الجيش لوجوده ﷺ معهم وهو أولى بذلك.

ثياب بيض؟ والخيل البلق؟ ما كُنَّا نراكم فيهم إلاَّ كهيئة الشامة، وما قتلنا إلاَّ بأيديهم» فقال ﷺ: «**تلك الملائكة**» فإن صحَّ الحديث فظاهره أنَّ الملائكة قاتلوا يومئذٍ، ويحتمل أنَّ المراد بالقتل إعانة القاتل المؤمن بظهورهم ظهورا يرعب المشركين.

وهُزم المشركون وأسر منهم ستّة آلاف بين النساء والصبيان، وعن سعيد بن المسيَّب أصابوا ستّة آلاف صبيٍّ، ويروى أنّهم أخذوا منهم اثني عشر ألف بعير، ومن الغنم ما لا يحصى، وأسلم قوم منهم أتوا رسول ا لله ﷺ فقال: هؤلاء المأسورات أخواتك وخالاتك وعمَّاتك، يعنون من الرضاع لأنَّ هؤلاء المشركين المحاربين هم ثقيف وهوازن، وكان هوازن قوم حليمة السعديَّة مرضعته ﷺ، وهو أعمُّ من بني سعد فخيَّرهم بين هؤلاء والأموال فاختاروا هؤلاء النساء والصبيان لأنّهم أحبُّ من المال إليهم، ولئلاَّ يعيَّروا لو اختاروا المال، فقال: «**أمَّا ما لي ولبني هاشم فقد تركته لكم**» ونادى مناديه من ترك سهمه أعوِّضه مِمَّا يفتح ا لله، فتركوا سهامهم بلا عوض إلاَّ عيينة فبعوض، وقال رسول ا لله ﷺ: «**ارفعوا إليَّ عرفاءكم فإنِّي لا أدري من رضي مِمَّن لم يرض**» ففعلوا و لم يعط الأنصار وأعطى رجالا من قريش المائة من الإبل كأبي سفيان بن حرب، والحرث بن هشام، وسهل بن عمرو، وصفوان بن أميَّة، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، و لم يتمَّ لعبَّاس بن مرداس مائة، فقال الأبيات المشهورة: أتجعل نهبي...[1] فأتمّها، وقال رجال من الأنصار: يغفر ا لله لرسول ا لله ﷺ يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فجمع الأنصار وحدهم في قبَّة من جلد، فقال: «**بلغني عنكم قول كذا**» فقالوا: يارسول ا لله قاله شبَّان لا ذووا الرأي مِنَّا، فقال ﷺ: «**أعطي رجالا حديثي عهد بالإسلام**

١- راجع سيرة ابن هشام، ج٤، ص١٤٦. (دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٤).

أتألّفهم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالمال وتذهبون برسول الله وهو خير؟» فقالوا: رضينا، وقال: «**ستجدون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتّى تلقوني على الحوض**» قالوا: نعم، قال أنس: فلم نصبر، وقال: «**ألم أجدكم ضلّالا فهداكم الله تعالى بي، ومفترقين فجمعكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأذلّة فأعزّكم الله تعالى بي**» وكلّما قال قالوا: الله ورسوله أمنُّ، وقال: «**لو شئتم لقلتم: طردك قومك فآويناك، وخذلوك فنصرناك، وكفروا بك وآمنا بك**» فقالوا: لا نقول، المنّة لله تعالى ورسوله ﷺ علينا، وقال: «**لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديا أو شعبا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم، الأنصار شعار والناس دثار**»[1]. ﴿**وَذَالِكَ**﴾ التعذيب بالأسر والسبي والجروح والإيجاع ﴿**جَزَآءُ الْكَافِرِينَ**﴾ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب لا ينقطع، فلهم عقابان إلاّ من تاب ﴿**ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ**﴾ بالتوفيق للإسلام ﴿**مِنْ بَعْدِ ذَالِكَ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ**﴾ منهم، والتعذيب بالأسر والإيجاع والجروح لا ينافي التوفيق، وتوبة الله تطلق على التوفيق وعلى قبول توبة العاصي ﴿**وَاللهُ غَفُورٌ**﴾ لمن تاب ﴿**رَحِيمٌ**﴾ له بالجنّة وما دونها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

تحريم دخول المسجد الحرام على المشركين

﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ**﴾ ناداهم ليتحفّظوا على ما يذكر من الحكم بعد

١- تقدّم تخريجه في آية ٦٣ من سورة الأنفال، ص ٣٦١، من هَذَا الجزء.

النداء ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ مصدر، أي: ذوو نجس، أو وصفٌ فيكون على التشبيه، أي كنجس، أي كشيء نجس، كحسن الشيء فهو حسن، فهم كالعذرة والبول في النجاسة، أو أفرد على أنَّ أصله مصدر بلا تشبيه كعدل، والآية شاملة لأهل الكتاب.

(فقه) وقيل بطهارة بلل أهل الكتاب إلاّ ما ينجُس من غيرهم إن أعطوا الجزية، وقيل: ولو لم يعطوها، وقيل بكراهتها، وعن ابن عَبَّاس: أبدان المشركين نجسة كالكلب والخنزير ولو غسلوا، وقيل: نجسة لأنَّهم لا يجتنبون الأنجاس ففيه الحكم بالغالب، فلو غسلوا أو جانبوا النجاسة لكانوا طاهرين، كالدجاجة لَمَّا غلب أكلها الأنجاس حكم بنجاستها حتّى تحبس ثلاثة أيَّام، وقيل: لا ينجس من المشرك ولو غير كتابيٍّ، أو كتابيًّا محاربا إلاّ ما ينجس من غيره، وأنَّ الآية في خستّهم بالشرك سمَّاها نجسا، وهو مذهب جمهور قومنا، فيجتنبون كما تجتنب الأنجاس، وعن الحسن بن صالح والزيديَّة من الشيعة من صافح مشركا توضَّأ، قال رسول الله ﷺ: «**من صافح مشركا فليتوضَّأ أو ليغسل كفَّه**»[1]. وأو منه ﷺ للتخيير، واختار التوضُّؤ وهو بعد غسل الكفّ. وروي أنَّ جبريل استقبل رسول الله ﷺ فناوله يده فلم يقبلها، فقال: «**يا جبرائيل ما منعك أن تأخذ بيدي؟**» فقال: إنّك أخذت بيد يهوديٍّ فكرهت أن تمسَّ يدي يدا قد مسَّتها يد كافر، فدعا ﷺ بماء فتوضأ فناوله يده فتناولها.

والآية في حصر المشركين في النجس حصر موصوف على صفة حصرا إضافيًّا منظورا فيه إلى الطهر، أي هم نجسون لا طاهرون، [قلت:] وَوَهِمَ الفخر إذ قال: المعنى لا نجس من الناس إلاّ مشرك، وإنّما ذلك لو قال: إنّما النجس

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣، ص٢٤٦.

المشركون. ﴿فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ نهي عن قربه تأكيدا في النهي عن دخوله، وكذا سائر مساجد الإسلام قياسا عليه، ولأنّه أمامها، أي لا تتركوهم للدخول لخبثهم بالشرك وبالنجاسة.

(فقه) ولا يدخل المشرك مسجدا من مساجد المسلمين ولو ذمّيًّا يعطي الجزية، ولو غسل النجس والثياب، قال بعض: إلاّ بإذن مسلم، **والمذهب أنّه لا يجوز للمسلم أن يأذن له في دخول مسجدنا ولا مسجد قومنا، ولا يحلُّ أن نتركهم يدخلون مسجدنا ولا مسجد قومنا.** أو قرب المسجد الحرام دخول الحرم، فإن أرسلوا للإمام أرسل إليهم رسولا إلى خارج الحرم، أو خرج إليهم، وإن دفن مشرك في الحرم قلع إلى الحلّ ولو ذمّيًّا أو معاهدا، وأجاز أبو حنيفة وأهل الكوفة دخول المعاهد والذمّيّ الحرم، ويدخل المشرك الحجاز لأمر كتجر بالإذن، ولا يقيم أكثر من ثلاثة أيَّام.

وعزم ﷺ على إجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب ومات قبل إجلائهم، وفي مسلم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : «**لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلاَّ مسلما**»[1]. وروي أوصى فقال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»[2]. ولم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر وأجَّل لمن يدخله لتجر ثلاثة أيَّام، قال ﷺ: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**» رواه مالك مرسلا. وفي مسلم عن جابر عنه ﷺ : «**إنَّ الشيطان قد يُسَرُّ أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب**»[3].

١- رواه **الترمذي** في كتاب السير، (٤٣) باب ما جاء في إخراج اليهود والنصارى، رقم ١٦٠٦. ورواه **مسلم** في كتاب الجهاد والسير، رقم ٣٣١٣، من حديث عمر.

٢- رواه **مالك** في كتاب الجامع، رقم ١٣٨٨، من حديث ابن شهاب (م ح).

٣- رواه **مسلم** في كتاب صفة القيامة وَالجنَّة، رقم ٥٠٣٠. و**الترمذي** في البرّ والصلة، رقم =

وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، ومن جدَّة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضا، وقيل: ما بين اليمامة واليمن أنجد، والمدينة الشريفة كلُّها حجازيـَّة، وقيل: جلُّها حجازيٌّ ونصفها يمانيٌّ، وقال ابن الكلبي: الحجاز ما بين جبل طيٍّء وطريق العراق، وعن سعيد بن عبد العزيز: ما بين الوادي إلى أقصى اليمن إلى تخوم العراق إلى البحر.

وقيل: المسجد الحرام: هو الحرم، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اَلذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(سورة الإسراء: ١) وقد أسري به من بيت أمِّ هانئ، لكن قد قيل أيضا: من تحت الميزاب، فيجمع بأنَّ الإسراء منه ثمَّ من بيتها، وزعم أبو حنيفة أنَّ المراد منعهم عن الحجِّ والعمرة.

﴿**بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**﴾ أي بعد انسلاخ تسعة من الهجرة وهو عام نزول السورة والنداء بالبراءة في الحجِّ، وقيل: عام حجَّة الوداع، وانسلاخ عامهم: تمام ذي الحجَّة من سنة تسع، أو سنة عشر، وهي سنة حجَّة الوداع، ويدلُّ على أنَّ المراد بالمسجد الحرام الحرم كلُّه لا المسجد قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ا للهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ اِنَّ اَ للهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ لأنَّهم لا يخافون بعدم دخول المسجد فقط، فإنَّه إذا منعوا منه فقط دخلوا بأموالهم الحرم وأسواقه ومواسمه، وأيضا سمَّى ا للهُ الحرم المسجد الحرام في قوله: ﴿سُبْحَانَ اَلذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الاَقْصَى﴾(سورة الإسراء: ١) مع أنَّه سرى من بيت أمِّ هانئ، لكن ليس إجماعا بل فيه قول من الحجر الحطيم. والعَيْلة: الفقر، خافوا الفقر بقطع المشركين عن الحرم. وفضل ا لله: عطاؤه. وقد أرسل السماء عليهم مدرارا وأسلم أهل جدَّة وصنعاء وهي قاعدة اليمن، وجرش وهو موضع باليمن، وتبالة وهي بلدة حصينة فيه، فحملت إليهم

١٨٦٠. من حديث جابر (م ح).

الأرزاق من هذه البلاد وغيرها، وفتحت البلاد وكثرت الغنائم والجزية وتوجَّه الناس إليهم من كلِّ فجٍّ عميق، وقيَّد بالمشيئة ليتحقَّقوا أنَّ الأمر إلى ا لله، ويقصروا آمالهم عليه، وأنَّه لا واجب عليه وكلُّ نعمة فضل منه، وأنَّه إن شاء أعطى هذا ومنع هذا، أو أعطى عاما دون عام، وأخبرهم أنَّه ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم، مَن يصلح للإعطاء ومن لا يصلح، ﴿حَكِيمٌ﴾ في إعطائه ومنعه. وسلاَّهم أيضا من مفارقة أحبَّائهم من المشركين وعن خوف العيلة بالجزية أيضا في قوله:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قتال أهل الكتاب لشركهم وفساد عقيدتهم

﴿قَاتِلُواْ﴾ يا محمَّد وأصحابه ﴿الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِا للهِ وَلاَ بِـالْيَوْمِ الاَخِرِ﴾ فمن أوَّل السورة إلى هذا في المشركين من العرب، واستأنف هنا كلاما في اليهود والنصارى المشركين أهل كتاب. نزلت الآية فغزا تبوك وصالحهم بمال يعطونه وهم نصارى، قال الكلبيُّ: نزلت في قتال قريظة والنضير وهم يهود

فقاتلهم وأعطوا الجزية، وهي أوَّل جزية، فهذه ومال تبوك من فضله الذي يغنيهم به. وإنَّما نفى عنهم الإيمان لأنَّهم لا يؤمنون بالنبيء ﷺ.

وكفرت النصارى بأنبياء اليهودِ، واليهودُ بعيسى، واليهودُ يعتقدون أنَّ الله جسم وأنَّه استوى على العرش استواء معقولا، ويقولون: إنَّه على صورة الإنسان، وأنَّ عزير ابن الله، والنصارى يقولون بحلول الأُلُوهِيَّة منه في عيسى ومريم، وأنَّهما إلاهان، أو هو ابن الله، ويقول النصارى: تبعث الأرواح دون الأجسام، ويقولون هم واليهود: لا أكل ولا شرب في الجنَّة ولا نكاحا، وذلك كلُّه إشراك، ويقول اليهود: لا يدخل الجنَّة إلاَّ اليهود، يعنون لا يدخلها النصارى وهذه الأمَّة، وتقول النصارى: لا يدخلها إلاَّ من كان نصارى أي لا تدخلها هذه الأمَّة واليهود، وقالت اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾(سورة البقرة: ٨٠) ، فإيمان مَن هَؤُلاء صفاته كلا إيمان با لله واليوم الآخر، **فإنَّ الإيمان بالشيء على غير ما هو عليه غير إيمان به وإنكار له.**

﴿وِلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اَللهُ وَرَسُولُهُ﴾ كالخمر والخنزير والربا، ورسوله هو سيِّدنا محمَّد ﷺ، أو الجنس، أي كلٌّ لا يحرِّم ما حرَّم الله ورسوله، ولَمَّا جاء ﷺ خالفوه، ويجوز أن يراد برسول الله ما يشمل رسلهم وسيِّدنا محمدا ﷺ، والوجهان لا يليقان بالسياق، وقيل: ولا سيما باللحاق فإنَّ ما قبل هذا في رسول الله ﷺ قوله: **﴿وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ اَلْحَقِّ﴾** فيه أيضا، وفيه أنَّ هذا ظاهر في عموم الحقِّ قبله ﷺ ومعه ﷺ.

والحقُّ: الصواب عند الله، وقيل الحقُّ: الله، وقيل المراد: دين أهل الحقِّ، وقيل الدين: الطاعة، والحقُّ: الله، ويجوز أن يراد بالحقِّ الثابت، والإضافة للبيان، أي ديننا هو الثابت الذي لا ينسخه دين، وَأَمَّا أن يراد دينهم الحقُّ الذي جاء

به أنبيائهم وديننا ففيه إنّما نقاتلهم على مخالفة ديننا لا على مخالفة دين نبيئهم، نعم نبيئهم يأمرهم بالإيمان بنبيئنا ﷺ.

﴿مِنَ اَلْذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى، والصابون داخلون في اليهود والنصارى، وكذا السامريَّة، وذلك بيان للذين لا يؤمنون ﴿حَتَّى يُعْطُواْ﴾ يعطوكم ﴿الْجِزْيَةَ﴾ من أنفسهم بالإذعان لها، وليس إحضارها فتقبض فإنّها تعطى آخر العام، وقيل: أوّل العام التالي لعام عقدها وابتداء العام حين عقدت.

(لغة) والجِزْيَة: فِعْلَة للهيئة، من جزى إذا قضى ما عليه، ويقال: جزى دينه إذا قضاه، ومنه: ﴿لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾(سورة البقرة: ٤٨)، وقيل: سمِّيت لأنّها جزاء الكفر، أي عوقبوا بها لكفرهم، فهي من معنى المجازاة، وقيل: لأنّها تجزي عن دمائهم، أي تكفي عن قتل، فهي من معنى الإجزاء، يقال: فلان يجزي أي يكفي، وقيل: من معنى المجازاة لكفّنا عنهم القتال، أو لأنّها جزء من المال مفروض، وعليه تكون الياء عن همزة، وقيل: معرَّب من كزيت وهو الخراج بالفارسية، [قلت:] ولا يجوز هذا، لأنَّ الأصل عدم كون اللفظ معرَّبا إلاّ ما قام دليله، وعلى كلِّ حال هي في الأصل مصدرٌ أطلقت على مقدار من الخراج.

﴿عَنْ يَّدٍ﴾ متعلّق بمحذوف حال من الجزية، و«يَد»: انقياد، أي ثابتة عن انقياد، أو يقدَّر خاصًّا أي صادرة عن يد، أو صادرة أو ثابتة عن ذلٍّ منهم، أو عن إنعام منكم بقبولها، أو عن قهر عليهم، أو عن حضور ونقد، أو عن غنى، وهو وجود ما يعطي، ومن لم يجد فلا عليه، وقيل: يجبر عليها لأنّه قادر على التوحيد، فلو وحَّد لسقطت عنه. وضعف إلبائه في الشمس ملطّخا بالعسل أو اللبن. وقيل: إن قدر على الكسب قهر عليها، وهو قول الشافعيِّ. ومن الذلّ

والانقياد الذي تضمَّنته معاني «يَد» مجيئهم بها، وعدم تأجيلها بعد حلول وقتها، ولا يقولون للإمام: أرسل من يقبضها.

﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أذلاَّء، تأكيدا لقوله: ﴿عَنْ يَّدٍ﴾ إذا فسِّر اليد بالذلِّ، فالأولى أن لا تفسَّر بالذلِّ، وجعل ابن عَبَّاس لقوله: ﴿صَاغِرُونَ﴾ معنى على حدة، هو أن يضرب في عنقه، وقيل: يؤخذ بتلبيبه، ويهزهز، أو يقال: أعط الجزية يا ذمِّي، وقيل: يؤخذ بلحيته وتضرب لهزمته، ويقال: «أدِّ حقَّ ا لله تعالى يا عدوَّ ا لله». وفي قبولها وإهانتهم بذلك إمهال لهم لعلَّهم يتفكَّرون في المدَّة، وينظرون في كتبهم فيعرفون الحقَّ معه ﷺ، وليست الجزية إقرارًا لهم على كفرهم كما زعم بعض، ولعلَّ مراد قائله أنَّها عوض عن القتل والاسترقاق الواجبين، فتكون مثل إسقاط القصاص بعوض الدية، وهي عقوبة على الكفر مثل الاسترقاق أو هي لنفع المسلمين، وقيل: قبلت منهم لحرمة آبائهم الذين على الحقِّ، وقيل: ليتوجَّعوا بما يعاملون به فيتركوا الكفر إلى الإيمان.

(فقه) وجاءت السنَّة بأخذ الجزية عن المجوس، قال ﷺ: «**سنُّوا بالمجوس سنَّة أهل الكتاب في الجزية**» أي لا في النكاح والذبائح وأخذها عن مجوس هجر كما شهد به عبد الرحمن بن عوف لعمر حيث توقَّف في المجوس، وقال مالك والأوزاعي: تؤخذ من كلِّ مشرك، وفي امتناع عمر من أخذ الجزية من المجوس حتَّى شهد عبد الرحمن بن عوف أنَّه ﷺ أخذها منهم دليل على أنَّ رأي الصحابة كان على أنَّها لا تؤخذ من كلِّ مشرك، واتَّفقت الصحابة على أنَّها تؤخذ من المجوس، وفي البخاري: «ما أخذ عمر الجزية عن المجوس حتَّى شهد عبد الرحمن بن عوف أنَّ رسول ا لله ﷺ أخذها من مجوس هجر»[1].

١- رواه **البخاري** في كتاب الجزية والموادعة، (١) باب الجزية والموادعة مع أهل الذمَّة... رقم ٢٩٨٧ من حديث عمر.

ويروى أنَّه شهد له عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**سنُّوا بهم سنَّة أهل الكتاب**»[1]، أي في الجزية وصرَّح بها في رواية، والحديث في الموطَّأ «أنه ﷺ أخذ الجزية من مجوس البحرين، وأنَّ عمر أخذها من مجوس فارس، وأنَّ عثمان أخذها من البربر»[2]. واتَّفقوا على تحريم ذبائحهم ونسائهم، وأنَّها لا تؤخذ من المرتدِّ.

(فقه) وتؤخذ الجزية عن أهل الكتاب والمجوس، ولو كانوا عربا، وقال أبو يوسف: لا تؤخذ من العربيِّ كتابيًّا أو مشركا، وتؤخذ من العجميِّ كتابيًّا أو غيره، وقال أبو حنيفة: تؤخذ من أهل الكتاب ولو عربا، ولا تؤخذ من مشركي العرب، وهو مذهب الشافعيِّ، ومن دخل من المشركين في دين أهل الكتاب قبل النسخ والتبديل أخذت منه الجزية، وحلَّت ذبائحهم ونساؤهم، وأمَّا بعد التبديل أو النسخ بمجيء سيِّدنا محمَّد ﷺ فلا تقبل عنهم الجزية، ولا تحلُّ ذبائحهم ولا نساؤهم، ومن احتمل الدخول قبل أو بعد أخذت عنه الجزية حقنا للدماء على الأصل، و لم تحلَّ ذبائحه ونساؤه احتياطا.

(فقه) ومنهم نصارى العرب تنوخ وبهراء وتغلب أخذ عمر جزيتهم وحرَّم ذبائحهم، وعنه ﷺ : «**الجزية دينار على كلِّ عاقل بالغ**». وعن أبي حنيفة: على الفقير اثنا عشر درهما، والأوسط أربعة وعشرون، والغنيِّ ثمانية وأربعون، أربعة دراهم في كلِّ شهر، وذلك في كلِّ سنة، وعن عمر أنَّه ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير، وعلى أهل الفضَّة أربعين درهما، ومع

١-رواه **مالك** في كتاب الزكاة، (٢٤) باب جزية أهل الكتاب والمجوس، رقم ٤٢ من حديث عمر.

٢-رواه **مالك** في كتاب الزكاة، (٢٤) باب جزية أهل الكتاب والمجوس، رقم ٤١. من حديث ابن شهاب.

ذلك أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيـّام[1]، رواه مـالك في موطّـئه، ففـي كـلّ دينار عشرة دراهم، وعن الزهريّ أنـّه ﷺ صالح عبدة الأوثان إلاّ من كـان مـن العرب، قلت: ليس ذلك جزية بل صلح، فلا حجّة فيه لمالك، وقيل: تـؤخذ من العرب الكتابيـّين.

وإنّما لم تقبل عن العرب لأنّهـم أعـرف بـه ﷺ وأفهـم، إذ هـو فيهـم ومنهم، وبلغتهم يتكلّم، ودلّـت الآيـة علـى أنـّه إن كـانوا لا يعطونهـا إلاّ بكره وشدّة قوتلوا.

وإنّما قبلت من المجوس لأنّ لهم شبهة كتاب، كما روي عن عليّ أنـّه كـان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا وقد رفع، وروي أنّهم أسرعوا في إهانـته فعوجـل بالرفع، ويؤخذ منهم ما يؤخذ من اليهود، وذكر بعض أنـّه إذا قبـل أهـل الجزية الزيادة على الدينار فعلى المتوسّط ديناران، وعلى الغنيّ أربعـة، وأنّ الغنيّ مـن لـه عشرة آلاف درهم، والمتوسّط مـن لـه مئـتا درهـم إلى أقلّ مـن عشـرة آلاف، والفقير من لا يملكهما.

ولا جزية على شيخ فانٍ وزَمِـنٍ وصبيّ وامـرأة ومملـوك وأعمـى ومفلـوج، وراهب لا يخالط الناس، وقيل: تـؤخذ منهمـا، وقـال أبـو يوسـف: تؤخـذ مـن المفلوج، والمذهب أخذها مـن الأعمـى، وقولـه ﷺ: «**الجزيـة دينـار علـى كـلّ عاقل بالغ**» دليل على أنـّه لا جزيـة علـى طفـل ومجنـون، ولم يفـرّق بـين الغـنيّ والفقير، وكذا أمر ﷺ معاذا أن يأخذ من أهل الجزية دينارا مـن كـلّ محتلـم، أو عدله من المعافر وهي ثياب تكون في اليمن، رواه أبو داود.

١- رواه **مالك** في كتاب الزكاة، (٢٤) باب أهل الكتاب والمجوس، رقم ٤٣، مـن حديـث أسلم مولى عمر بن الخطّاب.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ ا للهِ﴾ قاله بعض متقدِّميهم ونسب إليهم مطلقا لرضاهم عن قائله، كما نسب إليهم قتل الأنبياء لرضاهم عمن قتلهم. وعدمُ اللعن والتبرِّي رِضًى.

(سبب النزول) وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عَبَّاس قال: سلاَّم بن مشكم ونعمان بن أبي أوفى وشاش بن قيس ومالك بن الصيف لرسول ا لله ﷺ كيف نتَّبعك وقد تركت قبلتنا ولا تزعم أنَّ عزير ابن ا لله؟ فنزلت. وقيل: قاله فنحاص بن عازوراء وحده ورضوا به، وهو القائل ﴿إِنَّ ا للهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(سورة آل عمران: ١٨١) وعلى كلِّ حال لم ينكر اليهود ذلك حين نزلت مع أنَّهم في غاية التكذيب، ولو أنكروه لم يُفِدْ إنكارهم مع إخبار ا لله ﷻ به عنهم، وكذا عادة اليهود والنصارى يبدِّلون ما في القرآن إلى غيره، ويروون غيره عن كتبهم لينسبوا الكذب إلى القرآن.

(قصص) أعرض اليهود عن التوراة فرفعت مع التابوت من صدورهم، أو رفعت لقتل "بخت" من قرأها، وهرب عزير إلى العراق لم يقتله لصغره، ولَمَّا رجع بعد مائة سنة مات فيها[1]، صلَّى مبتهلا فدخل جوفه نور من السماء فعادت إلى قلبه، وقيل: شربها من إناء ناوله ملك له، ورجعت مع التابوت، أو وجدوها مدفونة في كرم أخبرهم رجل عن أبيه عن جدِّه به فيها، وقابلوا ما يقرأ عزير و لم يجدوا تغيُّرًا، وقالوا: ما ذاك إلاَّ لكونه ابن ا لله، قال لمولاة مُقْعَدَةٍ عَمياء في داره: أنا عزير، فقالت: إن صدقت فادع ا لله لي فدعا فأبصرت ومشت إلى كرم معه فأخبرتهم بموضع دفنت فيه التوراة، فأخرجوها، وأيضا أبصرت علامة بين كتفيه فعرفته.

١- يشير الشيخ رحمه ا لله إلى قصَّة عزير في سورة البقرة الذي أماته ا لله مائة عام ثمَّ بعثه، آية ٢٥٩.

(لغة) و«عُزَيْرٌ» مبتدأ خبره «ابْنُ»، وهو عجميٌّ ولذا لم ينوَّن، وإنّما لا ينوَّن العلم إن كان ابن تابعا، وقيل: عربيٌّ فلم ينوَّن على لغة من يحذف التنوين للساكن بعده لشبه النون بالواو، ولا حاجة إلى دعوى أنَّ «ابْنُ» تابع لـ«عُزَيْرٌ» والخبر محذوف، أي نبيئنا أو إمامنا أو معبودنا. وأمَّا ألف «ابن» فيكتب في القرآن ولو كان بين علمين تابعا لأوَّلهما، كما كتب في عيسى ابن مريم، والمسيح ابن مريم بألف، ويردُّ هذه الدعوى أنَّها توجب إثبات النبوءة، لأنَّ التصديق أو التكذيب راجع إلى الخبر لا إلى قيد المبتدأ، وإذا قلت: زيد بن عمرو قائم، سلَّمت أنَّه ابنه، والكلام إنّما هو في القيام، قلت: إنّما ذلك في غير ما ذكر بالقول فهنا نسب إليهم إثبات البنوَّة والخبر.

﴿وَقَالَتِ اِلنَّصَارَى اَلْمَسِيحُ ابْنُ ا للهِ﴾ مبتدأ وخبر، فليكن عزير ابن ا لله كذلك تبادرا لا لزوما، قالوا ذلك لاستحالة ولد بلا أب عادة، أو لَمَّا رأوا من معجزاته، أو وجدوا في الإنجيل أو غيره أنَّه ابن ا لله سبحانه بمعنى قُربِ الشرف، فتوهَّموا باللفظ، قالت اليعقوبيَّة لعنهم ا لله: ذلك لأنّه بلا أب، ولإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء ما ليس حيًّا، وفيه أنَّ آدم عليه السلام لا أب له ولا أمَّ، والإبراء والإحياء با لله على يده، ألا يرونه يصلّي لله داعيا لله عز وجل أن يفعل ذلك؟ .

(قصص) كانوا بعد رفع عيسى عليه السلام على الحقّ إحدى وثمانين سنة يصومون شهر رمضان في وقته، ويصلُّون إلى القبلة. وَمِمَّا يروى على ضعف أنَّه كان بُولص اليهودي قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام، وقال: إن كان عيسى محقًّا دخلنا النار ودخل أتباعه الجنّة، فاحتال لأن يدخلوا النار معه، فعرقب فرس جهاده ووضع التراب على رأسه، وقال للنصارى: أنا بولص نوديت من السماء: لا توبة لك حتّى تتنصَّر فنصَّروه في الكنيسة، ولزم بيتا

سنة حتّى تعلّم الإنجيل، فقال: نوديت بقبول توبتي فعلا شأنه فيهم، فعلّم يعقوبَ أنَّ عيسى ابن ا لله ونسطورَ أنَّ ا لله وعيسى ومريم آلهة، وملكانَ أنَّ عيسى ا لله، فأرسل واحدا للروم وواحدا للقدس وآخر لغير ذلك، ودعا كلٌّ واحد إلى ما عُلِّمَهُ، ووقع القتال لذلك، وقد قال لهم: رأيت عيسى في المنام ورضي عنّي وسأذبح نفسي قربانا فذبح نفسه.

﴿ذَالِكَ﴾ المذكور من ادّعاء أنَّ عيسى ابن ا لله، أو من ادّعاء أنَّ عزير ابن ا لله، ومن ادّعاء أنَّ عيسى ابن ا لله ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ تكرير لذكر عيبهم، كما إذا فصّلت فعل أحد وقوله ثمَّ ختمت بقولك: هذا فعله، أو هذا قوله، أو دفع لِمَا قد يتوهَّم أنّهم أثبتوا البنوّة لعزير وعيسى بالكتب، أو الإشارة إلى فعل أو التزام، أو ذلك لبيان أنَّ ذلك قول مجرَّد عن الحجَّة ظاهر البطلان، فإنَّ ا لله ﷻ لا يحتاج ولا يستكمل ولا يشتهي، وليس جسما كما أنَّه ليس عرضا، ولا تحويه جهة، فكيف تكون له زوج فهو قول بمجرَّد الفم فكأنّه تنفيه قلوبهم، ويجوز على بعد أن يكون المعنى: ذلك قولهم لا قول لمن تبعهم وليس منهم. ﴿يُضَاهُونَ﴾ أي يضاهي قولهم، بدليل قوله: ﴿قَوْلَ اَلذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ فإنَّ الذات لا تشبَّه بالعرض، والمضاهاة: المشابهة، أو يقدَّر: يضاهون في قولهم، ويجوز أن يضمَّن «يُضَاهُونَ» معنى: يحكون، فلا يقدَّر مضاف، أي يقولون قولا كقول من قبلهم، فإنّك إذا فعلت ما سبقك غيرك به فكأنّك استحضرت عين ما سبقك غيرك به.

والواو الأولى للنصارى فيكون ﴿اَلذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾: اليهود، أشبهوهم في قولهم: «عزير ابن ا لله» بقولهم: «المسيح ابن ا لله»، أو الواو للنصارى واليهود الذين في زمانه ﷺ، فـ﴿اَلذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ هم اليهود والنصارى القائلون بذلك قبل زمانه ﷺ، وفيه تلويح بأنَّ الكفر فيهم قديم، ويبعد أن

يكون ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ مشركي العرب القائلين: إنَّ الملائكة بنات ا لله، لأنّهم ليسوا قبل السابقين من اليهود والنصارى، ولا قبل اليهود والنصارى الموجودين في زمانه ﷺ وانقطعوا، بل قبلهم واتَّصلوا ووجدوا في زمانه، فلا يقال: من قبل إلاّ أنَّ ظاهر كلام مجاهد يدلُّ أنَّ القائلين: إنَّ الملائكة بنات ا لله انقطعوا قبل زمانه ﷺ، فصحَّ أن يقال: أشبه النصارى، أو النصارى واليهود هؤلاء القائلين من قبل، وفيه تقبيح لهم إذ شابهوا وهم أهل كتاب من ليس من أهل الكتاب، أو المراد: تشبيه كفر اليهود والنصارى بكفر الأمم الخالية كنمروذ وعاد وثمود وقوم نوح، ومن النصارى أيضا من يقول: الملائكة بنات ا لله، فإن انقطعوا شبَّه بهم اليهود والنصارى القائلين ببنوَّة عزير وعيسى.

﴿قَاتَلَهُمُ ا للهُ﴾ لعنهم ا لله، وهو أمر للخلق أن يدعوا عليهم باللعنة وبالهلاك، كما يجيء الترجّي في القرآن مصروفا إلى الناس، أو ذلك إخبار بأنَّ ا لله قد لعنهم أو أهلكهم، أو تعجيب للنبيء ﷺ وغيره من حالهم، فإنَّ مَادَّة "قاتل" تستعمل في التعجُّب، إذا أعجبتك خصلة من إنسان ولو حسنة قلت: قاتله ا لله، أو قتله، لا تريد سوءًا بل تعجُّبا ﴿أَنَّىٰ يُوفَكُونَ﴾ كيف يُصرفون؟ أو من أيِّ جهة يصرفون عن الحقِّ إلى الباطل، وذلك تعجيب للخلق من حالهم إذ اختاروا الضلال مع وضوح الحقِّ بالبرهان.

﴿اتَّخَذُواْ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ علماءهم، اتَّخذَ اليهود أحبارهم، والنصارى أحبارهم.

(لغة) والمفرد "حبر" بفتح الحاء وكسرها وإسكان الباء، وكسر الحاء أنسب بالجمع، والفتح جائز في مفرده فيما قيل، ولعلّهم استغنوا بجمع المكسور وإلاّ فقياس المفتوح أَحْبُر بضمِّ الباء وإسكان الحاء وفتح الهمزة، وسمِّي العالم حبرا لأنّه يزيِّن العلم ببيانه، أو لأنّه يفرح الخلق، يقال: حبَره بفتح الباء

يحْبُره بضمِّها بمعنى حسنه أو فرَّحه، ولا يسمَّى العالم في العرب حبرا إلاَّ إن كان من أهل الكتاب مسلما أو مشركا من نسل هارون، ومتى سُمِّي العالم من غيرهم حبرا فتوسُّع، وأصل المادَّة العموم، والمراد في الآية بالأحبار علماء اليهود وقيل: العالم حبر ولو من هذه الأمَّة كما يسمُّون ابن عبَّاس: الحبر، وحبر الأمَّة.

﴿**وَرُهْبَانَهُم**﴾ عبَّادهم، وهو من الرهبة بمعنى الخوف، وهو مختصٌّ بعبَّاد النصارى في العرف، كانوا لا يتزوَّجون ولا يأكلون اللذَّات ويعتزلون ويُشدِّدون، حتَّى إنَّ منهم من يخصي نفسه، ويضع السلسة في عنقه، فقال ﷺ لذلك: «**لا رهبانيَّة في الإسلام**» وقال: «**كلوا وتزوَّجوا وانفعوا الخلق وجاهدوا**». جمعت اليهود والنصارى في واو «اتَّخَذُوا»، ورجعت «أَحْبَارَهُمْ» لليهود و«رُهْبَانَهُم» للنصارى على اللفِّ والنشر المرتَّب، باعتبار ذكر اليهود أوَّلا والنصارى ثانيا قبل ذلك، وأمَّا باعتبار الواو فلا ترتيب ولا لفَّ. والهاء لليهود في «أَحْبَارَهُمْ» وفي «رُهْبَانَهُم» للنصارى، ويجوز كون الهاءين للمجموع.

﴿**أَرْبَابًا مِّن دُونِ اِللهِ**﴾ غير الله استلحاقا به، فلم ينفعهم إيمانهم به، إذ أشركوا به غيره، أو قوله: ﴿مِن دُونِ اِ للهِ﴾ نفي له، لأنَّ من جعل غيره إلها فليس بمؤمن به، لأنَّ الإيمان به إفراده ﷻ. ﴿**وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ**﴾ أضافه لأمِّه تنبيها على شدَّة حمقهم في قولهم: إنَّه إله، أو ابن إله. عطف على «رُهْبَانَهُم» أو على «أَحْبَارَهُمْ»، والعطف على «رُهْبَانَهُم» ولو كان ثانيا والواو لا تُرتِّب لأنَّ الرهبان والمسيح لملَّة واحدة، أو يقدَّر: والمسيح بن مريم إلها، أو ربَّما عطفا على معمولي عامل.

(**سيرة**) وكان عديٌّ بن حاتم رضي الله عنه نصرانيًّا جاءت به أخته من الشام هاربا إليها، قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، وهو يقرأ

براءة فقال: «**ياعدي، اطرح هذا الوثن من عنقك**» فطرحته ثـمَّ انـتهى إلى قولـه تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ فقال: إنَّا لسنا نعبدهم، فقال ﷺ: «**أليسوا يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟**» فقلت: بلى، قال: «**ذلك عبادتهم**».

حاجَّه النبيء ﷺ بما لا محيد عنه قطعا للحجَّة بمرَّة، وإفادة بأنَّ تحليل ما حرَّم وتحريم ما أحلَّ إشراك به، **ومن بالغ في اتِّباع غيره يقال: عبده وجعله إلهه استعارة، لشبه ذلك الاتِّباع البليغ بالعبادة**، أو أطلق العبادة وهي مخصوصة باتِّباع مخصوص على مطلق الاتِّباع الشديد على التجوُّز الإرساليّ، وإلاَّ فقد صحَّ في أخبار السير وغيرها أنَّهم يسجدون لهم، وقد مرَّ أنَّ نسطور وأتباعه قالوا: عيسى إله، ومريم إله، والله إله، فلعيسى ومريم لاهوتيَّة وناسوتيَّة، وأنَّ ملكان وأتباعه قالوا: إنَّ عيسى هو الله، ومرَّ أنَّ منهم لعنهم الله تعالى من قال: عيسى ابن الله وليس بشرا، والحاصل أنَّ للنصارى لعنهم الله إلها يأكل ويشرب، ويخرأ ويبول تعالى الله عن صفات الخلق. وإسقاط ألف ابن بين علمين تابعا لأوَّلهما قاعدة في غير القرآن، فلا يقال: انظر لم ثبت الألف في ابن هنا مع أنَّه صفة بين علمين، والمسيح لقب وهو علم.

﴿**وَمَا أُمِرُوا**﴾ في كتب الله، والواو للحال ﴿**إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا**﴾ أي ما أمروا بتوحيد الله إلاَّ ليعبدوا إلها واحدا، ولَمَّا كان جائزا في الجهالة أن تكون آلهة متعدِّدة تعبد كلُّها أو بعضها نفى التعدُّد بقوله ﷻ: ﴿**لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ فإنَّ ظاهر قوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ليس نفيا لتعدُّد الآلهة بل نفي لأن يعبد أكثر من واحد، و﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تقرير لقوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بمعنى أنَّ مضمون «لِيَعْبُدُوا» إلها واحدا هو انفراد الإله، إذ لا معنى لوجود إله لا يعبد.

(نحو) والجملة مستأنفة أو نعت لـ«إِلَهًا»، أي إلها منتفي التعدُّد، والواو في «أُمِرُوا» عائدة إلى الأحبار والرهبان، والمعنى أنَّهم يعبدون ناسا مأمورين بإفراد الله بالعبادة وَالأُلُوهِيَّة، فكيف تجعلون ربًّا من هو مربوب ومعبودا من هو عابد؟ وهذا نفي للتعدُّد بطريق البرهان، فهو أولى من رجوع الواو إلى هؤلاء الناس وعابديهم أو إلى عابديهم على معنى: كيف تعبدون عيسى وعزيرا ونحوهما مع أنَّ عيسى وعزيرا ونحوهما ما أمروا إلاَّ ليعبدوا الله وحده؟ [قلت:] وأمَّا طاعة رسل الله ونحوهم مِمَّن أمرنا بطاعته، وَلَوْ زَوجًا لزوجها فمعناها طاعة الله في أداء واجبهم.

﴿سُبْحَانَهُ, عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أمر بتنزيهه عن الإشراك، أو إخبار بأنَّه تعالى نزَّه نفسه عن إشراكهم، أي سبَّحت نفسي تسبيحا. و«مَا» مَصدَرِيَّة كما رأيت، ويجوز أن تكون اسما، أي سبحانه عمَّا يشركونه به من الأحبار والرهبان والمسيح.

(أصول الدين) ولفظ الإشراك حرام ولو بلا قصد إشراك إجماعا إلاَّ حكاية أو اضطرارا، لأنَّه موهم، وذلك من الإلحاد في أسمائه كما قال بعض العلماء: إنَّ الله حكم بشرك من قال: عزير ابن الله، أو قال: المسيح ابن الله، ولو لم ينو حقيقة البنوَّة بناء على أنَّ لفظ الإشراك إشراك ولو لم ينو، كما أنَّ نيته شرك بلا لفظ أو مع لفظ، على أنَّ من العلماء من لا يجيز للمضطرِّ أن يلفظ بالشرك ولو اطمأنَّ قلبه بالإيمان، إلاَّ بتأويل لفظ بمعرضة، أو إسرار شيء ينقضه وذلك حسم لمادَّة الشرك، وقد أجاز بعض تسمية الله تعالى على الإضافة كَفَارِشِ الأرض وداحيها لورود: ﴿فَرَشْنَاهَا﴾(سورة الذاريات: ٤٨) و﴿دَحَاهَا﴾ (سورة النازعات: ٣٠). فلا يسمَّى الله "بَابَه" إجماعا ولو بلا قصد حقيقة الأبوَّة، وقد قيل بالإشراك

به ولو بلا قصد لحقيقة الأبوَّة، وقيل: لا يشرك بلا قصد وأجمعوا أنَّه ينهى عن ذلك[1].

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا﴾ يبطلوا ﴿نُورَ اَللَّهِ﴾ استعارة لدينه أو براهينه الدَّالَّة على وحدانيَّته ﷻ، ودلائله الدَّالَّة على رسالة سَيِّدنَا محمَّد ﷺ من معجزاته الخارقة للعادة، وبلاغة القرآن وأخباره بالغيوب على طبق الواقع، أو ﴿نُورَ اللَّهِ﴾: القرآن، أو نبوءته ﷺ، وكلُّ واحد من هؤلاء دالٌّ على تنزُّهه عن الولد والتعدُّد، وشبيه بالنور في الاهتداء به إلى الصواب والنفع.

(بلاغة) شبَّه إبطال الحقِّ بإخماد النار، وشبَّه دين الله بالنور الحسِّيِّ، فسمَّاه بنور، وقد يشبِّهه بنور المصباح فرشَّحه بذكر الإطفاء، أو ذلك استعارة تمثيليَّة بأن شبَّه عدَّة أمور بعدَّة أمور، شبَّه سعيهم في إبطال الحقِّ وتكذيبهم بالسعي في إزالة نور عظيم ملأ الآفاق منتشر ـ بجامع الاشتغال ـ بما لا يطاق، والمختار أن تحمل الاستعارة على التمثيليَّة، ما أمكنت بلا ضعف، وتلك الإزالة بالنفخ كما قال: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بنفخها، ويجوز أن يراد ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾: كلامهم بالإشراك، أو الأفواه مجاز مرسل، لأنَّ الشرك يظهر بالأفواه. ﴿وَيَأْبَى اَللَّهُ﴾ أي منع ما يدلُّ على المنع يعامل معاملة النفي في التفريغ بعده، أي ما يرضى الله في إثبات نوره، وفي كلِّ ما يتعلَّق بنوره إلاَّ إتمامه كما قال: ﴿إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ أي إتمامه بالإعلاء على غيره، وباستمراره وإعزازه ورضى المؤمنين به ﴿وَلَوْ كَرِهَ اَلْكَافِرُونَ﴾ بالنبيء ﷺ إتمامه وأحبُّوا قطعه.

﴿هُوَ اَلذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ اِلْحَقِّ﴾ شريعة الإسلام، سمَّاها هدى لأنَّه يهتدى بها إلى الخير، ودينا لأنَّه يجازى عليها، وتعتاد، أو الهدى:

١- وقد تقدَّم ذلك في الجزء الأوَّل، ص٧٨.

القرآن، أرسل رسوله بذلك ليتمَّ فكيف ينقطع؟. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ﴾ «الـ» للاستغراق، أي الأديان، ولذا قال: ﴿كُلِّهِ﴾ وهاء «يُظْهِرَهُ» للدين لقربه وإظهاره على الأديان بخذلان أهلها، وبالنسخ، أو للرسول فيقدَّر: على أهل الأديان، أو المعنى: يطلعه على جميع دينه لا يخفى منه شيء عنه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ولو كرهوا، فوضع الظاهر موضع المضمر العائد للكفّار ليصفهم بأنّهم ضمُّوا إلى الشرك الكفر برسوله.

والمراد الإشراك با لله ﷻ، أو الكفر والشرك واحد كرِّر للتأكيد، وذلك في زمانه ﷺ وبعده، أو عند نزول عيسى قال أبو هريرة والضحّاك: ذلك إذا نزل عيسى، قال أبو هريرة عن رسول ا لله ﷺ: «**إذا نزل عيسى أهلك ا لله الملل كلّها إلاّ دين الإسلام**»[1]. وعن المقداد: سمعت رسول ا لله ﷺ يقول: «**لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله ا لله كلمة الإسلام**»[2] إمَّا بعزٍّ عزيز أو بذلِّ ذليل، إمَّا أن يجعلهم من أهله فيعزُّوا به، وإمَّا أن يذلَّهم فيدينوا له.

[تمَّ بحمد ا لله وحسن عونه الجزء الخامس من تيسير التفسير، ويليه بحول ا لله الجزء السادس، وأوَّله تفسير قوله تعالى:

﴿ يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الاَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَاكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ... ﴾ (الآية : ٣٤)]

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣، ص٢٥١، مع اختلاف في اللفظ.

٢- رواه **أحمد** في مسند الأنصار، رقم ٢٢٦٦٧، من حديث المقداد بن الأسود. (م ح).

الفهارس



الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس بعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

الآية	العنوان	الصفحة

تفسير سورة الأعراف

تفسير سورة الأنفال

تفسير سورة التوبة

التعريف بالمفسِّر*

• في سنة ١٢٣٧هـ، ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

• في سنة ١٢٤٣هـ،١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن - بلده الأصلي -، واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغا كبيراً.

• في سنة ١٢٥٣هـ،١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

• منذ سنة ١٣٠٠هـ،١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

• في سنة ١٣٠٤هـ،١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها، وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

• له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

---

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

• تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

في سنة ١٣٣٢هـ،١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.